المجلد العاشر
العدد الرابع ٢٠٠٧

علوم اللغة

٤٠

في هذا العدد :

علوم اللغة

دراسات علمية مُحَكّمة تصدُر أربع مرات فى السنة

كتاب دورى

المجلد العاشر | العدد الرابع | ٢٠٠٧

دار غريب

للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

علـوم اللغـة

دراسات علمية مُحَكّمة تصدر أربع مرات فى السنة

كتـاب دورى

مج١٠، ع٤ ٢٠٠٧

قيمة الاشتراك السنوى :

٨٠ جنيهًا مصريا (داخل جمهورية مصر العربية)

٨٠ دولارا أمريكيا (خارج جمهورية مصر العربية شاملا البريد)

سعر العدد :

٢٠ جنيهًا مصريا (داخل جمهورية مصر العربية)

٢٠ دولارا أمريكيا (خارج جمهورية مصر العربية شاملا البريد)

أسعار خاصة للطلبة :

المراسلات :

توجه جميع المراسلات الخاصة إلى :

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

ص . ب (٥٨) الدواوين - القاهرة ١١٤٦١ القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون ٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٢٧٩٥٤٣٢٤

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ها نحن ذا نختتم بحمد الله وتوفيقه المجلد العاشر من مجلة " علوم اللغة " ، وبرغم كل العقبات والصعوبات التى واجهتنا وتواجهنا ما نزال نبذل الجهد للحفاظ على استمرارية جيدة لأننا نريد أن تظل مجلتنا نافذة مضيئة للباحثين ، إذ إنه للأسف ما تزال المجلات المتخصصة فى البحث اللغوى فى عالمنا العربى قليلة ، ولا يجد طريقه إلى النشر إلا عدد قليل جداً من البحوث المتميزة بصعوبة بالغة .

ويسعدنا أن يضم هذا العدد عدة بحوث فى فروع مختلفة أولها حول"نظرية التلقى فى السياق العربى"،ويعقبه بحث حول " ظاهرة الثقل والخفة "،ثم حول " أفعل التفضيل بين التقعيد والاستعمال ، ثم " توكيد الفعل بالنون " ، ثم " أصول نظرية النحو التحويلى " ، ونختتم " بالهجاء فى شعر المرأة " .

وبعد ... فإن أسرة المجلة توجه الشكر إلى ا . د . سعيد حسن بحيرى ، أستاذ علوم اللغة ووكيل كلية الألسن لشؤون التعليم والطلاب الذى حمل عبء إصدار المجلة منذ سنوات برغم كثرة أعبائه ومشاغله ، رافضا كل محاولة لتغيير هيئة التحرير ، لأنه يؤمن برسالة هذه المجلة ، ويحترم مؤسسها وزملاءه فى التحرير والمستشارين العلميين ، فالأسماء زائلة ، ولا يبقى إلا وجه الله الكريم والعمل المخلص فى خدمة العلم . ويسرنا أن نؤكد أننا وفقنا فى إصدار أغلب البحوث التى وصلت إلينا ، وأن نشكر الباحثين الذين أعانوننا باقتناع قدر المستطاع لالتزامهم بمسألة عدد صفحات البحث .

ونتمنى للجميع مزيدا من التوفيق والسداد . وأخيرا يشرفنا أن نهدى هذا العدد أيضًا إلى أستاذنا الفاضل العالم اللغوى

ا .د محمود فهمى حجازى

أطال الله فى عمره ومتعه بكل صحة وعافية

أسرة التحرير

شروط النشر

- يقبل هذا الكتاب نشر الدراسات والأبحاث فى علوم اللغة ، ونتائج البحوث الاستكشافية ، والمراجعات العلمية ، وتقارير الممارسات والمشروعات والأنشطة العلمية، وعروض الكتب اللغوية المتخصصة العربية أو الأجنبية .
- يفضل أن تكون الدراسة فى حدود ١٥٠٠٠ كلمة ، والمراجعة العلمية فى حدود ٦٠٠٠ كلمة ، والتقرير فى حدود ٢٠٠٠ كلمة ، وعرض الكتاب فى حدود ١٥٠٠ كلمة .
- يشترط ألا يكون العمل قد سبق نشره أو قدم للنشر فى أى مكان آخر .
- تخضع الأعمال المقدمة للتحكيم ، ويخطر صاحب العمل بقبوله أو بملاحظات التحكيم أو الحاجة إلى المراجعة .
- تقدم الأعمال بخط واضح ، أو مطبوعة على الحاسوب .
- تقدم الرسومات بشكل جاهز للاستنساخ المباشر .
- يراعى فى الاستشهادات المرجعية الدقة فى التوثيق واكتمال بيانات الوصف ، والاطراد فى ترتيب عناصر البيانات .
- يعبر ما ينشر فى هذا الكتاب عن رأي كاتبه ولا يمثل بالضرورة رأي المحرر أو الناشر.
- لا يعاد نشر أى عمل مما ينشر فى هذا الكتاب الدوري إلا بإذن كتابى من الناشر .
- يخضع ترتيب المواد فى النشر لاعتبارات فنية ولا علاقة له بمكانة المؤلف أو قيمة العمل.

نظرية التلقي في السياق العربي

د. أبو اليزيد إبراهيم الشرقاوي

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مدخل - المتلقي في الخطاب

يحتل "السامع" دورا حيويا في البلاغة العربية القديمة، ويظهر ذلك من التعريف " الرسمي" لها: "البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"[1] وتذهب غالبية الكتب القديمة إلى النص على أن المعنيّ بالحال هو "حال السامع". وربط العسكري بين كنه البلاغة والسامع، وجعلها تستمد وجودها منه بقوله: "فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه. ويقال: أبلغت في الكلام إذا أتيت بالبلاغة فيه، كأن تضيف إليه ما لم يكن منه، وما يمكن أن ينزع عنه في آخر المطاف"[2].

ومن شدة تركيز البلاغيين القدامى على " السامع" ذهب كثير من الدارسين إلى اعتبار هذا مذمة في البلاغة القديمة، لأن "المتكلم" تم تهميشه ووضعه خارج سياق البلاغة، وكما ذهب د. جابر عصفور، فإن المتكلم ملغى لحساب المستمع - المتلقي، والكلام يتم التركيز عليه من حيث الأثر الذي يحدثه في هذا المتلقي. هكذا تحول البليغ إلى فاعلية تابعة لمقتضى الحال الخارجي المفروض عليه، وتحول إنتاجه (بلاغته) إلى استجابة شرطية لما أُطلِقَ مصطلح: "مقتضى الحال"[3]. ويكاد يجمع كل نقاد الحداثة على هذه المذمة الملحقة بالبلاغة القديمة. ويتم احتساب هذا الموقف البلاغي على أنه موقف أيديولوجي، أسسه أشخاص هم، في الأساس، من أدوات الدولة، ودخلوا عالم البلاغة ليبنوا وعيا زائفا(أيديولوجيا) يضمن لهم سبل العيش بالتعاون مع المؤسسة السياسية، ومن ثم تقدم البلاغة التراثية العربية" وظائف أيديولوجية، تتصل برؤيا عالم ثابت لا سبيل إلى تغييره، عالم تعمل هذا البلاغة على الإبقاء على أوضاعه، بما تحدثه من مطابقة بين الكلام ومقتضى هذا العالم، فهي بلاغة تركز على مقامات المستمعين وطبقاتهم، وتكتب أو تصاغ أو ترتجل بالقياس إلى إطار مرجعي، هو سلطة المؤسسة التي تتحرك منها وبها هذه البلاغة"[4].

ومهما كان الرأي فإن الشيء المؤكد أن كل ذلك لن يتحقق إلا إذا تربع السامع - المتلقي على عرش الاهتمام البلاغي. وحتى ضمن الكلام الذي يشير ظاهره إلى أنه موجَّهٌ إلى الشاعر، فإن فحواه يركز على السامع، وينصرف إليه، كما في كلام ابن المقفع، وهو يفصل القول للقائل: "فإذا أعطيت لكل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحسود والعدو، فإنه لا يرضيهما شيء. وأما الجاهل فلست منه وليس منك . ورضا جميع الناس شيء لا تناله[٥]". وعدَّ العسكري من صفات البليغ أنه من " لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه التصرف في كل طبقة[٦]". ويعلل ابن المعتز شرط العسكري هذا تعليلا اجتماعيا بقوله:"ألا ترى أن جماعة العوام متى وصلت إلى آداب الملوك العظام بطلت المآثر، وسقطت المفاخر، وصارت الرؤوس كالأذناب[٧]". ومن شدة تأثير هذه العادات الاجتماعية اعتبر العسكري أن كلام سيد الأمة بكلام السوقة "جهل بالمقامات[٨]". ومن ثم نتفهم لماذا يلح كل النقاد القدامى على ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، أو الحال ، أو المقام، فكلها تشير إلى "أقدار السامعين"و"المناسبة" والظروف التي يتواجد فيها السامعون، ويظل الشاعر - القائل مجرد تابع يتحرك في إطار من يسمعه .

المتلقي والخطاب

ولكن : كيف يتعامل السامع - المتلقي مع النصوص في إطار البلاغة العربية القديمة؟ .يمكن - بقليل من التأمل - التوصل إلى أن منظري البلاغة القدامى يفترضون أن السامع - المتلقي إنسان سلبي ، خانع، يتلقى المعنى جاهزا ، وليس هذا فحسب، بل يمكن (إن لم يكن هذا هو الواجب) توجيهه نفسيا بفعل التلاعب اللفظي. وهذا المتلقي مجرد هدف يمارس عليه المبدع تسلطا معنويا من خلال مهارات خادعة وكاذبة، حتى يؤثر عليه نفسيا، وكلام العسكري واضح في ذلك، إذ يعتبر البلاغة تضيف إلى الكلام ما ليس فيه، وما يمكن أن ينزع عنه في آخر المطاف - كما مر - . وهذا يعني أنها "حلية" خارجية تضاف إلى الكلام، فتعمل على تحسين المعاني وتقريبها إلى السامع، إلى عقله ووجدانه. ومن ثم تتعدد تعريفات البلاغة، وتعتمد على سرد تفصيلات، منها أنها : التقرب من المعنى البعيد، وذكر العسكري تعريفات هي في الحقيقة " وظيفة " البلاغة منها أنها ك تقريب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب.

وكذلك : إهداء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ. وهي الوصول إلى الشيء والانتهاء إليه. وهذه كلها "وظائف" من ضمن الوظيفة الجمالية للبلاغة، والتي تقوم في جوهرها على "الإقناع". بعد أن زج بها المنظرون إلى "الجدل السياسي والاعتقادي والاجتماعي، وذلك في سياق يتواشج فيه الإقناع والجدل مع الأثر الأدبي الذي يحدثه نظم الكلام البليغ في نفوس المستمعين. وأنا أستخدم كلمة "المستمعين" عامدا لأن البلاغة نشأت ملازمة للخطابة، ولم تفارق ما ارتبط بها من مخايلة الإقناع، وما تؤديه هذه المخايلة من وظيفة أيديولوجية تتصل بإيقاع التصديق في النفوس، وتأكيد مهابة القوى السياسية الحاكمة وأحقيتها وشرعيتها في آن"[٩].

وفي هذا السياق فإن السامع هو "ضحية" البلاغة، إذ يجب أن يظل واقعا تحت تأثير ما يسمع، بدافع الإعجاب والاندهاش بطريقة التوصيل، وفي هذه الحال فإن "ما يقال" ليس عليه مدار الأمر، بل مدار الأمر على "كيف يقال". أي "طريقة التوصيل". وهذا الذي عناه الجاحظ بعبارته الشهيرة:"المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العربي والعجمي" ، أي يشترك في "العلم" بها و"المعرفة" الجميع، وضمنهم الشاعر والسامع. ويؤكد الجاحظ على أن الشأن كائن في الصياغة والسبك والرصف. وهذه الصفات الثلاث ترجع إلى "بناء العبارة" ، إلى الكيفية تنتقل بها "المعاني المطروحة في الطريق"، ومن خلال هذا التوصيل تتحول من معان "مبتذلة" إلى معان "بليغة"، وبالتالي يتم التحكم في "الوعي الجمالي" لدى السامع، ويتم نقل تأثيرات مقصودة إليه، تهدف إلى استمالته إلى فكرة أو رأي أو موقف، بما يتمشى مع "مقتضى الحال" العام للمؤسسة السياسية.

عن البلاغة والتلقي

وبمقولات نظرية التلقي، فإن "عمود الشعر" كان يلعب دور"التقاليد" ـ بمفهوم إليوت ـ وبناء عليه، فإن التقاليد الأدبية القديمة هي التي كانت تنشئ أفق توقعات القارئ. وكان الشاعر مطالبا بالالتزام بها حتى لا يُحْدِث صدمةً تعوق الفهم. مما يفيد أن البلاغة القديمة تجعل المتلقي في حالة "كسل عقلي"، يصبح بسببه غير مؤتمن على "فك شفرات النص"، إذا لم يتم بناؤها وفق آليات معهودة، حتى فيما لا توقع احتمال مأساة فيه، كأن يجري بناء الصورة على لحظ وجه شبه غريب، أو بعيد، أو علاقة وهمية.

أيضا، يظهر حرص الخطاب النقدي والبلاغي التراثيين على "ثبوتية المعنى"، ووجوب أن يكون المعنى قارّا ومتعينا باستمرار، وذهب ابن قتيبة في كلامه الشهير إلى "تثبيت" الشكل وتجميده، فأوجب على الجميع أن يبنوا قصائدهم وفق منظومة ثابتة، تعتمد على "المحاكاة" والنسخ، فليس من حق المتأخر أن يخرج على "القواعد" - التقاليد التي سنها القدامى٠ وتكفل نقدة الشعر - وغالبهم من علماء النحو واللغة - بحراسة جريان المعنى على نفس الوتيرة٠ وعليه فإننا نقع في الخطاب القديم على سامع - متلق "أفقي" ممتد بنفس الكيفية، لا يغيره الزمن، فمهما اختلفت الأزمنة والأمكنة، يظل "القارئ الافتراضي" واحدا٠ وحين ذهب الخطاب الأدبي - البلاغي والنقدي - في التراث إلى ثبوت التقاليد الفنية، ذهب - بالضرورة - إلى القول بثبوت المعاني٠ وبناء عليه فإن "التأويل" بدا مرفوضا رفضا كليا في سياق الثقافة القديمة - ليس الشعر فحسب - لأنه يعرّض النصوص لأن تنفتح على معان ربما تُزَعْزِع الإيمانَ العامَ بها٠

ومن المهم الإشارة إلى أن مسلك البلاغة القديمة ،هذا، طبيعي في سياقه التاريخي، إذ كانت الدولة الإسلامية - باستمرار - في حال تهدّم وصراع وفتن، وكان دور الأدب كحارس للقيم - وأغلبها مستمد من قيم الدين الذي يؤمن به غالبية أبناء الدولة - كان أمرا مقنعا٠ فإذا أضفنا إلى ذلك أن كل الآداب القديمة مارست هذا الدور - تقريبا -[١٠] فلن يكون ذلك "مذمة" خاصة بالبلاغة العربية - تحديدا - كما قد نصادف لدى بعض نقاد الحداثة٠

بدايات التلقي

في النصف الثاني من القرن العشرين بدأ الاهتمام بالقارئ - المتلقي، في الظهور لدى التيارات الأدبية الأوربية٠ وعنها انتقل إلى الثقافة العربية المعاصرة٠ وشاع الحديث عن القارئ، وتقسيماته، فظهر: القارئ المحتمل، والمثالي، والنموذجي، والمطلع، والضمني، وما فوق القارئ٠٠٠الخ٠وإذا كانت النظريات النقدية الحديثة السابقة على "سيميائيات التلقي" تعتمد ثنائية: القارئ - الكاتب، فقد تعددت المسارب التي تحوي طرفي هذه الثنائية، فكما تقسّمَ القارئُ إلى هذه المسميات، فقد وقع الكاتب - هو الآخر - في نفس الدائرة، فصار لدينا: الكاتب والسارد والسارد السيميائي، والسارد التخيلي٠٠٠الخ٠ ومن ثم "أصبح موضوع البحث في تيارات نقدية مختلفة - تمتد من استاطيقا التلقي إلى الهرمنيوطيقا، ومن سيميوطيقا القارئ المثالي، أو النموذجي إلى

الطليعي الأنجلو ساكسوني (المسمى بالنقد الموجه نحو القارئ) والنقد التفكيكي. هي طرائق بناء أو تفكيك النص التي يرهنها فعل القراءة باعتبارها شروطا فاعلة يستلزمها تحقق النص بوصفه نصا· ولم يعد موضوع البحث في تلك التيارات هو الطرائق الأمبريقية (العملية - التجريبية) المرتبطة بالقراءة بمعناها الحقيقي"[11]، التي كانت موضوع سيميولوجيا التلقي·

ونجم عن هذا الاهتمام ما يشبه "اليقين" بأن تفسير أي نص - حتى لو لم يكن ملفوظا - مستحيل إلا إذا تناوله قارئ· ومن خلال فهم هذا النص وتأويله وتحقيقه - مع الأخذ في الحسبان السياق الذي يظهر فيه النص ، وسياق القارئ - من قبل قارئه يكون "وجود" النص· وبدءا من عام ١٩٦١ م ، ظهر مفهوم "الكاتب الضمني"و "القارئ المحتمل" - كما يقول أمبرتو إيكو"[12] - لدى واين بوث W Booth في كتابه The Rhetoric of Fiction : بلاغة التخييل · ثم تم بناء ثقافي ضخم حول هذا "القارئ" و"الكاتب"، شارك فيه كبار مؤسسي النظرية النقدية الحديثة، من بارت وتودوروف وبوييون Pouillon وجيرار جنيت، مرورا بجوليا كريستيفا ويوري لوتمان، وريفاتير الذي قدم اقتراحا عن "القارئ الجامع" ، وهيرش صاحب مساهمة "وجهة النظر"، واقترحت ماريا كورتي مفهوم القارئ الضمني، وقدم إيكو القارئ النموذجي"[13]· وكانت كل هذه محاولات في طريق وصول النظرية إلى اكتمالها مع آيزر· وبفضل جهوده، إضافة إلى نخبة من النقاد في مقدمتهم روبرت ياوس وستانلي فيش، ظهرت "نظرية التلقي"·

وظهرت هذه النظرية في ألمانيا أواسط ستينات القرن الماضي،(١٩٦٦) على يد آيزر وياوس في إطار مدرسة كونسطانس كرد فعل على المناهج النقدية والأدبية التي ربطت بين الأدب والواقع ، كما في الانعكاسية الماركسية، أو الواقعية الجدلية، وكما في الحقبة الرومانسية التي أرجعت مرجعية العمل الأدبي إلى ذات قائله، فبحثت في حياة المبدع وظروفه التاريخية، وكما حدث مع المذهب البنيوي الذي أعلن موت الإنسان وموت المؤلف، وجعل النص بنية منغلقة على ذاتها، وكل ذلك كان على حساب القارئ والمتلقي، فأتت نظرية التلقي لتعيد إليه الاعتراف المسلوب· فأهم المحاور التي يجب التركيز عليها - بحسب النظرية - يتمثل في تلك المشاركة الفعالة بين النص الذي ألفه المبدع والقارئ المتلقي· لأنه يمثل - في خيوط العملية الإبداعية - المرسل إليه

والمستقبل والمستهلك ، ولا يتعين "وجود" النص إذا لم يقع عليه "فعل" القراءة· وإذ يحظى النص بقارئ، تحدث له "إعادة إنتاج من جديد"، إذ أن المؤلف نفسه، لن يزيد عن كونه قارئا لأعمال سابقة عليه· ومن ثم ـ وبمفهوم التناص ـ فإن ملكية أي نص ونَسَبَهُ أمر لا يمكن رده يقينا إلى "كاتب" محدد، فـ "الكل"يساهم في إعادة إنتاج النصوص·

هذا التواشج بين القارئ والمبدع حث آيزر على القول بأن الأعمال الأدبية ذات طرفين: (أ) فني · (ب) جمالي· أما الطرف الأول ـ الفني ـ فإنه يتعلق بالنص الذي تم إبداعه من قبل مؤلف، في هيئة بناء لغوي، يحوي دلالات وتيمات مضمونية، يهدف المؤلف من خلالها إلى "تبليغ" المتلقي بحمولات النص المعرفية والأيديولوجية، وهذا لا يتحقق إلا من خلال: معنى ومضمون ودلالة يتم نقل كل ذلك في هيئة شكلية (= بناء)· والطرف الثاني ـ الجمالي ـ هو القارئ الذي يحقق وجود النص بصريا وذهنيا، وبذلك يخرجه من الوضع المجرد إلى الوضع المادي الملموس، من خلال استيعابه وفهمه وتأويله·

ويلعب التأويل دور الربط بين النص المجرد والقارئ ذي الفعالية الحيوية، التي تبحث عن "مقصد النص"، انطلاقا من "تجربة القارئ" ذات الشقين: الواقعي والخيالي، والتي تساهم في سبر لأغوار النص من خلال ملء الفجوات والبياض والفراغات المتروكة ـ عمدا ـ في النص· وبالتالي يتم تحقيق وجود النص في صورة متعينة· ولأن هذا التأويل معتمد على "تجربة" فردية ذاتية، فإنها تخضع للتبدل عبر الزمان والمكان، ومن ثم فإن التأويل يجعل من فعل القراءة حدثا نسبيا، لا يمكن الزعم ـ مطلقا ـ بأنه "الحقيقة" الصالحة لكل زمان ومكان·وعليه، فقد ذهب أمبرتو إيكو إلى تمييز أنماط أربعة من "فعل القراءة"، وهي:

١- قراءة مفتوحة مع نص مغلق
٢- نص مفتوح وقراءة مغلقة
٣- نص مغلق وقراءة مغلقة
٤- نص مغلق وقراءة مفتوحة[14]

وثمة لبس واضح في تأريخ النظرية، إذ تبدو محاولات إرجاعها إلى "جذور مذهبية" أمرا غير متفق عليه، فالبعض يردها إلى الظاهراتية، واعتبار آيزر يقتفي آثار هوسيرل، أو إلى مرجعية هرمنيوطيقية سوسيولوجية، كما في أعمال ياوص، أو اجتماعية تكوينية كما في أعمال موكاروفسكي، أو تجريبية نفسية اجتماعية، كما لدى كروبن وشميدت[15]. مما دفع بآيزر نفسه إلى تأكيد وجود هذا الخلاف، فقال: "لا شك أن ما يعرف اليوم بجمالية التلقي أو نقد استجابة القارئ ليس نظرية موحدة كما يوحي بذلك اسمها. حقا، إن المفهوم يستلزم تيارين أساسيين من التفكير يمكن تمييز أحدهما عن الآخر بوضوح رغم تداخلهما. فالتلقي يركز على السيرورة التوثيقية للنصوص، ويرتبط أساسا بردود الأفعال والمواقف التي تكيف استجابات القارئ. ولكن النص نفسه هو في نفس الوقت شكل مسبق مبنين لتلك الاستجابات، بحيث يدمج قدرة الواقع الذي يبدأ السيرورة، ويبنينها إلى درجة ما"[16].

ويؤكد هذا الاقتباس عن آيزر واقع الاختلاف - في الرؤيا - فيما يتعلق بالمصطلح والمنهجية. ويمكن إجمال هذا الفرق - بإيجاز - في: ١ - ما يتعلق بالمصطلح، ثمة تياران كبيران: نظرية الاستقبال (والبعض يدعوها :النقد الموجه نحو القارئ، أو نقد استجابة القارئ) ونظرية التلقي[17]. وهما نظريتان كما أشار آيزر إلى ذلك.

من جهة المنهج والدلالة والبيئة، والأولى أميركية (النقد الأنجلو - أمريكي) وتمثلها كتابات جوناثان كالر، ونورمان هولاند، وديفيد بليش، وريفاتير. والثانية ألمانية يقول عنها النقاد إنها توظيف لمعطيات الظاهراتية والتأويلية، وتمثلها كتابات آيزر وياوص وستانلي فيش[18]. ويمكن تلخيص "المداخل" التي يعتمدها النقاد السابقون، كالتالي:

نقاد نظرية نقد استجابة القارئ الأمريكية: يعتمد جوناثان كالر على مفهوم الكفاءة الأدبية ، في حين ينطلق هولاند من "هوية النص"ويعتمد بليش على "الأثر النفسي الذي يخلفه العمل على القارئ" وينطلق ما يكل ريفاتير من أثر العلامات (السيميولوجيا).

نقاد نظرية التلقي الألمانية: يعتمد ياوص النصية وأفق التوقع، في حين ينطلق آيزر من جماليات التلقي ، في حين يعتمد ستانلي فيش على الأسلوبية التأثرية والتواصل في عملية التلقي.

وهكذا تبدو "النظرية" خليطا من توجهات ورؤى ومنطلقات جد متباعدة، وعليه لزم التأكيد على التعارض المنهجي والأبستمولوجي، مما جعل إلـرود إبيش يدعو إلى ضرورة أخذ الأمور بتعميمية دون النظر إلى التفاصيل، مع وجوب إهمال الظرفية التاريخية التي ظهرت فيها النظريات المتعلقة بالقارئ والتلقي، كما يجب كبت المهاد الفلسفي الذي ظهرت فيه هذه الآراء، وبدون هذه الإجراءات القمعية فلن يكون ممكنا الحديث عن "نظرية في التلقي". وفيما يتعلق بالمصطلحات التي تفرزها هذه "النظرية" لزم أخذها ككليات عامة، مجردة، فلو توقفنا أمام كل لفظ بالتمحيص والتدقيق لعجزنا عن المتابعة ، فحتى الآن لا دلالة محددة " للمتلقي" أو "القارئ" ، يقول إبيش :" إن ما يستعيده العلم الأدبي ،اليوم، تحت اسم التلقي بعيد كل البعد عن أن يطابق أساسا أبستمولوجيا، واحدا متماهيا، ...، على أنه إذا كان من غير المستبعد العثور على عنصر ما للالتقاء يسمح بالحديث، مع ذلك، عن "علم للتلقي" فيما يخص جميع هذه الطرائق المختلفة، فإنني أقترح أن نقبل مؤقتا أن تتولى جميع الطرائق التي تنسب لنظرية التلقي فتح حقل يكون موضوعه متصلا، في آن ، بالنصوص الأدبية وبقارئ النصوص. غير أنه من الملائم، الآن، أن نترك معنى "القارئ" مفتوحا: ذلك أن إعطاء معنى أحادي لهذا المصطلح سيفاقم الطابع الإشكالي الذي يمكن لتلك الطرائق المختلفة أن تجعله مشتركا"[١٩].

وربما رجع ذلك الخلاف - ضمن ما يرجع - إلى أن غالب هذه الطروحات تبدو كما لو كانت رد فعل لتحولات اجتماعية وفكرية وأدبية في كل من أمريكا وألمانيا. ومن ثم اختلفت ردود الأفعال الأدبية. ويظهر ذلك من محاولات المؤرخين رد أصول النقاد الألمان إلى المدرسة الشكلانية الروسية وبنيوية حلقة براغ ، والفلسفة الظاهراتية ، ممثلة في نتاج هوسرل، وخلفه إنجاردن، واجتماعية الأدب وهرمنيوطيقا جادامر. في حين يتم ربط النقاد الأمريكان بأصول فكرية تنتسب إلى الذرائعية (البراجماتية) والوجودية وتحليلات تشومسكي، ومدرسة ييل الأمريكية. ومن ثم فإن الخلاف يبدو "مشروعا" وأمرا "مقبولا" بناء على هذه الأصول التي يصدر عنها المنظرون في الطرفين: الألماني والأمريكي.

وتشكل مقولات آيزر وياوص لب الحركة النقدية المتعلقة بالتلقي، ويتأسس عليهما الهيكل الإجرائي لنظرية التلقي، ويؤكد المؤرخون على "توفيقية" مقولاتهما، بجمعها بين قيم جمالية مستمدة من النص، وقيم جمالية متعلقة بتلقيه، ومأخوذة من ردود فعل المتلقي وكيفية استجابته لجمالية النص، على اعتبار القارئ أمرا حيويا وفعالا، وتحدث بينه وبين نص القراءة تواصلية فنية تُحدِثُ تفاعلا، مما يترتب عليه حدوث تأثير نفسي و"دهشة" انفعالية، يعقبها تفسير وتأويل، ثم يخلص القارئ إلى استنباط حكم جمالي معتمدا على موضوع جمالي منبثق عن "الوعي العام" الجمعي. وهذا يعني أن القيمة الجمالية للنص ليست شيئا كامنا فيه، وليست شيئا متعينا، بل إن النص ذاته وهو "نص ـ رسالة" ليس هو الشيء الوحيد الذي يحقق ويجسد هذه القيمة الجمالية، إذ يوجد تجاوب المتلقي وما يبديه من ردود أفعال إزاء النص ـ الرسالة، بالتأمل والشرح وتحقيق الموضوع الجمالي للرسالة، بناء على "الوعي العام" لجمهرة الثقافة السائدة.

كذلك يؤكد نقاد نظرية التلقي على اختلاف مداخل كل من ياوص وآيزر، برغم التشابه الكبير في الجهاز النظري لمفاهيمهما الإجرائية، ويتركز هذا الاختلاف في كيفية تحليل العمل الأدبي، وفي الفرضيات التي انطلق منها كل واحد، ومن هنا يمكن الحديث عن ياوص باعتباره "فيلسوف " النظرية الذي نظَّرَ للتلقي وطوَّره بوصفه ظاهرة تاريخية معيارية ذات طابع يعلو على الفردية"[20]. أما آيزر فقد كان اشتغاله ينصب ـ بتركيز ـ على استكشاف العلاقة بين مكونات النص الداخلية، وبين التلقي والقراءة، بصفتهما فعلا إبداعيا، يكوِّن أو يولِّد الدلالة النصية التي لا تقدم إلا على أنها نتيجة للحدث المتبادل بين الإشارات النصية وأفعال كفاءة القارئ."[21] ولبيان الإسهامات الفردية لكل منهما، سنتوقف ـ على عجالة ـ أمام المفهومين الرئيسيين لكل منهما.

أ ـ ياوص

يتم اختزال مقولات ياوص في "نظرية جماليات التلقي"، لاهتمامه بفكرة الجمال، وجعلها المنطلق الذي تتأسس عليه كل مفاهيمه الإجرائية. ويرى نقاده أن مفهوم الجمال عنده ليس امتدادا للاهتمام السائد في الدراسات الجمالية التقليدية،

فقد أكد ياوص على "الطابع التواصلي للجمال، وجعله أمرا نسبيا، عكس الدراسات التقليدية التي تبحث عن جمال أبدي، وهذا الإحساس بالجمال اللحظي، هو العنصر الأكثر لفتا لانتباه المتلقي لما يترتب عليه من الوقع والأثر، وهذا يخضع للوسط المتواجد فيه المتلقي، مكانيا وزمانيا وسياقيا، وهذا الوسط هو ما يعطي عملية التلقي قيمتها. وبما أن الجمال - هكذا - نسبي، فهو مجرد "وسيلة تواصل" تربط النص بمحيطه، من خلال عملية تأثير وتأثر. وهذه النسبية في مفهوم الجمال استمدها ياوص من بودلير، الذي عاب على من سبقه في درسه الجمال " حين أخضع كليا الجمال لمثالية السعادة، التي لا يمكنها أن تتغير. إن طبيعة الجمال لا يمكن حصرها إلا في واقع مكاني، وربطها بالموضة (La mode)، أو بسلوك وشهوات بشرية في حقبة محددة"[٢٢]. لقد تبنى ياوص هذا المفهوم واتخذه قاعدة تحدد نظرته إلى الجميل، وهي نظرة تمزج الجمالي بالتاريخي؛ والخالد بالوقتي أو الآني. وأن ما نلاحظه من جمال في الموضة ليس هو الجمال الخالد، وإنما هو تصور الناس للجميل في مكان وزمان ما، ومن ثم فلا يمكننا أن ننظر إلى حقبة تاريخية بعينها بأنها تمثل القدم مقابل حداثة أو جدة ما، بل إن كل جدة تصبح قدماً فيما بعد. وبهذا الفهم تتخذ فكرة الجمال شكل سلسلة لا تنتهي، تجمع بين الاستمرار والتجدد، مما يؤكد وجود وجهين لجمالية الأدب، وجه خالد مستمر، وآخر متجدد ومتغير"[٢٣].

وعلى هذا المبدأ "النسبي" للجمال أسس ياوص "نظرية جماليات التلقي"، وهي بدورها تتأسس حول مفهومين كبيرين يؤولان إلى قضايا فرعية كثيرة، والمفهومان الركيزتان هما : التلقي الأدبي، وأفق التوقعات.

١ ـ التلقي الأدبي

وهو يشكل جوهر نظرية ياوص. إن الجوهر التاريخي للنصوص الأدبية لا يمكن التوصل إليه عن طريق تتبع وتأمل وفحص عملية إنتاجه، أو حتى بالاعتماد على تقديم وصف له مجرد. لكن يمكن التوصل إليه من خلال تناوله باعتباره عملية جدل بين الإنتاج والتلقي. بين المؤلف والجمهور. وبتفحص هذه العلاقة بين الذات المنتجة والذات المستهلكة نتوصل إلى "تاريخ الأدب"، وهذا التاريخ هو، بالأساس، تاريخ القراءة، بل إن تاريخ الثقافة كله ليس إلا تحولات في مصير القراءة ومسيرتها. ويهدف ياوص من الزج بتاريخ الأدب ضمن عملية التلقي، إلى المحافظة على "الجمالية"، بوضعها

ضمن سياق تاريخي ثقافي، وإلا تعرضت لخطر الفردية والانطباعية، فيقرر ياوص "إن تاريخ الأدب سلسلة من التلقيات والإنتاجية الجمالية تتم من خلال تحقق نصوص أدبية من قبل القارئ الذي يقرأ أو الناقد الذي يتأمل والكاتب نفسه المدفوع بدوره إلى الإنتاج"[٢٤]. ومن ثم تعود وظيفة تاريخ الأدب ـ المقترح ـ مناطا بها ملاحقة التحولات والتطورات التي تطرأ على التلقي. ويقرر ياوص في مقاله: "التغيير في أنموذج الدراسات الأدبية" هذه الفكرة، فيقول: "إن دراسة الأدب ليست عملية تشتمل على التراكم التدريجي للوقائع والحجج التي شأنها أن تقرب أكثر إلى كل جيل متعاقب ماهية الأدب في الواقع أو تقربه من فهم صحيح للأعمال الأدبية الفردية، بل بالأحرى يتميز التطور الأدبي بالقفزات النوعية والانقطاعات ونقط الانطلاق الأصلية. ويتم إقصاء الأنموذج الذي سبق أن وجه البحث الأدبي في الوقت الذي لم يعد يستجيب للمتطلبات التي وضعتها له الدراسات الأدبية، وهكذا فإن أنموذجا جديدا يكون ملائما أكثر لهذه المهمة ومستقلا عن النمط الأسبق ويحل هذا الأنموذج محل المقاربة المتقادمة إلى أن يصبح هو بدوره عاجزا عن مسايرة وظيفته التي هي تفسير الأعمال الماضية للأجيال في الوقت الحاضر"[٢٥].

وهذا الكلام به "تناص" مع فكرة النموذج Paradigm الذي يستخدمه فلاسفة العلوم، ويجعلون منه النموذج الإرشادي الذي "يعد أصلا نقيس عليه أي عدد ممكن من الأمثلة المتطابقة قدر الاستطاعة والتي يمكن أن تحل محل الأصل من حيث المبدأ"[٢٦]. وذلك بجعل الأدب لا يمكن أن ينشأ ويتداول إلا وفق نموذج أرشادي تتفرع عنه قواعد وأعراف هي التي تشكل الأفق الذي يتحرك في فضائه الأدب إبداعا وتلقيا[٢٧].

وقاده بحثه عن "النموذج" الذي يؤسس "نظرية التلقي" إلى إعادة ترسيم تاريخ الأدب اعتمادا على "نماذج التلقي"، إلى ثلاثة نماذج كبرى، وهي كالتالي:

أـ أنموذج ما قبل المرحلة العلمية. ويقصد به النموذج الكلاسيكي، الذي اعتمده المتلقون معيارا لقياس الأعمال الجديدة، وتجلت مهمة النقد في ضوئه في قياس الأعمال الجديدة وفق القواعد الثابتة المستمدة عن أعمال مُتَّفَق عليها لدى القدامى.

ب ـ أنموذج الثورة العلمية للنزعة التاريخية. ويشمل نتاج القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وهذا النموذج استجابة لتحولات اجتماعية وقومية وأيديولوجية، على قمتها بروز

فكرة الوطنية، مما جعل النشاط مركزا على دراسات المصادر وعلى محاولات إعادة بناء ما قبل التاريخ لنصوص القرون الوسطى المعيارية.

ج - الأنموذج الحالي. وينطوي على مدارس النقد الحديث كلها مثل الأسلوبية وتاريخ الأفكار والشكلية الروسية والنقد الجديد. وينطلق هذا النموذج من تهميش دور المعارف المصاحبة للأدب والانطلاق من مركزية العمل الأدبي نفسه.

ولا يتحقق فحص هذه النماذج إلا بالتركيز على "التلقي الأدبي" الممارس من قبل المتلقين، ". فضمن ثالوث يتكون من المؤلف والعمل الأدبي والجمهور (المتلقي)، فإن هذا الأخير ليس عنصراً بسيطاً وسلبياً ذا رد فعل مكرر سلفاً، بل إنه يتحول بدوره إلى طاقة تساهم في صنع التاريخ، وإن حياة العمل الأدبي ضمن هذا التاريخ لا يتم إدراكها دون المشاركة الفعالة لأولئك الذين وجه إليهم هذا العمل. فوساطتهم هي التي تعمل على إدخال العمل في الاستمرارية المتحركة للتجربة الأدبية التي لا ينقطع أفقها عن التغير، حيث يحدث الانتقال باستمرار من التلقي السلبي إلى التلقي الإيجابي، من القراءة البسيطة إلى الفهم النقدي، من النموذج الجمالي المسلم به إلى مجاوزته عبر إنتاج جديد. إن تاريخية (Thistoricite) الأدب وطبيعته في التواصل تتضمنان علاقة تبادل وتطور بين العمل الموروث والجمهور والعمل الجديد. فهذه العلاقة يمكن فهمها في ضوء مقولات من مثل: رسالة ومتلق، سؤال وجواب، مشكل وحل. إن هذا التيار المغلق الذي يتردد بين جمالية وتقديم الإنتاج الذي ظل منهج البحث الأدبي وإلى الآن منحصراً في أساسه، يجب إذن أن ينفتح على جمالية التلقي والوقع الذي تحدثه حتى نفهم جيداً كيف تتواتر الأعمال ضمن تاريخ أدبي متلاحم"[٢٨].

وإذا كانت القيمة التي سيقررها المتلقي لما يقرأ، تشكل جوهر تاريخ الأدب، وجوهر نظرية التلقي، فقد عمد ياوص إلى دراسة علاقة المتلقي بحكم القيمة، وكيف يتأسس من مراتب ومقامات، ويتدرج حسب أزمنة متعاقبة، يكمل بعضها بعضا. وهذا بدوره دفع بياوص إلى استظهار أزمنة التلقي. ووجدها ثلاثة:

(أ) زمن التلقي الجمالي. (زمن الدهشة).

وهو أول مراحل تقبل العمل،وهذه المرحلة أشبه بالانطباعات الأولية التي تثور في النفس وتتبعثر بسبب تفاعلها الأوليّ مع العمل المقروء.

(ب) زمن تأمل الدهشة، وشرحها بصورة منطقية.

(ج) زمن القراءة التاريخية والتأويل.

وبرغم تداخل هذه الأزمنة إلا أنه يمكن بقليل من الوعي والتأمل. إدراكها.

٣ ـ أفق التوقع

يحدد ياوص المقصود بأفق التوقع، فيقول : " إن عملية تحليل التجربة الأدبية للقارئ تتخلص من النزعة النفسانية التي كانت عرضة لها، لوصف تلقي العمل والأثر الناتج عنه. إذ من خلالها يتشكل أفق انتظار جمهورها الأول، بمعنى الأنظمة المرجعية المفرغة موضوعياً في صيغة والتي تكون لكل عمل في اللحظة التاريخية التي يتجلى فيها نتيجة ثلاثة عوامل أساسية:

ـ التجربة السابقة (المتقدمة) التي اكتسبها الجمهور عن الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه.

ـ شكل موضوعاتية الأعمال السابقة التي يفترض معرفتها.

ـ التعارض بين اللغة الشعرية واللغة العلمية أي بين العالم التخييلي والعالم اليومي"[٢٩].

ويمكن بكثير من التساهل (والتضليل) أن نساوي بين أفق التوقع والرأي العام، أو الفرضية الكبرى الشائعة في لحظة تاريخية ما عن جنس أدبي معين، أو الحس العام. وقد عمل ياوص على تكريس هذا المصطلح وإشاعته، واستنبات مفاهيم جزئية منه، مثل : أفق التجربة (Horizon of experience) ، وبنية الأفق (Horizon structure)، والتغير في الأفق (Change in Horizon) ، والأفق المادي (Materialhorizon).

ويهدف ياوص إلى خلخلة الاعتقاد بانعكاس العمل عن الواقع. فقيمة الكتابة الأدبية لا تنبع من علاقتها بواقعها، وإنما تنبع من علاقتها بسلسلة من النصوص السابقة، تكون كلها سلالة أدبية تنتمي إلى جنس أدبي، تظل الكتابة ملتزمة بقواعده تابعة لسيرورته، فينشأ عن ذلك أفق انتظار له جمهور معين، يألف معاييره الجمالية ويتفاعل معها[٣٠]. وهذا الأفق ليس شيئا سكونيا، بل هو متغير مع الزمن والتحولات الاجتماعية والثقافية. وتظل حيوية الأفق مادام قادرا على الإجابة عن الأسئلة التي تطرحها الثقافة الآنية. وعند حدوث تحولات تؤدي إلى حدوث أسئلة جديدة يعجز الأفق الراهن عن تقديم إجابات عنها، عندئذ يتم الانتقال إلى نموذج Paradigm

جديد، يشبع احتياج القارئ ذي الأسئلة[٢١].

ويتم تلقي الأعمال من خلال أفق التوقعات على مدارج ثلاث.

أ. كون الكتابة موافقة تماما لأفق توقع القارئ، وذلك بتكرار نفس المعايير الجمالية الموروثة، بناء على ما تراكم للجنس الأدبي من تقاليد في مساره التاريخي. والمتلقي هنا، يشعر بالرضا لأنه استطاع أن يحقق معنى النص.

ب ـ كون الكتابة منافية تماما لأفق توقع القارئ وصادمة له. ويترتب عليها شعور ضديّ تجاه العمل.

ج ـ كون الكتابة من المدرج الثاني، لكنها تستطيع أن تحفر لنفسها أفق توقع. وهذا النوع من الكتابة في حاجة إلى متلقين ذوي عقلية مرنة تتقبل الأفق الجديد، فلا يشعرون بالسخط آن رؤية أفقهم يتغير، مما يترتب عليه مكسب لهم يتمثل في اتساع ذخيرتهم الفنية.

ولكي يتحقق هذا "التحقُّق" من القيمة الجمالية للعمل، فلا بد من "مسافة جمالية" ، وهي التي تؤسس المعيار الذي تقاس به جودة الفن، ويشرحها ياوص، فيقول: "إذا سمينا المسافة الجمالية تلك الفجوة الفاصلة بين أفق الانتظار الموجودة سلفاً والعمل الجديد الذي يمكن أن يؤدي تلقيه إلى "تغيير في الأفق" وذلك بالسير عكس التجارب المألوفة أو بجعل تجارب أخرى، يعبر عنها أول مرة، تقفز إلى الوعي. إن هذه المسافة الجمالية تقاس وفق سلم ردود فعل الجمهور وأحكام النقد (نجاح مباشر، رفض أو صراع، استحسان القراء، فهم مبكر أو متأخر) يمكن أن يصبح مقياساً للتحليل التاريخي" [٢٢].

آيزر

ينطلق من تركيز المقولات على القارئ، الذي يعتبره جوهر التلقي، فالنص بدون قارئ فعل أجوف، باطل. وكما يقول هو : "الشيء الأساسي في قراءة كل عمل أدبي هو التفاعل بين بنيته ومتلقيه. لهذا السبب نبهت نظرية الفينومينولوجيا بإلحاح إلى أن دراسة العمل الأدبي يجب أن تهتم، ليس فقط بالنص الفعلي بل كذلك وبنفس الدرجة بالأفعال المرتبطة بالتجاوب مع ذلك النص. فالنص ذاته لا يقدم إلا "مظاهر خطاطية" يمكن من خلالها أن ينتج الموضوع الجمالي للنص بينما يحدث الإنتاج "الفعلي" من خلال

فعل التحقق. ومن هنا يمكن أن نستخلص أن للعمل الأدبي قطبين، قد نسميهما: القطب الفني والقطب الجمالي، الأول هو نص المؤلف، والثاني هو التحقق الذي ينجزه القارئ. وفي ضوء هذا التقاطب يتضح أن العمل ذاته لا يمكن أن يكون مطابقاً لا للنص ولا لتحققه بل لابد أن يكون واقعاً في مكان ما بينهما"[٣٣].

والمقصود بالقطب الفني هو النص، وبالقطب الجمالي هو بنية الفعل. والعلاقة بينهما علاقة لزوم واجب، فالحديث عن إحداهما يستدعي بالضرورة استحضار الثاني، ما يؤكد على فردانية حدث التلقي وذاتيته. وحتى لا تثير قضايا الفردية والذاتية ردود انتقاد، قال آيزر إن العمل الأدبي لا يمكن اختزاله في حقيقة النص أو ذاتية القارئ. بل إنه يوجد في مكان بينهما، مما يعني أنه يتميز بخاصيته الافتراضية، وهي خاصية تمنح للعمل الحركة والحرية، فتجعله ينطلق في بناء آفاق متعددة، ونحو وجهات مختلفة ومتنوعة.

وفي هذا التعليل استحضار لمقولات فلسفية ظاهراتية ووجودية، مثل قول سارتر: "العمل الفني لا وجود له إلا حين النظر إليه"[٣٤]. وفي هذا الاقتباس تأكيد على أن العمل الأدبي اشتراك بين المرسل والمتلقي، المرسل بنصه، والمتلقي بتحقيق وجود النص، وذلك من خلال التلقي. وهذا الذي يفعله المتلقي لحظة تأويله يتمثل في "ملء فراغات النص"، وهي مساحات شاغرة في كل النصوص، تستلزم تدخل القارئ يسميها آيزر - وقد سبقه إنجاردن إلى ذلك - "عناصر اللاتحديد"، وهي التي يشتغل عليها التأويل، ويقول آيزر: "إن النصوص التخيلية لا يمكن أن يكون لها نفس التحديد الكامل الذي يكون للأشياء الحقيقية، وبالفعل فإن عناصر التحديد هي التي تمكن النص من التواصل مع القارئ، بمعنى أنها تحثه على المشاركة في الإنتاج وفهم قصد العمل معاً"[٣٥].

قاده هذا التحديد لجماليات التلقي، إلى وضع تخطيط نظري، أبرز ما فيه:

١ - ذخيرة النص.   ٢ - القارئ الضمني.

أ - ذخيرة النص

إذا كان تفسير النص يتم عبر ملء فراغاته، فإن هذه العملية لا تتم بصورة عشوائية، بل بالاعتماد على "ذخيرة النص". والمقصود بها سلسلة النسب التي تربط النص بتراثه، بنصوص سابقة عليه، تؤسس فضاءه، وتمنحه وجوده. ويمكن اعتبار "التقاليد" أهم

مؤسسات هذه الذخيرة· وإذا كانت الذخيرة تفسر من خلال حضور قيم اجتماعية وثقافية ، وتكرارها ضمن نصوص متعددة ومتنوعة؛ داخل فضاء ثقافي ما ، فهذا يتضمن شيئين اثنين:

أولهما يشير إلى أن القراءة لا تكتسي صبغة فردية ، وإنما تحدث بصورة جماعية ويتحكم فيها لا وعي جمعي مادام القراء يصدرون في ردود أفعالهم عن سياق وأعراف متشابهة.

وثانيهما يعني أن هذه النصوص ذات الذخيرة الواحدة تعكس أنظمة دلالية تحيل على واقع زمني أفرزها ، وأن هذه الأنظمة تظل مستمرة ومتمددة داخل ثقافتها ومجتمعها ، ويتفاعل معها أكبر عدد من القراء إلى أن تفقد قدرتها على التعبير عن واقعها وعن بنياتها المركزية ، فتضعف وتتلاشى ومن ثم لا يعود لها جمهور متلق يتفاعل معها[٣٦].

٣ ـ القارئ الضمني·

وهو قارئ يخلقه النص لنفسه· وهذا مفهوم قديم مسبوق إليه· قال سارتر: "إن عملية الكتابة تتضمن عملية القراءة لازما منطقيا لها· وهاتان العمليتان تستلزمان عاملين متميزين، الكاتب والقارئ· فتعاون المؤلف والقارئ في مجهودهما هو الذي يخرج إلى الوجود هذا الأثر الفكري، وهو النتاج الأدبي المحسوس الخيالي في وقت معا· فلا وجود لفن إلا بواسطة الآخرين ومن أجلهم"[٣٧]·

وهذا القارئ يتم استحضاره لحظة الكتابة ، ويؤثر في إنتاج الكاتب نفسه· ومن ثم ميز آيزر بين نموذجين من القراءة· أولهما قراءة حقيقية تاريخية ، وهي المنجزة بالفعل· والثانية قراءة افتراضية· وهي التي يتصورها المؤلف، ويكتب وفي ذهنه تصور لها ، وهي بدورها تنحل إلى نموذجين: أولهما يتمثل في إلحاح "ذخيرة النص" وتقاليد الجنس الأدبي على المؤلف، فيكتب وفي ذهنه تلك القواعد التي تفرضها ، يكتب وفقها· والثاني هو الذي يتصوره المؤلف ويضعه في حسبانه عندما يتبنى إستراتيجية النص[٣٨]·

إن هذا القارئ الضمني يتم إنتاجه من واقع النص، بل يخلقه النص لنفسه، إنه ضرورة لتحقق النص، وذلك من خلال بناء شبكة من الأبنية تؤدي إلى حدوث استجابة

تربط النص بقارئه. وهذه الاستجابة تمارس على وعي القارئ إجراء تعديلات داخلية في مخططه الفكري، مما يتيح الفرصة للمتلقي أن يستوعب الآراء الغريبة والجديدة التي قد يصادفها أثناء عملية القراءة، ومن ثم تخلق القراءة النص، تمنحه وجوده، من خلال صياغة ما ليس بمصوغ قبلا.

تحفظات

وثمة احترازات يسوقها الباحث في هذا السياق.

١. يجب الاعتراف بأن هذا المدخل اختزال ـ قد يصل إلى درجة التشويه ـ إن زعم الباحث أنه كل ما يقال عن "التلقي". فهذا ليس "كل شيء"، فثمة جهاز مفاهيمي وإجراءات نظرية، تبدو في زيادة واطراد، بلا توقف. ومن ثم فإن الإحاطة بها ـ كلها ـ ضرب من العبث، خاصة أنها تدور حول نفس الأفكار، تتكرر، أو تتعارض، لكن الجوهر، هو ما سبق سرده. كالحديث عن ثنائية القارئ والنص ـ لتأثير والتأثر ـ والعمل الفني بين القطبين: الفني والجمالي ـ والتحقق والتأويل ـ وأنواع القرّاء ـ وأفق الانتظار وما يتفرع عنه من "آفاق" ـ وملء الفراغات والبياض ـ والبحث عن النص الغائب ـ والنص المفتوح ـ والجسر الجمالي[٣٩] ـ . وكذلك الحديث عن "المرجعيات" التي تتأسس نظريات القراءة والتأويل في فضائها، مثل: الشكلانية الروسية ، وبنيوية براغ، والفينومينولوجيا، وفينومينولوجيا رومان إنجاردن تحديدا ـ وهرمنيوطيقا جادامر ـ وسوسيولوجيا الأدب[٤٠]. وقد ربط آيزر نفسُه مداخلاتِهِ النقديةَ بسياق أوربي أعم[٤١].

٢. وهذا الحديث النظري عن المهاد التاريخي، وكذا عن الأدوات النقدية التي تقترحها هذه النظرية، بما في ذلك المصطلحات المتناثرة، كل ذلك يتم تأويله حسب سياق الكلام. فثمة حديث "متعارض" حول أبسط المفاهيم، مثل :القارئ ، أو أفق الانتظار، بصورة يبدو معها "التأويل" الذي تقترحه النظرية للتعامل مع النصوص الأدبية، قد أصاب مصطلحات النظرية، فأصبحت ذاتية وشخصية جدا. ويمكن الإشارة إلى دراسات عدة يتم تناول هذه المصطلحات ـ ضمنها ـ بشيء من الفردية والرؤية الشخصية جدا.

فإذا كانت النظرية قد "وضعت مفاتيح النصوص في أيدي القراء، وسمحت لهم أن يقتحموها من جهات مختلفة، وبأساليب متعددة، وأكدت على ا أن المعنى الأدبي الذي يخلعه القارئ على النص لا يمنع غيره من القراء أن يخلع عليه معنى آخر.

أي أن المعنى الأدبي يحيا ويتغير داخل تراث لا تنفصم حلقاته، وأن النص الواحد يمكن أن يقرأ على مر العصور المختلفة بأوجه مختلفة، وتسمى هذه الوجوه من القراءة (القراءة التداولية)"[٤٢]. فإن متلقي نصوص آيزر وياوص ومن شايعهما، قد أخضعوها لهذه المقولة، وبالتالي فنحن أمام "قراءات"حرة، جدا، لتلك النصوص، تستمد شرعيتها التأويلية من جوهر ما يتم تأويله. ويتحمل المنظرون الأوائل المسئولية الكبرى أمام هذه "الفوضى التأويلية"، بإنتاج هذه الوفرة من المصطلحات التي هي في حاجة إلى ضبط. وفي مقدمة هؤلاء ياوص نفسه، الذي "طلع على الناس بمصطلح غير محدد الدلالة، وهو أفق التوقع، ذاهبا إلى أن المراد بهذا المصطلح وصف المقاييس التي يستخدمها القراء في التمرس بالنصوص الأدبية والحكم لها أوعليها"[٤٣].

فإذا أضفنا إلى ذلك أن ياوص نفسه قد عدل عن معظم أفكاره وطورها، حين تعرضت أفكاره لهجوم شرس من النقاد الماركسيين الألمان، لخروج النظرية عن التشخيص الماركسي لتناقضات المجتمع البرجوازي، وصبوا جام غضبهم على نظرية ياوص لاعتمادها على مفهوم ذاتي غير ماركسي للتاريخ، وفي مقدمة هؤلاء روبرت فايمان في كتابه "البنية والمجتمع في التاريخ الأدبي" ١٩٦٧، الذي ينكر على ياوص جوهر فكره القائم على الذاتية الخالصة، إذ يعتقد ياوص في أن وعي القراء الأفراد هو الذي يحدد التاريخ بصورة نهائية. وأهم انتقاد وجهه فايمان يتمثل في أن النظرية المقترحة من قبل ياوص "زئبقية" وعاجزة عن تزويد جمهورها بمعايير وآليات عملية محددة لتقييم الأعمال الأدبية، أو درس عملية التلقي، ومن ثم فإنها عاجزة كل العجز عن الحكم عليهما.[٤٤]

وقد ترتب على ذلك تحوُّل ياوص " من التشديد على جمالية التلقي إلى التشديد على التجربة الجمالية" [٤٥]. ويظهر ذلك من خلال مؤلفاته في فترة السبعينات، وفي مقدمتها "التجربة الجمالية ونظرية التأويل الأدبي" ١٩٧٧، ويقدم فيه تطويرا لفكره السابق بدرس "التجربة الجمالية"، فيرى أنها ثلاثة أنواع:

١ـ إنتاج الممارسة الجمالية.

٢ـ عملية التلقي

٣ـ العملية التواصلية

وهذا النوع الأخير، هو ما يركز عليه ياوص كثيرا، ويمثل محور اهتمامه،

وهو - وهذا هو الأمر الخطير - ردة بالنظرية إلى مقولات أرسطو، وكلامه الشهير عن التطهير، فقد عرف ياوص العملية التواصلية، بأنها متعة الشاعر التي يحركها الكلام أو الشعر الذي يستطيع أن يحدث تغييرا في المعتقد، ويؤدي في الوقت نفسه إلى تحرير عقل السامع أو المشاهد". وفي هذا الكلام تناص مع أهداف الدراما كما ذهب إليها أرسطو في "فن الشعر".

وهنا: إذا تناولنا آراء ياوص، فمن أين نبدأ ؟ . هل من البدايات التي تم تعديلها؟ أم من النهايات التي تنسف جوهر النظرية؟. وهذا - في اعتقاد الباحث - يكمن وراء سبب تعددية التأويل واضطراب الفهم المشار إليه.

٣- يشعر الباحث بالمبالغة في ادعاء وظيفة ثورية لهذه النظرية. وهذه "جريرة" يشارك فيها غالب من يكتب عن التلقي، وبدءا بياوص نفسه، الذي يدعي في عام ٢٠٠٤ م أن ترجمة كتبه، وبخاصة جماليات التلقي، سوف تحدث - بتعبيره هو - "انقلابا جذريا" في النقد الأدبي العربي[٤٦] . برغم أن معظم "مقولات" نظريات التلقي يتم تداولها في النقد العربي منذ ثمانينات القرن الماضي، ولم يحدث هذا الانقلاب.

وليس ياوص وحده من يؤمل على هذه السمة الثورية الفكرية في النظرية، فمعظم الكتابات العربية تعتمد على :تقريظ" النظرية، وتمتدح مفعولها الذي سوف يحرر النقد، ويعيد كتابة "تاريخ الأدب" وفق معيار جمالي خالص، اعتمادا على استجابة القراء. وهذا طرح نظري يصعب تحقيقه، إن لم يكن مستحيلا، ويمكن تلمس هذا "التقريظ" في كتابات عدة، تبدو فيها الحماسة لهذه المقولات بصورة مبالغ فيها.

٤- يشعر الباحث، باستمرار، بأن ما يقال ليس بجديد. ولنبدأ من سؤال يطرحه أمبرتو إيكو نفسه: "حول ما إذا كان الأمر يتعلق بتوجه جديد وفي أي اتجاه؟". ويرى إيكو أن "ما يثير الاستغراب، .. ،من التساؤل هو أن تاريخ الاستطيقا يمكن أن يختزل في تاريخ لنظريات التأويل، أو تاريخ للتأثيرات التي يحدثها العمل الأدبي في القراء، سواء تعلق الأمر بالاستطيقا الأرسطية، أو باستطيقا الجزالة Sublime المنسوبة للونجا Longin وسواء باستطيقا الكشف الوسيطية أو بقراءات استطيقا أرسطو المتجددة، وسواء تعلق باستطيقا الجزالة الكلاسيكية أو بالاستطيقا الكانطية أو بمختلف الإستطيقات المعاصرة (الظاهراتية والهرمنيوطيقية والسوسيولوجية واستطيقا باريسُن التأويلية)

فإنها كلها موجهة نحو التأويل"[47]. والسؤال: ما الجديد؟. لا شيء إلا استبدال المصطلحات؛ فما هو معروف ومألوف بأسماء متعارف عليها، تتم كتابته تحت لافتات جديدة، ويتم تدعيمه بترسانة من المصطلحات تقدمها النظرية، مما يوحي بأنه جديد.

وعلي سبيل المثال، كتاب "المقامات والتلقي :بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث"[48]، دراسة محصنة بمهاد نظري ضخم يقطع الطريق على كل مخالف، ويحاول نقل السياق الثقافي والحضاري الذي أفرز هذا الجهاز المفهومي، إلى ثقافتنا. وجوهر الدراسة يقوم على رصد ثلاثة أنماط وقع فيها تلقي فن المقامات في التراث العربي، وهي:

١ـ تشكيل أفق الانتظار

٢ـ كسر أفق الانتظار

٣ـ تعديل أفق الانتظار

ويقصد المؤلف بذلك ما يعرفه كل دارس بكيفية تعاملنا مع المقامات. فالنمط الأول يشير إلى بدء عصر النهضة والإحياء، ورجال هذه الحقبة كانوا ميالين إلى "بعث التراث" ـ وليس المقامات فقط ـ فنشروا المقامات وقلدوها وشرحوها. وبرغم تسلح المؤلف بمنظومة ثقافية، وقدرة عالية على الجدل الثقافي إلا أن الأمر ـ في جوهره ـ لا يزيد عن كونه "تقديم خمر معتقة في كأس جديدة". وحتى لو سلمنا له بأنماط التلقي هذه، فهذا الذي توصل إليه لا يضيف جديدا إلى "فنية المقامات" أو "تاريخ الأدب". برغم الذخيرة الثقافية التي يتمتع بها المؤلف.

لا يتعلق الأمر بتعليق على دراسة منجزة، بل بجوهر النظرية نفسها. فقد ذهب روبرت هولب في كتابه "نظرية التأويل"[49] إلى كشف نواة النظرية وجذورها لدى أرسطو في كتابه "فن الشعر"، ولتتبع مسار الفكرة ذاتها وتطورها مع الزمن، يرو هولب أن الأمر ليس بجديد. وهذا ما تكتشفه الدراسات المؤرخة للنظرية[50]، ويؤكده أمبرتو إيكو بصورة أكثر نضجا، فيبدأ بعام ١٩٦١، وكيف تطور مفهوم القارئ والقراءة والتلقي قبل آيزر وياوص[51]. وما يقوله آيزر عن حتمية وجود القارئ بديهة أدركها الناس عفوا، وذكروها عرضا، قال السكاكي: "ليس من الواجب في صناعة، وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها إلى مجرد العقل أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها. فكيف إذا كانت الصناعة مستندة إلى

تحكمات وضعية، واعتبارات إلفية. فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلد صاحبها في بعض فتاواه، إن فاته الذوق هناك إلى أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق"[52]. فهذا الذي يقوله السكاكي، لا يكتفي بالنص فقط على ضرورة وجود المتلقي، بل يفاضل بين أنواع المتلقين، وأنواع القراءات. ففي مهنة الكتابة : "هل يستوي الدخيل فيها والناشئ عليها"؟. وأوجب - كذلك - على الدخيل ألا يبادر إلى "التأويل" إلا إذا استعجم عوده، واستوت له الملكة، والتي هي التقاليد، ويمكن الزعم أنها "ذخيرة النص" التي عناها آيزر. وبدون هذه الملكة - الذخيرة ليس له أن يتأول الكلام.

٥ - تعطي "مقولة القراءة" شعورا مبهما، يفشل في تعيين المقصد، فهل "القراءة" فعل قصدي أم أنها هاجس باطني؟. وإن تكن فعلا قصديا؛ فعن أي شيء يبحث القارئ في المقروء؟. وهل ثمة وعي مُدْرَك بهذا الشيء قبلا، ثم يبحث عنه في النص؟ أم أنه شعور غيبي يخامر القراءة؟ وهل هذا هو الوعي الجمالي؟. أم أن الكاتب يبدو كمن يتعمد إخفاء معانيه ومقاصده خلف سياج "المنظور النصي"، ومن ثم يتوجب على القارئ أن "يبحث" عن "شيء غائب" ، أخفاه الشاعر بمهارة؟ وهل تختلف قراءة الشعر القديم عن الشعر الحديث من هذا الجانب وهذه الرؤيا؟ . وهل في شروح القدامى التي تقول إن القائل "يقصد " و"يعني" و"يهدف إلى" و"يريد" - هل في هذه الأفعال ما يؤكد الزعم بأن الكاتب يمارس لعبة "الخفاء والتجلي" مع قارئه؟.

وإذا كان آيزر يعترف بأن النصوص السردية أكثر مقدرة على جلاء وجهة نظره في بيان حقيقة النظرية، وبالتالي اعتمد في كل تطبيقاته على السرد، فهل يبرر هذا صعوبة تطبيق هذه النظرية على الشعر العربي؟ [53]ومن ثم صعوبة استحضار تاريخ الأدب العربي على ضوئها، وهو تاريخ الشعر في الأساس؟.

وإذا كانت القراءة تؤدي - حتما - إلى التأويل، فسيظل السؤال: "ما الذي يبحث عنه المؤول، أو ينبغي أن يبحث عنه؟[54]." حائرا بلا جواب نهائي. وإذا كانت نظرية التلقي تعطي عملية التأويل مساحة أرحب، وتقبل بكل التأويلات، وقد ذهب الحداثيون إلى أن تعدد القراءات لا يعني التعارض حتى لو كان ظاهرها متناقضا[55]. ويعتبرون إمكانية انفتاح النص على قراءات عدة علامة حداثته، وهو نفس ما تذهب إليه النظرية - ألا يعطل هذا من دلالة النص؟ وهل بالإمكان قراءة نص بلا دلالة؟ وهل -

حقا. لدى النصوص الجيدة هذه الخاصية؟ . ثم إن النص لا يصل إلى هذه الحالة إلا إذا فقد مرجعيته. وهذا هو بتر دلالة النص[56].

٦ـ ويتمثل الاحتراز الأخير ، في طريقة إسقاط هذه المقولات على التراث العربي. قديمه وحديثه. فالدراسات المنجزة وفق مقولات التلقي تعيد كتابة تاريخ الأدب العربي بصورة تثير عديد تساؤلات، كما فعل د. عبد الإله نبهان، إذ توصل من خلال قياس تاريخ القراءة العربية وفق مقولات نظرية التلقي إلى اعتبار الصورة الأولى من صور التلقي في تاريخ الفكر العربي تعود إلى تلقي القرآن الكريم[57]. وإن سلمنا معه بهذا الاستنتاج ، فبماذا ندعو التاريخ السابق على نزول القرآن، والذي يصل عند البعض، إلى قرنين ونصف؟ ألم يتلق الجاهليون أشعارهم الشفاهية؟ ألم يتعاملوا مع نثرهم وأمثالهم؟ وإذا برر د. نبهان ذلك بأن تلقي القرآن الكريم لم يكن يهدف إلى دراسة الجمال الفني، ولا إلى تحليل العناصر التي تتألف منها بلاغة المعجزة القرآنية، وإنما كان يهدف إلى فهم المعنى، فإن الجاهليين ـ أيضا ـ لم يفقهوا هذه الأشياء، ولم يثبت عنهم تراث في درس جماليات شعرهم، أو تتبع مفردات علمهم الأوحد، الذي قال عنه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ "لم يكن لهم علم غيره". وإذا كان الأمر على هذه الصورة، فأي جديد طرأ على مجرى "الحياة الثقافية" العربية، حتى نتجاهل عصرا كاملا لنبدأ تعيين تاريخ التلقي مع القرآن الكريم؟.

وإذا كان د. النبهان يعتمد على ظهور "التأويل" ـ مقصد القراءة ـ مع "تفسير القرآن"، ومن ثم يدعو إلى وجوب التفرقة بين "النص" و"فقه النص"، ويذهب إلى أن فقه النص (وهو الفهم العميق لمعانيه) قد دفع بالمفسرين إلى الاستعانة بالتأويل للوصول إلى مرامي القرآن الكريم. على اعتبار التأويل مقصد القراءة في ضوء نظرية التلقي، فإن "تأويل القرآن" ليس هو "تأويل الأدب" الذي تقترحه النظرية، إن مؤرخي الدراسات القرآنية يؤكدون على أن تفسير القرآن كان يعتمد على التفسير بالنقل، فتم تفسير القرآن بالقرآن والسنة، وفي ضوء الاحترازات العامة التي قننها الأقدمون ليقطعوا الطريق على أصحاب التفسير بالعقل، وحتى هؤلاء ـ كما في بحوث المعتزلة ـ فإن الهامش الذي تحركوا فيه كان ضيقا، بما لا يسمح للحديث عن "تفسير تأويلي" مغاير للتفسير بالنقل[58]. إذا استثنينا التفسير الباطني للقرآن فهو ، فقط، "التفسير التأويلي" وفق مقولات نظرية التلقي.

لقد ميز أمبرتو إيكو بين أنماط ثلاثة من التأويل، اعتمادا على الجهة التي ينطلق فيها التأويل:

١. التأويل باعتباره بحثا عن مقاصد الكاتب

٢. التأويل باعتباره بحثا عن مقاصد النص

٣. التأويل باعتباره بحثا عن مقاصد القارئ

وذكر أن النقاش القديم كان يدور حول المقاصد المطلوبة كالتالي:

- هل ينبغي البحث في النص عن مقصد المؤلف؟

- هل ينبغي البحث عما يقوله النص بقطع النظر عن مقاصد صاحبه؟

وكان تتبع مسلك من الاثنين يستلزم - بالضرورة - آلية تسلح تؤمن استكشاف "المقصد". وينتهي إلى تقرير أن استطيقا التلقي تتبنى المبدأ الهرمنيوطيقي الذي يغتني الأثر بمقتضاه تبعا للتأويلات المتلاحقة التي يخضع لها على مر القرون، فهي تربط ربطا جوهريا بين الواقع الاجتماعي للأثر وأفق انتظار القراء المحدودين تاريخيا. غير أنها لا تنكر ضرورة الربط بين تأويلات النص وبعض الفرضيات المتعلقة بطبيعة المقصد العميق للنص ذاته. أما بخصوص سيميوطيقا التلقي (وهي نظرية القارئ النموذجي، والقراءة بوصفها نشاطا يقوم على التعاون) فهي تبحث عموما عن صورة القارئ في النص في طور تشكلها، وهو ما يترتب عنه أنها أيضا تبحث عن المعايير التي تسمح بتقويم نوايا القارئ انطلاقا من مقاصد المؤلف[٥٩].

وفي ضوء هذه المقولات فإن التأويل أصابه تطور دلالي كبير، غيَّر من دلالته المعنوية. فلن يكون مقبولا أن نضع التأويل المتعلق بالقرآن ضمن أحد هذه المحاور الثلاثة، إنه "حالة خاصة" انطلق فيها المفسرون من افتراض التطابق التام بين مقاصد منزله (هل من اللائق أن نقول مؤلفه؟ (وهو الله سبحانه)، ولم يكن يخطر ببالهم - مجرد ظن - أن ثمة تباينا بين المقصدين. ومن المؤكد أن التأويل باعتباره بحثا عن مقاصد القارئ (مؤلف التفسير) كان مستبعدا بالكلية. ومن ثم فإن ربط تأويل القرآن بتأويل نظرية التلقي، واعتباره أول مراحل التلقي - كما فعل د. النبهان - لا يتم إلا بالتغاضي عن فروق جوهرية بين السياقين.

السياق

ولعل في "اختلاف السياقين" يكمن وجه للإشكالية، التي تصاحب نقل المناهج الحديثة، وكلها أوربية ، إلى ثقافتنا· بدءا بالمغالاة المعادة، فهذا "الانقلاب الجذري" الذي توقعه ياوص، يعيد إلى الأذهان عبارات مشابهة تم ترديدها مع بدء انتقال مناهج أخرى، كما في قول د·كمال أبو ديب عن المشروع البنيوي الذي سيحدث الانقلاب الجذري في الفكر العربي، ويغيره " من فكر تطغى عليه الجزئية والسطحية والشخصانية إلى فكر يترعرع في مناخ الرؤية المعقدة المتقصية الموضوعية والشمولية والجذرية في آن واحد"[٦٠] وهذا ما لم يحدث· ولم تنجح النبرة الحماسية في تأصيل وجود هذه المناهج، لأن "الأيديولوجيا" المصاحبة للسياقين جد مغايرة·

ثمة تجاهل ـ متعمد ـ للسياق الذي فرض ظهور نظرية التلقي فرضا، وذلك بقصد تمريرها في سياق مضاد كلية· فمما يجمع عليه المؤرخون أنها وليدة ظرف ثقافي خاص، أفرز متغيرات ثقافية عدة، في مقدمتها "زخزحة المؤلف"، وهو مظهر لتجليات المشروع الحداثي الأوربي، بفلسفته التي تنبني على "نقد مركزية الذات"· و"نقد مركزية الذات" جوهر انطلاق المشروع الحداثي ابتداء من ديكارت· " ومن ثم، ···، أحد أشكال وتجليات فلسفة ما بعد الحداثة،··، عندما بدأت الحداثة الأوربية مع الديكارتية بدأت بتسييد الكوجيتو، أي تسييد الذات المفكرة· بيد أن ديكارت كان له مع تسييده للكوجيتو موقف إيجابي من الدين، لكن صيرورة تطور الفكر الفلسفي الأوربي من بعد ديكارت ومالبرانش وغيرهما من الديكارتيين الذين كان للدين موقع داخل أنساقهم الفلسفية، ستفتح المجال نحو تسييد مطلق للذات المفكرة / العقل، وهكذا نلاحظ أنه ابتداء من نهاية القرن السابع عشر أخذ الفكر الأوربي ينحو نحوا متطرفا في تقدير العقل الإنساني والنظر إليه بوصفه قادرا على بلوغ الحقيقة، كما كان للثورة الصناعية ولمنتجاتها بالغ التأثير في صياغة هذا الموقف الواثق من العقل وإمكاناته على المعرفة إلى حد تأليهه"·[٦١]

وفي القرن الثامن عشر، ومع ظهور كانط، يتعرض الموقف العقلي المغالى فيه، إلى تصدع كبير، بسبب توجيه كانط سهام النقد لملكات العقل، وحاول كانط الحديث عن النواحي الغير المنطقية في عقل الإنسان، وذلك في عمله الضخم ذي الأجزاء الثلاثة (نقد العقل المحض) و(نقد العقل العملي) و(نقد الملكة الحاكمة)· وكان

مهتما بالبحث عن النظرية الأوربية العقلانية، وكيف ترى مقدرة البشر على التفرد بالتفكير الواعي. مما أصبح معه الحديث عن معرفة ذات صفة قطعية أمرا وهميا، وبدلا من اليقينية ظهرت النسبية، وانحصرت المعرفة العقلية بحدود الظاهر، كانت خلاصة هذه الحركة الفكرية، ظهور فلسفة ما بعد الحداثة كمشروع "لنقد الذات" الإنسانية. ففلسفة نيتشه هي نقد لمركزية العقل والإرادة بإبراز مقولة اللاشعور، والبنيوية هي "فلسفة موت الإنسان"[٦٢] لمصلحة البنية واللغة، وباستبعاد المؤلف من قبل نظريات التلقي، فإنها تندغم في سياق ما بعد الحداثة الأوربية، المعتمدة على نقد مركزية الذات. وزحزحةُ الذاتِ الكاتبة مقصدٌ من مقاصد النظرية.

فإذا بحثنا عن موقع هذه الأيديولوجيا من ثقافتنا، فإن الأمر معكوس تماما. ويمكن اختزال الوعي النقدي العربي الجمالي بأنه كان رحلة من "مركزية ذات السامع ـ المتلقي" والتي أُطلِق عليها : النقد الانطباعي، إلى تسييد موقف علمي عقلاني. فالآثار المنقولة عن الجاهليين مجرد انطباعات جمالية. كأن يقدم النابغةُ الأعشى على الخنساء، أو يعيب بيت حسان، وإطلاق بعض المسميات على القصائد مثل : اليتيمة، والبتارة. ويلحظ دارسو هذه المرويات عن الجاهليين أن نقدهم "قائم على الإحساس بأثر الشعر في النفس، وعلى مقدار وقع الكلام عند الناقد، فالحكم مرتبط بهذا الإحساس قوة وضعفا"[٦٣]. وتاريخ النقد ـ من بعد ـ ليس إلا محاولات "لعقلنة" هذه الانطباعات، وإكسابها صورة منطقية تجعلها خاضعة لأحكام تأويلية محضة.

ولم ينجح الجهد النقدي التراثي في تحقيق حلمه، فظل الإجراء النقدي دائرا في فلك الذاتية، وربط الأدب بمبدعه، وتأويل الأدب في ضوء علوم اللغة والنحو، إضافة إلى بعض المنجزات البلاغية والدلالية، وظل المبدع موجودا باستمرار. وظل هذا جوهر الدراسات النقدية إلى العصر الحديث، فأكدت الرومانسية الجانب الذاتي والفردي والشخصي في الأدب، وذهبت مقولات العقاد مذهبها، بتأكيده الذائع على أن الشعر انعكاس للمشاعر النفسية، معتمدا في ذلك على مقولات استمدها من وردزورث وكولريدج[٦٤]. وتأكدت هذه المقولات حتى باتت مركز الثقل في الدراسات النقدية العربية حتى عهد قريب جدا، وأجمع النقاد على ضرورة "أن يكون في الصورة الأدبية أثر ممن صورها"[٦٥].

وما تفعله نظرية التلقي هو استعادة نفس الخطاب النقدي القديم، بفرديته،

وانطباعيته، مع إحلال "المتلقي" محل "المبدع". فإذا كان وضع المبدع ضمن محددات الدلالة قد أربك المتلقين - من قبل - مما سوّغ الدفع بموت المؤلف، فكيف يكون الوضع بإحلال المتلقي. والأمر معه أكثر إثارة للشك - قياسا على المبدع إذ - دائما - بالضرورة يوجد "متغير" في القراءة: الطبقة - الجنس - الثقافة - الأيديولوجيا -..الخ فإذا أردنا أن نتحدث عن "تلقي " شاعر ما، فعن أي "متلق" نتحدث؟. هل عن "هؤلاء" بصيغة الجمع؟ وبذلك نعيد ما فعله القدامى؟ أم نتحدث عن القراءة الواقعة على شاعر واحد لدى كل متلق على حدة؟. وهب هذا حدث - مع استحالته - فأي تاريخ نكتب؟. هل نكتب التاريخ الخاص بالمتلقي الذكر، والخاص بالمتلقي الأنثى، والمثقفين، وأنصاف المثقفين، والأيديولوجيين، ..الخ، وبذلك نحصل على "تواريخ" للأدب لا نهائية، وغير متحددة؟. وهب هذا حدث - أيضا - ألا يؤدي ذلك إلى "فوضى" وإطلاق أحكام فردية وعشوائية؟.

نموذج تطبيقي:

كثيرة هي الدراسات المنتسبة لحقل نظريات التلقي. يغلب على هذه النظريات أنها "تؤرخ" للنظرية وتعرّف بها، وتتحدث عن دورها المرتقب. ولا يمنع الأمر - إذا اقتضى السياق ذلك - من إشارة إلى "مشروع"[66] دراسة، أو ذكر "مثال" جزئي يتعلق بتلقي "موضوع" ما في أدبنا العربي؛ ومن ثم يمكن القول - باطمئنان - إن مجالات تناول نظرية التلقي في اللغة العربية، تعتمد - حتى الآن - على النواحي النظرية، وتقل ممارسة هذه الإستراتيجية واقعا.

ومن ضمن الأعمال المنجزة - على قلتها - تأتي دراسة الأستاذ حميد سمير بعنوان " النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري" ، كأفضل دراسة - في رأيي - وقعت عليها. ولا تعبأ - كثيرا - بالنواحي التنظيرية قدر اهتمامها ببحث هذه "الوقائع" من خلال أبي العلاء المعري ونصوصه. ويقع الكتاب في مدخل نظري وثلاثة فصول. لا يعول المؤلف كثيرا على جانب التنظير، ويبدو الغرض من "المدخل النظري" هو رسم الخطوط العامة التي سيختارها المؤلف، من بين الركام المتسع الذي تقدمه النظرية. ومن خلال وقفة سريعة ومركزة أمام "النص وجماليات التلقي" يمهد المؤلف - على عجل - للقارئ - المتلقي بإعطاء نبذة عن السياق التاريخي والأساس النظري لجمالية التلقي، وفي هذا السياق - المعبأ بشحنات فلسفية متقاطعة - ينشأ آيزر وياوس، فيخصص لكل

واحد منهما وقفة سريعة، يستعرض المهاد التاريخي لأفكارهما، وكيف أنها تطور تلقائي ومتوقع لبنيات ثقافية كانت تشق طريق وجودها داخل البنية العامة للثقافة الأوربية، ومن ثم يبدو ظهورها ـ في سياقه ـ أمرا طبيعيا، إن لم يكن حتميا، ويبرز المؤلف أهم الخطوط العامة التي تشكل جوهر أفكارهما، وبالتالي جوهر النظرية، باعتبارهما أهم ممثلين ـ في العالم ـ لنظرية التلقي المنبثقة عن مدرسة كونسطانس الألمانية، كل هذا فيما لا يزيد عن عشرين صفحة، من حجم الكتاب البالغ مائة وتسعين صفحة.

والفصل الأول بعنوان "المتلقي الخبير وممارسة النص". والخبير صنف من أصناف المتلقين [٦٧]، بل ربما يمثل أهم هذه الأصناف. ويتحدث فيه المؤلف عن الشفاهية التي انبنى عليها الأدب العربي، وما يترتب عليها من أهمية تنقيح النصوص، وما تقود إليه من اضطراب، مبعثه اعتماد الرواة على الذاكرة ـ في الأساس ـ وهذا الاضطراب، بدوره، قد يؤدي إلى التصحيف والتحريف. ويستطرد في ذكر رأي المعري في هذه النقطة، وهو متشعب، كما في قوله: "يجوز أن يقول الشاعر الكلمة، فيغيرها عن تلك الحال النحاة [٦٨]"؛ إما عن جهل وقلة خبرة [٦٩]، أو عن افتقار لقواعد النقد وأصوله [٧٠]. ثم ينتقل المؤلف إلى الحديث عن "توثيق النصوص" والدور الذي قام به المعري في هذا الصدد، فيما يتعلق بالنصوص التي يعرض لها في أعماله، إذ يهتم المعري بالتصحيح اللغوي والنحوي، وإسناد النص لصاحبه، وأكثر من ذلك، حاول المعري إعادة "ترميم" بعض الأبيات، التي عرض لها، بهدف تحسين الأسلوب، أو مراعاة لقواعد المعجم الشعري.

وهذا ـ برغم جدية المؤلف ـ مبحث تقليدي جدا، ليس خاصا بالمعري، فكل من تحدثوا عن "الانتحال" وقفوا أمام هذه النقاط، وأشاروا إلى وقفة القدامى أمامها، فلم يكن لدى المعري جديد، إضافة لما قدمه سابقوه، ولم تسعف نظرية التلقي المؤلف باستكشاف نواح مطمورة في قضية شغلت العرب والأعاجم تحت اسم "الانتحال".

وحين تم استقراء تراث المعري من منظور نظرية التلقي، يبدو "خلط" بيّنٌ، كما في حديثه عن جمهور المتلقين لرسالة الغفران، وأفق انتظارهم، بعد أن تحولت إلى رسالة" تجاوزت إطارها الخصوصي إلى الإطار العام[كيف؟!]؛ فهذا يعني أنها تحولت إلى نص فني ينتمي إلى جنس أدبي له أفق انتظار؛ وله جمهور من المتلقين يتداولونه في الحلقات الأدبية واللغوية. وقد يكون بعض هؤلاء من الناشئة فتشتبه عليهم معاني النص

ومقاصده، فيسيئون فهمه وتأويله"[71].

ومعنى هذا أن جمهوره من صغار المتعلمين، وهؤلاء يجهلون - بحكم سنهم تـ ألفاظ اللغة، ومن ثم يختار المعري ألفاظا مهجورة، وغريبة ثم يشرحها. ولو كان "القارئ الضمني" الذي عناه المؤلف (= صغار المتأدبين) موجودا بحق، وفق هذه الصورة، لاختار المعري ألفاظا سهلة، بدءا، لكن، ربما أراد المعري التعالم والتفاصح، وماذا يمنعه من ذلك؟. وأسلوبه كله قائم على إشعار القارئ بنوع من التعالي الثقافي والغرور المموه، وإلا كيف يكون لزوم ما لا يلزم مضمنا جمهورا يستشعر صاحبه أنه غير مثقف؟.

وربما الأقرب إلى الصواب، ما ذهب إليه كثيرون من تأويل هذه الخشونة اللفظية المتعمدة إلى أنها انعكاس لوضع نفسي صعب عاشه المعري، فانعكس في نثره وشعره، كما ذهب إلى ذلك د. شوقي ضيف. فلما ضاقت عليه حياته" انقلب هذا الضيق من حياته إلى فنه، فإذا هو يعقد على الناس حتى ينفس بتعقيده عن ضيقه"[72]. ومن مستلزمات هذا الضيق هذه الآلية التي سيَّرَ حياته وفقها، وبمقتضاها حبس "وحدد نفسه بقوانين صارمة في مطعمه وملبسه"[73] وانطلق من هذه الآلية الجامدة في مسلك الحياة إلى آلية جامدة في الفن فقام بحبس أفكاره - شعرا ونثرا - في محبس لغوي وعروضي، يتمثل في لغة صلدة، مهجورة، تتوج بلزوم ما لا يلزم.

وإذ يتحدث المؤلف عن تلقي المعري لشعر الآخرين من خلال شرحه لديوان البحتري وأبي تمام والمتنبي، يتحدث عن أفق انتظار التجربة الجمالية عند العرب من خلال سيميولوجيا العناوين: "عبث الوليد" و "ذكرى حبيب" و "معجز أحمد". وهنا يبدو الإسقاط واضحا، والتأويل غير منضبط. وليس أدل على ذلك من محاولة الزج بمصطلحات النظرية بتلك الطريقة:" إن إعجاب المعري بأبي تمام لم يكن لينسيه ذكر بعض الخصائص الأسلوبية التي خرج بها أبو تمام عن أفق الانتظار السائد يومئذ في الشعرية العربية، ويتجلى ذلك في ابتداعه لمكون أسلوبي جديد يعتمد على الغرابة والتشاكل المعنوي، كما يتجسدان في الاستعارة التفاعلية التي استبدلت بالاستعارة الشبهية"[74].

ويستمر هذا "التأويل السيميولوجي" صفحات، لينتقل المؤلف إلى كتاب "معجز أحمد"، ليؤكد في إشارة صريحة على مقصدية سيميولوجية عند المعري، فيرى أنه "

ومن المعلوم أن المعري قد عرف بهذا المنحى في تاريخ الأدب العربي، حيث كان يختار لكتبه عناوين لذاتا بعد سيميولوجي محض، كما هو شأن كتاب "عبث الوليد وذكرى حبيب "وسقط الزند" و"لزوم ما لا يلزم" وغيرها من العناوين التي تكشف عن مقصدية صاحبها وعن حكمه النقدي والجمالي"[٧٥]. ثم يتحدث عن توثيق نسبة الكتاب "معجز أحمد" للمعري، وإشارات القدامى إليه، وإلى كتاب آخر هو "اللامع العزيزي"، وهل هما كتاب واحد، كما ذهب إلى ذلك عبد الله عزام. وينتهي إلى أنهما كتابان مستقلان. ويتحدث عن سبب تأليف الكتاب، وهو راجع إلى تعلق المعري بالمتنبي نفسيا. فأين هذا من التلقي؟. وما الجديد الذي تقدمه نظرية التلقي في هذه الجزئية؟.

وبعد وقفة مع "السرقات الأدبية" يعود المؤلف إلى العنونة السيميولوجية في "عبث الوليد" و"ذكرى حبيب" و"معجز أحمد"، فيرى أنها عناوين سيميولوجية مبنية على غرار مقولات التلقي كما هي عند يوري لوتمان. واعتمادا على مقولات مستمدة من دي سوسير (المحور الأفقي والمحور الرأسي) ينتهي المؤلف إلى إصدار حكم نقدي، خلاصته أن المعري يميل إلى جماليات المعارضة (كما في العنوانين الأخيرين) على حساب جماليات المماثلة (كما في عبث الوليد).

ويقع الفصل الثاني تحت عنوان"المتلقي الانفعالي ولذة النص". ويتحدث فيه المؤلف عن الوزن الشعري، ويخلص من كلام المعري الذي يستعرضه في ثماني صفحات إلى أنه فطرة، ويدير حول الوزن جدلا موسعا، " مفاده أن للشعر علاقة قرابة مع الذات نشأة وتقبلاً، الشيء الذي يعني أن تكون الأداة التي تقاس بها القيمة الجمالية نابعة من الذاتية وذات أصل فطري وغريزي وهو المصدر نفسه الذي نشأ منه جنس الشعر". ويهدف كل هذا إلى التأكيد على أن الوزن غريزة، وليس شيئا يستفاد بالتعلم. ويذهب المؤلف إلى أن المعري لم يعد ينظر إلى الأحكام العروضية - بما فيها قضية الزحافات - نظرة علمية صرفة مجردة من كل بعد إنساني وجمالي. فالأمر لا يتعلق بمادة وموضوع ذي طبيعة علمية خالصة، وإنما يتعلق بموضوع ينغرس عميقاً في كيان الإنسان عاطفة وشعوراً وحساً. يعني بذلك أن هذه الأحكام ترتبط بفن الشعر، وبما أن هذا الفن هو كتلة من المعاني مصدرها العاطفة والحس ووظيفتها إحداث الوقع الجمالي في المتلقي، فالأمر يقتضي أن تكون هذه الأحكام نفسها خاضعة لمبدأ الذاتية والغريزة، وأن يتم التمييز بين جيدها ورديئها وحسنها وقبيحها بناء على الوقع

الجمالي الذي تخلفه في الحس والنفس.

ثم يدرس المؤلف أنواع الزحافات والبحور والأوزان. ويقدم تحليلا دياكرونيا وسانكرونيا (بناء على مصطلحات دي سوسير) لعلاقة الشعر بالموسيقى. ومن خلاله يربط بين جوهر موسيقى الشعر العربي والشفاهية، وأن هذه الموسيقى لا تعدو كونها استجابة لمطالب الشفاهية. ثم يتحدث عن موسيقى الرجز من منظور تاريخي، ويخلص إلى الحديث عن دور القافية في الموسيقى الشعرية.

والفصل الثالث، عنوانه "صورة المتلقي الضمني في النص"؛ يمثل مركز الثقل في الدراسة، ويتحدث المؤلف فيه عن :

١ـ ملامح المتلقي في ديوان سقط الزند

٢ـ اللزوميات ونص الكتابة

٣ـ السجالية

٤ـ المناظرة والحوارية

١ـ ملامح المتلقي في ديوان سقط الزند. وفيها ينطلق المؤلف من افتراض نمطين من التلقي في التراث عامة، ظهر انعكاس لهما في "سقط الزند". (أ) تقليدي. (ب) جديد. وهذه إعادة تسمية لنمطين من الشعر، أولهما امتداد للنسق الجاهلي، قال عنه الأستاذ أحمد أمين، متأثرا بالتفرقة الإمبريالية: جنس سامي وجنس آري، فقال عن الأول، والذي هو انعكاس ـ في رأيه ـ لخصائص الجنس السامي، ومن ثم نجده خلوا من الحضارة والعمق، فلا نجد فيه " عمقا في تفكير، ولا إمعانا وفلسفة في تعبير"[٧٦]، وبعد دخول العقل الآري ضمن منتجي الثقافة الإسلامية، سيظهر نمط جديد به نظرات فلسفية وتأملات فكرية. ويرى المؤلف ـ هنا ـ أن وجود هذين النمطين يستلزم ـ ضرورة ـ وجود نمطين من القراء، يتخصص كل واحد في نسق بعينه. أما الأول فهو شخص حسي، له مواصفات سطحية، تشبعها" الشعرية التقليدية التي يتم الحرص فيها على اللذة الجمالية ذات الجذر العربي المحض، قوامها إرضاء الحسّ الجمالي الذي ساهمت فيه عصور وأجيال فنية رسمت سنّته الثقافية وفق ذوق فني تقليدي يعبّر عن "لا وعي جمعي" لشعرية جاهلية انتهى زمنها الفيزيائي، واستمر زمنها الفني في لا وعي الشعراء اللاحقين[٧٧]".

وكي تكتمل الصورة، يجعل المؤلف هذا الشعر وليد مرحلة البداية لدى المعري، فلما استوى سوقه، تحول - المعري - إلى النسق الثاني، المرتبط بالكمال العقلي، وتخطى مرحلة الحساسية الشهوانية الحسية. و"ضمّ ديوان سقط الزند نماذج من هذا النمط، مثلت المرحلة الثانية من حياة شعر المعري، وما تميزت به من تجديد في الموضوع الجمالي هدفه الأساسي هو تأسيس أفق انتظار جديد للشعرية العربية، يقوم على الصدق بدل الكذب الذي يعد عماد النمط الأول وأسه المتين[٧٨]".

وهذا الكلام مردود من عدة زوايا، أولها أن ربط نضج الشعر بتقدم العمر، مخالف لواقع إبداع الشعراء، فمعظم الأعمال المبدعة هي البدايات التي قدمها الشعراء. وثانيها أنه إعادة اجترار لمقولات إمبريالية ثبت زيفها تماما. وثالثها: افتراض مفارقة النمطين وأن الإنسان يكون (أ) ثم يصبح (ب)، كمن ينتقل من غرفة للثانية، مع أن واقع الحياة على أن الشخص الواحد يتجاور فيه الأضداد، فيكون(أ) ، ثم(ب)، ثم (أ) وهكذا. وهذا يترتب عليه - أيضا - نقض فكرة تقسيم الجمهور إلى صنفين: صنف يتعصب لـ (أ) وآخر لـ(ب)، مع أن واقع حال الجمهور يتجاور فيه النسقان، فنفس القارئ يبحث عن اللذة، ويبحث عن الفكر.

وإذا كان الأمر على هذه الصورة، فإن استنتاج "تغيير في وظيفة الشعر، ترتب عليه ذوق وأعراف فنية جديدة[٧٩]"، ومن ثم كان يستتبع هذا - حتما - وجود متلق جديد، فمثل هذا الاستنتاج يظل محض ادعاء، لا يقوم عليه دليل.

قد يكون مفيدا أن يقسّم المؤلف شعر المعري إلى قسمين كبيرين: (أ) قصيدة اللذة (والعنونة هنا تناص مع بارت في لذة النص) و(ب) قصيدة الرؤية والتجربة، ويشرحها المؤلف كما يلي: " تنطلق قصائد اللذة من قاعدة أساسية تتحكم في بنيتها العميقة، وتتجسد في تكريسها لسلوك جمعي يجعل الأزمنة الفنية المتعددة زمناً واحداً، كما يوحّد القصائد الموزعة على هذه الأزمنة في قصيدة واحدة هي القصيدة المولّدة التي تفرعت عنها قصائد مشابهة في عصور لاحقة تحمل الجينات الوراثية للقصيدة الأم. وهي التي جعلت الشعراء الذين ينتمون إلى هذه الشعرية طبقة واحدة ذات انتماء إلى فضاء شعري واحد. فالتعبير عن قيم جماعية متشابهة هو ما جعل غالبية الشعر العربي ترديداً لقيم جماعية وليس تعبيراً خالصاً عن عوالم فردية. وهذا يعني أن شعراء هذا النمط - انطلاقاً من بعض السمات المتشابهة - يجمعهم "لا وعي جمعي"

واحد، هو المسئول عن توحيد قيمهم وثباتها تلك التي يتصرف في حدودها كل شاعر، سواء أكان جاهلياً أم أموياً أم عباسياً ويحرص على التغني بها وتمجيدها والمحافظة على بقائها واستمراريتها"[٨٠]·

ولكن لن يتفق الباحث مع ما يتوصل إليه المؤلف، بعد هذا الاستعراض الذي يعتمد فيه المؤلف على ركيزة فلسفية وجمالية هائلة، وذوق فني عال - على زحزحة البنية النمطية للقصيدة العربية على يد المعري، ومحاولته خرق أفق انتظار متلقيها·

٢- اللزوميات ونص الكتابة· وفيه يناقش المؤلف قضية اعتقاد المعري، بين الكفر والدين، من خلال اللزوميات· وهذا موطن يدفع كرها إلى إعادة السؤال القديم عن مرجعية الشعر: إلام يشير؟· إلى حقيقة؟ أم خيال؟· وينتهي المؤلف إلى تأكيد أن الشعر كلام تخييلي، وأن أخذه كحقائق وإقامة الحجة على المعري بالكفر من كلامه مخالف لحقيقة الشعر·

ولكي يصل المؤلف إلى هذا، يخالف أهم جوهر في نظرية التلقي، وهو التأويل باعتباره من مقاصد القارئ، وذلك من خلال نفي "نص الكتابة"، والذي ينفي أن يكون "مجموعة من الكلمات والرموز والإشارات الموحية غير المحددة وبينها فراغات تثير نوعا من اللبس والغموض، الأمر الذي يستدعي قارئا يقوم بتأويل وإضافة دلالات أخرى إليه، ربما لم تكن من مقاصد المؤلف نفسه"·[٨١] فلإن أصر المؤلف على ربط التأويل بمقاصد الكاتب، فما الجديد الذي تقدمه نظرية القارئ والتلقي، ألم يكن القدامى ملتزمين بقراءة الشعر في ضوء مقصدية اعتبروها مقاصد المؤلف؟·

أما السجالية، فهي من السجال، الجدل، وهو الحوار الجدلي الذي أسسته اللزوميات، من اتهام لصاحبها بالكفر، وتنزيه له عن ذلك، فلم يعد نص اللزوميات مجرد نزوة شعرية شفاهية، قدر ما تحول إلى "نص كتابي" يثير حفيظة الكتاب، فيردون عليه، كتابة، بصورة موثقة· بعضها نثري، وبعضها في هيئة معارضات شعرية - نقائض - كما عبر المؤلف :" لقد فهم القدماء من هذه الأشعار أنها ليست كباقي النصوص الشعرية التي تقال من أجل اللذة فحسب، وإنما هي نصوص تتضمن مقاصد ودعاوى تتوجه إلى متلق من صنف معين، لا للتأثير فيه، بل لاستفزازه لتصدر عنه ردود أفعال واستجابات تتسم بالاعتراض أو ما يطلق عليه علماء الكلام "المنع"، دون أن تكتسي هذه الردود صبغة تناظرية محضة تعتمد الحجة والدليل، وإنما تجيء على

شـكل معارضـات شعرية سـاخرة أو نظـرات نقديـة يغلـب علـى بعضها الـذم في بعـض الأحيـان، ومـن ثـمَّ ينشأ بـين الـنص ومتلقيـه علاقـة سـجالية كالـدفاع والغلبـة والنقـد والنقض"[٨٢]. وفي المناظرة والحوارية يتحدث عن "التناص" الذي أحدثتـه نـصوص المعـري، كيف عارضها الخلق من بعده، والفارق هنا عن مرحلة السجالية، أن الأدلة العقلية هنا متوافرة بصورة أعمق.

الخاتمة

لا تعدُ نظريةُ التلقي ـ واقعا ـ بكثير أمل في تطوير أدوات النقد، عكس مـا ذهـب إليـه المنظرون. وما حدث في هـذه الدراسـة ـ كـدليل ـ هـو استبدال مـصطلحات قديمـة باليـة بأخرى أكثر بريقا. إن هذا يشبه "نزع الألفـة" الـذي دعـا إليـه أندريـه بريتـون في تبريـره للسريالية، إذ يكون تقديم الشيء المعتاد بصورة براقة هـدفا في ذاتـه. وهـذا مـا يحـدث هنا. إن " النص وتفاعل الخطـاب الأدبي عنـد المعـري" إعـادة وتكـرار لآلاف الدراسـات المنجزة عن شخص ما ناقدا. وتبدأ الدراسة بتمهيـد، والفـصل الأول يتحـدث عـن أدواتـه النقدية، وكيفية تعامله مع النصوص، وهـذا يقـترب، بـل يتطـابق مـع "نقـد النـصوص"، والثـاني يتعـرض لموقـف المعـري مـن موسيقا الـشعر، والثالـث إلى موقـف النقـاد مـن آرائـه الأدبيـة. وهـذه صـورة مكـرورة ومعـادة في النقـد العربـي. وربمـا ميـزة تكـون ميـزة الاحتماء بنظرية التلقي تتمثل في نفي صفة الاستنساخ والتكـرار، بإيهـام القـارئ بأنـه أمام "جديد".

الهوامش والإحالات

1 - القزويني(الإيضاح)٩- مطبعة السنة المحمدية - القاهرة

2 - العسكري(الصناعتين) ٦- عيسى الحلبي – القاهرة - ١٩٥٢

3 - د.جابر عصفور (بلاغة المقموعين) ٨ – مجلة ألف ـ العدد الثاني عشر - ١٩٩٢

4 - السابق/٦

5 - ابن المقفع (الأدب الكبير والصغير) ١٠٦- بيروت- ١٩٧٤

6 - الصناعتين/١٩ وما بعدها

7 - ابـن المعتـز (فـصول التماثيـل في تباشـير الـسرور) ٣٢ – مطبوعـات مجمـع اللغـة العربيـة – دمشق - ١٩٨٩

8 - الصناعتين/٢٧

9 - جابر عصفور(بلاغة المقموعين) ٧ – مجلة ألف. العدد الثاني عشر - ١٩٩٢

10 - انظر. مثلا. كلاما مشابها عن الوظيفة الأيديولوجية للبلاغة في التراث الأوربي ضمن : محمد مطواع (ملاحقة سلطة المعنى : أو دريدا مفككا للميتافيزيقا) مجلة فكر ونقد. الرباط. ٢٠٠٥

وكذلك في دراسة : محمد العمري (القراءة النسقية للبلاغة العربية) الرباط. ٢٠٠٤

11 ـ محمد العماري (ملاحظات حول سيميائيات التلقي) مجلة علامات. العدد ١٠. المغرب. ١٩٩٨

12 - Selected Essays From U. Eco p,115. Yale Univ Press Hiresh. 1992

13 ـ ثمة كتابات نظرية عربية تؤرخ لهذه الانتقالية بتفصيل، يغنينا عن ذكر المراجع، لكثرتها.

14 - U Eco (The Structureof Absent) 185

15 - إلرود إبيش (التلقي الأدبي)١٣ وما بعدها. ترجمة محمد برادة. مجلة دراسات. سال. العدد ٦

16 . أيزر (آفاق استجابة القارئ) ٢١١. ترجمة أحمد بو حسن ومحمد مفتاح. ضمن قضايا التلقي والتأويل. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. المغرب. ١٩٩٥

17 . انظر مقال رامان سلدن وبيتر بروكس (النظريات الموجهة نحو القارئ) من ترجمة الباحث الحالي. ضمن (التأويل : قضاياه ومشاكله. مقالات نقدية مترجمة) دار الثقافة العربية _ القاهرة. ٢٠٠٦

18 . السابق / ٦٣ وما بعدها.

19 . إلرود إبيش (التلقي والتأويل) ١٦

20 ـ خوسيه ماريا (نظرية اللغة الأدبية) ٢٨ . ترجمة د. حامد أبو أحمد . مكتبة غريب . القاهرة

21 . بول ريكور (النص والتأويل) ٤٢. ترجمة منصف عبد الحق. مجلة الفكر العالمي. العدد ٣. سنة ١٩٨٨. الرباط

22 . حميد سمير (النص وتفاعل التلقي في الخطاب الأدبي عند المعري) ٢٢. دمشق. ٢٠٠٥

23 . هذا الكلام لياوص، ترجمه حميد سمير، في المرجع السابق/ ٢٢

24 ـ السابق/٢٣

25 ـ المقال منشور ضمن كتاب روبير هولب (نظرية التلقي : مقدمة نقدية) ترجمة د٠عز الدين إسماعيل ـ منشورات النادي الأدبي بجدة ـ ١٩٩٤

26 ـ توماس كون (بنية الثورات العلمية) ١٥٧ ـ سلسلة عالم المعرفة ـ العدد ـ ١٦٨

27 ـ حميد سمير (ا لنص وتفاعل المتلقي٠٠)٣٣

28 ـ نقلا عن الأستاذ حميد سمير في كتابه (النص وتفاعل المتلقي٠٠)٢٥

29 ـ السابق/٢٨

30 ـ السابق/٢٩

31 ـ نحيل إلى مزيد تفصيل في مقدمة جان ستاروبنسكي لكتاب ياوص في مجلة : دراسات سيميائية أدبية لسانية ـ ٤١ ـ العدد ـ ٦ ـ سنة ١٩٩٢

32 ـ حميد سمير (النص وتفاعل المتلقي ٠٠)٣١

33 ـ آيزر (فعل القراءة) ١٢ ـ ترجمة حميد لحمداني ، الجلالي الكدية ، *مكتبة المناهل، فاس، د.ت.*

34 ـ سارتر (ما الأدب) ٥٥ ـ ترجمة د٠ محمد غنيمي هلال ـ

35 ـ آيزر (فعل القراءة) ١٦

36 ـ حميد سمير (النص وتفاعل المتلقي)٢٨

37 ـ سارتر (ما الأدب) ٤٩

38 ـ يمكن الرجوع في ذلك إلى كتاب (فعل القراءة) ٢٠ وما بعدها٠

39 ـ يمكن الرجوع في ذلك إلى د٠ حسين الواد (في مناهج الدراسات الأدبية) منشورات الجامعة ـ ط٢ ـ ١٩٨٥

40 ـ يمكن مراجعة ذلك في د٠ صلاح فضل (مناهج النقد المعاصر) الدار البيضاء ـ ط١ ـ ٢٠٠٢

41 ـ في حديثه مع د٠ نبيلة إبراهيم في (حديث مع ولفجانج آيزر) مجلة فصول ـ المجلد الخامس ـ العدد الأول ـ ١٩٨٤

42 ـ د٠ حامد أبو أحمد (الخطاب والقارئ : نظريات التلقي ـ تحليل الخطاب وما بعد الحداثة) ٣٥ ـ مؤسسة اليمامة ـ ١٩٩٦

43 ـ السابق/٨٠

44 ـ عامر عبد الله (نصوص مختارة في نظريات النقد الحديث) ٢٠٥ـ بغداد ٢٠٠١

45 ـ السابق / ٢٠٧ ـ هامش ٣

46 ـ انظر مقدمة مترجم كتابه "جماليات التلقي" لمترجمه : رشيد بنجدو ـ الدار البيضاء ـ ٢٠٠٤ـ وفي هذه المقدمة يحكي المترجم عن حوار دار بينه وبين ياوص، وتمنى فيه ياوص ان تتم ترجمة هذا الكتاب ليحدث هذا الانقلاب الجذري لدينا٠

47 ـ إيكو (ملاحظات حول سيميائيات التلقي) ترجمة محمد العماري ـ مجلة علامات ـ العدد ١٠ـ ١٩٨٨ـ المغرب

48 ـ نادر كاظم (المقامات والتلقي : بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث) ٢٠٠٣ ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر٠

49 ـ روبرت هولب (نظرية التأويل) ـ ترجمة د٠ عز الدين اسماعيل ـ منشورات النادي الأدبي بجدة ـ ١٩٩٤

50 ـ راجع : حامد أبو احمد (نظريات التلقي) مرجع سابق

51 ـ راجع له : (ملاحظات حول سيميائيات التلقي) مرجع سابق

52 ـ السكاكي (مفتاح العلوم) ١٦٩ ـ شرح نعيم زرزور ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٣

53 ـ آيزر (جماليات التلقي) ٣٩

54 ـ محمد العمري (القارئ وإنتاج المعنى في الشعر القديم : حدود التأويل البلاغي)٥ ـ مجلة الفكر المعاصر ـ ٢٠٠١

55 ـ يمكن مراجعة ذلك في كتابات أدونيس وخاصة في (صدمة الحداثة) بيروت ـ ١٩٧٨ ـ وكذلك لدى خالدة سعيد في (حركية الإبداع : دراسات في الأدب العربي الحديث) بيروت ـ ١٩٨٢

56 ـ راجع د٠ محمود الربيعي (قراءة الشعر) الفصل الخاص بالعقاد وديوانه عابر سبيل، وكيف أنه واقع لا شعوريا تحت تأثيرات كولردج ووردزورث٠

57 ـ د٠عبد الإله نبهان (بحوث في اللغة والنحو والبلاغة) دار اليمامة ـ حمص ـ ١٩٩٥

58 ـ يمكن مراجعة التلأويل لدى علماء التفسير عند : الآمدي (الأحكام) جـ٣/٧٣ وما بعدها٠ والضوابط التي يضعها علماء الدين لصحة التأويل تجعله مخالفا تماما لنظيره عند علماء الأدب٠

59 ـ أمبرتو إيكو (ملاحظات حول سيميائيات التلقي) علامات ـ ع ١٠ ـ ١٩٩٨

[60] ـ د٠كمال أبو ديب (جدلية الخفاء والتجلي) ٨ ـ بيروت ـ ١٩٨١

[61] ـ د٠ الطيب بو عزة (ملاحظات في نقد تلقي نظرية التلقي) جريدة الزمان _ ١٦ فبراير ـ ٢٠٠٦

[62] ـ هذا عنوان كتاب لروجيه جارودي في نقد البنيوية ٠البنيوية: فلسفة موت الإنسان) ترجمة جورج طرابيشي

[63] ـ طه أحمد ابراهيم (تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع) ٢٣ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٩

[64]

[65] ـ مازن المبارك (مجتمع الهمذاني) ١١٣ ـ دار الفكر ـ ١٩٨١

[66] ـ

[67] ـ انظر : حميد لحمداني (القراءة وتوليد الدلالة) ط٢ ـ ١٩٨٣ ـ الدار البيضاء٠

[68] ـ المعري (رسالة الغفران) ٣٩٢ـ تحقيق د٠ عائشة عبد الرحمن ـ دار المعارف ـ ط٤ ـ القاهرة٠

[69] ـ السابق / ٤٠٥

[70] ـ المعري (رسالة الصاهل والشاحج) ٤٠٥ وما بعدها تحقيق عائشة عبد الرحمن ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٩٨٤

[71] ـ حميد سمير (النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري)٨١ ت منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٥

[72] ـ د٠شوقي ضيف (الفن ومذاهبه في النثر العربي) ٢٦٩ـ دار المعارف ـ ١٩٦٥

[73] ـ د٠ شوقي ضيف (الفن ومذاهبه في الشعر العربي)٢٧٣ـ القاهرة ـ ١٩٤٥

[74] ـ حميد سمير (النص وتفاعل المتلقي ٠٠٠)٨٧

[75] ـ السابق /٨٨

[76] ـ أحمد أمين (ضحى الإسلام) ١ /٣٠٦

[77] ـ حميد سمير (النص وتفاعل الخطاب ٠٠)١٣٢

[78] ـ السابق / ١٣٣

[79] ـ السابق /١٣٦

[80] ـ السابق / ١٣٩

[81] ـ السابق / ١٥٨

[82] ـ السابق / ١٦٠

ظاهرة الثقل والخفة دراسة لغوية

د/ محمد فريد أحمد
كلية البنات – جامعة عين شمس

مقدمة:

تعد ظاهرة الثقل والخفة من الظواهر ذات الأثر البارز في تحليل اللغة العربية والتقعيد لها، يظهر هذا بوضوح في تناول الحركات والحروف والكلمات والجمل، فكل منها قد وصف بالثقل في مواضع معينة ولأسباب محددة، فاجتماع الأمثال والتقاء الساكنين، واجتماع الحروف متقاربة المخرج، ومجيء بعض الحركات مع حروف العلة، وغير ذلك من أنماط الاستعمالات اللغوية يؤدي إلى الثقل، وهو أمر من شأنه أن يؤدي إلى ضرورة السعي إلى تلافي وتجنب هذا الثقل. ومن ثم نجد عددا من الوسائل التي عدت وسائل لتخفيف هذا الثقل كالحذف والقلب، والإبدال، والتسكين، والتحريك، وغير ذلك.

وفكرة الثقل والخفة في الدرس اللغوي مرتبطة بالنظام القائم في عقل مستعمل اللغة، وبأعرافه وعاداته اللغوية، وذلك انطلاقا من أن المستخدم للغة ينزع دائما إلى تجنب كل ما يوسم بالثقل، ويميل إلى التخفيف، شأنه في ذلك شأن جميع تصرفاته في كافة شئون حياته، فالإنسان بصفة عامة يميل إلى السهل والخفيف من الأعمال والتكاليف التي تعرض له في حياته.

وهي أيضا فكرة تتصف بالتجدد النابع من اتصالها اتصالا مباشرا باستعمال اللغة وتوظيفها للأغراض المختلفة، فاللغة دائمة التطور والتغير، وحاجات مستعمليها لا تنتهي، ومهاراتهم اللغوية في

تطور وتغير دائمين، من ثم فمفهوم الثقل والخفة قد يصاب أيضا ببعض مظاهر التغير والتجدد.

من هنا جاء الدافع لتخصيص هذا الموضوع بالبحث والدراسة فهو ذو أثر بارز في تحليل اللغة والتقعيد لها قديما، وذو قيمة علمية نابعة من صلته بالنظام اللغوي القائم في عقل المتكلم والذي يتحكم في جميع ما يصدر عنه، وكذلك بأعرافه وعاداته، واحتياجاته اللغوية المتجددة.

فمها هو مفهوم الثقل؟ وهل يتعلق باللفظ أم بالمعنى أم بهما معا؟ وما هي أسبابه والدواعي إليه؟ وما هي أنواعه؟ وكيف يعرف ويحدد؟ وكيف يمكن تلافيه؟ وهل ما يعد ثقيلا قديما يمكن عده من غير الثقيل في اللغة المعاصرة؟ وهل عد استعمال ما ثقيلا في لغة ما يعني أنه ثقيل على جميع الألسنة الناطقة بلغات أخرى؟ وهل يمكن أن تسهم دراسة هذه الظاهرة دراسة تراعي عامل التطور والتجدد اللغوي في محاولات تيسير قواعد اللغة وتطويرها وتيسير تعليمها للناطقين بغيرها؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تمثل جوهر البحث وهدفه، وهو توصيف وتحليل ظاهرة الثقل والخفة وبحث كيفية الإفادة منها حديثا في تحليل اللغة وتعليمها.

المبحث الأول: مفهوم الثقل والخفة

يرتبط مفهوم الثقل في اللغة بالضعف والتباطؤ والكراهة، فكل من اللسان والسمع واليد يوصف بالثقل إذا ضعف، وإذا تباطأ إنسان

ففي قضاء حاجة آخر يوصف بأنه ثقل عن حاجته، والشيء إذا كرهته النفس يوصف بأنه ثقيل على النفس(١).

وكذلك يرتبط مفهوم الخفة بقلة الثقل أو العدد، وبالأنس والقبول، وبالرقة، فالشيء إذا قل ثقله يوصف بالخفة، والجماعة إذا قل عددها توصف بالخفة، والشخص إذا كان مقبولا مستأنسا وصف بالخفة على القلب، وحال الإنسان إذا رقت وصفت بالخفة(٢).

أما النحاة العرب فنجد مفهوم الثقل عندهم يرتبط بما يأتي:

١- ما لا تحتمله الطبيعة:

والمراد بما لا تحتمله الطبيعة، ما لا يقوى الإنسان على نطقه مما تقتضي طبيعته ضده، فإبقاء ألف المد الساكنة على حالها إذا ضم ما قبلها يؤدي إلى صورة لفظية يستحيل نطقها حسب قدراته الطبيعية التي يتيحها له جهازه النطقي، وهذا نوع من الثقل، ومن ثم وجب التخلص منه بما يتيح للجهاز النطقي أن ينطق الصورة اللفظية تبعا لقدراته ودون مشقة، ومن ثم تتحول (ضارب) بعد ضم ما قبل الألف إلى (ضويرب)، وهي صورة يسهل نطقها بمقتضى الطبيعة(٣).

٢- تكلف ضد ما تقتضيه الطبيعة:

قد تقتضي طبيعة المتكلم نمطا نطقيا معينا ثم يتكلف عكسه، وهذا أيضا يعد أحد مفاهيم الثقل، وذلك كالإدغام، فطبيعة الإنسان تقتضي وجوبه في مواضع منها: التقاء النون الساكنة بالراء في نحو (من رأيت)، فالواجب هنا هو الإدغام وعدم بيان النون، وحدوث ما

---

(١) لسان العرب مادة (ثقل) والمعجم الوسيط مادة (ثقل).

(٢) لسان العرب مادة (خفف) والمعجم الوسيط مادة (خفف).

(٣) الخصائص لابن جني ١/٨٩، ٩٠.

يخالف ذلك يعد مظهرا من مظاهر الثقل؛ لأنه سيؤدي إلى تجشم الوقوف على الحرف الأول، بالرغم من أن الأصل هو الوصل، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى صورة نطقية معيفة في الأسماع[1].

٣- ما يثقل على النفس:

قد تقبل طبيعة المتكلم نطقين، ولكنه يتحاشى أحدهما لاحتياجه إلى مجهود في النطق أكثر من الآخر، ومن ثم يعد ثقيلا على نفسه، فهو يتحاشاه سعيا للتخفيف، وذلك كتعليل عُمارة ابن عقيل قراءته (ولا الليلُ سابقُ النهارَ)[2] لمن سأله عن سبب عدوله عن التنوين في كلمة (سابق) حيث قال: (لو قلته لكان أوزن)، أي: أثقل في النفس، وبالتالي فعدوله عن التنوين كان للتخفيف[3].

٤- طول الكلام:

المتكلم قد يلجأ إلى الإطالة في الكلام لأغراض معينة، وهذه الإطالة يتجشمها المتكلم مكرها، فهو يفعل ذلك لضرورة تدعو لذلك كالتوكيد، والنفس بطبيعتها إلى الإيجاز أميل، ومن ثم نجد من أساليب التوكيد عند العرب قولهم: (جاء القوم أجمعون، أكتعون، أبصعون، أبتعون) لم تكرر (أجمعون) بكل حروفها وإنما الذي تكرر هو حرف (العين مع ما يليه) وذلك لأن إعادة (أجمعون) أكثر من مرة سيؤدي إلى ثقل منشؤه الجمع بين الإطالة وبين تكرير الحروف كلها، ومن ثم جاء عدم التكرير بمثابة التخفيف لهذا الثقل[4].

---

(١) الخصائص لابن جني ١/٩٤، ٩٥.

(٢) سورة يس الآية (٤٠) والقراءة في البحر المحيط ٧/٣٣٨.

(٣) الخصائص لابن جني ١/٢٥٠.

(٤) الخصائص لابن جني ١/٨٤.

٥- تقارب حروف الكلمة من المخارج:

إن نطق عدد من الحروف المتقاربة المخرج بشكل متتال مظهر من مظاهر الثقل؛ لأنه يكلف الناطق أن ينطق جرسا واحدا وحركات مختلفة، وهذا ما يحدث لو تألفت كلمة من (الهمزة والهاء والحاء) وهي حروف حلقية، يضاف لذلك أن بعضها قد يتحول إلى صورة أخرى من الحروف التي تتحد معه في المخرج، كما تحولت الهمزة إلى هاء في بعض اللهجات كما في قولهم (هراق الماء) بدلا من (أراق الماء)، وهذا من شأنه أن يحدث لبسا في فهم الكلمة والمراد منها أيضا إذا تألفت من حروف متحدة المخرج؛ وهكذا تثقل الكلمة أو تخف حسب التناسب بين حروفها من حيث المخارج قربا أو بعدا[١].

٦- معنى الكلمة ومدلولاتها:

قد توصف الكلمة بالثقل أو الخفة تبعا لقلة أو كثرة مدلولاتها ولوازمها، فالخفيف من الكلمات ما قلت مدلولاته ولوازمه كالاسم؛ فهو يدل على مسمى واحد لا يلزمه غيره في تحقق معناه ككلمة (رجل - فرس - قلم) فكل منها يدل على ذات معينة لا تقترن بزمان ولا غيره، هذا بخلاف الفعل الذي تتعدد مدلولاته ولوازمه فهو يدل على الحدث والزمان، ولوازمه الفاعل والمفعول، كالأفعال (يكتب - يفتح - يقرأ) ولهذا توصف بالثقل[٢].

٧- طريقة توالي الحركات التي تتحرك بها الحروف:

---

(١) المزهر للسيوطي ١/١٩١، ١٩٢.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ١/١٧٥.

يعد توالي الحركات دون سكون في كلمة واحدة مظهرا من مظاهر الثقل، ومن ثم لا يوجد في كلام العرب أربعة حروف متحركة متتالية في كلمة واحدة(١).

وهكذا يظهر أن مفهوم الثقل عند علماء اللغة يتلاقى مع المفهوم اللغوي للكلمة في الدلالة على كل ما يؤدي إلى الضعف والكراهة والتكلف، ويظهر أيضا أنه يشمل المستحيل مما لا يمكن نطقه وغيره مما يمكن نطقه بتكلف، ويشمل أيضا النطق والسمع أي أن الكلام قد يوصف بالثقل من حيث نطقه، ويوصف به أيضا من حيث وقعه على الأذن، ويشمل أيضا اللفظ والمعنى، فالثقل لا يتعلق بالناحية اللفظية فقط، وإنما يتعلق أيضا بمعنى الكلمة ومدلولاتها ولوازمها، ويشمل أيضا الناحية الخاصة بذوق المتكلم وإحساسه اللغوي، فهو قد يستثقل استعمالا ما لأن ذوقه قد أشعره بذلك، وهكذا فإن اعتبارات الثقل تتوزع بين المتكلم والمادة المنطوقة والسامع.

إذن فهناك ثقل يمكن وصفه باللغوي انطلاقا من تعلقه بأبرز عناصر الحدث اللغوي وهي المتكلم والمادة المنطوقة والسامع، فما مدى تأثير هذا المفهوم في دراسة اللغة وتحليلها؟ وكيف تم توظيفه لهذا الغرض؟ وهل كان ذلك التوظيف مبعث اضطراب وتناقض في نتائجه وآثاره يوحي بعدم ملائمة هذا المفهوم لدراسة اللغة وتحليلها أم لا؟.

إن الإجابة عن هذه الأسئلة من شأنها أن توضح قيمة مفهوم الثقل والخفة كأداة من أدوات دراسة اللغة وتحليلها، وهو ما يتطلب

---

(١) الأصول في النحو لابن سراج ١٨٤/٣.

التعرض بالدراسة والتحليل لمقاييس ودواعي الثقل وما نجم عنها، وهو ما سوف يتطرق إليه البحث فيما يلي:

المبحث الثاني: دواعي الثقل

إن وصف مسلك أو استعمال لغوي ما بالثقل يتطلب وجود داع يرتد إليه هذا الوصف، هذا الداعي هو المقياس الذي على أساسه يحكم بالثقل، فالثقل يوجد طالما وجد هذا الداعي ويزول بزواله، ودواعي الثقل متعددة ومتنوعة، ولها ضوابطها الخاصة.

وتجدر الإشارة قبل الحديث عن دواعي الثقل إلى أن الثقل قد تناوله اللغويون العرب باعتبارين وهما: الوضع، والاستعمال، فهناك ما يمكن أن يطلق عليه (الثقل الوضعي) وما يمكن أن يطلق عليه (الثقل الاستعمالي).

والثقل الوضعي يقصد به الثقل الذي وضع عليه الحرف أو الكلمة أو الصيغة أو التركيب من أول حاله، وذلك انطلاقا من أن ظاهرة الثقل والخفة من الأصول التي وضعت عليها اللغة، وأن عناصرها لا تتساوى في ذلك الأمر، وهذا ما يؤيده تفريق الفصحاء العرب بين عناصر لغوية معينة، فيستثقلون بعضها ويستخفون البعض الآخر، وهم يفعلون ذلك بناء على إيمانهم بذلك التفاوت بين عناصر اللغة من حيث الثقل والخفة.

يقول ابن جني: (... ومنه إسكانهم نحو رُسُل، ... وكَبِد واستمرار ذلك في المضموم والمكسور دون المفتوح أدل دليل – بفصلهم بين الفتحة وأختيها – على ذوقهم الحركات واستثقالهم بعضها واستخفافهم الآخر)(١).

---

(١) الخصائص لابن جني ٧٦/١.

وهكذا نجد أصولا مجردة كثيرة استنبطها النحاة من كلام العرب واستعمالاتهم وتصرفاتهم في لغتهم يمكن أن تمثل (الثقل الوضعي) وذلك كقولهم: (أثقل الحركات الضمة)[١] (الواو أثقل من الياء)[٢]، (الميم أثقل من النون)[٣]، (المركب أثقل من المفرد)[٤]، (الجموع ثقيلة)[٥]، (الهمزة أثقل الحروف)[٦]، (الفعل أثقل من الاسم)[٧]، (الرباعي أثقل من الثلاثي)[٨].

هذه الأمثلة وغيرها تمثل تلك الأصول الذهنية المجردة التي وضعها النحاة واللغويون لضبط فكرة الثقل والخفة، فهناك أثقل الحركات، وأثقل الحروف، وأثقل الصيغ، وأثقل الكلمات، والوصف بالثقل وصف يلزم هذه الأشياء قبل التركيب وقبل أن توضع في أي سياق تقترن فيه بأي شيء آخر.

وهناك ثقل آخر توصف به صور معينة من الاستعمالات، فهو يوجد عند تحقق هذه الأنماط من الاستعمالات، ويزول بتغيير هذه الأنماط، فهي صور من الاستخدام اللغوي للحركات والحروف والكلمات والتراكيب يوصف من خلالها الاستعمال بأنه ثقيل وليس الحركة بمفردها ولا الحرف ولا الكلمة، ومن ثم يمكن وصف هذا الثقل بالثقل الاستعمالي أو التركيبي.

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ١٩٣/١.
(٢) الخصائص لابن جني ٢١/٣.
(٣) الخصائص لابن جني ٢٢/٣.
(٤) الأشباه والنظائر للسيوطي ٣٢٣/١.
(٥) الأشباه والنظائر للسيوطي ١٦٤/٢.
(٦) المقتضب للمبرد ٢٩٢/١.
(٧) الإيضاح في علل النحو للزجاجي ص١٠٠.
(٨) الخصائص لابن جني ٦٢/١.

ومن ذلك النمط: اجتماع الأمثال[١]، وسبق الياء الساكنة للواو في كلمة واحدة[٢]، والجمع بين أربع متحركات في كلمة واحدة[٣]، ووقوع ألف الجمع بين همزتين[٤]، ووقوع الياء بعد ضمة[٥]، والجمع بين حرفين متقاربين في المخرج[٦]، واجتماع ثلاثة أشياء في جملة الصلة بحيث تصير مع الاسم الموصول أربعة أشياء دالة على شيء واحد[٧].

إذا فالثقل قد يطلق باعتبار الوضع، وقد يطلق باعتبار الاستعمال داخل التراكيب والسياقات المختلفة، وكل من هذين النوعين له دواع وأسباب يستند إليها تمثل في مجملها أساس فكرة الثقل، فمن خلال هذه الدواعي والأسباب تظهر فكرة الثقل واضحة جلية، ويتضح مدى الضبط في الأسس التي قامت عليها ومدى اتساقها مع أصول اللغة وضوابطها.

وبتتبع مظاهر الثقل والخفة في كتب اللغة يظهر أن أبرز هذه الدواعي يتمثل فيما يأتي:

١- بعد المخرج:

وهذا السبب كما هو ظاهر يختص بالحروف، وقد علق عليه بعض العلماء الثقل الذي توصف به بعض الحروف كالهمزة، فهي

---

(١) الأصول لابن السراج ٣/٣٦٢.

(٢) الخصائص لابن جني ١/٥١.

(٣) الأصول لابن السراج ٣/١٨٤.

(٤) الأصول لابن السراج ٣/٣٤٠.

(٥) الخصائص لابن جني ١/١٧٦.

(٦) الأصول لابن السراج ٣/٤٣٢.

(٧) الأصول لابن السراج ٢/٢٧١.

أثقل الحروف لهذا السبب، ودلالة البعد هنا تقترن بمدى الجهد العضلي المبذول في نطق الحرف مقارنة بأي حرف آخر، وبترتيب مخرجه في الجهاز النطقي من حيث القرب والبعد، وهذا ما نجده في الهمزة، فهي أدخل الحروف في الحلق؛ إذ إن مخرجها هو أقصى الحلق، وهي أيضا تحتاج إلى جهد عضلي يزيد على ما يحتاجه أي صوت آخر، فهي تنتج عن سد فتحة المزمار الموجودة بين الوترين الصوتيين، وذلك بانطباق الوترين انطباقا تاما وحبس الهواء خلفهما بحيث لا يمر من الحنجرة إلى الحلق ثم ينفرج الوتران فيخرج الهواء فجأة محدثا صوتا انفجاريا، وهي أيضا لها نبرة كريهة تجري مجرى التهوع(١).

وهكذا فإن بعد مخرج الهمزة واحتياجها إلى جهد عضلي زائد عند إخراجها يجعلها توصف بالثقل، وهو أمر يؤيد اتصافها به ميل بعض العرب إلى اتخاذ تخفيفها لهجة لهم، وهم أكثر أهل الحجاز في غالب أحوالهم بخلاف بني تميم الذين كانوا يميلون إلى تحقيق الهمزة في غالب أحوالهم(٢).

ولاحتياج الضمة إلى جهد في النطق يتمثل في تحريك الشفتين مع إخراج الصوت أكثر مما تحتاجه الفتحة التي تتطلب تحريك وسط الفم مع إخراج الصوت – عدت الضمة أثقل من الفتحة، فما عمل فيه

---

(١) المقتضب للمبرد ٢٩٣/١، وشرح الرضي على الشافية ٣١/٣، وشرح المفصل لابن يعيش ١٠٧/٩، والأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ص٩٠، ٩١، ودراسات في علم اللغة للدكتور كمال بشر. القسم الأول ص٩١، ومشكلة الهمزة العربية للدكتور رمضان عبد التواب ص٢٤.

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ١٠٧/٩، ومقدمة لسان العرب لابن منظور. وهي إلى جوار التحقيق والتخفيف يدخلها الإبدال، ففيها ثلاثة وجوه كما ذكر سيبويه. الكتاب ١٦٣/٢.

عضوان أثقل مما عمل فيه عضو واحد[1]، ومما يؤيد اتصاف الضمة بهذه الصفة أن المبني على الضم هو أقل أنواع المبنيات من حيث العدد، فالمبني على الضم كلمات قليلة أقل من المبني على الكسر ومن المبني على الفتح، وكذلك قلة وجود الضم في الفعل، فهو ليس كالاسم في ذلك، والسبب أن الفعل أثقل من الاسم، فقل فيه الضم لئلا يكثر الثقل[2].

٣- فقدان التناسب الصوتي بين حرف وحركة:

ثمة صلة بين حروف المد واللين، وهي الألف والواو والياء، وبين حركات الإعراب الضمة والكسرة والفتحة، هذه الصلة تتمثل في التشابه الصوتي الذي جعل بعض النحاة يصفون حركات الإعراب بأنها أبعاض هذه الحروف، فالفتحة بعض الألف، والضمة بعض الواو، والكسرة بعض الياء، وكان بعض متقدمي النحويين يسمون الفتحة (الألف الصغيرة)، والكسرة (الياء الصغيرة)، والضمة (الواو الصغيرة)[3].

وكل حرف من هذه الحروف الثلاثة يمثل صوتا يختلف عن الصوت الذي يمثله كل حرف من الحرفين الآخرين، فالألف ينفتح معها الفم والحلق، والياء تكتنف معه الأضراس العليا والسفلى جنبتي اللسان وتضغطه، والواو يضم لها معظم الشفتين مع بعض الانفراج

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ١/١٩٣.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ١/١٩٤.

(٣) سر صناعة الإعراب لابن جني ١/١٩، ٢٠. وقد خالف ذلك بعض النحاة كأبي البقاء العبكري الذي رفض عد الحركة بعض الحرف. اللباب في علل البناء والإعراب للعبكري ١/٦٣، ٦٤.

ليخرج منه النفس[1]، فالفم والحلق في ثلاثة أحوال مختلفة، وبالطبع فالناتج ثلاثة أصوات مختلفة، وكذلك الحركات الثلاثة تمثل كل وحدة منها صوتا يختلف عن الأخريين، هذا الصوت هو بعض صوت الحرف المقابل له من حروف المد واللين.

وهذا الخلاف الصوتي بين حروف المد واللين الثلاثة، وكذلك بين الحركات التي هي أبعاضها، يجعل من مجيء أحد هذه الأحرف محركا بحركة غير مجانسة له مصدر استثقال في أحيان كثيرة، فالضمة تستثقل على الياء في نحو (يرمي) عند إسناده لواو الجماعة، إذ إن الأصل يكون: (يرميُون)، وكذلك الكسرة تستثقل على الواو في نحو (يغزو) عند إسناده لياء المخاطبة، إذ إن الأصل يكون (تغزوِين)[2]، ونتيجة لذلك يسكن كل من الواو والياء بعد نقل حركة كل منهما إلى الحرف الذي قبله، ثم يحذف كل منهما لالتقاء الساكنين فيصير شكل الفعلين (يرمون) و(تغزين).

والاستثقال هنا ليس قاصرا على تحريك الحرف بحركة غير مجانسة له، وإنما وقوعه بعدها أيضا، وذلك كما في قلب الواو (ياء) في نحو (ديار) جمع (دار) وذلك استثقالا للواو بعد كسرة[3].

والثقل هنا مبعثه عدم وجود انسجام صوتي بين حركة وحرف يتسم كل منهما بخصائص صوتية تختلف عن الآخر، وعدم الانسجام الصوتي هذا أمر تتحاشاه اللغة في كثير من ظواهرها، فصيغة (فَعُلَ) لا يأتي لامها (ياء) استثقالا، إنما تكون لامها (واو) مثل: (سَرُوَ)[4]،

(١) سر صناعة الإعراب لابن جني ١/٨، ٩.

(٢) الخصائص لابن جني ٣/١٤٠.

(٣) الكتاب لسيبويه ٣٦٩/٢. الكسرة تقلب الواو (ياء) إذا كانت ساكنة، والواو في (ديار) ونحوه غير ساكنة ولكنها أشبهت الساكنة باعتلالها في الواحد ومن ثم اعتلت في الجميع.

(٤) الأصول لابن السراج ٢٤٧/٣.

وياء المتكلم أبدا تكسر الحرف الذي قبلها إذا كان صحيحا نحو (غلامي - صاحبي)[1].

٣- فقدان التناسب الصوتي بين حركة وحركة:

تشبه هذه الحالة ما قبلها في أن سبب الثقل مرده عدم التجانس الصوتي ولكنه بين حركتين، وليس بين حرف وحركة كسابقه، وهذا صورته أن تتجاور حركتان، نطقهما متجاورتين ليس مستحيلا ولكن فيه شيء من الثقل وهو ما قد ينتج عنه تغيير إحداهما إلى نفس جنس الأخرى طلبا للخفة، وهذا ما أطلق عليه النحاة (الإتباع).

من ذلك تحريك حرف بحركة غير الواجبة له من حيث الإعراب إتباعا لحركة الحرف التالي له كما في قراءة (الحمدِ لله)[2] بكسر الدال إتباعا لكسرة اللام التالية لها؛ وذلك كراهة الخروج من ضم إلى كسر، وكذلك قراءة (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةُ اسْجُدُوا) بضم التاء من الملائكة إتباعا لحركة الجيم ونسبت هذه اللغة لأزد شنوءة[3]، ومنه أيضا اتباع حركة اللام لحركة الفاء في المضاعف من المضارع المجزوم والأمر إذا لم يفك الإدغام فيهما في بعض لغات العرب، فيقال (عضَّ ولم يعضَّ) بالفتح إتباعا لحركة العين، و(فرِّ ولم يفرِّ)

---

(١) الخصائص لابن جني ١/١٧٥.

(٢) هي قراءة الحسن البصري وزيد بن علي وإبراهيم بن أبي عبلة. المحتسب في شواذ القراءات لابن جني ١/٣٧، وإعراب ثلاثين سورة لابن خالويه ص١٨. والآية رقم (٢) من سورة الفاتحة.

(٣) سورة البقرة الآية (٣٤). وهي قراءة أبي كعفر يزيد بن القعقاع وغيره. البحر المحيط لأبي حيان ١/١٥٢، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢١٠.

بالكسر إتباعا لكسرة الفاء، و(ردُّ ولم يردُّ) بالضم إتباعا لضمة الفاء[1].

٤- فقدان التناسب الصوتي بين الحرف والحرف:

الحروف أيضا قد تكون مبعث ثقل إذا تجاورت ولم يكن بينها تجانس صوتي، ومن ثم يحدث القلب أو الحذف أو غير ذلك لتلافي هذا الثقل، وهذا ما نجده في قلب الواو ياء في نحو (سيد وميت) فالسبب في ذلك وقوع الياء الساكنة قبلها، فاجتماع الياء الساكنة مع الواو على هذا النحو مبعث ثقل لفظي، ومن ثم عدل عن صيغة (سيود) الثقيلة إلى صيغة (سيد) الخفيفة[2].

ومن ذلك أيضا حذف الواو من (يعد) وذلك لوقوعها بين ياء وكسرة، وهذا مبعث ثقل، ومن ثم عدل عن (يوعد) الثقيلة إلى (يعد) الخفيفة[3].

فهذا ونحوه مبعثه الاعتناء بالتناسب الصوتي بين الحركات والحروف حتى يسهل نطق الكلمات وترديدها دون مشقة.

٥- التشابه بين حركة وحرف:

إن التشابه الحادث بين بعض الحروف والحركات كالذي بين حروف المد والحركات الإعرابية يعد مدعاة للثقل؛ وذلك يرجع إلى

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ١/١٤.

وقد ضعف بعض النحاة هذا النمط من الاستعمال لمخالفته للأصول التي تقضي بوجوب المحافظة على العلامة الإعرابية، وأن حركة الإعراب مقدمة على حركة البناء ومن ثم فلا يتبع الإعراب البناء. إملاء ما من به الرحمن للعكبري ١/٥، والكشاف للزمخشري ١/٦٢، والمحتسب لابن جني ١/٧١.

(٢) الخصائص لابن جني ١/٥٠، ٥١.

(٣) الخصائص لابن جني ٢/٣٢٧.

التوافق والتماثل بين هذه الحروف وحركات الإعراب في المخرج[1]، وإلى أن حروف المد وحركات الإعراب إذا اشبعن ومطلن أدين إلى حرف آخر غيرهن شبيه بهن وهو الهمزة[2]، وهذا التماثل يجعل الجمع بين الحركة والحرف الذي تشبهه بمثابة تكرار للحرف الواحد، وهو أمر من شأنه أن يكون مصدر ثقل.

ومن ثم نجد حركة فاء المصدر (لَيَّان)[3] هي الفتح بالرغم من أن وزن (فَعْلان) لا يكون مصدرا، فالأصل (لِيَّان) على (فِعلان) ولكن استثقلت الكسرة مع الياء[4]، وأيضا عند النسب إلى اسم على وزن (فَعِل) فإن العين تفتح استثقالا لاجتماع الكسرتين واليائين في اسم ليس فيه حرف غير مكسور إلا حرفا واحدا، ومن ثم يقال في النسب إلى (نَمِر): (نَمَرِيّ)[5]، وأيضاً الثاء في (حيث) من العرب من يبنيها على الضم ومنهم من يبنيها على الفتح ولم تبن على الكسر استثقالا له مع الياء[6].

وهكذا فالجمع بين الحركة وحرف العلة المشابهة له قد يكون مصدر ثقل أحيانا كما في نموذج الكسرة والياء السابق عرضه وهو الأمر الذي يؤدي إلى تغيير الحركة إلى حركة أخرى يتم معها تلافي الثقل الحادث من الجمع بين الحركة الأولى والحرف، وهو ما حدث

---

(١) شرح الملوكي في التصريف لابن يعيش ص٣٤٦، ٣٤٧.

(٢) الخصائص لابن جني ٣١٨/٢.

(٣) مصدر من (لويته).

(٤) الأصول لابن السراج ٨٧/٣.

(٥) الأصول لابن السراج ٦٤/٣.

(٦) الأصول لابن السراج ١٤٤/٢.

في حالة الجمع بين الكسرة والياء حيث يتم استبدال الفتحة بالكسرة لأن الفتحة أخف قبل الياء من الكسرة(١).

٦- تماثل الحروف:

إن نطق حرفين متماثلين متجاورين من غير إدغام يجعل اللسان يتحرك كتحرك المقيد الذي يمشي، فهو يرتفع ويرد إلى مكانه مرة أخرى، وهو أمر صعب على اللسان، فالحروف المتجاورة كلما تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت(٢).

ومن ثم نجد أن نطق (قوّة) سائغ وسهل بينما نطق (قووت) كغزوت مستثقل، وبالتالي لم يقله العرب، وسهولة نطق الواو مدغمة مع مثلها يأتي من أن اللسان يرتفع بهما رفعة واحدة وليس مرتين كما في نطق الواو مع مثلها دون إدغام كما في المثال المذكور(٣).

وهكذا نجد اجتماع المثلين أمرا مستثقلا يدفع إلى القلب أو الحذف أو الفصل، وذلك كالجمع بين الهمزتين في أول الكلمة(٤) أو الواوين في أول الكلمة(٥)، أو الجمع بين ياءين(٦) أو ثلاثة ياءات(٧) أو الجمع بين لامين(٨) أو نونين(٩) وغير ذلك.

---

(١) الخصائص لابن جني ١٧٦/١.

(٢) الجمهرة لابن دريد ٦/١ - ١٣، وثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني ص٨٧، ٨٨، ١٦٩.

(٣) الأصول لابن السراج ٢٥٩/٣.

(٤) الخصائص لابن جني ١١٢/١، ١٨٢.

(٥) الخصائص لابن جني ١١٣/١.

(٦) الأصول لابن السراج ٣٦٢/٣.

(٧) الأصول لابن السراج ٣٥٩/٣.

(٨) الخصائص لابن جني ٢٣٣/٢.

(٩) الخصائص لابن جني ٩٤/٣.

٧- تقارب الحروف:

والتقارب يكون في المخارج والصفات، والثقل هنا يشبه الثقل الحادث بسبب التماثل - وهو المذكور في الحالة السابقة - في أن التقارب الشديد بين الحروف يؤدي إلى ثقل عضوي مرده أن اللسان يرتد إلى مكانه مرة أخرى، ومن ثم نجد أن الجمع بين حرفين كالتاء والدال، والضاد والطاء، والتاء والطاء، مستثقل، فكملة (وَدٌّ) أصلها (وتِدٌ) ثم أسكنت التاء وأدغمت في الدال استثقالا للجمع بين التاء والدال[1]، وكذلك بعض العرب يقولون (اطَّجع) في (اضطجع) كراهية التقاء المطبقين[2]، وكذلك يحذف بعض العرب التاء من (يستطيع) استثقالا لها مع الطاء[3].

وللجمع بين الحروف المتقاربة صورة أخرى تتمثل في وقوع حرف بين حرفين متماثلين، هذا الحرف قريب من هذين الحرفين المتماثلين، وحينئذ يتم تجنب هذه الصورة؛ لأنها ستؤدي في النهاية إلى ما يشبه الجمع بين الأمثال، وذلك مثل (حمراء) عند التثنية تقلب الهمزة واوا؛ لأن بقاءها كما هي يؤدي إلى وقوع الهمزة بين ألفين، والهمزة قريبة من الألف وهذا يؤدي إلى اجتماع أمثال[4]، وكذلك جمع (ذؤابة) على (ذوائب) وليس على (ذأائب) وهو الأصل الذي يقتضي بأن تقع ألف الجمع بين همزتين، ولما كان ذلك مصدر ثقل لأن الهمزة قريبة من الألف وهو ما يعني الجمع بين الأمثال عدل عن ذلك إلى (ذوائب) بإبدال الهمزة الأولى واوا[5].

---

(١) الأصول لابن السراج ٤٣٢/٣.

(٢) الأصول لابن السراج ٤٣٣/٣.

(٣) الأصول لابن السراج ٤٣٢/٣.

(٤) الأشباه والنظائر للسيوطي ٢٤/١.

(٥) الأصول لابن السراج ٣٤٠/٣.

٨- طول الكلام:

يعد طول الكلام أحد دواعي الثقل، وخاصة إذا لم يكن لهذا الطول داع، فالإطالة في الكلام دون داع كلفة على المتكلم وملالة للسامع وكلاهما مكروه.

ومن هنا كان الإيجاز أخف، والنفس تنزع إليه ما دام إليه سبيل، وهذا ما نلمسه أيضا من كثرة ما ورد عن العرب من أساليب يظهر من خلالها كراهتهم للإطالة التي لا داعي لها وميلهم للإيجاز طالما أنه يؤدي إلى المراد، كحذفهم حرف الجر بعد الفعل المتعدى به كقولهم: (ذهب الشام)، و(دخلت البيت) قاصدين (إلى الشام) و(في البيت)(١) وكحذفهم المفضل عليه عند قولهم (أنت أفضل) و(الله أكبر) قاصدين (من أحد) و(من كل شيء)(٢)، وكقولهم (الذي ضربت زيد) بحذف الهاء التي في صلة الذي إذ إن الأصل (ضربته) وذلك استثقالا لاجتماع ثلاثة أشياء في الصلة (فعل وفاعل ومفعول) يصرن مع (الذي) أربعة أشياء تقوم مقام اسم واحد، وبالتالي يحذفون الهاء لطول الاسم(٣)، وكقولهم: (استحيت) بدلا من (استحييت) بحذف إحدى الياءين استثقالا بسبب دخول الزوائد (الألف والسين والتاء)(٤) ويلحق بذلك أيضا طول الحركات، أي: كثرتها متتالية، ومن ثم كره العرب الجمع بين أربعة حركات متتالية في كلمة واحدة، فهم عندهم مستثقل(٥).

---

(١) الكتاب لسيبويه ١/١٥، ١٦.

(٢) الكتاب لسيبويه ١/٢٢٣.

(٣) الأصول لابن السراج ٢/٢٧٠، ٢٧١.

(٤) الأصول لابن السراج ٣/٢٥٠.

(٥) الأصول لابن السراج ٣/١٨٤، والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ص٢٨٦، ٢٨٧.

٩- الابتداء بحركة معينة:

يعد الابتداء بالساكن أحد دواعي الثقل؛ لكونه غير ممكن، فالنطق بالساكن ابتداء من غير واسطة تجعل نطقه ممكنا أمر لم تألفه لغة العرب ولم تستعمله(١).

إن السكون علامة وقف، وهو الأصل فيه عندما يكون آخر الكلام الموقوف عليه متحركا؛ لأن الوقف انتهاء والانتهاء يلائم السكون، ومن هنا يعد الابتداء بالساكن متناقضا مع ما يقتضيه الوقف بالسكون، ومن ثم وجب الابتداء بمتحرك.

فإذا كان بناء الكلمة على أن أولها ساكن احتيج حينئذ إلى واسطة ينطق بها هذا الساكن، وهذا ما يبدو واضحا من مواضع همزة الوصل التي تقوم بهذه المهمة(٢) بحيث إنه لو تحقق الغرض دون الحاجة إليها تسقط وتحذف، كما يحدث في درج الكلام حيث تحذف همزة الوصل لإمكان النطق بالساكن بواسطة ما قبله من كلام.

من ذلك أيضا ابتداء الثنائي في الغالب بالفتح أو الكسر، أما الضم فقليل مثل (هُوَ)؛ وذلك لثقل الضمة عن الكسرة والفتحة(٣).

١٠- المدلولات واللوازم:

يتعلق أمر الثقل أحيانا بالمعنى، وذلك عندما تكثر دلالات اللفظ التي يتضمنها، وتكثر لوازمه التي تتعلق به معنى ولفظا، ومن ثم يعد

---

(١) أما في غير لغة العرب فقد ذكر ابن جني أنه مستعمل في لغة العجم. الخصائص ٩٢/١، وذكر السيوطي استحالته في جميع اللغات. همع الهوامع ٢١١/٢. وكذلك فعل ابن يعيش الذي أنكر أيضا ادعاء وجوده في لغة العجم مستندا إلى تناقض ذلك مع الواقع الذي يشهد باستحالة ذلك من الناحية الحسية. شرح المفصل لابن يعيش ١٣١/٩.

(٢) الكتاب لسيبويه ١٤٤/٤.

(٣) الخصائص لابن جني ٧٠/١.

الفعل أثقل من الاسم؛ لكون الاسم يدل على مسمى واحد كلفظ (رجل) الذي يدل على الذكر من بني آدم، و(الفرس) وهو الحيوان الصهال، والاسم لا يلزمه غيره في تحقق معناه، أما الفعل فليس له مدلول واحد وإنما يدل على الحدث والزمان معا، وكذلك فإنه يستلزم الفاعل والمفعول[1].

هذه أبرز دواعي الثقل وأسبابه التي يرتد إليها، وهي كما يبدو في معظمها تتعلق باللفظ المنطوق حرفا أو حركة، فالجمع بين الحروف، أو بين الحركات، أو بين الحروف والحركات قد يشوبه ما يجعل منه مصدر ثقل لفظي، كالتقارب أو التماثل أو التضاد، وكذلك نطق الحروف قد يشوبه ما يجعل منه مصدر ثقل لفظي كبعد المخرج، وهو أمر يشير إلى أن الثقل يرتد في معظمه إلى أسباب ودواع تتصل بالنطق.

إن عملية النطق هي الصورة التي تتجلى فيها وتتجسد العملية اللغوية، وذلك من خلال الأصوات وطريقة تركيبها مع بعضها لتكوين الكلمات التي تتكون منها الجمل والتراكيب، وكذلك من خلال طريقة نطق هذه الأصوات والكلمات والجمل للتعبير عن الأغراض المختلفة، ومن هنا تأتي أهمية عملية النطق، وأهمية تحققها دون أن تكون عبئا على المتكلم أو مصدر لبس للسامع.

فإذا أضفنا لذلك أن عملية النطق في الأصل وسيلة للوصول لأغراض خاصة وهي المعاني والدلالات التي يريد المتكلم توصيلها لآخرين، وليست غاية في ذاتها – تبين لنا مدى أهمية اتصاف هذه العملية بالخفة واليسر، والبعد عن التكلف والمشقة.

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ١/١٧٥.

ولما كانت عملية النطق تتم عبر الأعضاء الخاصة بالنطق في الإنسان والتي تمثل في مجموعها جهازه النطقي – فإنها لابد أن تخضع لما يمكن أن يؤديه هذا الجهاز من مهارات وإمكانات، وهي أشياء تتحكم فيها طبيعة الجهاز النطقي في الإنسان، والأعراف اللغوية التي تسهم في تشكيل الذوق اللغوي الخاص به.

ومن ثم يعد كل ما يخرج عن نطاق قدرات الجهاز النطقي، وأيضا الأعراف والعادات اللغوية – مصدر ثقل على المتكلم يسعى دائما إلى تجنبه والبعد عنه.

وتعلق الثقل بالناحية النطقية على النحو المذكور يترتب عليه تعلقه أيضا بالناحية السمعية؛ وذلك لأن كل عمل نطقي لابد أن يخلف أثرا سمعيا، وهذا الأثر السمعي بالإضافة إلى دوره المهم في وصف العملية النطقية – له أيضا دور في إبراز وتعيين مظاهر الثقل اللفظي ومصادره.

يلاحظ أيضا على دواعي الثقل وأسبابه أنها لا ترتبط وجودا وعدما بإمكانات الجهاز النطقي للإنسان، بل بالعمليات النطقية التي اختارها أهل اللغة وتعارفوا عليها وانتقوها من مجمل ما يمكن أن يؤديه الجهاز النطقي من إمكانات، إذ إن الجهاز النطقي للإنسان قادر على أن يجري عمليات نطقية غير محدودة، وكل لغة من اللغات تستخدم عددا محدودا من هذه العمليات(١)، هذا العدد المحدود هو الذي يتعلق به وجود الثقل وعدمه لدى أصحاب هذه اللغة ومتكلميها.

وهذا بدوره يشير إلى أن مفهوم الثقل والخفة مفهوم خاص ومتغير، فهو يتعلق بكل لغة، بل بكل لهجة من لهجات هذه اللغة، وهذا

---

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية د/ تمام حسان ص١٥٦.

ما يظهر من ميل بعض اللهجات في اللغة العربية إلى ظواهر غير شائعة في بقية اللهجات كتسهيل الهمزة وغير ذلك.

وهو أيضا مفهوم متغير إذا إن قدرات الجهاز النطقي إذا درب الإنسان نفسه على أي منها يستطيع أن يصل إلى مرحلة يتحول فيها ما كان ثقيلا من الظواهر على لسانه إلى عكس ذلك، وفي هذا السياق يروى ابن جني عن أبي علي الفارسي أنه قال: (دخلت "هيتا" وأنا أريد الإنحدار منها إلى بغداد، فسمعت أهلها ينطقون بفتحة غريبة لم أسمعها من قبل، فعجبت منها، وأقمنا هناك أياما، إلى أن صلح الطريق للمسير، فإذا أنني قد تكلمت مع القوم بها) ويعقب ابن جني قائلا: (وأظنه قال لي: إنني لما بعدت عنهم أنسيتها)(١).

لقد كان لظاهرة الثقل بهذا المفهوم وتبعا لهذه الدواعي والأسباب دور بارز في تحليل اللغة والتقعيد لها، ولكي يتضح مدى هذا الدور وأبعاده وما نتج عنه سوف نعرض فيما يلي للظواهر اللغوية التي ترتبت على مفهوم الثقل وأسبابه.

المبحث الثالث: الظواهر اللغوية المترتبة على فكرة الاستثقال والاستخفاف.

لقد كان تحقق الثقل بمفهومه السابق ومن خلال توافر أسبابه ودواعيه المذكورة دافعا ومسوغا لعدد من الظواهر اللغوية التي لم يكن من الممكن تجاهلها أثناء تحليل اللغة والتقعيد لها، هذه الظواهر جميعها تمثل مسلك مستعملي اللغة تجاه هذا الثقل، وهي تهدف في النهاية إلى التخفيف، وأبرز هذه الظواهر ما يلي:

---

(١) الخصائص لابن جني ٩٣/١.

١- تغيير بنية الكلمة:

قد يتعلق الثقل ببنية الكلمة، وهنا نجد عددا من الوسائل التي من شأنها أن تؤدي إلى إزالة هذا الثقل عن طريق تغيير مبنى الكلمة كالحذف والقلب والتسكين.

فالحذف مثل حذف السين في (أحست ومست) واللام في (ظلت)، والتاء في (يسطيع)[١]، وكذلك حذف الهمزة عند المجيء بالمضارع من نحو (أكرم) وكان القياس (يؤكرم) بثبوت الهمزة ولكنها تحذف استخفافا[٢]، وكذلك حذف الواو من (وعد) في المضارع لوقوعها بين ياء وكسرة ثم تبعت حروف المضارعة الباقية الياء في ذلك فحذفت معها الواو أيضا[٣]، وكذلك حذف همزة أنا في (لكنَّا)[٤] والقلب مثل قول العرب: (رُيَّا) و(رُيَّة) في تخفيف (رؤيا) و(رؤية) حيث قلبت الواو ياء[٥]، ومنه أيضا قلب الواو ياء في نحو (غديان – عشيان)[٦]، ومن ذلك أيضا القلب استثقالا لالتقاء المثلين كما في نحو (أمليت) التي أصلها (أمللت)، ونحو قول العرب: (لا وربَيك لا أفعل) يريدون: (لا وربِّك لا أفعل)[٧]، وأيضا قلب الواو ياء في نحو (سيود وميوت) استثقالا لوقوع الواو بعد ياء ساكنة، ومن ثم قالوا: (سيد وميت) تحاشيا لثقل اللفظ بالأصل[٨]، وكذلك قول العرب (حيوان) بدلا

---

(١) الأصول لابن السراج ٤٣٢/٣.

(٢) الأصول لابن السراج ٢٢٦/٣، ٣٣٣.

(٣) الأصول لابن السراج ٣٣٤/٣.

(٤) الخصائص لابن جني ٩٤/٣.

(٥) الخصائص لابن جني ٩٥/٣.

(٦) الخصائص لابن جني ١٦٣/٣.

(٧) الخصائص لابن جني ٢٣٤/٢.

(٨) الخصائص لابن جني ٥١/١.

من (حييان) استثقالا للجمع بين اليائين، ومن ثم حولوا الياء الثانية واوا[1].

أما التسكين فنحو تسكين أول المثلين المتحركين لكي يدغما، وذلك كما في (لكنّنا) التي كانت في الأصل (لكن أنا) ثم حذفت الهمزة بعد إلقاء حركتها على نون (لكن)، وبعد ذلك تسكن النون الأولى وتدغم في الثانية فتصير (لكنّا)[2]؛ وكذلك مثل تسكين الياء في (يرميون)، و(يقضيون) استثقالا للضمة عليها ثم تنقل الضمة إلى الحرف الذي قبل الياء وتحل محل الكسرة التي عليه لطروئها فتصير الكلمتان (يرمون) و(يقضون)[3]، وكذلك تسكين الياء في (معديكرب) وعدم نطقها مفتوحة استثقالا للحركة فيها[4].

هذا ونحوه مما قصد به تحامى الثقل والبعد عنه يعد إشارة واضحة إلى أن التخفيف من خلال تغيير بنية الكلمة – بالرغم من عدم خضوعه لضوابط مطردة كما سوف يأتي – صار كأنه أصل من الأصول التي تتحكم في ضبط الاستعمال اللغوي لبعض الكلمات والصيغ، فبناء عليه يحذف بعض الكلمة أحيانا، ويقلب أحيانا ويسكن أحيانا.

فالتخفيف هدف لمستعمل اللغة ومتحكم في اختياراته لكلماته وتصرفه فيها، ومن ثم نجده يتعلق به طالما وجد إليه سبيلا ولا يتخلى عنه حتى لو تغير حال البنية المخففة، فهو قد يبقى البنية على الشكل الذي صارت إليه بالتخفيف بالرغم من تغير البنية المؤدية إلى هذا

---

(١) الأصول لابن السراج ٣/٣٦٢.
(٢) الخصائص لابن جني ٣/٩٤.
(٣) الخصائص لابن جني ٣/١٤٠.
(٤) الأصول لابن السراج ٢/٩٢، ٩٣.

الشكل، وذلك مثل: (صُبيان) و(قُنية) فقد أقرت الياء على حالها الذي كان في (صبيان) و(قِنية) بالرغم من زوال الكسرة التي كان القلب معها مجنوحا به إلى الاستخفاف[1]، وكذلك إبقاء الذال مقلوبة (دالا) في غير بناء افتعل الذي تقلب فيه قياسا نحو (ادكر)، وذلك كما في قول الشاعر[2]:

يا ليت لي سلوة يشفى الفؤاد بها من بعض ما يعترى قلبي من الدكر[3].

وتغيير البنية بغرض التخفيف أمر يتحكم فيه الاستحسان الذي يجعل منه أمرا سائغا في مواضع وغير سائغ في مواضع أخرى مشابهة لها دون مقاييس محددة، فتقصى النماذج التي حدث فيها تغيير في البنية لأجل التخفيف يثبت أن الأمر بالنسبة للمتكلم ليس إلا استحسانا للتخفيف في مواضع وعدم استحسان له في مواضع أخرى مماثلة للمواضع الأولى دون أن يكون هناك ما يضبط هذا المسلك، فالمثلان قد يستثقل التقاؤهما فيحدث تخفيف بالقلب كما في (أمللت) حيث تصير بالقلب (أمليت)، وقد لا يستثقل فيظل الحرفان كما هما بالرغم من تماثل هذه الحالة مع الحالة السابقة كما في (تعللت) التي اجتمع فيها ثلاثة أمثال ولم يحدث قلب[4]، ومن ثم فإن تغيير بنية ما من أجل التخفيف لا يوجب حدوث مثله في نظائرها؛ لأن الأمر ليس سوى استحسان.

وتحكم الاستحسان في إحداث التغيير بغرض التخفيف لم يكن مطلقا بل كان معه عدد من المحترزات التي تهدف إلى تحقيق الهدف من التغيير دون اضطراب، أهمها:

---

(١) الخصائص لابن جني ١٦٤/٣.

(٢) البيت لابن مقبل في ديوانه ص٧٢، وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٤٢٦.

(٣) الخصائص لابن جني ٣٥٢/١.

(٤) الخصائص لابن جني ٢٣٥/٢.

أ- ألا يؤدي التغيير إلى ثقل آخر.

وذلك حتى لا يصير المتكلم إلى مثل ما فر منه، وكذلك كما يظهر من ميل بعض النحاة إلى إقرار (اضربَّب) على هذه الصورة وعدم الخروج عنها إلى تشديد الباء الأخيرة أي (اضربَبَّ) وذلك لأنه خروج من ثقل إلى ثقل مثله ولا فائدة من ذلك[1].

وكذلك فإن السين في (سِدْس) تبدل (تاء) ثم تدغم الدال في التاء فتصير (ست)، وهذا التغيير معدول به عن تغيير آخر وهو إبدال السين (دالا) وإدغامها في الدال، وذلك لأن الدال مخرجها أقرب المخارج إلى السين، وبالتالي فكأن الكلمة زادت سينا ثالثة، وهذا يعد أثقل من الشكل الأصلي الذي اجتمعت فيه سينان متتاليتان بينهما حاجز ضعيف، ومن ثم لا يلجأ إليه، لكونه سيؤدي إلى ثقل آخر[2].

ب- ألا يؤدي التغيير إلى لبس:

قد ينتج عن تغيير البنية للتخفيف أن تتحول إلى شكل مماثل لصيغة أخرى تختلف تماما عن الأصل المخفف، وهنا يكون التخفيف مصدر لبس، ومن ثم لا يحدث، وذلك مثل: (وتَدَ) حيث لا تدغم التاء في الدال؛ لأنه لو حدث ذلك لأدى إلى (ودًّ) وهي تشبه صيغة أخرى وهي (وَدِدَ) وهكذا يصير الأمر إلى اللبس، بين صيغتين إحداهما ثانيها (تاء) والأخرى ثانيها (دال)، والتفريق بينهما يصعب لو أجيز القلب والإدغام في الصيغة التي ثانيها تاء، وذلك لأن هذا البناء - أي (وتد)

---

(١) التصريف للمازني ٢/٢٦٣، والمنصف لابن جني ٢/٢٦٧، والأصول لابن السراج ٣/٣٦٧.

(٢) الكتاب لسيبويه ٤/٤٨٢.

وغيره مما هو شبيه بمدد – معلوم عنه أن التاء قد يكون في موضعها حرف مماثل لما بعده[1].

أما في نحو (اصَّبَّروا واظَّلموا) وأشباه ذلك فليس هناك إلباس لأن هذا البناء لا يعلم عنه مضاعفة الصاد أو الضاد[2].

ج- تحقق السبب المؤدى للتخفيف لفظا وتقديرا.

لابد من أن يكون الثقل المؤدي للتغيير ثقلا حقيقيا مؤكد الحدوث من حيث اللفظ والتقدير، فإذا كان في بنية الكلمة تقدير يتعارض مع السبب المؤدي للثقل عُدَّ الثقل كأنه لم يكن، وبالتالي لم يعد لتغيير البنية حاجة، وكذلك كما في تصغير اسم رجل سمي بـ(يرى) فيصير (يُريِّء) فإذا خففت همزته صار (يريِّي) فهذه الصيغة بالرغم من أن الظاهر يشير إلى اجتماع ثلاث ياءات لا يلزم حذف الطرف منها للاستثقال، والسبب في ذلك أن الجمع بين ثلاث ياءات إنما وقع لفظا أما في التقدير فالياء المتوسطة ما هي إلا الهمزة المخففة، فهي ليست ياء مخلصة وإنما في تقدير الهمزة، ومن ثم يضعف القول بالثقل ويزول بذلك سبب التغيير[3].

وهكذا فإن التغيير الذي يقتضيه الثقل لابد ألا يؤدي إلى ثقل آخر، وألا يؤدي إلى لبس، وأن يكون السبب المؤدي إليه قويا بأن يكون متحققا لفظا وتقديرا.

أما فيما يتعلق بالصيغ التي يحدث فيها تغيير والصيغ التي لا يحدث فيها تغيير فإن الأمر راجع للاستحسان كما سبق ذكره، وهذا ما جعل سيبويه يصف هذا النمط بالشذوذ وعدم الاطراد، فهو يعقد بابا

---

(١) الكتاب لسيبويه ٤/٤٧٤.

(٢) المصدر السابق. الصفحة نفسها.

(٣) الخصائص لابن جني ٣/٧٥.

يختم به كتابه بعنوان (هذا باب ما كان شاذا مما خففوا على ألسنتهم وليس بمطرد)[1]، وهي إشارة واضحة إلى أن التخفيف بتغيير البنية أمر لا تنتظمه قواعد أو ضوابط محددة تحكم مواضع حدوثه وتميزها عن غيرها.

٢- تغيير في شكل الجملة.

قد يلحق وصف الثقل بالجملة إذا طالت وأمكن الاستغناء عن بعض عناصرها دون أن يختل المعنى أو اللفظ، وذلك يحدث إذا دل دليل على ذلك المستغنى عنه، ولم يحدث بسبب الاستغناء عنه لبس، وهذه هي أبرز شروط الحذف الذي يعد أبرز وسيلة يتخلص بها من ثقل الجملة ويحدث بسببها التخفيف المنشود.

ومن ثم وقع الكلام في حذف المبتدأ كما في قوله تعالى: **(ومَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ نَارُ اللَّه المُوقَدَةُ)**[2] أي: هي نار، والخبر في قوله تعالى: **(أُكُلُهَا دَائِمٌ وظِلُّهَا)**[3] أي: دائم، والمضاف كما في قوله تعالى: **(وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)**[4] أي: أهل مدين، والموصوف كما في قوله تعالى: **(وعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ)**[5] أي: حور قاصرات، وغير ذلك مما يحذف من الكلام كالصفة، والمعطوف، والمبدل منه، والحال، والفعل، والمفعول به، والتمييز[6].

٣- خلو أواخر بعض الكلمات لفظا من علامات الإعراب أو من بعضها.

(١) الكتاب لسيبويه ٤/٤٨١.

(٢) سورة الهمزة الآيتان ٥، ٦.

(٣) سورة الرعد الآية ٣٥.

(٤) سورة الأعراف الآية ٨٥.

(٥) سورة الصافات الآية ٤٨.

(٦) مغنى اللبيب لابن هشام ص٧٨٦ – ٨٥٣.

العلامة الإعرابية في الأصل حركة تدخل على الكلام بعد كمال بنائه كالضمة والفتحة والكسرة في (خالدٌ – خالدٍ – خالدًا) وهي تلحق هذه الكلمات لأداء وظائف خاصة[1]، وهي سمة أصيلة من سمات اللغة العربية تشترك فيها مع معظم اللغات السامية[2].

إن معظم كلمات اللغة العربية يمكن تحريك آخرها بالحركات المعروفة، والقليل منها يخلو من هذه الخاصية، وهذا القليل بعضه لا يقبل التحريك بأي حركة والبعض الآخر يقبل التحريك ببعض الحركات ولا يقبل التحريك بالحركات الأخرى.

والسبب في ذلك يرجع إلى التعذر أو الاستثقال، فظهور الحركات على آخر الاسم المقصور مثل (الفتى) متعذر، فالألف حرف يستحيل تحريكه بأي حركة، ومن ثم فأي اسم يختم به لا تظهر عليه العلامة لنفس السبب، وكذلك الاسم المنقوص نحو (القاضي) فإنه من الصعب تحريكه بالضم والكسر بينما لا يمثل تحريكه بالفتح ثقلا أو صعوبة، ومن ثم لا تظهر على آخره الضمة أو الكسرة، وكذلك الفعل المعتل الآخر بالألف لا تظهر عليه الضمة والفتحة مثل (يسعى) فظهور هاتين الحركتين على آخره متعذر، وأيضا المعتل الآخر بالواو والياء مثل (يدعو – يرمي) لا تظهر على آخرهما الضمة للثقل[3].

وثقل تحريك الحرف أو تعذره قد يرجع إلى طبيعة الحرف نفسه وخصائصه الصوتية وصفاته النطقية كما في النماذج المذكورة حيث إن الأمر كما هو ظاهر يتعلق بطبيعة وخصائص كل من (الألف

---

(١) الإيضاح في علل النحو للزجاجي ص٦٩ – ٧٢.

(٢) التطور النحوي للغة العربية لبرجشتراسر ص٧٥، ومن أسرار اللغة للدكتور/ إبراهيم أنيس ص١٩٩، وفصول من فقه العربية للدكتور/ رمضان عبد التواب ص٣٢٩.

(٣) شرح شذور الذهب لابن هشام ص٩١ – ٩٥.

– الواو – الياء)، وقد يرجع إلى سبب خارج عن الحرف، فالحرف ذاته قد يقبل التحريك بجميع الحركات ولكنه قد يطرأ عليه طارئ يجعل من تحريكه ببعضها متاحا وببعضها الآخر مصدر ثقل ، وذلك كالمضاف لياء المتكلم، فالمضاف لياء المتكلم نحو (كتابي) من الممكن تحريك آخره قبل دخول الياء بجميع الحركات إلا أنه بعد دخول الياء يصبح من الصعب تحريكه بكل من الضمة والفتحة، فقد صار ملتزما التحريك بالكسر في جميع أحواله لمناسبة الياء التي أدى التصاقها به إلى هذا الشكل.

وهكذا فإن كلمات اللغة التي لا تقبل التحريك بحركات الإعراب أو ببعضها كلمات محدودة، ومسلكها هذا يرتد إلى الثقل والصعوبة الناجمة عن محاولة تكلف تحريكها، وهذا من شأنه أن يؤكد على أمرين:

الأول: أن التحريك هو الأصل، لأن عليه معظم كلمات اللغة، ومن ثم فوجوده مرتبط بوجود اللغة ومتعلق بطبيعتها، والتزامه على هذا النحو يشير أيضا إلى أنه ليس حلية نطقية وإنما أحد أركان الكلام المهمة التي تؤدي دورا أساسيا في نطقه وفهمه.

الثاني: أن التحريك أحد مظاهر التخفيف في اللغة العربية، فهو ليس مصدر ثقل؛ وذلك لأن اللغة تنزع إليه دائما وتتحراه وتلتزمه ما وجدت إليه سبيلا، ولا تتجنبه إلا إذا طرأ عليه ما يجعله يؤدي إلى ثقل، أما في غير ذلك فلا تتجنبه، وعدم تجنبه بهذه الصورة التي تستغرق معظم ألفاظ اللغة دليل عملي على أنه لا يعد مصدر ثقل البتة، بل مبعث تخفيف.

ومما يستأنس به في إثبات ذلك وتأييده ما فسر به بعض النحاة تنوع هذه الحركات بما يجعل من هذا التنوع أيضا مبعث تخفيف آخر، فليس التحريك فقط مبعث التخفيف بل تنوعه واختلافه واختصاص كل

حركة بما تختص به كل ذلك يعد أيضا مبعث تخفيف أيضـا، ففي الجملة الفعلية حركتان مطردتان ملازمتان للفاعل وللمفعول به، فالضمة أو ما ينوب عنها للفاعل والفتحة أو ما ينوب عنها للمفعول به، هذا ما يحدث دائما وليس العكس، والسبب في ذلك أن الضمة أثقل من الفتحة، والفاعل أقل من المفعول به؛ لأن الفعل لا يكون له سوى فاعل واحد بينما له مفعولات كثيرة فقد يتعدى إلى مفعولين أو ثلاثة، والفعل أيضا لازما أو متعديا يتعدى إلى المصدر والظرف والمفعول له والحال، ولما كان الفاعل أقل جعلت له الحركة الأثقل، وكذلك لما كان المفعول أكثر جعلت له الحركة الأخف؛ ليكون ثقل الرفع موازيا لقلة الفاعل، وخفة الفتح موازية لكثرة المفعول، وما ذاك إلا شكل من أشكال التخفيف أيضا(١).

٤- إهمال بعض الأبنية وتجنب استعمالها:

إن من يتتبع نظام اللغة العربية في أبنية كلامها يلاحظ بوضوح تجنب اللغة لأبنية معينة، بالرغم من اقتضاء النظام اللغوي المطرد لها حسبما يحدث في نظائرها، فهناك مصادر ليس لها أفعال مثل (ويلٌ – ويسٌ – ويحٌ)(٢)، وكذلك عدم تصحيح الياء في (موسر) والواو في (ميزان)، وأيضا عدم إخراج افتعل مما فاؤه (صاد – ضاد – طاء – ظاء – دال – ذال – زاي) على أصله، وأيضا عدم الجمع بين همزتين في كلمة واحدة ملتقيتين غير عينين(٣)، وكذلك عدم بناء (فَعُل) مما عينه ياء ولا مما لامه ياء(٤).

---

(١) أسرار العربية لابن الأنباري ص٧٧، ٧٨.

(٢) التصريف للمازني ٢/٢٨٦.

(٣) الخصائص لابن جني ١/٢٦٣.

(٤) الأصول لابن السراج ٣/٢٤٧، والخصائص لابن جني ٢/٣٥٠.

فهذه الأبنية ونحوها مما لم يستعمل ولم يشع على ألسنة أصحاب اللغة يمكن تصنيفها من حيث إمكان النطق بها إلى ما يلي:

أ- أبنية يتعذر النطق بها أصلا، وذلك مثل صيغة (مفعول) مما عينه واو أو ياء مثل (مبيع) و(مقول) فالأصل (مبيوع) و(مقوول) فهذا الأصل لا يمكن النطق به في مرحلة من مراحل تغيره وهي مرحلة ما بعد انتقال الضمة من العين إلى الفاء، حيث تصير كل من الياء والواو ساكنتين، وبعد كل منهما واو ساكنة هي (واو مفعول)، وهذان الساكنان لا يمكن النطق بهما ملتقيين[1].

ب- أبنية تعد ثقيلة لأن النطق بها مستثقل، فهو وإن كان ممكنا غير متعذر إلا أنه متكلف، وذلك نحو تصحيح الياء أو الواو إذا وقع أي منهما طرفا بعد ألف زائدة مثل (سماوٌ) و(قضايٌ)[2].

ج- أبنية تعد ثقيلة من حيث النطق، ومن حيث ما سوف يترتب على إجازتها من أبنية أثقل، فإجازة هذا البناء واستعماله يؤدي إلى ثقل مضاعف مصدره أن هذا النمط نفسه ثقيل، وأنه يترتب على إجازته أنماط أثقل، وذلك مثل عدم صياغة (فَعُل) مما لامه (ياء) نحو (رمى - يرمي) فهذا البناء بالإضافة إلى ما فيه من ثقل سوف تؤدي إجازته إلى القول بـ(رموت - أرمو - نرمو - ترمو - يرمو - ترموان، ...) ونحو ذلك فيكثر قلب الياء واوا، وهو أثقل من الياء[3].

وهكذا تجنب مستخدمو اللغة أبنية معينة، فلم يستعملوها لما في نطقها من كلفة ومشقة أحيانا وتعذر أحيانا أخرى، إنه الجنوح إلى

---

(١) الخصائص لابن جني ١/٢٦٠.

(٢) الخصائص لابن جني ١/٢٦٣.

(٣) الخصائص لابن جني ٢/٣٥٠.

طريق الاستخفاف، فالاستخفاف إذا أحد أهم الأصول المتحكمة في تحديد الأبنية المقبول استخدامها والقياس عليها، وتجنب الأبنية المرفوض استخدامها والقياس عليها.

إن تجنب اللغة لبعض الأبنية يلفت الانتباه إلى أن اللغة تقبل تتابعات صوتية معينة من حيث تتابع حروف الهجاء، ومن حيث تتابع الحركات، ومن حيث تتابع الحروف والحركات معا، وترفض تتابعات أخرى، كل ذلك راجع لعوامل أبرزها الاستخفاف والاستثقال(١).

٥- الترخص في الاستعمال:

قد يتجنب مستخدم اللغة بعض ما هو مطرد في استعمال ما بغرض التخفيف، وذلك بأن يخالف استعمالا يمثل قاعدة درج عليها أهل اللغة والتزموا بها وصارت إحدى ضوابط اللغة وقواعدها العامة.

والمستخدم عندما يفعل ذلك يفعله في مواضع معينة ولا يتخذ منه طريقة من طرق استعماله اللغوي المطرد، حتى لا يعد الأمر خروجا على اللغة وكسرا لقواعدها بما يؤدي إلى اللبس والاضطراب.

---

(١) سبقت الإشارة عند الحديث عن دواعي الثقل إلى أن هناك صورا مستثقلة من تتابع الحروف، وتتابع الحركات وتتابع الحروف والحركات، كتتابع الذال والثاء، والضمة والكسرة، والضمة والياء، ونشير هنا إلى ذلك الإحصاء الذي أورده د/ عبد الصبور شاهين في كتابه (في التطور اللغوي) ص١٣٠، ١٣١ وهو الإحصاء الخاص بالتتابعات المرفوضة للحروف والتي لم يرد أي منها في أي صورة من صور الأبنية من خلال معجم (تاج العروس) والتي بلغت اثنين وسبعين تتابعا، ومنها (ث ذ – ز ث – ث ص – ح خ – س ث – ض ص – غ ع – هـ ح – ...) وغير ذلك من التتابعات المرفوضة التي تشير إشارة واضحة إلى أن أصحاب اللغة كانوا ينتقون من مواد لغتهم التي تتيحها حروفها الهجائية، موادا معينة فيستعملونها ويولدون منها، أما الباقي فيهملونه.

ومثل ذلك النمط نجده في بعض النصوص الفصيحة كإسقاط علامة الإعراب والاستغناء عنها تماما في أواخر بعض الكلمات المعربة، كتسكين آخر الفعل المضارع المرفوع في قول الشاعر(١):

فاليوم أشربْ غير مستحقب   إثما من الله ولا واغل

فهذا ونحوه من الأبيات(٢) التي حدث فيها ذلك من كلام العرب الفصحاء يعد نموذجا واضحا على هذا النمط، وهو أمر لا يدفعه ما رد به بعض النحاة هذه الأبيات بالتخطئة أو الضرورة أو اختلاف الرواية، فقد ورد هذا النمط في بعض القراءات القرآنية أيضا كقراءة أبي عمرو بن العلاء (**فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ**)(٣) حيث قرأ (بارئكم) ساكنة الهمزة دون كسر، وذلك على سبيل التخفيف، وقد كان أبو عمرو يميل في قراءته إلى التخفيف كثيرا(٤).

وكذلك قرأ حمزة (**ومكرَ السَّيِّئْ**)(٥) بإسكان آخر كلمة (السيئ) على سبيل التخفيف أيضا(٦).

بل إن هذا النحو من الإسقاط للحركة الإعرابية قد روي أنه لغة بني تميم في بعض كلامهم كتسكين لام الفعل إذا اتصل به الهاء

---

(١) البيت لامرئ القيس في ديوانه ص١٥٠، وهو من شواهد سيبويه في الكتاب ٢/٢٩٧، وخزانة الأدب ٣/٥٣١.

(٢) انظر الخصائص ١/٧٥، و٢/٣٤١، ٣٤٢.

(٣) سورة البقرة الآية ٥٤.

(٤) السبعة القراءات لابن مجاهد ص١٥٥، ١٥٦.

(٥) سورة فاطر الآية ٤٣.

(٦) السبعة في القراءات لابن مجاهد ص٥٣٥، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٦٣، والحجة لأبي علي الفارسي ص٢٧١.

والميم أو الكاف والميم نحو (أكرمهم) و(أكرمكم) وهم يفعلون ذلك تخفيفا بسبب توالي الحركات[1].

ومن الترخص أيضا جزم الفعل المضارع في غير مواضع الجزم كما في قراءة عاصم وابن عامر وحمزة قوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاَّ بِإِذْنِه)[2] وذلك بحذف الياء من الفعل المضارع (يأت) في الوصل والوقف[3].

فهذا ونحوه مما يعد مخالفا لما اطرد عليه استعمال الجماعة اللغوية يفعله من فعله بغرض التخفيف، واقتران التخفيف بالترخص في الاستعمالات المطردة على النحو المذكور يشير إلى أنه سمة مهمة وأساسية من سمات اللغة، فهو مراعى فيها ومستهدف من أصحابها يسعون إليه وينشدونه ويسلكون إليه كل السبل، حتى لو أدى ذلك إلى الترخص المذكور، ويشير أيضا إلى أن هناك صلة ما بين التخفيف وبين أحكام اللغة، فالتخفيف لم يكن يتعلق بأبنية الكلام فقط بل تعدى ذلك إلى أحكام اللغة وقواعدها الخاصة بها.

ويمكن تلمس أثر التخفيف في الأحكام اللغوية في الظواهر الآتية:

أ- تقييد التخفيف لبعض قواعد اللغة، وذلك بأن يستثنى من القاعدة المنظمة لاستعمال ما كل ما يؤدي إلى ثقل عند تطبيق هذه القاعدة، ومن ثم يوضع له ضابط آخر، وذلك كالنسب فضابطه زيادة يائين في آخر الاسم المنسوب إليه الأولى ساكنة مدغمة في الأخرى مع

---

(١) المحتسب لابن جني ١/١٠٩، والحجة لأبي علي الفارسي ص٥٥، وإملاء ما من به الرحمن للعبكرى ١/٣٧.

(٢) سورة هود الآية ١٠٥.

(٣) السبعة في القراءات ص٣٣٨، ٣٣٩.

كسر ما قبل هاتين اليائين، أما بقية الاسم فلا يحدث فيه تغيير، ولكن الأمر ليس على إطلاقه هكذا، وإنما نجد النحاة يقيدون ذلك بقولهم: (هذا أصل النسب إلا أن تخرج الكلمة إلى ما يستثقلون من اجتماع الكسرات والياءات وحروف العلل..)(١).

وتبعا لهذا نجد النسب إلى كل ما هو على (فَعِل) مكسور العين يكون بفتحها فيقال في (نَمِر - شَقِرة):(نَمَرِي - شَقَرِي)(٢) وذلك مراعاة للقيد المذكور.

ومن ذلك أيضا مجيء المصدر الثلاثي على (فَعْلان) مثل (لَيَّان) من (لويته) وذلك بالرغم من أن هذا الوزن لا يكون مصدرا ولكن جاز ذلك استثقالا لمجيء أوله مكسورا مع الياء(٣).

فالنسب يحدث بطريقة خاصة بشرط ألا تؤدي إلى ثقل، وإلا حدث تغيير في هذه الطريقة، والمصادر تأتي على صيغ معينة بشرط ألا تؤدي إحداها إلى ثقل، فإذا أدت إحدى هذه الصيغ إلى ثقل حدث فيها تغيير يزيل هذا الثقل، وهكذا تتقيد بعض أحكام اللغة وقواعدها بخلوها من كل ما يؤدي إلى ثقل، وبوجوب تغييره إذا حدث.

ب- إعطاء التخفيف أحكاما جديدة لبعض ما يلحق به من كلمات كان لها أحكام مغايرة قبل التخفيف، وهذا ما نجده في بعض كلمات اللغة التي لها أحكام خاصة بها ثم تخفف فتتغير هذه الأحكام إلى أحكام أخرى مغايرة بسبب التخفيف، فالثقل له حكمه والخفة لها حكم آخر.

---

(١) الأصول لابن السراج ٦٣/٣.

(٢) الأصول لابن السراج ٦٤/٣.

(٣) الأصول لابن السراج ٨٧/٣.

فلكنْ المخففة من الثقيلة لا تعمل بعد التخفيف عند معظم النحاة، وتكون حرف ابتداء فقط، وهي في هذه الحالة تدخل على الجمل الاسمية والجمل الفعلية[1].

وكذلك (إنْ) المخففة من الثقيلة تدخل على الجملتين الاسمية والفعلية، وإذا دخلت على الاسمية جاز إعمالها عند أكثر النحاة ولم يجب إعمالها حينئذ، وإذا دخلت على الفعلية أهملت وجوبا[2]، وكذلك تدخل لام الابتداء في خبرها وتصير لازمة له غالبا للتفريق بينها وبين (إنْ) النافية، وذلك بعد أن كان دخول اللام مع (إن) الثقيلة جائزا[3].

إذا فالتخفيف استلزم أحكاما جديدة لم تكن في حال الثقل، وهي أحكام في معظمها مضادة للأحكام المتعلقة بحال الثقل، فما كان يعمل مثقلا أصبح لا يعمل مخففا، وما كان مختصا بالدخول على نوع معين من الكلام مثقلا أصبح يدخل عليه وعلى غيره مخففا، وما كان لا يلزمه التضام مع غيره من الحروف أو الأدوات مثقلا أصبح يلزمه ذلك مخففا.

ج- تسويغ اختصاص بعض الأحكام والضوابط العامة للغة بما اختصت به، ففي اللغة أحكام تختص بما تختص به على سبيل اللزوم له فقط، وهناك أحكام تختص بشيء آخر، وأحكام تختص بشيء ثالث وهكذا، واختصاص كل حكم بما يختص به على سبيل اللزوم كان مدعاة للتساؤل عن سببه، وعن عدم التبادل بحيث يختص كل حكم بما يختص به الحكم الآخر.

---

(١) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ص٣٨٥.

(٢) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ص٣٦، ٣٧.

(٣) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ص٣٠٥.

فالرفع حكم نحوي يختص بالمبتدأ والخبر والفاعل وغير ذلك من المرفوعات والنصب كذلك يختص بالمفعول به والمفعول لأجله والحال وغير ذلك من المنصوبات، وكذلك الجر يختص بما سبق بحروف الجر، أو جر بالإضافة وغير ذلك من المجرورات.

والنحاة يعلقون ذلك على الثقل والخفة، فالمرفوعات قليلة بالنسبة إلى المنصوبات؛ فجعل الأثقل للأقل لقلة دورانه، والأخف للأكثر وهذا لكي يسهل ويعتدل الكلام بتخفيف ما يكثر وتثقيل ما يقل، وهذا مبني على أن الضمة أثقل الحركات تليها الكسرة ثم الفتحة[1].

وهكذا فاختصاص نون التثنية بالكسر ونون الجمع بالفتح مبني على فكرة التعادل بين الثقل والخفة أيضا، فالجمع لثقله أعطى الحركة الأخف، والمثنى لخفته أعطى الحركة الأثقل[2].

إن إلحاق كل حكم بما يختص به هو في الأصل نظام لغوي قام في عقل أهل اللغة ودرجوا عليه والتزموا به، والمتأمل لهذا النظام لا يمكنه أن يتجاهل وجود خيط مشترك بين جميع أنماط هذا النوع من الإلحاق، فالمرفوعات القليلة تلحقها الضمة أما المنصوبات الكثيرة فتلحقها الفتحة، والنون اللاحقة بالجمع الثقيل تلحقها الفتحة أما النون اللاحقة بالمثنى الخفيف فتلحقها الكسرة؛ هذا الخيط يرتد إلى فكرة الثقل والخفة، فهذا التوزيع لم يكن اعتباطا وإنما كان يراعى فيه ضرورة إحداث التوازن بين الثقيل والخفيف في جميع عناصر الكلام، وهو غرض ظاهر لمتكلم اللغة يظهر من خلال كثير من أنماط الاستعمال اللغوي، فالفعل لكونه أثقل من الاسم بسبب دلالته على

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ١/١٩٣، ١٩٤.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ١/١٩٤.

الحدث والزمن معا – يقل استخدام الضمة معه، وكذلك نجد الكلمات المبنية على الضم في اللغة قليلة أما الكلمات المبنية على الفتح فهي كثيرة(١)، فهذا وغيره من أنماط الاستخدام اللغوي دليل على مراعاة المتكلم لهذا الأمر، وهذا ما لاحظه النحاة وسجلوه، وظهر من خلاله شكل من أشكال تأثر الأحكام النحوية بفكرة الثقل والخفة.

د- نقد وتعديل بعض أصول اللغة وضوابطها العامة.

لقد امتد أثر ظاهرة الثقل والخفة إلى أصول اللغة التي جردها النحاة، وبنوا عليها قواعد اللغة وضوابط ألفاظها وتراكيبها، فقد استعمل بعض المحدثين فكرة الثقل والخفة لنقد نظرية العامل، وما ترتب عليها من آثار تتعلق بدلالة الحركات على معان، كما فعل الأستاذ إبراهيم مصطفى، حيث قرر أن كلا من الضمة والكسرة علم على معنى معين، فالضمة علم على الإسناد، والكسرة علم على الإضافة، أما الفتحة فهي لا تدل على أي معنى، وليست علما للإعراب، وإنما هي حركة مستحبة عند إرادة إنهاء الكلام؛ وذلك لأنها تتميز عن أختيها بالخفة، فهي أخف الحركات استنادا إلى طريقة نطقها، وكثرة ما ورد من ألفاظ اللغة بها، وهو أمر يجعل منها الحركة المستحبة إذا لم يكن ثمة غرض من أغراض استعمال الضمة والكسرة بل والسكون أيضا الذي تعد الفتحة أخف منه لما يتطلبه من كلفة في النطق لا توجد في الفتحة(٢).

هذه هي أبرز آثار ظاهرة الثقل والخفة في اللغة على مستوى استعمالها لدى مستخدميها، وعلى مستوى تحليلها والتقعيد لها لدى علمائها، وهو أمر يشير إلى قيام هذه الظاهرة بدور بارز مؤثر لا

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ١/١٩٤.

(٢) إحياء النحو لإبراهيم مصطفى ص٧٨ – ١٠٠.

يمكن تجاهله في اللغة، وفيما يلي تقويم لهذا الدور يهدف لبيان مدى ملاءمة هذه الظاهرة للدرس اللغوي ومدى ما يمكن أن تحققه من فائدة في مجال محاولات التجديد في الدراسات اللغوية تجديدا يهدف إلى تيسير قواعدها وتطوير أساليبها.

المبحث الرابع:
تقويم ظاهرة الثقل والخفة وأثرها في الدرس اللغوي

إن الأصل الذي ترتد إليه ظاهرة الثقل والخفة هو التذوق اللغوي لمستعملي اللغة ومتكلميها، والتذوق اللغوي يتمثل في مجموعة أصول وضوابط منشؤها أعراف وعادات ألفها أهل اللغة وتعارفوا عليها واعتادوها، وصاروا يرون بموجبها أن ظاهرة ما من ظواهر اللغة أو عنصرا من عناصرها يتصف بالثقل، وأن طرقا ما يمكن من خلالها تلافي هذا الثقل وإزالته.

لقد كان للعربي ذوق لغوي في اللغة بجميع مستوياتها، فقد كان له ذوق في الأصوات التي تتألف منها اللغة، وذوق آخر في الحركات التي تتحرك بها هذه الأصوات، وذوق في الصيغ والأوزان التي تتألف منها كلمات اللغة، وذوق في التراكيب والجمل التي تتألف منها أساليب اللغة وتعبيراتها، لقد كان العربي في ذلك كله يستعمل أشياء ويهمل أشياء أخرى، يجمع بين أشياء ولا يجمع بين أشياء أخرى، يطيل أحيانا ويوجز بالحذف أحيانا أخرى، كل ذلك وفق ما يحس به من ثقل أو خفة تجاه كل ظواهر اللغة حسب تذوقه لها.

يظهر هذا الأمر بوضوح من خلال ما روى عن بعض العرب الفصحاء من روايات نصوا فيها على استخفاف نمط ما من أنماط

الاستعمال واستثقال آخر[1]، ومن خلال تتبع طرائقهم في التعبير وأساليبهم في اختيار وتوظيف حروف اللغة وحركاتها وصيغها وجملها، وهو ما ظهر منه بوضوح – كما يبدو من خلال ما عرض في الصفحات السابقة – أنهم كانوا يتعاملون مع جميع مستويات اللغة وفق مقاييس استثقال واستخفاف تعارفوا عليها، فدراسة منهجهم في استخدام حروف اللغة يظهر منه أنهم كانوا ينظرون إلى بعضها من منطلق أنه أثقل من البعض الآخر ومن ثم انعكس هذا على تعاملهم معه في النطق وفي الجمع بينه وبين الحروف الأخرى، وفي إبداله وحذفه وغير ذلك من وسائل التعامل التي يظهر من خلالها أن هذا الحرف يتسم بسمات تجعله يعامل بطريقة مختلفة عن بقية الحروف وهي طريقة تظهر استثقال مستخدم اللغة له وسعيه إلى إزالة هذا الثقل، وذلك كما نجد في (الهمزة) التي تعد من الحروف التي تتسم بالثقل، والتي خضعت لأنماط مختلفة من التعامل انطلاقا من هذا الوصف، كالتسهيل، والحذف في مواضع معينة، وعدم الجمع بينها وبين بعض الحروف في الكلام، وغير ذلك.

وهذا ما نجده في الحركات أيضا، فتتبع منهجهم في توظيف الحركات في كلامهم يظهر منه كثرة بعضها في صيغ وأوزان معينة وقلة البعض الآخر، وكذلك التزام بعضها في مواضع إعرابية معينة والتزام الباقي في مواضع أخرى، وأيضا الجمع بينها في الكلام يكثر في مواضع ويقل في مواضع أخرى، وغير ذلك مما يظهر من خلاله أن كلا من الضمة والكسرة والفتحة له مرتبة من حيث الثقل والخفة.

كذلك منهجهم في أبنية كلمات اللغة وصيغها، فهم يحذفون ويبدلون ويقلبون في مواضع معينة، ولا يصنعون ذلك في مواضع

---

(١) الخصائص لابن جني ١/٧٩.

أخرى، وهذه التغيرات في الغالب تحدث تلافيا لثقل ما ومحاولة لإزالته، وكذلك صناعتهم من حروف لغتهم أبنية يستخدمونها وتجنبهم للأبنية الأخرى شاهد عملي آخر على استخفافهم لذلك المستعمل واستثقالهم لغيره.

ومنهجهم في الجمل والتراكيب فيه أيضا ما يشهد على ذلك الذوق المتعلق بالاستثقال والاستخفاف، فقد كانوا يحذفون من الكلام أحيانا ولا يحذفون منه أحيانا أخرى، وهم عندما يحذفون يصنعون ذلك في معظم الحالات طلبا لخفة الإيجاز وفرارا من ثقل الإطالة.

من هنا تأتي أهمية فكرة التذوق اللغوي؛ إذ إنها بهذا المفهوم تؤثر تأثيرا واضحا في جميع مستويات اللغة وبالتالي في قواعدها وضوابطها، فهي بما يترتب عليها من ظواهر لغوية متعلقة بجميع مستويات اللغة تتساوى في القيمة والأهمية والأثر مع الأصول العامة التي بنيت عليها اللغة كالقياس، والسماع، والاستصحاب وغير ذلك من أصول اللغة.

والتذوق اللغوي يرتبط ارتباطا وثيقا بالحس الطبعي لدى متكلم اللغة، فهو يقبل على كل ما يحسه طيعا سهلا خاليا من الكلفة والمشقة وينفر من كل ما يحسه مستحيلا أو صعبا يكلفه دائما عناء ومشقة، ومن هنا يتكون لديه ذوق عام يجعله يستعمل أشياء، ويدع أخرى أو يغير من حالها حتى يقبلها ذوقه فيستعملها، وهذا الحس يتأثر بعوامل متعددة أبرزها الإمكانات التي حبا الله بها الإنسان، والعادات والأعراف التي نشأ عليها، والخبرات المكتسبة التي تتحقق له في حياته، والتطورات والتغيرات التي تحدث من حوله.

من هنا نجد التذوق اللغوي يتسم بسمتين رئيستين: الأولى تنوعه بتنوع الجماعات اللغوية، فأهل كل لغة لهم ذوق لغوي خاص، بل إن أهل كل لهجة من لهجات اللغة الواحدة قد يختلف ذوقهم اللغوي، وبالتالي فإن مفهوم الثقل والخفة قد يتنوع بتنوع اللغات أو اللهجات، وذلك على نحو ما ذكر سابقا من أن الذوق اللغوي للغة العربية يستثقل النطق بالساكن بينما الذوق اللغوي لبعض لغات العجم لا يستثقل ذلك، وأيضا ما ذكر من أن الذوق اللغوي للحجازيين يستثقل الهمزة في مواضع معينة فيسهلها، بينما الذوق اللغوي للتميميين لا يستثقلها فيحققها.

والثانية هي خضوعه للتطور والتغير بتطور وتغير الأزمنة؛ وذلك لأن الأعراف والعادات تتغير وتتطور ولا تثبت على حال واحدة، وبالتالي فإن أهل الجماعة اللغوية الواحدة قد يتغير ذوقهم اللغوي كما تتغير عاداتهم وأعرافهم، ومن ثم يتغير أيضا مفهوم الاستثقال والاستخفاف لديهم.

إذن فالاستثقال والاستخفاف يمثلان أصلا لغويا من الأصول المعتدة لدى مستخدمي اللغة فرضه عليهم حسهم الطبعي الذي لا غنى لهم عنه، حيث كون لديهم ذوقا لغويا كان أساسا لاستخفافهم بعض أنماط الاستعمال اللغوي واستثقالهم البعض الآخر، ومن ثم تمسكوا بالأول، أما الثاني فقد نفروا من بعضه وغيروا في البعض الآخر سعيا وراء التخفيف، وهو أيضا يتسم بالتنوع والتطور.

والاستثقال والاستخفاف تبعا لذلك لا يمكن تجاهل دورهما كأصل من الأصول ذات الدور المهم في تحليل اللغة، فكثير من ظواهر اللغة لا يمكن وصفه وتحليله إلا من خلال ظاهرة الثقل والخفة

كالذي رفض استعماله لتقارب حروفه من كلمات اللغة، واختيار الرفع للفاعل والنصب للمفعول وليس العكس، وقلب الواو الساكنة بعد كسرة ياء، وقلة الثنائي المضموم الأول، وغير ذلك من ظواهر اللغة التي يقول عنها ابن جني بعد عرضها: (وجماع أمر القول فيه والاستعانة على إصابة غروره ومطاويه لزومك محجة القول بالاستثقال والاستخفاف...)[1].

أما استخدامها في التقعيد للغة فهو إلى جوار ضرورة عدم تجاهل أهميته أيضا يحتاج إلى تفصيل سببه ما سبقت الإشارة إليه من خضوع هذه الظاهرة للتنوع بتنوع البيئات اللغوية وبالتغير والتطور تبعا لتغير الزمن وتطوره؛ إذ إن ذلك مقتضاه تنوع ظواهر الاستثقال والاستخفاف وتعددها، وتغيرها كذلك فترة بعد فترة، وهذا يعني أنه قد يوجد من الظواهر ما يرى بعض مستعملي اللغة ثقلة ووجوب تخفيفه بينما لا يرى آخرون من مستعملي اللغة أيضا اتصافه بهذه الصفة، وأيضا قد يوجد من الظواهر ما يعده مستعملو اللغة مستثقلا في وقت ما ثم يحدث بعد فترة ما يقتضي عدم استثقالهم له.

وأيضا فهناك طرق التخلص من الثقل وإزالته حيث إن الأمر خاضع لأن يجري وفق أكثر من سنن وليس سننا واحدا.

أما فيما يتعلق بعد بعض مستعملي اللغة استعمالا ما من قبيل المستثقل وعدم عد الآخرين من مستعملي اللغة ذاتها له كذلك فإن الحال حينئذ سيكون استعمالين داخل اللغة الواحدة المشتركة، وذلك نحو نسبة الحجازيين إلى كل ما هو بوزن (فَعِيل وفُعيل) على (فَعَلى وفُعَلى) بحذف الياء وفتح الحرف الثاني في صيغة (فَعِيل) فيقولون في

---

(١) انظر الخصائص لابن جني ٤٩/١ – ٩٧.

نحو (ثقيف): (ثقفى) و(قُريش): (قرشى)، وذلك بخلاف تميم الــذين ينسبون إلى هذين الوزنين دون حذف فيقولون: (ثقيفي) و(قريشــي)[1] فالحجازيون يحذفون الياء على النحو المذكور تخفيفا؛ وذلك لاستثقالهم توالي الكسرات والياءات عند النسب الذي يقتضي إضافة ياء مشــددة للكلمة وكسر آخر حرف فيها، والتميميون لم يستثقلوا ذلك ومن ثم لــم يحذفوا.

ولم تكن لغة الحجازيين قليلة أو نادرة بحيث يمكــن إهمالهــا وعدم الاعتداد بها، فقد روى بعض العلماء أنها كثرت كثــرة تجعــل منها قياسا مطردا[2].

إذن فهناك لغتان للنسب فــي الأوزان المــذكورة، الاخــتلاف بينهما مبني على الاختلاف في الاستثقال والاستخفاف، وبغض النظــر عن أن اللغتين كانتا متعاصرين أو أن إحداهما تطور للأخرى، فــإن المحصلة الأخيرة وهي وجود لغتين فصيحتين مختلفتين بنــاء علــى الاختلاف في الاستثقال والاستخفاف – تثير تســاؤلا يتعلــق بكيفيــة التقعيد مع وجود هاتين اللغتين.

إن رفض إحدى اللغتين عند التقعيد هنا يضعفه ما سبق ذكــره من كونهما لغتين فصيحتين، ومنتشرتين بطريقة لا تســمح بتجاهــل إحداهما حتى ولو كانت أقل انتشارا، فإذا أضفنا لذلك أن تعدد الأوجه الناتج عن إجازة التقعيد بناء على اللغتين هنا ليس بدعا في اللغــة؛ إذ

---

(١) الكتاب لسيبويه ٣٣٥/٣، وشرح الأشموني على الألفية ١٨٧/٤.

(٢) شرح الأشموني على الألفية ١٨٧/٤، ١٨٨، وقد ذكر أن ذلك هو قول المبرد وأيده فيــه السيرافي. وفي المقتضب للمبرد ١٣٣/٣ ما يدل على إجازة المبرد القياس على طريقة الحجازيين دون إشارة صريحة إلى كثرة ما ورد عنهم.

إنه حادث في كثير من ظواهر اللغة الأخرى، كجواز التقديم والتأخير وكجواز الحذف وعدمه، وغير ذلك.

وإذا أضفنا كذلك أن حذف بعض الكلمة الذي تقتضيه إحدى اللغتين هنا حادث أيضا في كثير من صيغ اللغة لأسباب صرفية ونحوية متعددة.

وإذا أضفنا كذلك أن التقعيد بناء على اللغتين هنا ليس مدعاة للبس أو الاضطراب، إذ إن مع حذف الحرف المحذوف عند النسب لا تلتبس الصيغة المخففة بغيرها من الصيغ، ولا يخفى ما فيها من دلالة على النسب، ومن ثم فلا لبس يخشى من استخدامها.

وإذا أضفنا أخيرا أن رفض التقعيد بناء على الصيغة المخففة فيه تجاهل لأغراض مستخدمي اللغة، وهو أمر من شأنه أن يؤدي إلى الفصل التام بين قواعد اللغة وضوابطها الموضوعة من قبل اللغويين وبين مستخدميها الذين سيرون فيها شيئا آخر مغايرا لما عليه كلامهم.

أقول إذا أضفنا كل ما سبق تبين لنا أن التقعيد بناء على اللغتين في هذه الحالة هو الأفضل والأنسب، وهذا ما صنعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة حينما أجاز الحذف والإثبات للياء عند النسب إلى (فعيل) بفتح الفاء وضمها[1].

وأما فيما يتعلق بطرق التخلص من الثقل، فإنها قد تتعدد في الموضع الواحد، وذلك نحو قراءة (بما أنزل إليك)[2] بحذف همزة (إليك) وإلقاء حركتها على لام (أنزل)، فتلتقي لامان متحركتان،

---

(١) في أصول اللغة ٣٩٩/٢، ٤٠٠.

(٢) سورة البقرة: الآية (٤)، وهي في البحر المحيط ٤١/١ موصوفة بالشذوذ، وغير منسوبة بينما نسبها ابن جني للكسائي. الخصائص ١٤٣/٣.

فتسكن الأولى ثم تدغم في الثانية، فتصير (بما أنزلّيك)، وكذلك ما حكى عن أعرابية تخاطب بناتها وقد خلون إلى أعرابي كان يألفهن في السوء أنها قالت لهن: (أفي السوتنته) تريد (أفي السوأة أنتنه) فألقت فتحة همزة (أنتنه) على كسرة الهاء ثم حذفت الهمزة، هذا مع تخفيف همزة (السوأة).

وأمثال هذا قد ورد عن العرب تخفيفه بطرق أخرى كجعل الهمزة بين بين، أو قلبها ياء، ومن ثم فتخفيف الهمزة في نحو الآية المذكورة من الممكن أن يكون بجعل الهمزة بين بين، وتخفيفها في نحو العبارة المروية من الممكن أن يكون بإبدال همزة (أنتنه) ياء لانفتاحها وانكسار ما قبلها كما في تخفيف (يستهزئون) على (يستهزيون)[١].

وهذا من شأنه أن يؤدي إلى أكثر من طريقة للتخفيف في الموضع الواحد، والأمر هنا يحتاج إلى ضابط يمنع من تحول التخفيف إلى وسيلة تؤدي إلى فتح باب التصرف في ألفاظ اللغة وتراكيبها دون مراعاة لأصول اللغة وضوابطها العامة؛ وهو ما قد ينجم عنه تعارض أو تناقض أو لبس.

إن طريقة التخفيف التي يحسن التقعيد بناء عليها ينبغي أن تكون مطردة وشائعة ومستعملة بكثرة، ومتسقة مع أصول اللغة وقواعدها العامة وهو ما أطلق عليه ابن جني (التخفيف القياسي)[٢] والذي بموجبه تعد طريقة التخفيف المروية في القراءة المذكورة وفي العبارة الواردة عن الأعرابية غير صالحة للتقعيد بناء عليها لكونها

---

(١) الخصائص لابن جني ١٤٣/٣، ١٤٤.

(٢) الخصائص لابن جني ١٤٤/٣.

غير قياسية فهي تخالف طرق تخفيف الهمزة القياسية الـواردة عـن العرب وهي جعلها بين بين أو قلبها ياء، ومن ثم يقـاس علـى هـذه الطرق القياسية ولا يقاس على ما عداها.

إن التخفيف هدف من أجله يحدث التغيير، وطالما تحقق هـذا الهدف بطريقة أو اثنتين قياسيتين فلا داعي لتعدد هذه الطرق حتـى لا يصبح التخفيف وسيلة لتوليد كلمات وصيغ جديدة وإحـداث تغيـرات متنوعة قد تؤدي إلى فوضى لغوية بالإضافة إلى إضاعة المزية التـي تمثل الهدف الأسمى من عملية التخفيف وهي التيسير علـى مسـتخدم اللغة بإزالة أي ثقل قد يعترضه أثناء استخدامها.

الخاتـــمة

تناولت الصفحات السابقة بالدراسة والتحليل ظاهرة من أبـــرز الظواهر التي قامت بدور مهم في مجال تحليل اللغة والتقعيد لها وهي ظاهرة (تبادل الأحكام النحوية والصرفية).

لقد كانت محاولة توصيف هذه الظاهرة وتحليلهـــا وتقويمهـــا الهدف الأساس، والسبب الرئيس لهذا البحث، وخاصة أنها – حســـب ما تيسر لي من إطلاع – لم تفرد بالبحث والدراســـة، بـــالرغم مـــن ظهورها كظاهرة مؤثرة في النحو العربي من خلال قواعده وأصوله.

وقد جاء البحث في مقدمة وثلاثة مباحث، اشـــتملت المقدمـــة على تعريف تمهيدي لتبادل الأحكام، وإشارة إلي دورة فـــي النحـــو، وتساؤلات بحثية تتعلق بماهيته ومسوغاته وفوائده وضوابطه وموقفه من التقويم العلمي.

ثم تطرق المبحث الأول لمسوغات عملية التبادل، وقد تبين بعد استقصاء لنماذج من إلحاق الأحكام النحوية ظهر فيها بوضوح أثـــر التبادل أن أبرز المسوغات التي قام التبادل على أساسها يمكن إجمالها في:

١- مسوغات تتعلق بالخصائص اللفظية للمتبادلين.

٢- مسوغات تتعلق بالخصائص الدلالية للمتبادلين .

٣- مسوغات تتعلق بالخصائص الموقعية للمتبادلين.

وبعد عرض المسوغات عرضا يتسم بالتنوع والإطالة بقصـــد تأكيد وجود هذه الظاهرة بصورة مكثفة تنفي كونهـــا تقتصـــر علـــى

حالات قليلة أو نادرة لا تمثل نمطا شائعا من أنماط تحليل اللغة والتقعيد لها – تطرق البحث إلي تحليل هذه المسوغات بهدف إبراز خصائصها وصفاتها العامة، والأسس التي أقيمت عليها، ومناحي القوة أو الضعف فيها، وكانت نتيجة عملية التحليل ما يأتي:

١- كثرة المسوغات المتعلقة بالخصائص اللفظية.

٢- ارتباطها ارتباط وثيقا بالأحكام المتبادلة.

٣- قيامها على أساس تبادل بعض الخصائص أو توافقهما.

٤- ليس فيها دلالة على أن عملية التبادل قد جرت وفق نسق محدد.

٥- وجودها أحيانا مع عدم حدوث تبادل للأحكام

وبعد أن خلص المبحث الأول إلي وجود هذه الظاهرة وإلي تعدد مسوغاتها وتنوعها اهتم المبحث الثاني بمحاولة الكشف عن الهدف من استخدام هذه الظاهرة، وذلك من حيث وجودها في كلام العرب، ومن حيث استعانة النحاة بها في قواعدهم وأصولهم، وكذلك اهتم بالكشف عن ضوابط هذه الظاهرة من خلال استخدام النحاة لها.

أما العرب الناطقون باللغة فالظاهرة أن مسلك التبادل المعروض من خلال البحث كان يمنحهم مزيدا من السهولة والتيسير في جمع اللغةِ في أذهانهم وتمثلها والقياس عليها، وأما النحاة فقد وجدوا في استخدام ظاهرة التبادل في قواعدهم وأصولهم باعتبارها نابعة من كلام العرب الفصحاء وممثلة لطريقة من طرائق تعبيرهم – عنصرا من العناصر التي تساعد على إيجاد قواعد أكثر ضبطا وأبعد من النقد والتضعيف.

أما من حيث الضوابط فقد أظهر تحليل نماذج تبادل الأحكام الواردة عن النحاة أن هناك بعض الضوابط التي كانت تحكم عملية التبادل، أبرزها:

١- قوة الشبه

٢- تمكن الفروع

٣- نفي التسوية بين المقيس والمقيس عليه

وبتحليل ضوابط ظاهرة التبادل وبيان مدي قدرتها على تحقيق عنصر الضبط والدقة، ونفي الاضطراب عن صور التبادل أصبحت ظاهرة التبادل واضحة المعالم وظاهرة الأسس والأركان، بما يمكن من تقويمها بعد ذلك كظاهرة لغوية قامت بدور مهم في تحليل اللغة وتقعيدها، وهذا ما خصص له المبحث الثالث.

وقد تم تقويم ظاهرة تبادل الأحكام في المبحث الثالث من خلال:

١- عرضها على طرق العرب في كلامهم وسننهم في أساليبهم وتعبيراتهم، وقد أظهر ذلك العرض وجود أصل لغوي شائع في لغة العرب رصده كثير من العلماء وخصوه بالتأليف والدراسة، هذا الأصل يتمثل في ظاهرة (الإبدال اللغوي) وهي ظاهرة يعد وجودها في لغة العرب بالمفهوم المعروض خلال البحث دليلا على أن العرب من سننهم في كلامهم (التبادل)، ومن ثم يمكن وصف ظاهرة تبادل الأحكام بأنها ليست غريبة عن واقع اللغة، وأنها تجري وفق سنن العرب في كلامهم.

٢- كيفية تناول النحاة لها بالتحليل والدراسة كظاهرة تبني على أساسها القواعد. ومن خلال التعرض لمنهج النحاة في تناول هذه الظاهرة تبين أن الإشارة إليها قد بدأت في وقت مبكر من خلال كتاب سيبويه، وقد ظهر الاهتمام بها أيضا في كتابات النحاة الذين جاء وابعده كابن جني والرضي، وبتتبع ما قاله هؤلاء وغيرهم عن هذه الظاهرة، وكذلك بتتبع نماذج التبادل التي تطرق إليها النحاة، يظهر أن الأساس الذي بني عليه النحاة تحليلهم لهذه الظاهرة وتناولهم لها هو فكرة (الأصل والفرع) وفكرة (التشابه اللفظي أو المعنوي أو الموقعي)، وكلاهما يؤخذ عليه عدم الاستناد إلي ضوابط من شأنها أن تمنع نقض عملية التبادل إذا ما حدث خلاف في تحديد الأصل والفرع، أو في الشبه المسوغ للتبادل.

وهكذا عرض البحث لظاهرة تبادل الأحكام النحوية والصرفية بالتوصيف والتحليل والتقويم، للوقوف على دور هذه الظاهرة ومكانتها ومدي الفائدة منها في تحليل اللغة والتقعيد لها، ولو ضعها واضحة مفصلة أمام الذين يطرقون ميدان محاولات تجديد وتطوير النحو العربي للإفادة منها.

فهرس المراجع

١- الإبدال لأبي يوسف يعقوب بن السكيت – تحقيق د/ حسين محمد محمد شرف – الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

٢- أبو الحسين بن الطراوة وأثرة في النحو – دراسة للدكتور محمد إبراهيم البنا – دار الاعتصام – الطبعة الأولي ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

٣- أسرار العربية – لأبي البركات ابن الأنباري – تحقيق/ محمد بهجة البيطار – مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧م.

٤- الأشباه والنظائر في النحو للشيخ العلامة جلال الدين السيوطي – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي ١٤٠٥هـ –١٩٨٤م.

٥- إصلاح الخلل الواقع في الجمل للزجاجي تأليف عبد الله بن محمد البطليوسي– تحقيق د/ حمزة عبد الله النشرتي – دار النصر للطباعة – القاهرة.

٦- الأصول في النحو لابن السراج – تحقيق د/ عبد الحسين الفتلي – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولي ١٤٠٥هـ – ١٩٧٥م.

٧- الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة لأبي البركات ابن الأنباري – تحقيق سعيد الأفغاني – مطبعة الجامعة السورية– ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧م.

٨- الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي. تحقيق د/ أحمد قاسم – مطبعة السعادة – الطبعة الأولي ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م.

٩- الأمالي الشجرية لهبة الله بن الشجري – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت- لبنان.
١٠- الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات بن الأنباري – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – القاهرة ١٩٥٣م.
١١- الإيضاح في علل النحو لأبي القاسم الزجاجي – تحقيق مازن المبارك- مطبعة المدني ١٣٧٨هـ – ١٩٥٩م.
١٢- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثانية ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.
١٣- البسيط في شرح جمل الزجاجي لابن أبي الربيع السبتي – تحقيق ودراسة د/ عياد بن عيد الثبيتي – دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي ١٤٠٧ه÷ – ١٩٨٦م.
١٤- البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري – تحقيق د/ عبد الحميد طه – مراجعة مصطفي السقا – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
١٥- التبصرة والتذكرة لأبي محمد عبد الله بن على الصميري – تحقيق د/ فتحي أحمد مصطفي على الدين – مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى – الطبعة الأولي ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.
١٦- التصريح بمضمون التوضيح للشيخ خالد الأزهري – دار إحياء الكتب العربية – عيسي البابي الحلبي – القاهرة.
١٧- تهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهري – نشر مقدمته / أحمد عبد الغفور عطا – دار مصر للطباعة سنة ١٩٥٦م ونشرته الدار المصرية للتأليف والترجمة بتحقيق مجموعة من العلماء.
١٨- حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك – طبعة فيصل عيسي البابي الحلبي.

١٩- الحجة في علل القراءات السبع لأبي على الفارسي - تحقيق / على النجدي ناصف وآخرين - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٢٠- خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي - تحقيق/ عبد السلام هارون - الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢١- الخصائص لابن جني - تحقيق/ محمد على النجار - دار الكتب المصرية ١٣٧٤هـ -١٩٥٥م.
٢٢- ديوان امرئ القيس - تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف - الطبعة الثانية ١٩٦٤م.
٢٣- الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي - تحقيق د/ شوقي ضيف - دار المعارف - الطبعة الثانية.
٢٤- رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي - تحقيق د/ أحمد محمد الخراط - دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٢٥- سر صناعة الإعراب لابن جني - تحقيق د/ حسن هنداوي - دار القلم - دمشق - الطبعة الأولي ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٢٦- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - طبعة عيسي الحلبي وشركاه.
٢٧- شرح شافية ابن الحاجب للرضي - دار الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
٢٨- شرح كافية ابن الحاجب للرضي - الآستانة ١٢٧٥هـ.
٢٩- شرح الكافية الشافية لابن مالك - تحقيق د/ عبد المنعم هريدي - دار المأمون للتراث - الطبعة الأولي ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م - من منشورات مركز البحث العلمي - جامعة أم القرى.

٣٠- شرح المفصل لابن يعيش – إدارة الطباعة المنيرية – بدون تاريخ.
٣١- شرح ملحة الإعراب للحريري – تحقيق د/ أحمد قاسم – مطبعة مصطفي عبيد – الطبعة الأولي ١٤٠٣هـ – ١٩٨٢م.
٣٢- شرح الملوكي في التصريف لابن يعيش – تحقيق د/ فخر الدين قباوة – المكتبة العربية بحلب ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.
٣٣- شفاء العليل في إيضاح التسهيل لأبي عبد الله محمد بن عيسي السلسيلي – تحقيق د/ الشريف عبد الله على الحسيني البركاتي – المكتبة الفيصلية – مكة المكرمة – الطبعة الأولي ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
٣٤- الصاحبي لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا – تحقيق / السيد أحمد صقر – د/ إحياء الكتب العربية – فيصل عيسي البابي الحلبي.
٣٥- ضرائر الشعر لابن عصفور الأشبيلي – تحقيق / السيد محمد إبراهيم – دار الأندلس – بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.
٣٦- القياس في النحو للدكتوره مني إلياس – دار الفكر – دمشق – الطبعة الأولي ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
٣٧- الكتاب لسيبويه – تحقيق عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي – الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
٣٨- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل في وجوه التأويل للزمخشري – دار عالم المعرفة.
٣٩- اللباب في علل البناء والإعراب للعكبرى – تحقيق غازي مختار طليمات و د/ عبد الإله نبهان – دار الفكر – بيروت ودار الفكر – دمشق – الطبعة الأولي ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

٤٠- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني - تحقيق د/ على النجدي ناصف وآخرين - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ١٣٧٩هـ.
٤١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية - تحقيق الرحالي الفاروق و آخرين - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بقطر - الطبعة الأولي (١٣٩٨- ١٤١٢) هـ و (١٩٧٧-١٩٩١) م.
٤٢- المرتجل لابن الخشاب - تحقيق ودراسة على حيدر - دمشق ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣ م.
٤٣- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي - تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين - طبعة عيسي البابي الحلبي.
٤٤- المسائل البغداديات لأبي على الفارسي - تحقيق صلاح عبد الله السنكاوي - مطبعة العاني - بغداد.
٤٥- المساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل - تحقيق د/ محمد كامل بركات - دار الفكر بدمشق ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م - من منشورات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى.
٤٦- معاني القرآن وإعرابه للزجاج - تحقيق د/ عبد الجليل شلبي - المطبعة الأميرية ١٣٩٤هـ -١٩٧٤م.
٤٧- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام - تحقيق مازن المبارك ومحمد على حمد الله - دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولي ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.
٤٨- المفضل في شرح المفصل لعلم الدين السخاوى - تحقيق عبد الكريم جواد كاظم - رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٩- المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني – تحقيق د/ كاظم بحر المرجان – المطبعة الوطنية – عمان – الأردن – منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالعراق ١٩٨٢م.
٥٠- المقرب لابن عصفور – تحقيق أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري – مطبعة العاني – بغداد ١٩٨٦م.
٥١- الممتع في التصريف لابن عصفور – تحقيق د/ فخر الدين قباوة – منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت.
٥٢- من أسرار اللغة للدكتور/ إبراهيم أنيس – الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو المصرية.
٥٣- المنصف شرح ابن جني لكتاب التصريف للمازني – تحقيق إبراهيم مصطفي وعبد الله أمين – طبعة مصطفي الحلبي – الطبعة الأولي ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م.
٥٤- همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت.

أفعل التفضيل بين التقعيد والاستعمال
دراسة في تراث الأمثال العربية

الدكتور / علي محمد هنداوي
كلية الآداب- جامعة عين شمس

تمهيد : تواترت في كتب باحثي اللغة من الأقدمين والأحدثين إشارات إلى خصوص الأمثال العربية القديمة في غير جانب ؛ منها ما يتعلق بتاريخ العربية وما تقدمه الأمثال من صور قديمة لتراكيبها وألفاظها ، ومنها ما يتعلق بصوغ المثل وما يختص به من سمات تمثل انحرافا عن بعض ما تواضع عليه علماء النحو والصرف من قواعد لتركيب الكلام أو شروط لصوغ بعض المشتقات ؛ وربما دعا إلى ذلكم الانحراف ما عبّر عنه بعض الأقدمين في حديثهم عن الأمثال بأنها " ما تراضاه العامّة والخاصّة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم وفاهوا به في السراء والضراء ، واستدَرُّوا به الممتنع من الدر ، ووصلوا به إلى المطالب القصيّة وتفرجوا به عن الكَرب والمَكرَبة ، وهو من أبلغ الحكمة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مُقصّر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة " (١).

وكان أمر الشياع وتراضي العامّة والخاصّة منح المثل مشروعية وقبولا ، على ما قد يعرض فيه من المخالفة للقاعدة ؛ وقد عرَّف المرزوقي المثل مشيرا إلى خصوص بنائه ، بأنه جملة من القول مقتَضَبَة من أصلها أو مرسَلَة بذاتها ، فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول فتُنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها ، من غير تغيير يلحقها في لفظها وعمّا يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني ، فلذلك تُضرَب وإن جُهلت أسبابها التي خُرّجت عليها ، واستُجيز من الحذف ومضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يستجاز في سائر الكلام (٢).

وقد ميَّز الفارابي المثل من النادرة بأنها حكمة صحيحة تؤدي ما يؤدي عنه المثل ، إلا أنها لم تَشِعْ في الجمهور ولم تَجْرِ إلا بين الخواصّ .. (٣).

ويؤكد أبو عُبَيْد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) الوظيفة الاجتماعية والبناء الخاص للمثل جميعا ؛ إذ المثل عنده هو حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح فيجتمع لها بذلك ثلاث خِلال : إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحُسْن التشبيه (٤) ؛ ويضيف إبراهيم النظّام خلّة رابعة هي جودة الكناية ، وبذا يكون المثل نهاية البلاغة (٥). وقد شاعت من قديم أمثال أجريَت كما جاءت ، لأنه يجيء فيها ما لا يجيء في غيرها ، وهي لا تُغيَّر ؛ وقد نقل السيوطي أن نساء العرب كُنَّ يؤخِّذن الرجال بخَرَزَةٍ يقلْن : يا قبَلةُ اقبَليه ويا كَرَار كُرِّيه ، أعيذه بالبَنْجَلِب ؛ هكذا جاء الكلام وإن كان ملحونا (٦) ، وفي لسان العرب : ومنه قولهم : افعَلْه بادِيَ بَدْء ، على فَعْل ، وبادي بديء ، على فَعِيل ، أي أول شيء ، والياء من بادي ساكنة في موضع النصب ، هكذا يتكلمون به ؛ .. وربما تركوا همزه لكثرة الاستعمال (٧).

وفي كتاب سيبويه : وما جاءت حاجتُك ؟ أي ما صارت ؟ أدخل التأنيث على "ما" حيث كانت الحاجة ، كما قالوا : مَن كانت أمَّك؟ حيث أوقعوا "مَنْ" على مؤنث، وإنما صُيِّرَ جاء بمنزلة كان في هذا الحرف لأنه بمنزلة المثل ، كما جعلوا "عسى" بمنزلة كان في قولهم : عسى الغُوَيْر أبْؤسا ، ولا تقول : عسيتَ أخانا (٨) ؛ كذلك ينص سيبويه على أنه لا يجوز إظهار الفعل في نحو : أمّا أنت منطلقا انطلقتُ .. لأن هذا كلام جرى كالمثل ، والأمثال قد تخرج عن القياس فتُحكَى كما سُمِعَت ولا يطرد فيها القياس ؛ وقال المرزوقي : " من شرط المثل ألا يُغَيَّر عما يقع في الأصل عليه، ألا ترى أن قولهم : أعطِ القوس باريها ، تُسكّن ياؤه وإن كان التحريك الأصل ، لوقوع المثل في الأصل على ذلك ، وكذلك قولهم : الصيفَ ضيَّعْتِ اللبن ، لمّا وقع في الأصل للمؤنث لم يُغيَّر من بعدُ وإنْ ضُرب للمذكر ، .. وكذلك قولهم : أطِرِّي فإنكِ ناعلة ، يُضرَب للمذكر والمؤنث والاثنيْن والجمع على لفظ التأنيث "(٩). وقال أبو عُبَيْد في المثل "أجناؤها أبناؤها" : أي الذين جنَوا على هذه الدار بالهدم هم الذين كانوا بنَوها ، قال : وأنا أظن أن أصل المثل : جُناتُها بُناتها لأن فاعلا لا يُجمَع على أفعال إلا أن يكون هذا من النوادر ، لأنه يجيء في الأمثال ما لا يجيء في غيرها(١٠).

وفي اللسان : تفرّقوا أيدي سبا وأيادي سبا .. وذهبوا أيدي سبا ، أي فرّقتهم طرُقُهم التي سلكوها كما تفرق أهل سبأ في مذاهبَ شتَّى ، والعرب لا تهمز سبا في هذا الموضع لأنه كثر في كلامهم ، فاستثقلوا فيه الهمزة وإن كان أصله مهموزا، (١١) ، وينقل السيوطي عن الأصمعي أن الأمثال تحتمل ما لا يحتمل غيرُها ونُزال كثيرا عن القياس ، وقال الأخفش إن المثل يجيء على خلاف الباب ، وقال ابن برهان إن الأمثال تشذُّ كثيرا ... (١٢) .

وقد لفت القدماء كذلك إلى الأثر الذي يتركه المثل في بنية بعض الألفاظ لمراعاة ما يَحْسُن فيه من التوافق الصوتي وأنه يُوقف على أواخر كلماته ؛ فقولهم : أنكِحْنا الفرا فسنرى ، فإنما هو على التخفيف البدلي موافقة لـ" سنرى " لأنه مثل ، والأمثال موضوعة على الوقف ، فلمّا سكنت الهمزة أبدِلت ألفا لانفتاح ما قبلها (١٣).

وقد التفت المُحْدَثون من باحثي اللغة كذلك إلى الأمثال ، فتنادَوا إلى دراستها يشيرون إلى ما تؤديه من وظيفة اجتماعية ، وما يتصف به بناؤها من خصوص يجعلها تنِدُّ أحيانا عن المتعارَف من قواعد النحو والتصريف ، وتتنوَّع أنظارهم بحسب ما يتوسلون به من مناهج.

ويشير بعض الباحثين إلى مكانة الأمثال لدى الشعوب ، إذ بها يعبر المتكلمون عن أفكارهم بأسلوب مشترك ذي وقع شديد على المتلقّين ، خصوصا أن الأمثال غالبا جيدة التعبير وذات دلالات سائدة مما يجعل كثيرا من المتكلمين يقتبسونها .. وهي ذات سطوة كبيرة في حياتنا من قديم وفي الحاضر في الخطابين الفردي والجماعي .. (١٤).

ويلفت بعض الباحثين من المستشرقين والعرب إلى أهمية دراسة الأمثال القديمة ؛ إذ إن دراسة الشكل الذي اتَّخذه الأدب المَثَلِيّ في العصر الجاهلي لدقيقة بقدر ما هي خطيرة .. إنه لعمل أساسيٌّ في تاريخ اللغة (١٥). ويرى الدكتور شوقي ضيف أنه إذا كان القصص الذي أُضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهليّ بحكم تأخره في التدوين ، فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة ، إذ إن مِن شأنها ألا تُغيَّر وأن تظلّ طويلا بصورتها الأصلية ، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة ، .. وإذا كانت بعض الأمثال تخالِف نظام التصريف

والنحو فإن الكثرة الكثيرة لا تشذ على هذا النظام ، بل إنَّ طائفةً منها تدخل في الصياغة الجاهلية البليغة ، إذ نطق بها بعض بُلَغائهم وفصحائهم من أمثال أكثم بن صيفي وعامر بن الظَّرب .. (١٦).

ويشير إسرائيل ولفنسون إلى أن القديم من الحكم والأمثال يمتاز عن الشعر الجاهلي الصحيح في بحث موضوع نشأة اللغة العربية ، لأنها تحتفظ بصيغتها الأصلية أكثر من أي نوع آخر من الأساليب اللغوية فلا يدخلها شيء من التغيير والتحوير .. لصوغها في صيغة موجَزة .. (١٧).

ويشير الدكتور محمد جمال صقر إلى أن للأمثال القديمة مَيزتَيْن : الأولى : الإيجاز ، بتقليل الألفاظ والحذف منها ، والأخرى القِدَم ، إذ يُمكِننا الاطمئنان إلى قدْر كبير منها على اعتبار أنه قديم ، بل أقدم ما وصل إلينا من أساليب العربية (١٨).

وفي دعوته إلى دراسة لغة الأمثال يرى الدكتور محمد أحمد أبو الفرج أن دراستها جديرة بأن تُظهر لنا لغوة لها خصائصها المتميِّزة عن الشعر وعن النثر ، .. " فالأمثال تُروَى كما هي .. ولعل من يتصفح مجمع الأمثال يجد فيه وفرة من التعبيرات اللغوية التي تكاد تكون مختصّة بهذا النوع من التعبير , واعتقادنا بإمكان إفراد الأمثال العربية على أنها لغوة لها خصائصها قريب مما يفعله الإنجليز حينما يتحدثون عن العبارات الاصطلاحية Idioms ، على أن لها خصائص متميزة عن غيرها من ألوان التعبير ؛ .. وتشير هذه العبارات الاصطلاحية إلى عادات خاصة في الربط بين الكلمات أو بين مجموعة منها ، غالبا ما تُستعمَل مجتمِعةً بدلالة مختلفة عن دلالتها متفرِّقة .. (١٩).

وقد استُجيبَت دعوة الدكتور أبي الفرج وغيره إلى دراسة لغة الأمثال ، فنهض بها غير باحث من محقق و دارس ؛ من المحققين: الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، والدكتور رمضان عبد التواب ، والأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، والدكتور أحمد الضبيب ، والأستاذ عبد العليم الطحاوي ، والدكتور عبد الفتاح الحلو، والدكتور عبد المجيد قطامش ، والدكتور حاتم الضـــامن ، والدكتور محمد حجي، والدكتور محمد الأخضر ؛ وممن قدموا دراسة للأمثال الدكتور عبد المجيد قطامش والدكتور عفيف عبد الرحمن، والدكتور محمد جمال صقر.

أفعل التفضيل في الأمثال القديمة :

أولاً : (مدخل) : سبقت الإشارة إلى احتفال الباحثين من قديم بتراث الأمثال ، وقد نبه بعض المحدَثين إلى أهمية موضوعات بأعيانها يراها قمينة بالدرس والبحث الموسَّع ، من مثل ما أشار إليه الدكتور عفيف عبد الرحمن من ظاهرة المبالغة وصيغة أفعل التفضيل والأساليب اللغوية في الأمثال ، والقيمة اللغوية للأمثال (٢٠).

وفيما يتصل بما تتسم به بعض أساليب اللغة القديمة من تنوُّع أو مجافاة للقاعدة أو اختلاط أحيانا ، يرى الدكتور محمد كامل حسين أن أساس المشكلة يكمن في طريقة جمع العربية التي يُعَدّ نزول القرآن الكريم بها أكبر حَدَث في تاريخها ، بَلغَتْ به أوج مجدها وتمام نموها وعرفت أرفع أساليبها بين عشية وضحاها ، ولم يكن قد سبق للعرب عهد بتدوين اللغة ودرسها ولا بالتأليف ، وقيل لهم إن غَمُض عليكم شيء في كتاب الله فردُّوه إلى كلام العرب ، " .. وكان حتما أن يتهافتوا سراعا على جمع كلام العرب وتدوينه ، وتجمَّعت لهم أخلاط من الألفاظ والعبارات تلقَّفوها من أفواه الناس ، وكان طبيعيا أن يكون فيما جمعوه تكرار واختلاف وتجاوُز في الصيغ والمعاني ، لأن اعتمادهم كان على ما يقول العرب ، ولم يسبق لكلام العرب قبل القرآن أن يدوَّن ويُختار منه ما يروق لأهل الذوق السليم ، .. فكان اعتمادهم على ما يسمعونه من الكلام العربي الذي لم يصقله الاختبار ولم يهذبه الاستحسان ، ولا نستطيع أن نقرَّهم على أن كل ما يقوله العربي يُعَدُّ أصلا من أصول اللغة ، وأنها هي العرب تقول ما شاءت فيكون قولها صوابا حتما ، ولم يعد يرضينا أن يكون من أصول لغتنا أن الأصمعيّ سمع أعرابيا يقول ". (٢١) .

ويَصدُق هذا الرأي في جانب منه على بعض الأمثال ، غير أن الكثرة الغالبة منها تبقى شاهد صِدْقٍ على ما كانت عليه الأساليب العربية في فترة سبقت جمع اللغة وتدوينها ، وهو ما يعِين على دراسة نمو هذه الأساليب ونمو العربية بعامَّة ، فضلا عن أن سمة الشيوع التي تواتر وصف الأمثال القديمة بها تعلو بها عن أن تكون استعمالا فرديا عارضا أو عشوائيا يُراد فرضه على اللغة أو نَحْله إياها ، بل إن كثيرا من الأمثال ، كما سلفت الإشارة ، كان يجري على سَنَن الفصحى ولا ينبو عن مألوفها .

وثمَّ مَن يضع المسألة في سياق آخر مختلف ؛ فأمر ما يسمَّى بالشذوذ اللغوي في التراكيب أو في الصيغ ينبغي أن يُدرَس في إطار المتصوَّر والمنطوق من اللغة وفي العلاقة بينهما ، وفي العلاقة بين ما يقتضيه التقعيد بصفته شيئا نظريا متصوَّرا وبين ما يفرضه الاستعمال بوصفه شيئا متحقّقا فعليا ، كما يوضح الدكتور محمد ربيع الغامدي ؛ بعبارة أخرى يكون الدخول إلى هذه القضية عَبْرَ مصطلحَيْ اللغة والكلام عند دي سوسير .. ، " وخلاصة الفرق بينهما أن اللغة هي القواعد الذهنية التي تُستشَفُّ من خلال أغلب ما يُنطق به ، فيُحكَم عليه بأنه القانون الذي اتبعه المتكلمون في إنتاج الألفاظ والتراكيب والأساليب ، وبمقتضاها يفهم السامع ما يُلقى عليه ، فاللغة على هذا قالب تُصَبُّ فيه الألفاظ ، فهي إذن شكل وهي أيضا تجريد ، وهي كذلك من عمَل الجماعة لا الفرد ، وهي التي بمقتضاها يعرف ما ورد من الكلام وفيه حذف أو زيادة أو تقديم أو تأخير ، وهي قبل ذلك وبعده التي تُدرَس . أمّا الكلام فهو نشاط فردي يقوم به المتكلم ، يتمثّل في الأنماط والتراكيب والأساليب التي ينتجها ، ويحكم على صحة الكلام أو خطئه ، أو مخالفته لِمَا ينبغي في الأصل أن يكون عليه ، أو ما لحِقه من نقص أو زيادة .. بموجب القواعد الذهنية الشكلية المجرَّدة المختزَنة في عقول الجماعة ، أي بمقتضَى اللغة (٢٢).

ويضيف الدكتور الغامدي أن المتكلم ينطق بالعبارات بعفوية ويسر وسهولة ، وليس له في ذلك قوانين يعتصم بها أو يقف عندها قبل أن ينطق ليَحكُمَ بها على صحة ما سينطق به ، ولا يتردد لحظة كي يرى ما سيكون عليه كلامه ، وإنما بُنِيَت قواعد دارسي اللغة من مجموع ما استُقرِيَ من كلام أصحاب اللغة في مرحلة لاحقة ؛ فاللغة سابقة والنحو تالٍ .. (٢٣).

ويطرُق الدكتور خليل عمايرة المسألة من زاوية التمييز بين الكلام واللغة بصورة عامّة ؛ فالكلام هو النشاط الفردي أو النشاط الكلاميّ لفرد أو مجموعة يمثّله السلوك الكلامي لقبائل الفصاحة ، واللغة هي المخزون الجَمعيّ الذهنيّ لأفراد المتكلمين بلغة معينة تمثلها لغات القبائل العربية كلها سواء أكانت موضع استشهاد أم لم تكن ، فضاقت بذلك قواعد الكلام عن ظواهر اللغة ، ولكنها حَمَلت ، أو قُلْ حُمِّلت اسم قواعد اللغة العربية ، فكثُر بذلك الخروج عليها وابتُكِر لذلك مصطلحات الشاذ

والنادر والقليل والمطّرد في السمَاع الشاذ في القياس والمطّرد في القياس الشاذ في السماع ، واضطرب بعضهم في ترتيب ذلك وفي كيفية الخروج منه ؛ فتارةً لغات القبائل كلها حُجَّة ، وأخرى بعضها حُجَّة دونَ بعض ، أو أنه التأويل الذي وسمه النحاة بقولهم : وهو أضعف الوجوه. (٢٤)

وإذا تناولنا بعض شروط أفعل التفضيل في سياق تمييز الكلام من اللغة ، أو في سياق المفارقة بين القاعدة والاستعمال ، نجد أنه بمقتضَى نحو اللغة جاء المتكلم بصيغة أفعل ليدلَّ على التفضيل ، وبصيغتَي التعجُّب ليدل على التعجب (وشروط القبيلَيْن تُسلك معًا) .. ، حتى صارت الصيغ المذكورة علما على معنيَيْ التفضيل والتعجب ، وصارت قياسا في جميع ما يرتجل المتكلم فلا يحتاج فيه إلى سماع من العرب ؛ وبمقتضَى نحو الكلام استُعمِل أفعل فيما لاتفضيل فيه ، وتُعُجِّبَ بنحو : لله دَرُّه فارسا ، ونحوها مِمّا لم يُبَوَّب له في النحو ؛ ومع أن النحاة راعَوا في جوانب عِدَّة ما ينبغي الفصل فيه بين النظر النحويّ وإثبات أصل الوضع ، وبين النظر إلى الاستعمال وقعوا أحيانا في الخلط بين الأمرين ، وكان على دارسي مسائل العربية المتأخرين أن يكونوا أكثر حذرا من الوقوع في هذا الخلط ، و أن ينظروا إلى كثير من المسائل في ضوء الفرق بين الأمرين .. فلو تأمَّلتَ ، مِمّا مُنِع في التقعيد وجاء بكثرة في الاستعمال ، الاشتقاقَ من الجوامد ، لوجدتَ أن قياس اللغة ، أي ما عليه أصل الوضع ، أن الاشتقاق لا يكون إلامن الأحداث .. لكنك تجد في الكلام نحو: استأسد واستنسر واستنوق واستحجر بكثرة .. وهذه الكثرة أجبرت المجمع اللغوي بالقاهرة على أن يُجيز الاشتقاق من الجوامد ، ونصَّ في قراره على هذه الكثرة.

وهذان الأمران ، أي منع الاشتقاق من الجامد وسماع مئات الألفاظ منه ، يَبدوان كالمتناقضَيْن ، على حِين أنهما ليسا كذلك ؛ إنني أزعم – والكلام للدكتور الغامدي – أن الاشتقاق من الجامد قياسي شاذ ، شديد الوضوح في القياسية شديد الوضوح في الشذوذ ؛ ذلك أنه حين الاشتقاق منه نُظِر إلى الحَدَث المتصوَّر صدوره منه ، فالاشتقاق فيه حينئذ من الحَدَث ، وهو جارٍ على قياس اللغة ، والدليل أن المقصود من استأسد: اتَّصف بالشجاعة ، ومن استحجر الطين : يبِس ، فقاعدة منع الاشتقاق من الجوامد لم تنتقض ، وقاعدة الاشتقاق من الأحداث سائرة ، والمتكلم

خرج بما جاء به من " الكلام " عمّا تقتضيه " اللغة " من وجه ، لكنه خروج إلى ما يقتضيه قياسها من وجه آخر ، فهو ينتقل بين المجاميع المختزَنة في الذهن من اللغة ليُفهم السامع الذي يختزن في ذهنه مثل الذي يختزنه المتكلّم ؛ إنَّ مَن حار في كثرة ما ورد من الاشتقاق من الجوامد مع شذوذه قد نظر إلى نحو " اللغة " ولم ينظر إلى نحو " الكلام " ، ووقف عند ما يوجبه النحو النظري الشكلي المبني على القواعد الذهنية ، حتى إذا رأى واقع الاستعمال يخالفه راح إما يخرّجه على الاستقباح والخطأ، وإما يخطّئ القاعدة ويستشهد على خطئها بما ورد في الاستعمال (٢٥) .

ويحصر الدكتور الغامدي أسباب الشذوذ اللغوي في أربعة هي :

١- الميل إلى الخفة .

٢- تجنب اللبس .

٣- التوهم (القياس الخاطئ False Analogy).

٤- الضرورة .(٢٦) السابق ١٩٩.

ولعل الميل إلى الخفة سمة تميز بناء المثل الذي يجمع دارسوه على ملاحظة ما فيه من إيجاز ، كما أن القياس الخاطئ يلاحظ في بعض نماذجه التي قيس فيها ما ليس ثلاثيا من الأفعال على الثلاثي منها ؛ أما الضرورة فإنها – وإن كانت ألصق بالشعر – فإن توخي الإيجاز في المثل والإتيان به على وزن هو من وزن الشعر بسبب ، لمما يلجئ إلى مثل ما يلجأ إليه الشعراء من الضرورة ، وهو ما صرح به بعض القدماء فيما سبق أن اجتزأنا من أقوال لهم .

ثانياً : شروط صوغه :

درج النحاة العرب على أن يَسلكوا التعجب والتفضيل معاً ، إذ يشترك الأسلوبان في شروط ما يراد صياغتهما منه من الألفاظ ، مع أن افعل التفضيل من الأسماء وصيغة ما أفعله – إحدى صيغتي التعجب القياسي – من الأفعال ؛ ولعل اشتراكهما في الشروط هو ما جعل بعض النحاة يورد في بعض المسائل شاهداً في باب أحدهما في أثناء حديثه عن الآخر ، كالذي فعله ابن عصفور عند حديثه عن شذوذ ما صيغ من المفعول للتعجب ؛ يقول : " ..... والذي شذ منه : ما أشغله ومـــا

أولعه بالشئ وما أعجبه برأيه وما أحبَّه إليّ وما أمقته عندي وما أبغضه إليّ وما أخوفه عندي ، بدليل قول كعب بن زهير :

فلهو أخْوَف عندي إذ أكلمُه   وقيل إنك محبوس ومقتولُ

من ضيغم بثراء الأرض مُخدَره   ببطن عثَّرَ غِيل دونه غيلُ

إذ لا يُبنَى أفعل الذي للمفاضلة إلا مما يُبنَى منه فعل التعجب .. " (٢٧).

كذلك يورد ابن مالك مقارنة ضمنية بين القبيلين في هذه المسألة ، فعنده أن " هذا الاستعمال في أفعل التفضيل أكثر منه في التعجب ، كأزهى من ديك وأشغل من ذات النِّحيَيْن وأشهر من غيره وأعذر وألوَم وأنكر وأعرَف وأخوَف وأرجَى ، وعندي أن صوغ أفعل التعجب والتفضيل من فعل المفعول الثلاثي غير الملتبس بفعل الفاعل، لا يُقتصَر فيه على المسموع ، بل يُحكَم باطراده لعدم الضائر وقلة النظائر(٢٨).

وينص صاحب اللسان على ضرب من تقارب التعجب والتفضيل " وذلك أن معنى : هو أفعل منه في المبالغة كمعنى : ما أفعله ، فكما لم يَجُزْ : ما أقومه قياما ، كذلك لم يَجُزْ : هو أقوم منه قياما " (٢٩).

وثَمَّ خلاف حفظته الكتب بين البصريين والكوفيين حول اسمية أفعل في التعجب وفعليته ، فالكوفيون يرونه اسما ، والبصريون ومعهم الكسائي من الكوفيين يرونه فعلا ؛ أما الكوفيون فدليلهم جموده وتمسُّك بعضهم بتصغيره كما في قوله:

يا ما أمَيْلِحَ غِزلانا شَدَنَّ لنا   من هؤليائكنَّ الضال والسَّمر (٣٠)

وذهب بعضهم إلى أن دليل اسميّته صحة عينه إذا صيغ من الأجوف في مثل قولنا : هذا أقوَم منك وأبيَع منك (٣١). وأمّا البصريون فاحتجوا لفعليّته بدخول نون الوقاية عليه عند اتصاله بياء المتكلم ، وهو ما أدخله الكوفيون في دائرة الشاذ الذي لا يُقاس عليه ، إذ تدخل النون في بعض الحروف أيضا كما في : قدْني وقَطْني(٣٢).

وقد أجْمَل ابن مالك القول في تشابه شروط التعجب والتفضيل بقوله :

صُغْ من مَصُوغ منه للتعجبِ   أفعل للتفضيل وأبَ اللذ أبي

وما به إلى تعجبٍ وُصِل   لمانع به إلى التفضيل صِلْ (٣٣)

وقد بيّن النحاة شروط صياغة أفعل التعجب أو التفضيل في قول ابن مالك:

وصُغهما من ذي ثلاث صُرِّفا   قابل فضلٍ تمَّ غير ذي انتفا

وغير ذي وصف يضاهي أشهلا   وغير سالكٍ سبيلَ فُعِلا (٣٤)

ويُنكِر الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور حَمْل النحاة أفعل التعجب على أفعل التفضيل ويراه أمرا " لم يُرْجَع إليه إلا ليُتَّخَذ ضابطا في التعليم والتأليف لتقريب المسائل وطرد القواعد وتيسير الحفظ لا غير ، ثُمَّ غلوا فيه وتوهَّموه أصلا حقيقيا فبنَوا عليه من أحكام البابَيْن ما ليس مقصودا بالإدراج تحت ذلك الضابط التقريبي ، وتحامل البابان أحدهما على الآخَر بصورة صناعية متكلّفة ، يَظهَر أن لا دليل عليها من سمَاع ثابت ولا من قياس أصيل "(٣٥).

وأمّا الدكتور مهدي المخزوميّ فإنّه لم يَجعل أفعل التفضيل أسلوبا تعبيريا مستقلا من أساليب العربية ، لكنه أدخله ضمن أسلوب التعجب ولم يَذكره باسمه ، بل أورد شاهدا للمتنبي فيه أفعل التفضيل في سياق شواهد أسلوب التعجب ، وهو قوله:

أحيا ، وأيسَر ما لاقيْت ما قتَلا   والحبُّ جارَ على ضَعفي وما عَدَلا (٣٦)

وقد ذكر النحاة أن ما عدم بعض الشروط المذكورة يُتوصَّل إلى التعجب منه والتفضيل بصياغة وزن أفعل مما توفرت فيه الشروط ويؤتى بمصدر الفعل العادم لبعض الشروط منصوبا .. وما لا مصدر له من الأفعال العادمة لبعض الشروط لا يُتعجّب منه البتة ، كالأفعال التي لا تتصرّف .. وأمّا ما ورد مصُوغا من مِثل ذلك فقد وصفه النحاة بالندرة وبأنه غير مقيس ، كما في صياغته من غير الفعل، أو من فعل غير ثلاثي أو مما اسم فاعله على أفعل أو من غير المتصرف أو مما أتى من المبني للمجهول (٣٧) ؛ وقد حاول بعض النحاة أن يعلّل مَنع اشتقاق أفعل التفضيل من الثلاثي المزيد فيه ومن الألوان والعيوب تعليلا يقوم على افتراض أصل لصيغة افعل، فعنده أن " أفعل التفضيل أصله من باب فعُل ، ولذلك تراه يَسلَس فيه التفضيل ولا سَلَسَة في غيره من الأبواب ؛ تقول : فقُه زيدٌ فهو فقيه وعمرو أفقه منه ، وحلُم فهو حليم وعمرو أحلم منه .. ، نعَمْ تقول : ضرَب فهو ضارب وعمرو أضرب منه ، إلا أن الأول أطيب منه في الذوق ، ومن ثمّ قالوا : أفعل التفضيل لا يُبنى من الألوان والعيوب ، لأن حقهما في الثلاثي المجرد أن يَقعا في باب فعِل يفعَل ..

فلم يمكن نقلهما إلى فعُل يفعُل .. لأن أفعل التفضيل كان في الأصل بلفظ الكثرة ، كقولك : زيد أكثر جُودا وأكثر ضربا منه وأكثر دحرجة ، ومن ثمَّ تراهم إلى هذا القياس يَعْدِلون في الضرورة وفي السَّعة أيضا ، ولهذا قالوا في تفسير المَثَل " العَود أحمد " : أكثر حمدا ، لكنه ألغى خصوص اللفظ ولم يُلغِ خصوص الباب "(٣٧) ؛ أي أن بناء أفعل التفضيل في المَثَل من المبنيّ للمفعول حُمِدَ محمول على الضرورة التي لا تنفي الأصل في هذا الباب ، وهو التوصُّل إلى بناء أفعل التفضيل بفعل مستوفٍ للشروط ؛ ومع طرافة هذا التعليل و إعلانه من جانب الحس اللغوي والتذوُّق في الحكم على صيغة بالقبول أو الشذوذ ، فإنه يقوم في فحواه على ما يقوم عليه أضرابه من تعليلات النحاة لتسويغ قياس أو إنكار غيره ، من اعتماد الجدَل النظري وحَمْل بعض الأبواب على بعض ، وذلكم ممّا تستند إليه كتب الخلاف النحوي و يتواتر في أدبياتها، فضلا عن الحكم بشذوذ ما لا يوافق رأي أصحاب مذهب ما وما يعتمدون من قياس ؛ وكان الأولى أن يكون المستعمَل الشائع هو المرجع والحكم في أمر القاعدة ، وأن تراعَى السياقات التي ترد فيها استعمالات بأعيانها يبدو فيها انحراف عن قاعدة أو مجافاة لقياس.

وكان المُحْدَثون أدنى إلى مراعاة الواقع اللغوي من القدماء سواء في إدراج أفعل التفضيل في مكانه من أقسام الكلِم ، أو في الحكم على ما لم يوافق شرطا أو أكثر من شروط بنائه بعيدا عن القول بالشذوذ أو تلمُّس تأويلات قد تُرضي عقل القائلين بها وتُفحِم مجادليهم ، ولكنها تظلّ بمنأى في الغالب عمّا تقتضيه اللغة التي ترتبط بالإنسان وما تُلجِئه إليه ضرورات التعبير وما تسمح به أعراف اللغة المستعمَلة.

في تقسيمه الكلام العربي على أساس من المَبنَى والمعنَى جميعا ، يَسلك الدكتور تمام حسان التعجب والتفضيل معا فيما يُسَمِّيه " الخالفة " ، وهي كل كلمة يُطلِقها المتكلِّم للإفصاح عن موقف انفعالي أو تأثري ؛ " فهيَ من حيث استعمالها قريبة الشَّبَه بما يُسَمُّونه في الإنكليزية Exclamation (٣٩) ؛ ويُفَصِّل الدكتور فاضل الساقي المسألة بأنه إذا قيل : هيهات السفر " فإنه سيؤدي معنى معينا معبِّرا بالوضع عن موقف ذاتي للمتكلم حيال ابتعاد السفر ، ولا يفي به أن يفسِّره بعبارة : بعُدَ السفر ، على سبيل الإخبار ، لأن القائل في هذه الحالة يريد أن يعبِّر عن معنــى

إنشائي بينه وبين التعجب رَحِم وقُربَى ، فكأن المعنى المراد التعبير عنه : ما أبعد السفر ؛ ولعل النحاة حين فسروه بمعنى بعد السفر ، قد أرادوا بالفعل الماضي الذي في جملة التفسير ذلك المُحَوَّل إلى صيغة فَعُل التي تفيد معنى التعجب .. ومِثل هذا يقال عن المدح والذم ، وكلها تَنِمُّ عن موقف خاصّ شخصيّ وذاتيّ للمتعجِّب أو المادح أو الذامّ " (٤٠) ؛ ويرى الدكتور تمام حسان أن خالفة التعجب في الحقيقة ليست في الحقيقة إلا أفعل تفضيل تُنُوسِيَ فيها هذا المعنى وأُدخِل في تركيب جديد لإفادة معنى جديد يَمُتُّ إلى المعنى الأول بصلة , وليس المنصوب بعده إلا المفضَّل الذي نراه هنا بعد صيغة التفضيل ولكنه في تركيب جديد وبمعنى جديد ؛ يؤيد ذلك أن كلا من صيغة التفضيل وخالفة التعجب يُصَغَّران بطريقة واحدة وأن شروط صياغتهما واحدة (٤١).

ويُعَدّ تراث الأمثال – الذي نحاول أن نعرض من خلاله ما بين القاعدة والاستعمال من تفاوت - يُعَدّ ميدانا ملائما للحكم على القاعدة ، باستقراء ما ساغ للذوق العام والخاص جميعا من تراكيب جاء فيها أفعل التفضيل مخالفا مألوف الشروط التي تواضع عليها أرباب القواعد.

- الاشتقاق من الجامد :

يفشو في الكلام العربي من قديم الاشتقاق من الجوامد ، سواءُ كان المشتق فعلا أو غير فعل ، وهو ما لاحظه العلماء قديما ولم يكن بوسعهم إنكاره ، أنه مما اقتضته ضرورات التعبير التي تُلجِئ أحيانا إلى تلمُّس صفة في ذات كالحيوان لتخلعها على إنسان ، وهو ما يمكن أن نصادفه في عبارة شائعة أو مَثَل سائر أو جملة في حوار ؛ يُحكَى عن الأصمعيّ في كلام له مع جارية يغازلها ، يقول : فقلت لها : ما لي إلا الكواكب ، قالت : أين مُكَوكِبها؟ (٤٢). ويتضمَّن رد الجارية اشتقاقا لاسم الفاعل مُكَوكِب من الجامد كوكَب ؛ وتورد كتب الصرف مصادر وأفعالا من الجامد مثل : جَلبَبة وشَمْللة وبَيطرة وقلنَسة .. وتقول : تَجَلبُب ، وتشَيطُن ، وتَجَورُب ..

وعلى تَفَعْلَت ، نحو : تَعَفْرت (٤٣) ، وغيره كثير. ويقول ابن قيّم الجوزية " .. وجعلوه جُنّة يتترّسون بها عن سهام الراشقين .. " (٤٤) ؛ ومن ذلك المَثَل : إن البغاث بأرضنا يستنسر .. أي صار كالنسر في القوة عند الصيد .. (٤٥) ؛ ومما أورد الثعالبي قولهم : أفرش طعامَك اسم الله وألحِقه الحمد لله (٤٧) . كما شاع في التراث العربي الاشتقاق من أسماء المدن والبلاد كقولهم : تيامنَ ، إذا أخذ ناحية اليمن (٤٨), وهو يضيف طائفة من الأفعال المشتقة على هذه الطريقة مثل : تشاءمَ إذا أخذ ناحية الشام ، كما ورد في حديث شريف (٤٩) ، كما يقال : انحجز واحتجز إذا أتى الحجاز، وقد أمنَى وامتنَى إذا أتى مِنًى ، وقد جلس إذا أتى نجْدا [جَلس : اسم لنجْد] , وأنشدوا للعرجيّ : (٥٠)

شمال مَن غار به مفرّعا وعن يمين الجالس المُنْجِدِ

اراد بالجالس : الذي أتَى نَجْدا . وكذلك : أعمَن وأغرَق وأغار وأخاف وأتهَم وأجْبَل وأسهَم وساحَل والوَى ؛ وينقل عبد الرحمن الهمذاني عن المبرّد : ربأ لنا فلان واعتان لنا إذا صار ربيئة وعينا ، والمربأ والمَرقب والمَرصد حيث يقف الراصد ؛ ويقال : هذا فعل يُدَرِّعك العار .. ويسربلك الشنار ويُرَدِّيك الزراية ، ويقال : اعتان فلان الشيء أي أخذ عينه ؛ وقال كُثيِّر عزة : (٥١)

وقد درَّعوها وهيَ ذات مؤصَّدٍ مُجِيبٌ ولمّا تلبس الدرع ريدُها

وفي معجَم الأمثال العربية عن أكثم بن صيفي : ادَّرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل ، وقيل: أتربَ فندَح (٥٢) ، ونُقِل عن ابن الأعرابي : أنجب الرجل ، أي جاء بولد جبان، قال : فمَن جعله ذما أخذه من النجب وهو قشر الشجر (٥٣) ، وقالوا : استنوق الجمل أي صار ناقة (٥٤) ، ويقولون : قد عفَّر خدّه إذا أداره في التراب وحرّكه ، أخِذ من العفر وهو التراب وظهر الأرض ، وقال أبو هريرة : لدم عفراء أحب إليّ من دم سوداوَين (٥٥) ، ويقول ابن حجر العسقلاني : امرأة جَبلة : عظيمة الخَلق ، وناقةَ جَبلة السنام ، ورجل جبيل الوجه والرأس : عظيمهما ؛ أخِذ ذلك كله من الجَبَل ، لملاحظة ما فيه من الضخامة والكبر (٥٦) ، ويُورد ابن الأثير قول عمرو بن أحمر الباهليّ : (٥٧)

لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها يَنْجَحِرْ

اي : يلجأ إلى جُحْر.

وعلى كل حال فإن تضمين الأسماء الجامدة معنى الأوصاف وإجراءها مُجراها باب واسع ، كما يقول ـ مُحِقا ـ الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور (٥٨)، وليس أفعل التفضيل إلا صيغة يَنقاس فيها من كلامهم ما ينقاس ويشذ مسموعا بعضه، وما شذ يمنحه الشياع قبولا واستحسانا ، نظرا لما يخلعه الذوق والعرف على الجوامد من معاني التصرف أو الفعلية أو الوصفية ، ولذا كثُر في أمثالهم كثرةً مُبينة الاشتقاق من الجوامد ومما لا فعل له ؛ يقولون : أشمَس من عروس ، والشمس ضرب من القلائد ، أو هي مِعلاق القلادة في العنق ، والجمع شموس ، وجيد شامِس: ذو شموس ؛ قال اللحياني : الشمس ضرب من الحَلي مذكر ، والشمس قلادة الكلب ، .. فعلى هذا التقدير يكون معنى المَثَل : أكثر زينة وحَليا من عروس (٥٩).

وقالوا : هذا آبَل من حُنَيف الحناتم (٦٠) ، وقالوا : آبَل الناس كلهم ، كما قالوا: أرعى الناس كلهم ، " وكأنهم قالوا : أبِل يأبَل ، ورجل آبَل ، وإن لم يتكلموا بالفعل ، وقولهم آبَل الناس بمنزلة آبل منه ، لأن ما جاز فيه أفعل الناس جاز فيه هذا، وهذه الأسماء التي ليس فيها فعل ، ليس القياس فيها أن يقال أفعل منه ونحو ذلك ؛ وقد قالوا : فلان آبَل منه ، كما قالوا : أحنَك الشاتَين " (٦١) ؛ والواضح من كلام سيبويه أن أعراف الناس في كلامهم هي التي سوَّغت اشتقاق أفعل مما لا فعل له ، ثُمَّ قياس بعض ذلك على بعض ؛ " وذلك أنهم قالوا أحنك الشاتين وأحنك البعيرَيْن ، كما قالوا آكَل الشاتين ، كأنهم قالوا : حَنِك .. فإنما جاءوا بأفعل على نحو هذا وإن لم يتكلموا به (٦٢).

ويقولون : أغوى من غوغاء الجراد ؛ الغوغاء اسم الجراد إذا ماج بعضه في بعض قبل أن يطير .. قال أبو عبيدة : الغوغاء شيء شبيه بالبعوض .. والغوغاء من الناس : الكثير المختلطون (٦٣) ؛ ويقولون : أجدى من الغيث في أوانه ، معناه أنفع، يُقال : ما يُجدي عنك هذا أي ما ينفع وما يُغني ، والجِداء ممدودا النفع ، وبناء أفعل من الأفعال [المصادر] شاذ ، وحقه : أشد جداءً (٦٤).

وقالوا : أيسَر من لقمان ، .. وزعم المفضل أنه كان من العمالقة وأنه كان أضرَب الناس بالقِداح فضربوا به المثل في ذلك ، وكان له أيسار يَضْرِبون معه بالقِداح وهم ثمانية بيض وحَمحَمة وطُفَيل وزُفافة ومالك وفرعة وثُمَيل وعمـــــار ، فضربت العرب المثل بهؤلاء الأيسار (٦٥).

ويقولون : أرجَل من خُفٍّ ، ومن حافر ؛ يعنُون به الرُّجلة وهي القوة على المشي راجلا ؛ يقال : رجل رَجيل وامرأة رجيلة إذا كانا قويين على المشي ؛ قال الشاعر: (٦٦)

أنّى اهتديْتِ وكنتِ غيرَ رجيلةٍ   شهدتْ عليكِ بما فعلتِ عيونُ

وأصل الاشتقاق في كل ما سبق من الرِّجْل ؛ ومِثله مما جاء على أفعَل ولا فِعْل له : الأزبَر وهو العظيم الزبرة وهو الكاهل ، والأهضم والآذن والأخلق والأملس والأنوَك والأخزَم والأخوَص والأقطع والأجْذم للمقطوع اليد ، وقد جاء في كتاب العين لبعضها أفعال والقياس يَصْحَبها .. (٦٧).

ويقولون : ألصّ من شِظاظ ، ومن سِرحان ومن فارة ومن عَقعَق (٦٨) ، ومن بَرْجان (٦٩) ، في قول ابن هشام إنه مما شذ بناؤه مما لا فعل له .

ويقولون : أطفَل من طُفَيْل ، ومن ليل على نهار ومن شَيب على شباب ومن ذباب ؛ والعرب تسمي الطُّفَيليَّ الراشن والوارش .. ثُمَّ سُمِّي كل راشن طفيليا ، وصرَّفوا منه فعلا فقالوا طفَّل ، ويقولون هو طفَيْليّ للذي يدخل الوليمة والمآدب ولم يُدْعَ إليها، وقد تطفّل ، وهو منسوب إلى طُفيل .. (٧٠) ؛ فهذا اشتقاق من اسم العلم "طُفَيْل" ، لوحِظتْ فيه صفة غلبَت عليه فغلب عليها ؛ ومن ذلك الباب أيضا قولهم : ألوَط من ذُبّ ومن ثُغَر ومن راهب ؛ اشتُقّ من فعل قوم لوط (٧١).

وقالوا : أغرَب من غراب (٧٢) ؛ ويُلاحَظ ما في الغراب من معاني النّوَى والبُعد والافتراق أو معنى السواد ، وفي مُعجَم الأمثال العربية (٧٣) : يقال غرَب عنا يَغرُب غرْبا وأغرب وتغرَّب ، كله بمعنى الذهاب في الأرض والإمعـــان فيها ، ونوَى غَربة : بعيدة ، والعنقاء المُغْرِب هي التي أغربتْ في البلاد فنأتْ ولم تُحَسّ ولم تُرَ . وقد اقترنت الغربة بالفراق ، فقالوا غراب البَيْن وأشأم من غراب ؛ ويجوز أن يكون المراد من قولهم أغرَبُ : أشدّ سوادا ، كما هو ظاهر في بيت الكُمَيت : (٧٤)

زمانٌ عليَّ غرابٌ غُدافٌ   فطيَّرَه الشَّيب عنّي فطارا

يريد زمان شبابه يوم أن كان شعره شديد السواد ، وفي مَثَل : أشدّ سوادا من الغراب (٧٥).

وقالوا : أولمُ من الأشعَث (٧٦) ؛ وفي هذا اللفظ " أولم " ما في قولهم " أطفل" من أن أصل الاشتقاق فيهما من الجامد " وليمة وطفيل " ، وأن ما اشتُقَّ منهما من الفعل غير ثلاثيّ (طفَّل وتطفَّل , وأولم) ، " والوليمة طعام العرس والإملاك ، وقيل كل طعام صُنِع لعرس أو لغيره ، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن ابن عوف وقد جمع إليه أهله : أولِمْ ولو بشاة ؛ أي اصنَعْ وليمة .. وتكرَّر ذكرها في الحديث " (٧٧).

وقالوا : أخلف من صقر ، مأخوذ من خُلوف الفم وهو تغيُّر رائحته (٧٨) ، وقالوا : يوم أيوَم ؛ عبَّروا عن الشدّة باليوم كما يُقال ليلة ليلاء ، فاشتقوا أفعل من يوم كما اشتقوا فعلا منه من قبل فقالوا : ياوَمْته مُياوَمة ويواما، أي عاملته أو استأجرته اليومَ (٧٩) ؛ وقد نصَّت كتب النحو على شذوذ قولهم : أقمَن من ، إذ هو مما لا فعل له ، وكذلك بناء أفعل من الفعل الجامد كقولهم : ما أعساه وأعْس به (٨٠).

- الاشتقاق من غير الثلاثي:

تبيَّن من حديث الاشتقاق من الجامد أن بعضه مما يجمع بين الأصل والجامد والفعل غير الثلاثي المأخوذ منه ، وسوف نلاحظ أن بعض ما أصله فعل غير ثلاثي من أفعل التفضيل قد تجتمع فيه كذلك خلة أخرى مثل الدلالة على وصف لازم أو على لون أو عيب أو على المفعول .

يقولون : أروَح من الياس ، (٨١) ، ويقول ابن منظور : والراحة ضد التعب ، واستراح الرجل ، من الراحة ، وأراح الرجل والبعير وغيرهما ، وقد أراحني وروَّح عني فاسترحت (٨٢).

ويقولون : إن كنتِ تريدينني فأنا لكِ أريَد ؛ قال أبو الحسن الأخفش : هذا مَثَل ، وهو مقلوب وأصله أروَد ، وفي حاشية مَجْمَع الأمثال : حقّ العربية : تريدينني وأنا لكِ أشدّ إرادة(٨٣).

ويقولون : أشبَه به من التمرة بالتمرة (٨٤) ، وأشبه من الماء بالماء (٨٥) ، ومن الغراب بالغراب ، ومن الليلة بالليلة (٨٦) ، وفي اللسان :

أشبَه الشيء الشيء وأشبَهت فلانا وشابهته وشبَّهه إيّاه وشبَّهه به .. وتقول : أشبَه فلان أباه (٨٧) ؛ ومن أمثالهم : أشبه شرج شرجا لو أن أسَيمِرا (٨٨) ، ويقولون : أشبه من الحَرَّة بالحرة (٨٩) ، ومن الذباب بالذباب (٩٠) ، ومن القُنَّة بالقنة ، (٩١) ، ومن القُذّة بالقذة (٩٢).

ويقولون : أخلف من نار الحُباحِب ، ومن وَقود أبي حباحب ، ومن عُرقوب ، ومن من شرب الكمون (٩٣) ؛ وقد لاحظ صاحب مجمع الأمثال ما بَين المَثلين الأخيرَين من تخالف ، يقول : " إلا أن الكون مفعول لا فاعل ، كما كان عرقوب في قولهم : مواعيد عرقوب ، فاعلا " (٩٤).

وقد وصف النحاة ما ورد من ذلك بالنُدور ، وأنه لايقاس على ما سُمِع منه ، كقولهم : ما أخصَره ، من اختُصِر ، وهو كما نرى اختَلَّ فيه شرطا الثلاثية والبناء للفاعل (٩٥).

ويقولون : أسرع من حُداجة ، ومن نكاح أم خارجة ، ومن ذي عَطَس، ومن رَجْع العُطاس , ومن اليد إلى الفم , ومن فريق الخيل ، ومن وَرَل الحضيض ، ومن الخُذروف ، ومن عَدوى الثؤباء ، زمن تلمُّظ الوَرَل ، ومن المُهَنْهِئة ومن العَير ، ومن الريح ، ومن البرق ، ومن الإشارة ، ومن الجواب ، ومن البَين ، ومن اللمح ، ومن الطَّرْف ، ومن لمْح البصر ، ومن طرْف العَين ، ومن رجْع الصدى ، ومن حَلب شاة ، ومن مضغ تمرة، ومن لمْع الكفّ ، ومن السَّمّ الوَحِيّ ، ومن الماء إلى قراره ، ومن كلب إلى ولوغه ، ومن لحَسَة الكلب أنفَه ، ومن لفْت رداء المرتدي ، ومن السيل إلى الحُدُور ، ومن النار في يَبيس العَرْفج ، ومن شرارة في قصباء ومن النار تُدنَى إلى الحَلفاء ومن دمعة الخصيّ ،ومن قول قَطاةٍ قَطا (٩٦)

ويقولون : أوفق للشيء من شنٍّ لطبَقة ، وهو من قولهم : وافق شَنٌّ طبَقة ، (٩٧) ؛ ويقولون : أفلس من ابن المدلَق أو المذلَق (٩٨) ، ومن طنبور بلا وتَر ، (٩٩) ، ومن ضارب قحْف استه ، ومن ضارب لخْف استه (١٠٠).

ورُوي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : أطْوع الناس لله أشدّهم بغضا لمعصيته (١٠١) ، وقالوا : أطوَع من مُجِبّ (١٠٢) ، ومن ثوّاب (١٠٣) ، ومن فرَس (١٠٤) ، ومن كلب (١٠٥) .

وقالوا : أظلّ من حَجَر (١٠٦) ؛ وفي مجمع الأمثال : ليس للظلّ فعل يَتصرَّف في ثُلاثيّه فيُبنَى منه أفعل التفضيل ، وحقه : أشدّ إظلالا ، وقال :

كأنما وجهُك ظلٌّ من حَجَر

وقالوا : أعدى من الثؤباء ، ومن الجَرَب ، ومنه قوله:

أعْدَيْتِني فمَن تُرَى أعداكِ لا حَلَّ مَنْ أغْفَى ولا عَدَاكِ (١٠٧)

وفي اللسان (عدا ١٥/٣٩): وأعداه من علته وخُلُقه وأعداه به: جوَّزه إليه .. وفي بعض الأحاديث أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن النُّقبة تبدو بمَشفر البعير فتُعدي الإبل كلها .. " ، ولعلّه قِيس على أفعل من العَدْو في مِثل قولهم : أعدَى من الظليم ، أو من العِداء ، وهو الظلم كقولهم : أعدى من الحيَّة ، وهو كقولهم : أظلم من الحية ؛ ويَحتمِل المَثَل : أعدى من الذئب أن يكون من العِداء والعداوة والعَدْو ، والمَثَل : أعدَى من العقرب ، وهذا من العِداء والعَداوة (١٠٨) ؛ أي أن هذا القياس يُمكِن أن يُعَدَّ طرْدا للباب على وتيرةٍ واحدة ، قِيس فيه من المادة اللغوية ما اشتُقَّ من غير الثلاثي على ما اشتُقّ من الثلاثيّ.

ويقولون : أنجَب من أم البنين ، ومن بنت الخُرشُب ، ومن حُبَيّة ، ومن عاتكة، ومن مارية ؛ كله مشتقّ من غير الثلاثي : أنجَبَ " (١٠٩).

ومما يمتّ إلى هذا الباب بسبب قولهم : أكسى من بصلة ، (١١٠) ؛ يقول ابن منظور : ويقال فلان أكسى من بصلة ، إذا لبس الثياب الكثيرة ، وهذا من النوادر أن يقال للمكتسي كاسٍ بمعناه ، ويقال فلان أكسى من فلان ، أي أكثر إعطاءً للكسوة ، من كسوته أكسوه ، وفلان أكسى من فلان أي أكثر اكتساءً منه ، وقال في قول الحُطيئة :

دَع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعدْ فإنك أنت الطاعم الكاسي

أي المكتسي، .. وقال الفرّاء : يعني المكسوّ ، كقولك : ماء دافق ، وعيشة راضية ، لأنه يقال كُسِي العريان ولا تقول كسَا . وفي الحديث : ونساء كاسيات

عاريات ؛ قال ابن بري : يقال كَسِيَ يَكسَى ضدّ عَرِيَ يَعرَى (١١١) ؛ وكما قلنا فإنه يمكن إدراج هذا المَثَل فيما حُمِل فيه غير الثلاثي على الثلاثي من مادَّته ، وبخاصة إذا كان مستعمَلا دائرا .

ولعلّ أمن اللبس سبب في اشتقاق أفعل من غير الثلاثي في بعض الأفعال مثل : اهتَدَى ، أو حتى من المبني للمجهول منه ؛ فيقولون : أهدَى من قطاة ، ومن اليد إلى الفم ، ومن النجم ، ومن حمامة ، ومن جمل (مجمع الأمثال ٤٠٩/٢) ؛ وأمن اللبس ههنا مستفاد من سياق مِثل هذه الأمثال ومن معنى الفعل فيها ، الذي لا ينصرف الذهن معه إلى الهداية الدينية أو الخُلقية المفهومة من الثلاثي : هَدَى ، والمزيد فيه : اهتَدَى . ولعل خوف اللبس مما يكمن وراء مِثل قولهم : أولم من الأشعث (١١٢) ، وهو مَن قال فيه الشاعر:

قد أولم الكِنْدِيُّ يوم مِلاكه   وليمة حمّالٍ لثِقْل العظائمِ

وخوف اللبس الذي نظنه ههنا باعثه في المَثَل التشابه بين مصدرَي الفعلين : أولم وآلم ، فإذا قيل : أعظم إيلاما لم يُدْرَ من أي اللفظين هو ، من الوليمة أم الألم !

وقد يكون ثَمَّ سبب صوتي من وراء التجوُّز في اشتقاق أفعل من غير الثلاثي أو من المبني لغير الفاعل ، وذلكم في مثل قولهم : أعطى من عقرب (١١٣) ، وقولهم : أهلك من تُرَّهات البسابس (١١٤) ، وقولهم : ألحّ من الحُمَّى ، ومن الخنفساء ، ومن الذباب ، ومن كلب (١١٥) ؛ أمّا قولهم : أعطى من عقرب فإن الإتيان بمصدره (إعطاء) يَجمع في النطق بين صوتَي حلق هما الهمزة والعين ، مع كسرة تفصلهما ، ولا ريب أن التخلص من الهمزة وإبدال الكسرة فتحة لمِمّا يجعل النطق أيسَر ؛ ولعل ذلكم ما يفسّر شيوع اسم المصدر من هذا الفعل (عَطاء) ، بخِلاف المصدر . وقد شكّك الميداني في هذا المَثَل ، لا من حيث ما حاولنا تعليله به ، بل من اشتهار عقرب هذا بالتجارة لا العطاء ، وعنده أن (أعطى) في المَثَل من العَطْو الذي هو التناول ، أي أنه أكثر تناوُلا لأعراض الناس من العقرب التي تأبر كل ما مرت به (١١٦) ، والمَثَل الثاني : أهلك من تُرَّهات البسابس ، وقع فيه تيسير النطق بإيثار فتحة أفعل في (أهلك) على كسرة المصدر (إهلاك) ، وكذلك في المَثَل

الثالث : ألحّ من الحُمّى ، الذي تتوالى فيه ثلاثة من أصوات الحلق مع الكسرة، بفاصلين من سكون وألف مد إذا أتينا بالمصدر (إلحاح) ؛ وقد ذكر أبو عُبيدة أنه مَثَل من أمثال بني تميم ، وذلك أن لغتهم أن يقولوا : هلكت الشيء بمعنى أهلكته (١١٧).

ويقولون : أقفر من أبرق العزاف ، ومن بريّة خُسَاف (١١٨) ، وفي اللسان : وقد أقفر المكان وأقفر الرجل .. وأقفر فلان من أهله .. وأقفر جسده من اللحم ، وأقفر رأسه من الشعَر.. (١١٩) ، ويقولون : أقرف عينا والنُّجار مُذهَّب ؛ والإقراف مداناة الهُجْنة في الفرس ، وفي الناس أن تكون الأمّ عربية والأب ليس كذلك .. وفي الحديث أنه ركب فرَسا لأبي طلحة مقرفا .. ومنه حديث عمر رضي الله عنه ، كتب إلى أبي موسى في البراذين : ما قارف العِتاق منها فاجعلْ له سهما واحدا ، .. وأقرف الرجل وغيره : دنا من الهُجْنة (١٢٠).

ويقولون : أمحَل من تعقاد الرَّتَم ، ومن تسليم على طلل ، ومن حديث خرافة ، ومن الترهات (١٢١) ، وأورد ابن منظور عن ابن السكيت : أمحل البلد فهو ماحل .. وامحلت الأرض والقوم وأمحل المطر أي احتبس ، وامحلنا نحن .. ، قال ابن سيده: وقد حُكِيَ محُلت الأرض ومحَلت ، وامحل القوم اجدبوا وأمحل الزمان (١٢٢) ؛ وما أورده ابن سيده من صيغة ثلاثية لا يقدح في المسألة ، بل يؤكد مراعاة الأصل الثلاثي إنْ وُجِد بجانب غير الثلاثي أو قياس غير الثلاثي على الثلاثي .

ويقولون . أغرّ من ظبي ؛ وذلك أنه يَغترّ بالليل المُقمِر فلا يحترز حتى تأكله السباع ، ويقال بل معناه أن الظبي صيده في القمْراء أسرع منه في الظُلمة لأنه يَعشَى في القمْراء ، ويقال معناه من الغِرّة بمعنى الغَرارة لا من الاغترار (١٢٣) ؛ وإذا أجريَ حديث الشرب : فإنه أروى وأبرى ، أي يُبرئه من ألم العطش ، مُجرَى المَثَل فإنّ مراعاة الازدواج هي التي جعلت (أبرَى) آثر من (أشد إبراءً) (١٢٤).

ويقولون : أخلف من عرقوب ، وأخلف من ثيل الجمل .. لأنه يخالف في الجهة التي إليها مبال كل حيوان (١٢٥) ؛ وأخلف من مُخيلة ، وهي السحابة المَرجُوّة الغيث الكثير رعدها وبرقها ، وهو مأخوذ من قول جميل : (١٢٦)

لقد أخلفت ظني وكانت مُخيلة وكم من مُخيلٍ يُرتجَى ثُمَّ يُخلِفُ

ويقولون : أخلف من ثعالة ، ومن ديك ، ومن غراب ، ومن ثعلب في استه عِهْنه ؛ وفي اللسان : وقد اختال فهو مختال (١٢٧).

ويقولون : أحول من أبي براقش ، هذا من التحوُّل والتنقل ؛ وأبو براقش طائر يتلوّن ألوانا مختلفة في اليوم الواحد .. قال فيه الشاعر :

كأبي براقشَ كلَّ لو   نٍ لونه يتخيَّلُ

ويُروَى : يتحَوّل ؛ وأحوَل من أبي قلمُون ، فهو ضرب من ثياب الروم يتلوَّن ألوانا للعيون .. ، وأحول من ذئب ، هذا من الحيلة ، يقال : تحَوَّل الرجل إذا طلب الحيلة (١٢٨).

- **الاشتقاق من المبني للمفعول:**

من أمثالهم : أشهى من الخمر ؛ وهذا من المثل الآخَر: كالخمر يُشتهَى شربها ويُكْرَه صداعها ؛ وأشهى : أفعل من المفعول ، يقال : طعام شهيّ أي مشتهَى ، من قولِك : شهيت الطعام أي اشتَهَيْته ، واشهى من القند (١٢٩).ويقولون : أشهر من فلَق الصبح ، ومن فرَق الصبح ، وممن قاد الجمل ن ومن الأبلق ، ومن البدر ، ومن راية البَيْطار ، ومن الشمس ، ومن علائق الشعر،ومن العَلَم ، ومن قِفا نبكِ ، ومن القمر ، ومن قوس قُزَح (١٣٠). وقالوا : أعمَر من قُراد ، ومن ضَبّ ، ومن نَسر، ومن مُضَر ، وأنشدوا لرؤبة: (١٣١)

فقلت لو عُمِّرْت سن الحَسْلْ

أو عمر نوح زمن الفِطحْلْ

وأعمَر من ابن لسان الحُمَّرة ، ومن حيّة ، ومن لُبَد (١٣٢) ؛ ويقولون : أزهى من غراب ، ومن وعل ، ومن طاووس ، ومن ثعلب ، ومن ثور ، ومن حمامة ، ومن ديك ، ومن ضَيْوَن ، ومن قِطّ (١٣٣) ؛ وأنشدوا لخلف الأحمر (١٣٤) :

ألجُّ لجاجا من الخنفساءِ   وأزهى إذا ما مشى من غرابِ

ويقولون : هو أنخى من ديك (١٣٥) ؛ وفي اللسان : .. زُهِيَ فلان فهو مزهُوّ، ولا يقال زها ، ويقال نُخِي فلان وانتخى ،ولا يقال نخا،ويقال انتخى فلان

علينـــــــــا أي افتخر وتَعَظَّم .. وأنشد :

وما رأينا معشرا فيَنْتَخُوا (١٣٦)

وقالوا : أوطأ من الأرض ، وأوثق من الأرض ، وفي اللسان : (١٣٧)

إلى غَير موثوقٍ مِن الأرض تَذهَبُ

ولعل لأمن اللبس مدخلا في تسويغ الاشتقاق من المبني للمفعول في المَثَلين المذكورَيْن وما يشبههما ، كما في قولهم : أوجَد من تراب ، ومن الماء (١٣٨)، وفي اللسان : وَوُجِد الشيء عن عَدَم فهو موجود ، مِثْل حُمَّ فهو محموم ، وأوجَدَه الله ، ولا يقال وَجَدَه (١٣٩) ؛ إذ لا يؤدي اشتقاق أفعل التفضيل منها إلى لبْس في فهم المقصود، لتميُّز الفاعل فيها من المفعول.

وقالوا : أشغل من مُرْضِعِ بَهْمٍ ثمانين ، ومن ذات النِّحْيَيْن (١٤٠) ، وأكره من خصلتَي الضَّبُع (١٤١) ، وأجَنّ من دُقة (١٤٢) ، وأمنع من است النَّمِر ، ومن عُقاب الجوّ ، ومن لهاة الليث (١٤٣) ومن أنف الأسد (١٤٤) ، وأخفى مما يُخفي الليل (١٤٥) . وقالوا : أقوَد من مُهْر ، وذلك لأن المُهْر إذا قُيِّد عارض قائده وسبقه ، وهذا أفعل من المفعول ؛ قالوا : لأنه يسابق راجلة صاحبه (١٤٦) ؛ وقالوا : أتخم من فَصِيل (١٤٧) ، وأتيَم من المرقِّش (١٤٨) ، وأتيم مأخوذ من المفعول ؛ يقال : تامه الحب وتيَّمه .. قال لَقِيط :

تامَتْ فؤادك لم يَحزُنْكَ ما صنعَتْ إحدَى نساء بني ذُهْلِ بن شَيبانا

وقد نصّ الزمخشريّ على شذوذ التفضيل من المفعول فيما سبق من أمثال ، وفي قولهم : أغذَر وألوَم وأشهر وأعرَف وأنكَر وأرجَى وأخوَف وأهْيَب وأحمد ، وأنا أسَرّ منك بهذا (١٤٩) .

- **<u>الاشتقاق من الوصف اللازم والألوان والعيوب:</u>**

يقولون : أحمق من أبي غَبشان ، ومن هَبَنَّقة ، ومن عِجْل ، ومن حُذُنّة، ومن حُجَينة ، ومن جَهيزة ، ومن الممهورة من نَعَم أبيها ، ومن الممهورة إحدى خَدَمَتَيها ، ومن جحا ، ومن بَيهَس ، ومن شرنبَس ، ومن ربيعة البكاء ، ومن الدابغ على التحليء ، ومن الرُّبَع ، ومن نعجة على حوض ومن نعامة، ومن عقعَق ، ومن رخلة ، ومن تُرب العَقِد ، ومن

الضَّبُع ، ومن أم الهنبر ، ومن لاعق الماء (١٥٠). وينصّ سيبويه على أن مما لا يجوز فيه أفعل للتفضيل والتعجب ما كان لونا أو خِلقـــــة ،" وإنما دعاهم إلى ذلك أن هذا البناء داخل في الفعل ، ألا ترى قِلّته في الأسماء وكثرته في الصفة لمضارعتها الفعل ، فلمّا كان مضارعا للفعل موافقا له فـــي البناء كُره فيه ما لا يكون في فعل أبدا ، وزعم الخليل لأنهم إنما منعهم من أن يقولوا في هذا : ما أفعله ، لأن هذا صار عندهم بمنزلة اليد والرِّجل وما ليس فيه فعل من هذا النحو ؛ ألا ترى أنك لا تقول ما أيداه وما أرجَله، إنما تقول : ما أشدّ يده .. وأمّا قولهم في الأحمق ما أحمقه وفي الأرعن ما أرعنه .. فإنما هذا عندهم من العِلم ونقصان العقل والفِطنة ، فصارت ما ألدّه بمنزلة ما أمرسه وما أعلمه ، وما أحمقه بمنزلة ما أبلده وما أشجعه وما أجنّه ، لأن هذا ليس بلون ولا خِلقة في جسده ولا نقصانٍ فيه .. (١٥١) ؛ ويدخل كلام سيبويه هذا في إطار ما سبقت إليه الإشارة من حمل بعض الأبواب على بعض ، أو تأوُّل بعض الصيَغ بأن الأصل فيها غير بنائها المتداوَل ، " لأن أصل بناء أحمق ونحوه أن يكون على غير بناء أفعل ، نحو : بليد وعليم وجاهل وعاقل وفهيم وحصيف ، وكذلك الأهْوَج .. " (١٥٢). والمفهوم من كلام سيبويه أن بعض الصفات مما هو مستعمَل على أفعل ، إنما جاز فيها التعجب والتفضيل ، مع أنها دالة على وصف لازم وهي كالخِلق ، لأنه ليس بلون ولا بخِلقة فيه ، غير أنه تواتر الاشتقاق من الخِلق والعيوب أو الأوصاف اللازمة ؛ يقولون أيبَس من صخر (١٥٣) ، وأحذر من غراب، ومن ذئب ، ومن ظليم ، ومن قِرلى ، ومن نملة ، ومن ذرّة ، ومن كلب على عِقي (١٥٤) ؛ ويقولون : أحيا من فتاة ومن هَدِيّ ؛ وههنا اجتمع الوصف اللازم ، والاشتقاق من غير الثلاثي (الحياء من استحيا) (١٥٥)، وقالوا : أحلم من الأحنف ، وأحزم من فرخ العُقاب ، ومن حرباء ، وأحكم من لقمان ، ومن زرقاء اليمامة ، ومن هرم بن قُطبة (١٥٦). وقالوا : أخون من ذئب وأخـــدع مـــــــن ضب(١٥٧) ، وأخرق من حمامة ، ومن ناكثة غزلها (١٥٨)، وأرسح من ضفدع (١٥٩).

ضب(١٥٧) ، وأخرق من حمامة ، ومن ناكثة غزلها (١٥٨)، وأرسح من ضفدع (١٥٩).

وقد تعددت قراءات الآية (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا) الإسراء١٧/٣٧ ، واختلف المفسرون في تأويل لفظ (أعمى) فيها ؛ أما القراءات فقد وافق على إمالة لفظ (أعمى) في الموضعين بعض القراء، ووافق على إمالة الأول أبو عمرو ويعقوب ، وانفرد ابن مهران بفتحهما عن رَوح فخالف سائر الناس (١٦٠) ، أما المفسرون فإنّ منهم مَن فسَّر لفظ (أعمى) الثاني كالأول على معنى التفضيل ، ومنهم مَن خالف ذلك ؛ " أي مَن عمِيَ عن شُكر هذه النّعَم والإيمان لمُسْديها فهو في أمور الآخرة وشأنها أعمى ، .. ويَحتمل (أعمى) الثاني أن يكـــــون بمنزلة الأول على أنه تشبيه بأعمى البصر، ويَحتمل أن يكون صفة تفضيل أي أشدّ عمًى ، والعمى في هذه الآية هو عمى القلب في الأول والثاني. " (١٦١) ، ويرجّح ابن عطية " أنه يوم القيامة أشدّ حَيرةً وعمًى ، وقرأ أبو عمرو بإمالة (أعمى) الأول وفتح الثاني ، وتأوّله بمعنى أشد عمى ، ولذلك لم يُمِلْه ؛ قال أبو عليّ : لأن الإمالة إنما تَحسُن في الأواخر ، وأعمى ليس كذلك لأن تقديره أعمى من كذا .. فهو إذن ليس بآخر ، ويُقوّي هذا التأويل قوله عطفا عليه (وأضلّ سبيلا) ، فإنما عطف أضلّ الذي هو أفعل مِن كذا على ما هو شبيه به ، وإنما جعله في الآخرة أضل سبيلا لأن الكافر في الدنيا يمكن أن يؤمن فينجو ، وهو في الآخرة لا يمكنه ذلك ، فهو أضل سبيلا وأشدّ حَيرة .. وقول سيبويه : لا يقال أعمى من كذا كما يقال ما أبداه ، إنما هو في عمى العين الذي لا تفاضُلَ فيه ، وأمّا عمى القلب فيقال ذلك لأنه يقع فِيه التفاضُل (١٦٢) . فهذا الوصف – على أحد تأويليه - يخرج عمّا ينقاس فيه أفعل التفضيل ، وقد مال الميدانيّ إلى تأوّله بأنه من عمى القلب ، أي ليس الخِلقة أو العيب المعروف، فالأول اسم والثاني اسم تفضيل ، .. بل يستأنس بقراءة أبي عمرو بإمالة (أعمى) الأولى في الآية وتفخيم الأخرى ، تفرقة بين ما هو اسم وما هو أفعل منه بالإمالة وتركها (١٦٣) .

وقد أنكر بعض المستشرقين وجود التفضيل أصلا في اللفظ ؛ فالمستشرق " يوهان فك " ينكر على " نولدكه " تجويزه اشتقاق أفعل من العيوب مثل أعمى استنادا إلى الآية الكريمة ، إذ لا تفضيل فيه ، "بل معناه أن الأعمى في الدنيا هو في الآخرة أعمى أيضا ، بل أضَلّ عن الطريق .. ولكن معنى العمى لا يتأتى فيه التفضيل إلا في حالة استعماله مَجازا في الضلال ونحوه ، أمّا استعمال (أضل سبيلا) على صورة التفضيل فلا يدلّ بالضرورة على التفضيل في قرينه في الآية (أعمى) " (١٦٤). وقد أثارت شواهد صياغة أفعل التفضيل من الألوان جدلا مماثلا بين مَن حمَلوها على الشذوذ مِن البصريين ومَن تابَعهم ، وبين مَن أجازوها كالكوفيين (١٦٥) ؛ فقد حُمِل قوله:

فأنت أبيضُهم سِربالَ طبّاخ

وقولُ الآخر :

أبيض مِن أخت أبي إباض

على الشذوذ ، بل قيل بوضعهما (١٦٦) . وينكر " فك " كذلك معنى التفضيل في هذين البيتين ، وفي قوله:

لمّا دعاني السمهريّ أجبته   بأبيضَ من ماء الحديد صقيل

" ولا تفضيل هنا كذلك .. ولا في قول عبد الله بن الزبير :

هما خُطّتا خسف نجاؤك منهما   ركوبك حَوليًا مِن الثلج أشهبا " (١٦٧)

وحتّى مع الإقرار باحتمال عدم القصد إلى التفضيل أو القول بأن مِثل هذه الأبيات مصنوعة ، فإن تواترها مع نظائرها من استعمالات لأفعل التفضيل من غير الثلاثي ، ومن المفعول ، ومن الجامد ، ومن الوصف اللازم ، كل أولئكم لمِمّا يؤكد خروج الاستعمال الحيّ في نصوص اللغة عن دائرة المسموح به في القاعدة ؛ ولعل قول المتنبي : (١٦٨)

ابْعَدْ بَعِدتَ بياضا لا بياضَ له   لأنت أسود في عيني من الظُلَم

لمِمّا يترجّح فيه كسر القاعدة ، إلا على رأي الكوفيين ، بالرغم من إمكان تأويل (أسود) في البيت بأنه ليس أفعل التفضيل ، بل المعنى : أنت أسود معدودا من الظُلَم ؛ إذ إن سياق الكلام في البيت يُقوّي إرادة التفضيل في استعمال المتنبي هذا اللفظ ، ولِمَ لا وهو بصدد شن هجوم مُرّ على بياض الشيب ؟ الأولى أن يَعُدّه لا من الظُلَم فحسب، بل أبْغض إلى عينيه وأحْلك في مَرْآهما من سوادها!

- الاشتقاق مما لا يتفاوت :

يقولون : أيأس من غريق (١٦٩) ؛ ويقولون : أروَى من النعامة ، ومن حية ، ومن النمل ، ومن الحوت ، ومن بكر هبَنَّقة ، ومن مُعجِل أسعَد (١٧٠) ؛ ويقولون : أتوى من دَيْن [التوَى : الهلاك] ، وإنما قيل ذلك لأن أكثر الدُّيون هالِك ذاهب ؛ ويقولون : أتوى من سلف (١٧١) . ويقولون : أصبّ من المتمنّية (١٧٢) ؛ ويقولون: أعقر من بغلة ، وأعقم من بغلة (١٧٣).

- خروج أفعل عن التفضيل :

يعرف اللسان العربي المفارقة بين ظاهر اللفظ ومعناه في غير أسلوب من أساليبه ، وهو ما يعدُّه بعض اللغويين من سنن العرب في كلامها ، ومنه "قولهم عند المدح : قاتله الله ما أشعره ! فهم يقولون هذا ولا يريدون وقوعه ، وكذا : هوَت أمُّه ، وهبلته ، وثكِلته ؛ وهذا يكون عند التعجّب من إصابة الرجل في رمْيه أو في فعل يفعله " (١٧٤).

ويتحقق ذلكم في أفعل التفضيل كذلك ، إذ تُستعمَل صيغته ولا يراد لازم معناها ، ويشمل ذلك استعمالها وصفا لغير تفضيل ، والتسمية بها ، وما اختُلِف حوله من استعمالها في صفة لله تعالى ؛ من التسمية بأفعل قولهم أعوج، وهو اسم فرس كان لبني هلال ، وله أزيَب أي نشاط ، وأخذني منه أزيب أي فزَع ، والأزيب من أسماء الجنوب ، وهو الأشيَب ، والأبيض السيف ، وأبيَن اسم رجل ، وبنات الأوبَر ضرب من الكمْأة ؛ وما ذقت عنده أوجس أي شيئا من الطعام ، والأوجس الدهر والأودَع اسم من أسماء اليربوع، والأوعس السهل اللين من الرمل ، والأورَق من الإبل الذي لونه لون الرماد ، وأوفى من أسماء الرجال ، وأولى لك في التهدد ، والأيســـر

نقيض الأيمن ، والأيصر الحشيش المجتمِع ، والأيدع الزعفران ، والأيطل الخاصرة ، والأيهَم الجبل العظيم ، وما أدري أي أودكٍ هو أيْ أيّ الناس(١٧٥). ومما استُعمِل على الاسمية مثنى : الأبيضان الخبز والماء ، وهما الشحم والشباب ، والأصرمان الذئب والغراب(١٧٦)

ومما استُعمِل من أفعل وصفا لغير تفضيل : تطاير شرر الحديد أخْوَلَ أخْوَلَ ، أي متفرّقا ، والأزيَب الزنيم (١٧٧) ، ورجل أروَب خاثر النفس مختلط ، والأخوَث المسترخي البطن ، والألوث الذي فيه استرخاء وبطء ، والأعوج والأهوج الطويل فيه حُمْق ، والأقود الطويل العنق، وأصْور مائل مشتاق ، والأحوس الشجاع ، والأشوس الذي ينظر بمؤخِر عينه ، والأخوص الغائر العين ، والأروع الذي يَرُوعك حُسنه ، والأكوع المعوجّ الكوع ، والأصوف كثير الصوف ، والأروق الطويل الأسنان ، والأسوق الحسن الساق ، والأفوق السهم المكسور الفُوق ، والأسول من صفة النجاء ، والأشوه السريع الإصابة بالعين ، والأفوه الواسع الفم الطويل الأسنان ، وبَحر أفيح واسع ، والأجيد والأعيط الطويل العنق ، والأليس الشجاع ، وفرس أخيف الذي إحدى عينيه سوداء والأخرى زرقاء ، والأعيَن الواسع العين (١٧٨) ؛ وقولهم : فلان أرعن ، قال أبو بكر الأنباري قال الفراء : الأرعن معناه المسترخي ، وأنشد للراجـز (المجاشعي أو الأغلب العجلي) :

فرحلوها رحلة فيها رعنْ
حتى أنخناها إلى منٍّ ومَنْ (١٧٩)

وقالوا : فلان أنوَك .. فيه قولان ، قال الأصمعي : الأنوك العاجز الجاهل .. والنَّوْك عند العرب العجز والجهل ، واحتج بقول الراجز :

تضحك منّي شيخة ضحُوك
واستنْوَكَتْ وللشباب نوك
وقد يشيب الشعر السُّحكوكُ

وقال غير الأصمعي : الأنوَك العَيِيُّ في كلامه ، واحتجّ بقول الشاعر:

فكن أنوَكَ النوكَى إذا ما لقِيتهم   وكنْ عاقلا إمّا لقِيت ذوي عقل(١٨٠).

ويقال كذلك : يوم أشنع أي شنيع (١٨١) ؛ وقال أبو ذؤيب :

يتناهبان المجد كلّ واثقٌ ببلائه واليوم يومٌ أشنعُ(١٨٢)

والأكشَف : الذي لا يَثبُت في الحرب (١٨٣)

ومن ذلك أيضا قولهم : بعير أجَبّ أي مقطوع السنام ، وأضَبّ : به وجع يأخذ في الفِرْسِن ورجل أزَبّ أي كثير شعر الحاجبين ، والأقبّ الضامر البطن ، والأرَتّ الذي في لسانه رُتّة ، وأزَجّ الحاجبين ، وهو دقتهما وطولهما، ورجل أشَجّ أي مشجوج الراس ، وأفجّ وهو أقبح من الأفحج الذي تتدانى صدور قدميه وتتباعد عَقِباه وتتفحج ساقاه ، ورجل أبحّ إذا كان في صوته بُحّة، وفرس أرحّ إذا كان في حافره سَعة وانبساط . ورجل أبَدّ عظيم الخَلق أو عريض ما بين المنكِبَين ، والألَدّ الشديد الخصومة ، والأحَذّ الخفيف الذنَب ، وبعير أسَرّ إذا كان بكِركِرته دبْرة ، وبعير أعَرّ: الذي لا يطول سنامه، أو الذي لا سنام له ، ويقال فرس أفر ورجل أغرّ، وفرس أجش غليظ الصوت ، وسحاب أجش شديد صوت الرعد ، والأحَصّ الذي تناثر منه الشعر.. (١٨٤)

ومما استُعمِل من ذلك اسما لغير التفضيل مثنى ، ألفاظ كثيرة منها : الأخبثان للقيء والسُّلاح ، أو السهر والضجر، وفي الحديث : لا يصلّ الرجل وهو يُدافع الأخبثين ، ويقال نزل به الأخبثان أي أي البخَر والسهر (١٨٥) ، والأبردان الغداة والعشي ، وما رأيته مذ أجردان ، والأسدران المنكبان ، والأسهران عِرقان في المنخَرين أو في غيرهما ، والأخدعان عرقان في موضع المِحجَمَتين من العُنُق (١٨٦)

وقد أقر النحاة من شراح الشعر استعمال أفعل وصفا لغير تفضيل ، على خلاف بينهم في ذلك ، وهو ما جرى كذلك في شأن استعمال أفعل التفضيل من خلاف بين المفسِّرين حول هذه الصيغة مستعمَلة في وصف الله تعالى ، وفي مواضع أُخَر؛ من ذلكم ما دار حول عبارة : الله أكبر ، قال أبو بكر الأنباري : سمعت أحمد بن يحيى يقول : اختلف أهل العربية في معنى الله أكبر ، فقال أهل اللغة : معناه الله كبير ، .. واحتجُّوا بقول الفرزدق :(١٨٧)

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزّ وأطوَل

أراد : دعائمه عزيزة طويلة ، واحتجوا بقول الآخر:

تمنّى رجال أن أموت ، وإن أمُتْ   فتلك سبيل لست فيها بأوحَدِ

أراد : لست فيها بواحد ، واحتجوا بقول معن بن أوس (١٨٨):

لعَمرُك ما أدري وإني لأوجلُ   على أيِّنا تعدو المنيَّة أوّل

أراد : إني لوَجِل ، واحتجوا بقول الأحوص: (١٨٩)

يا بيت عاتكة التي أتعزَّل   حذرَ العِدا وبك الفؤاد موَكّلُ

إني لأمنحك الصدود وإنني   قسمًا إليك مع الصدود لأمْيَلُ

أراد : لمائل ، واحتجوا بقول الله عز وجلّ (وهو أهوَن عليه) سورة الروم ٣٠/٢٧ ؛ قالوا فمعناه : وهو هيِّن عليه .

وقال أبو بكر الأنباري عن الكسائي والفراء : الله أكبر معناه الله أكبر من كل شيء ، فحُذِفت"مِن" لأن افعل خبر، كما تقول : أبوك أفضل وأخوك أعقل، فمعناه أفضل وأعقل من غيره ، واحتجوا بقول الشاعر :

إذا ما ستور البيت أرخِين لم يكن   سراجٌ لنا إلا ووجهك أنوَرُ

أراد : أنور من غيره (١٩٠)

وقال معن بن أوس :(١٩١)

فما بلغَتْ كف امرئٍ متناولٍ   بها المجد إلا حيث مانلت أطولُ

ولا بلغ المهدون منك مِدْحة   ولو صدَقوا إلا الذي فيك أفضلُ

أراد : أفضل من قولهم. وفي الزاهر للأنباري :(١٩٢) وسمعت أبا العباس يقول : "من" تُحذَف في مواضع الأخبار ولا تحذف في مواضع الأسماء ، مَن قـــال أخوك أفضل لم يقل إن أفضل أخوك ، وإنما حذفت "مِن" في مواضع الأخبار لأن الخبر يدل على أشياء غير موجودة في اللفظ ، وذلك أنك إذا قلت أخوك قام ، دل هذا على مصدر وزمان ومكان وشرط ، كقولك : أخوك قام قياما يوم الخميس في الدار لكي يحسن ، والاسم لا يُحذف منه شيء يدل عليه . ومعنى هذا الكلام أن أفعل ههنا في مقام إخبار لا مقام تفضيل وإن كان التفضيل متضمَّنا فيه.

وقد نُقِل عن ابن عباس أن معنى (أهون) في آية الروم : هو أهون على المخلوق ، أي الإعادة أهون على المخلوق من الابتداء ، وذلك أن الابتداء يكون فيه نطفة ثم علقة ثم مُضغة ، والإعادة تكون بأن يقول له كن فيكون ، وقال آخرون :

وهو أهون عليه ، معناه : والإعادة أهون على الله من الابتداء فيما تظنون يا كفرة ، والله تبارك وتعالى ليس شيء عليه أهون من شيء وله المَثَل الأعلى في السموات والأرض. (١٩٣).

وقد ذهب آخرون من النحاة إلى أن أفعل هنا ليس على التفضيل ، بل على أنه صفة مشبَّهة ، وتأوَّل بها آية الروم ، وكذلك قول الفرزدق السابق ، وقول الشنفرَى :

وإن مُدَّت الأيدِي إلى الزاد لم أكن باعجلهم ، إذ أجشَع القوم أعجلُ

أي : لم أكن بعَجِلهم .. وقال المبرد ينقاس ، وقال غيره لا ينقاس ، وهو – في رأي غيره- الصحيح (١٩٤).

من ذلكم يتبيَّن أن المستعمَل من الأمثال يَخرج الكثير منه عن قياس أفعل التفضيل ، بشروطه التي وضعها كثرة النحاة ، وحاولوا على امتداد العصور تأوُّل ما خالف هذه الشروط أو تجاوَزَها ، شأن غير أفعل التفضيل من أساليب اللغة ، التي هي دائما لسان صِدْقٍ يُبين عما في نفوس أبناء اللغة أفرادا وجماعات.

الخاتمة:

انتبه اللغويون مِن أصحاب كتب الأمثال وغيرهم إلى خصوص بنائها وما يَعرض فيها من انحراف عن مألوف التركيب أو مجافاة لشرط أو أكثر من شروط التصريف ، وجعل بعضهم لغة الأمثال بإزاء النظم وما يعرض فيه من الضرورة ؛ وتقدِّم الأمثال صورة تكاد تبلغ النهاية في الدِّقَّة لأساليب العربية القديمة ، التي حفظها الشياع والتداول عصورا متعاقبات .

وقد جاوزت نسبة الأمثال التي عُدِلَ فيها عمّا يُوجبه التقعيد حَدَّ الوصف بالنُّدرة أو القِلَّة ، برغم محاولات بعض اللغويين تأوُّل بعض الشواهد المَثَلِيّة بما يَردُّها إلى أصل القاعدة ، كقول الكوفيين باستثناء الأبيض والأسود مثلا باعتبارهما أصل الألوان ، أو تفسير (مِن) بعدهما بأنها للتبيين أو التبعيض لا التفضيل .

وتَجْمَع بعض الأمثال مخالفة لأكثر من شرط من شروط بناء أفعل التفضيل ، كاجتماع البناء من المفعول ، أو من الجامد ،من الفعل غير الثلاثي ؛ ويُلاحَظ أن بعض ما خالف شرطا إنما المسوِّغ له أمن اللبس ، إذ لا لبس فيما يتبيَّن فيه الفاعل

من المفعول ، كقولهم : أوطأ من الأرض ، وهو أفعل تفضيل من المفعول الذي لا يلتبس بالفاعل ؛ كذلك يلعب قياس غير الثلاثي من بعض الأفعال على الثلاثي المستعمَل منها دوره في تسويغ الاشتقاق منه ؛ ويَظهر العامل الصوتيّ في تقديرنا مسوِّغا في بعض الصيَغ المخالفة إيثارا للسهولة في النطق ؛ ولعل أبرز شواهد ذلكم الضرب ما اجتمع فيه صوتا حلق أو أكثر مع صوت الكسرة ، إذا استُعمِل المصدر منها مسبوقا بمِثل أشدّ أو أكثر ، فيُعْدَل عمّا يَعسُر نطقه إلى الأيسَر نطقا ، ولو بمخالفة أصل القاعدة (أعطى ، بدلَ أكثر إعطاءً ، مَثلا).

وقد استند بعض اللغويين إلى النطق بالإمالة أو بالفتح للفظ (أعمى) في آية الإسراء، للتمييز بين ما قُصِد به التفضيل وهو المفخَّم أو المفتوح ، وبين ما يدل على الصفة غير التفضيلية ؛ وهذا اجتهاد يحتاج إلى تتبُّع ما يمكن أن يكون له مِن نظائر يرتبط فيها التفسير أو التوجيه الصرفي للفظ بالإمالة أو بغيرها من أمور صوتية.

ويقترح البحث إمكان دراسة أبواب ومسائل أخرى في النحو والصرف ، تُوضَع فيها القاعدة اللغوية بإزاء المستعمَل في الكلام منطوقا أو مكتوبا ، مثل التعجب والمدح والذم والنسب ، مما يمكن أن يقود إلى تعديل فيما تواضعت عليه كتب النحو وما استقر فيها من قواعد وشروط.

الحواشي :

(١) المزهر للسيوطي ٤٨٦/١.
(٢) المزهر ٤٨٧/١.
(٣) المزهر ٤٨٧/١.
(٤) الأمثال لأبي عبيد ٣٤.
(٥) انظر مجمع الأمثال ٧/١- ٨.
(٦) المزهر ٤٨٧/١- ٤٨٨.
(٧) لسان العرب "بدأ" ٢٧/١.
(٨) الكتاب ١٥٨/٣.
(٩) انظر الأمثال للقاسم بن سلام ، ٢٩٨والفاخر للمفضل الضبي ٤٨٦ ، والوسيط في الأمثال للواحدي ٢٧ ، ومجمع الأمثال للميداني ١٩/٢ ، والمستقصى للزمخشري ١٠٤٨ ، والمزهر ٤٨٨/١.
(١٠) انظر الأمثال لأبي عبيد ٣٠٢.
(١١) لسان العرب "سبأ" ٩٤/١.
(١٢) الأشباه والنظائر ١٠٥/١، و لسان العرب "هنأ" ١٨٤/١ ، ومجالس العلماء للزجاجي ٨٢، والأمثال العربية القديمة للدكتور محمد جمال صقر ١٨٧.
(١٣) انظر لسان العرب "فسأ" ١٢١/١.
(١٤) انظر معجم الأمثال العربية لخير الدين شمسي باشا ، المقدمة أ،ب.
(١٥) تاريخ الأدب العربي ، بلاشير ٩٢٠.
(١٦) تاريخ الأدب العربي ، د.شوقي ضيف ٤٠٤،٤٠٨.
(١٧) تاريخ اللغات السامية ٢١٢.
(١٨) الأمثال العربية القديمة للدكتور محمد جمال صقر٢٩.
(١٩) مقدمة لدراسة فقه اللغة ١١٦.
(٢٠) الأمثال العربية القديمة ٣٧.
(٢١) بحث في أصول اللغة ، مجلة الأدب ، العدد الأول ، السنة الخامسة ، أبريل ١٩٦٠م ، ص ١٥٣ وما بعدها.
(٢٢) اللغة بين التقعيد والاستعمال ، جذور التراث ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، العـــدد السادس ، رجب ١٤٢٢ هـ ، ص١٨٦ وما بعدها ، وانظر النحو العربي والدرس الحديث للدكتور عبده الراجحي ٣٣-٣٧.
(٢٣) اللغة بين التقعيد والاستعمال ١٩١.
(٢٤) انظر: دعوة إلى قراءة جديدة للنحو العربي ، جذور التراث ، العدد ٤، المجلد ٢ ، جمادى الآخرة ١٤٢١هـ/سبتمبر ٢٠٠٠م.

(٢٥) انظر: اللغة بين التقعيد والاستعمال ١٩١- ١٩٦.
(٢٦) السابق ١٩٩.
(٢٧) شرح المقرب ٤٤٦،٤٤٥ ؛ وبيتا كعب في شرح قصيدته لابن هشام ص ٢٨٢،٢٨٠.
(٢٨) انظر: شرح التسهيل ١٦٢/٢ ، وشرح المقرب ٤٥٣- ٤٥٤.
(٢٩) لسان العرب "شيأ" ١٠٤/١.
(٣٠) انظر: لسان العرب "ملح" ٦٠٢/٢ ، وفيه : ولم يصغّروا من الفعل غيره وغير : ما أحَيْسِنَه.
(٣١) انظر: الإنصاف في مسائل الخلاف ، ط دار الفكر ١٢٦/١ وما بعدها.
(٣٢) راجع الإنصاف ١٢٩- ١٣٦.
(٣٣) شرح المكودي على الألفية ، ضبط وشرح إبراهيم شمس الدين ، ص ١٨٨.
(٣٤) شرح المكودي ١٨٢.
(٣٥) بحث بعنوان : تحرير أفعل التفضيل من ربقة قياس نحوي فاسد ، مجلة الأدب ، السنة التاسعة ، العدد الرابع ، يوليو ١٩٦٤م ، ص٢١٣.
(٣٦) في النحو العربي ، قواعد وتطبيق ٢١٥ ؛ والبيت في ديوان المتنبي ، شرح عبد الرحمن البرقوقي ٢٨٢/٣.
(٣٧) انظر : لباب الإعراب للإسفراييني ٤٨٢ وما بعدها ، والإيضاح لابن الحاجب ٦٥٣/١ وما بعدها ، وشرح المكودي ١٨٢، وشرح التسهيل لابن عقيل ١٦٦/٢ وما بعدها ، وشرح المفصل لابن يعيش ٩١/٦ ، وارتشاف الضرَب ٩٦٢/٢ ، وحاشية الصبان ٢١/٣ ، وشرح الرضي ٤٤٧/٣ ، والتخمير في شرح المفصل للخوارزمي ١٢٣/٣- ١٢٥.
(٣٨) التخمير في شرح المفصل ١٢٣/٣.
(٣٩) اللغة العربية معناها ومبناها ١١٣.
(٤٠) أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة ، ص ٢٥٢،٢٥١.
(٤١) اللغة العربية معناها ومبناها ١١٤ وما بعدها.
(٤٢) معجم الأمثال العربية ١٢٥٢/٣- ١٢٥٣.
(٤٣) الممتع الكبير في التصريف لابن عصفور الإشبيلي ١١٧،١١٦ ، وكذلك مثل : تدَهقن وتشيطن ، وتَدَهْقَ وتشَيَّط.
(٤٤) السابق ١٧٣- ١٧٤.
(٤٥) مختصر الصواعق المرسَلة على الجهمية والمعطّلة ٢٨٤.
(٤٦) مجمع الأمثال للميداني ٧/١.
(٤٧) التمثيل و المحاضرة ٢٧٥.
(٤٨) الزاهر في معاني كلام الناس لأبي بكر الأنباري ٣٢٨/٢.
(٤٩) هي في قوله صلى الله عليه وسلم : إذا نشأتْ بحْريَّةً ثمّ تشاءمَتْ فتلك عينٌ غُدَيْقة. الفائق ٤٢٨/٣ ، والنهاية ١٥/٥.

(٥٠) ديوانه ١١، والزاهر في معاني كلام الناس ٣٢٨/٢ ، ٣٢٩.
(٥١) الألفاظ ١٥٥ـ ١٥٦ ، ٢٠٠ ، والبيت في شرح ديوان كُثيِّر ٧٤.
(٥٢) ١٢١،١١٩/١.
(٥٣) اللسان "نجب" ٤٧٨/١.
(٥٤) مجمع الأمثال ٩٣/٢.
(٥٥) الزاهر ١٤٣،١٤٢/٢.
(٥٦) انظر غراس الأساس ٥٤،٥٣.
(٥٧) المثل السائر ٤٢٨/٢.
(٥٨) راجع: تحرير أفعل التفضيل .
(٥٩) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ٥٣٨/١ ، والمستقصى للزمخشري ٧٩٦ ، واللسان "شمس" ١١٤/٦.
(٦٠) الأمثال لأبي فيد السدوسي ٧٢.
(٦١) كتاب سيبويه ١٠٠/٤.
(٦٢) كتاب سيبويه ١٠٠/٤.
(٦٣) مجمع الأمثال ٦٥/١.
(٦٤) مجمع الأمثال ١٨٩/١ ، وراجع الكليات للكفوي ٦٨٠ ، والتعريفات للشريف الجرجاني ١٤١" الفعل".
(٦٥) مجمع الأمثال ٤٢٧/٢ ، وانظر الدرة الفاخرة ٧١٩ ، والمستقصى ١٩٠٦.
(٦٦) مجمع الأمثال ٣١٦،٣١٥/١ ؛ والبيت منسوب في اللسان "رجل" ٢٧٠/١١ للحرث ابن حلزة ، ولم أجده في ديوانه ، جمع وتحقيق وشرح د. إميل يعقوب.
(٦٧)انظر : المزهر ٩٩/٢.
(٦٨) مجمع الأمثال ٢٥٧/٢ ، وراجع اللسان "لصص" ٨٧/٧ وما بعدها .
(٦٩) جمهرة العسكري ١٨٠/٢ ، والمستقصى ١٤٢٠ ، وراجع شرح التصريح ١٠١/٢.
(٧٠) مجمع الأمثال ٤٤١/١ ، واللسان " طفل" ٤٠٤/١١ ، وجمهرة الأمثال ١٤/٢ ، ونهاية الأرب ١٣٣/١ ، والمستقصى ٩٣٨.
(٧١) مجمع الأمثال ٢٥٤/٢.
(٧٢) جمهرة الأمثال ٧٩/٢ ، والمستقصى ١٠٩٤.
(٧٣) معجم الأمثال ٧١٨/٢.
(٧٤) شعر الكميت ؟؟
(٧٥) معجم الأمثال العربية ٧١٨/٢ ـ ٧١٩.
(٧٦) الدرة الفاخرة ٦٩٤ ، والمستقصى ١٨٥٦ ، و مجمع الأمثال ٣٧٩/٢.
(٧٧) اللسان "ولم" ٦٤٣/١٢.

(٧٨) مجمع الأمثال ٢٥٣/١.
(٧٩) اللسان "يوم" ٦٥١/١٢.
(٨٠) انظر: شرح ابن عقيل ١٥٦/٣.
(٨١) مجمع الأمثال ٣١٧/١.
(٨٢) اللسان "روح" ٤٦١/٢.
(٨٣) مجمع الأمثال ٦٥/١.
(٨٤) مجمع الأمثال ٣٨٦/١
(٨٥) مجمع الأمثال ٣٩٠/١.
(٨٦) معجم الأمثال العربية ٣١٧/١.
(٨٧) اللسان "شبه" ٥٠٣/١٣،٥٠٥.
(٨٨) انظر: أمثال المفضل ١٥٤، وأمثال أبي عبيد ٤٢٢ ، والمستقصى ٧٤٦.
(٨٩) جمهرة العسكري ٦٣/١.
(٩٠) المستقصى ٧٤٩.
(٩١) المستقصى ٧٥١.
(٩٢) جمهرة العسكري ٦٣/١ ، والمستقصى ٧٥٢.
(٩٣) مجمع الأمثال ٢٥٣/١.
(٩٤) مجمع الأمثال ٢٥٣/١.
(٩٥) راجع شرح ابن عقيل ١٥٦/٣.
(٩٦) مجمع الأمثال ٣٤٧/١- ٣٥٥ ، وأمثال ابن سلام ٢٠٥،٣٧٢،٣٧٤ ، والزاهر ٢٦٠.
(٩٧) الدرة الفاخرة ٦٩٣ ، وجمهرة الأمثال ٨١١/١ ، والمستقصى ١٨٣٩.
(٩٨) مجمع الأمثال ٨٣/٢ ، والدرة الفاخرة ٥٣٠.
(٩٩) التمثيل والمحاضرة للثعالبي ٢٠٧.
(١٠٠) المستقصى ١١٦٢ ، واللسان "لحف" ٣١٥/٩.
(١٠١) مجمع الأمثال ٤٥٠/٢.
(١٠٢) التمثيل والمحاضرة ٢١٣.
(١٠٣) الدرة الفاخرة ٤٣٧ ، والمستقصى ٩٤٩ ، وجمهرة العسكري ٦٣/١ ، و مجمع الأمثال ٤٤١/١.
(١٠٤) المستقصى ٩٥٠ ، وجمهرة العسكري ١٤/٢.
(١٠٥) المستقصى ٩٥١ ، وجمهرة العسكري ١٤/٢.
(١٠٦) المستقصى ٩٧٩ ، وجمهرة العسكري ٢٧/٢.
(١٠٧) مجمع الأمثال ٤٥/٢.

(١٠٨) مجمع الأمثال ٤٥/٢.
(١٠٩) الدرة الفاخرة ٦٨٢،٦٨٠ ، وجمهرة العسكري ١/ ٧٧٨،٧٧٦،٧٧٥، و المستقصى ١٦٤٠،١٦٣٩ ، و مجمع الأمثال ٤٣٩/٢- ٤٤٠.
(١١٠) التمثيل والمحاضرة ٢٧٣.
(١١١) اللسان "كسا" ٢٢٣/١٥-٢٢٤ ، والعمدة لابن رشيق ٢٦٩/٢.
(١١٢) مجمع الأمثال ٣٧٩/٢.
(١١٣) جمهرة العسكري ٦٩/٢ ، و مجمع الأمثال ٥٤/٢.
(١١٤) مجمع الأمثال ٤٠٨/٢.
(١١٥) مجمع الأمثال ٢٥٠/٢ ، وعيون الأخبار ٧٢/٢ ، والدرة الفاخرة ٦٠٢.
(١١٦) مجمع الأمثال ٢/ ٥٤.
(١١٧) مجمع الأمثال ٤٠٨/٢.
(١١٨) مجمع الأمثال ١٢٩/٢ ، والمستقصى١٢١٦،١٢١٧.
(١١٩) اللسان "قفر" ١١٠/٥.
(١٢٠) اللسان "قرف" ٢٨١/٩ ، ومجمع الأمثال ١٢٢/٢.
(١٢١) مجمع الأمثال ٣٢٦/٢.
(١٢٢) اللسان "محل" ٦١٧/١١ ، ومجمع الأمثال ٣٢٦/٢.
(١٢٣) مجمع الأمثال ٦٤/١.
(١٢٤) اللسان "برأ" ٣١/١.
(١٢٥) مجمع الأمثال ٢٥٣/١- ٢٥٤ ، وراجع اللسان "خلف" ٩٤/٩.
(١٢٦) مجمع الأمثال ٢٦٠/١.
(١٢٧) اللسان "خيل" ٢٢٨/١١.
(١٢٨) مجمع الأمثال ٢٢٨/١.
(١٢٩) مجمع الأمثال ٣٨٥/١ ، جمهرة العسكري ٧٢١ ، والمستقصى ٨١٣،٨١٢.
(١٣٠) مجمع الأمثال ٣٩٠،٣٨٥/١ ، وجمهرة العسكري ١٥٣٨ ، والمستقصى ٨٠٧.
(١٣١) مجمع الأمثال ٥٠/٢ ، والدرة الفاخرة ٤٩٠،٤٨٩، والمستقصى ١٠٧٧،١٠٧٦.
(١٣٢) مجمع الأمثال ٥٤/٢ ، والدرة الفاخرة ٤٨٧ ، وجمهرة العسكري١٢٧٣، والمستقصى ١٠٧٥،١٠٧٣ ، وزهر الأكم لليوسي ١٠٦/٣.
(١٣٣) مجمع الأمثال ٣٢٧/١ ، والمستقصى ٥٩٩،٥٩٤،٥٩٣،٥٩٢،١٠٩، وزهر الأكم ٣١٣،١٤٦/١ ، والدرة الفاخرة ٢٩١ .
(١٣٤) تصحيفات المحدثين للعسكري ٧.
(١٣٥) مجمع الأمثال ٣٥٧/٢ ، وجمهرة الأمثال ٢٩٨/٢ ، والمستقصى ١٦٤٩.
(١٣٦) اللسان "نخا" ٣١٣/١٥.
(١٣٧) اللسان "وثق" ٣١٧/١٠ ، وجمهرة الأمثال ٣٢٩/٢ ، والمستقصى ١٨١٣ ، ونهاية الأرب ٢١٣/١ ، و مجمع الأمثال ٣٨٢/٢.

(١٣٨) جمهرة الأمثال ٣٢٩/٢ ، والمستقصى ١٨١٤ ، ونهاية الأرب ٢١٣/١.
(١٣٩) اللسان "وجد" ٤٤٦/٣.
(١٤٠) مجمع الأمثال ٣٩١/١.
(١٤١) مجمع الأمثال ١٧٠/٢
(١٤٢) مجمع الأمثال ١٨٧/١.
(١٤٣) مجمع الأمثال ٣٢٣/٢،٣٢٥.
(١٤٤) جمهرة الأمثال ٢٢٧/٢ ، والمستقصى ١٥٨٩.
(١٤٥) مجمع الأمثال ٢٥٥/١.
(١٤٦) مجمع الأمثال ١٢٦/٢.
(١٤٧) جمهرة العسكري ٤٠٤ ، والمستقصى ١٠٩، وزهر الأكم ٣١٣/١.
(١٤٨) مجمع الأمثال ١٤٨/١.
(١٤٩) التخمير ١٢٤/٣.
(١٥٠) مجمع الأمثال ٢١٧/١-٢٢٦.
(١٥١) الكتاب ٩٧/٤-٩٨.
(١٥٢) الكتاب ٩٨/٤-٩٩.
(١٥٣) الجمهرة ٤٢٠/٢ ، مجمع الأمثال ٤٢٧/٢ ،المستقصى ١٩٠٥ ، ونهاية الأرب ٢٢٦/١ .
(١٥٤) مجمع الأمثال ٢٢٧/١-٢٢٩.
(١٥٥) مجمع الأمثال ٢١٨/١.
(١٥٦) مجمع الأمثال ١٨/١-٢٢٣.
(١٥٧) مجمع الأمثال ٢٦٠/١.
(١٥٨) مجمع الأمثال ٢٥٥/١.
(١٥٩) مجمع الأمثال ٣٨٨/١.
(١٦٠) مجمع الأمثال ٨١/١ وما بعدها.
(١٦١) العربية ٨٨،٨٩.
(١٦٢) راجع الإنصاف في مسائل الخلاف ٦٨-٧٠ ، وشرح المفصل ١٠٤/٦، والخزانة ٤٨١/٣.
(١٦٣) راجع الخزانة ٤٨٢/٣.
(١٦٤)) العربية ٨٩.
(١٦٥) ديوان المتنبي ، بشرح العكبري ٣٥/٤.
(١٦٦) مجمع الأمثال ٤٢٧/٢.
(١٦٧) مجمع الأمثال ٣١٥/٢.
(١٦٨) مجمع الأمثال ١٥٠/١.

(١٦٩) مجمع الأمثال ٤١٤/١.
(١٧٠) مجمع الأمثال ٤٤/٢.
(١٧١) المزهر للسيوطي ٣٣١/١ .
(١٧٢) ديوان الأدب ٢٧٠/١.
(١٧٣) ديوان الأدب ٣٤٦/٣.
(١٧٤) ديوان الأدب ٢٢٢/٣-٢٢٣.
(١٧٥) ديوان الأدب ٣٤٦/٣-٣٤٧، ٢٧٢/١.
(١٧٦) ديوان الأدب ٣٤٦/٣.
(١٧٧) ديوان الأدب ٤١٤/٣-٤١٧.
(١٧٨) الزاهر لابن الأنباري ١١٦/١
(١٧٩) الزاهر لابن الأنباري ١٣٦/١ ، وانظر : تهذيب الألفاظ ٢٣٤.
(١٨٠) ديوان الأدب ٢٦٩/١.
(١٨١) ديوان الأدب ٢٦٩/١.
(١٨٢) شرح أشعار الهذليين ٣٨.
(١٨٣ ديوان الأدب ٢٧٠/١.
(١٨٤) ديوان الأدب ١٤٨/٣-١٥١ .
(١٨٥) اللسان"خبث" ١٤٤/٢.
(١٨٦) ديوان الأدب ٢٦٦/١- .٢٦٩
(١٨٧) ديوانه٣١٨/٢ .
(١٨٨) ديوانه ٣٠٦ ، ومعاهد التنصيص ٤/٤.
(١٨٩) ديوانه، بغداد ١٥٣.
(١٩٠) معاني القرآن ٨٣/٢.
(١٩١) ديوانه ٤٨، بغداد.
(١٩٢) ٣١/١.
(١٩٣) الزاهر ٣١/١.
(١٩٤) شرح ابن عقيل ٣١٠/١.

******

المراجع:

- ارتشاف الضرب من لسان العرب ، لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق وشرح ودراسة د.رجب عثمان محمد ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط١ ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- الأشباه والنظائر ، للسيوطي ، حيدر آباد الدكن بالهند ، ١٣٥٩هـ.
- أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة ، د. فاضل الساقي ، الخانجي بالقاهرة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
- الألفاظ الكتابية ، للهمذاني ، القاهرة ١٩٢٢.
- الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق د. عبد المجيد قطامش ، ط١ دار المأمون للتراث ، دمشق ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- الأمثال لأبي فيد مؤرج بن عمرو السدوسي ، تحقيق د. أحمد محمد الضبيب ، ط١ ، الرياض ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
- الأمثال العربية القديمة ، د. عفيف عبد الرحمن ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت م ٣، ع١٠ ، ١٩٨٣م.
- الأمثال العربية القديمة ، دراسة نحوية ، د. محمد جمال صقر ، ط١ القاهرة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف ، لابن الأنباري ، شرح محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بلا تاريخ.
- الإيضاح في شرح المفصل ، لابن الحاجب النحوي ، تحقيق د. موسى بناي العليلي ، الجمهورية العراقية ، وزارة الأوقاف والشئون الدينية ، إحياء التراث الإسلامي ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- بحث في أصول اللغة ، د. محمد كامل حسين ، مجلة الأدب ، العدد٦، السنة ٥ ، أبريل ١٩٦٠.
- تاريخ الأدب العربي ، بلاشير ، ترجمة د. إبراهيم كيلاني ، ط٢ دار الفكر ، دمشق ١٩٨٤م.
- تاريخ الأدب العربي ، د. شوقي ضيف ، ط٢٥، دار المعارف ، بلا تاريخ.
- تاريخ اللغات السامية ، إسرائيل ولفنسون ، دار القلم , بيروت ١٩٨٠.
- تحرير أفعل التفضيل من ربقة قياس نحوي فاسد ، الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، مجلة الأدب ، السنة التاسعة ، العدد٤ ، يوليو ١٩٦٤م.
- تصحيفات المحدثين ، لأبي هلال العسكري ، ضبط وتصحيح أحمد عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، بيرت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- التمثيل والمحاضرة ، للثعالبي ، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو ، الدار العربية للكتاب ، الرياض١٩٨٣م.
- جمهرة الأمثال ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ، ط٢ ، دار الجيل ، بيروت ١٩٨٣م.
- خزانة الأدب ، للبغدادي ، بولاق ١٢٩٩هـ.
- دراسة الصوت اللغوي ، د. أحمد مختار عمر ، ط٢ ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨١م.
- الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة ، للأصفهاني حمزة بن الحسن ، تحقيق عبد المجيد قطامش ، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م.
- دعوة إلى قراءة جديدة للنحو العربي ، د. خليل عمايرة ، مجلة جذور التراث ، جدة ، العدد٤ ، المجلد٢، جمادى الآخرة ١٤٢١هـ/سبتمبر ٢٠٠٠م.
- ديوان الأدب للفارابي ، تحقيق د.أحمد مختار عمر ، القاهرة ١٩٧٤- ١٩٧٨م.

- ديوان امرئ القيس ، شرح حسن السندوبي ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، ط٧ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ديوان جميل بثينة ، تحقيق فوزي عطوي ، دار صعب , بيروت ، ط٣ ١٩٨٠م.
- ديوان الحارث بن حلزة ، جمع وتحقيق د. إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، ط١ ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- ديوان كُثيِّر عزة = شرح ديوان كُثيِّر عزة ، شرح وتحقيق د. رحاب عكاوي ، دار الفكر العربي ، بيروت ط١ ١٩٩٦م.
- ديوان المتنبي ، شرح أبي البقاء العكبري ، ضبطه وصححه مصطفى السقا وآخران، دار المعرفة ، بيروت ، بلا تاريخ.
- ديوان النابغة الذبياني ، جمع وشرح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، نشر الشركة التونسية والجزائرية للنشر والتوزيع ١٩٧٦م.
- الزاهر في معاني كلمات الناس ، لأبي بكر الأنباري ، تحقيق د. حاتم الضامن ، مؤسسة الرسالة ، ط١ بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- زهر الأكم في الأمثال والحكم ، للحسن اليوسي ، تحقيق د. محمد حجي ، و د. محمد الأخضر ، ط١ دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ١٩٨١م.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، محيي الين عبد الحميد ، ط١٦ ، دار الفكر ، بيروت والقاهرة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
- شرح أشعار الهذليين ، صنعة أبي سعيد السكري ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مراجعة محمود محمد شاكر ، كنوز الشعر ٣ ، مكتبة المدني ، القاهرة ، بلا تاريخ.
- شرح التسهيل لابن عقيل ، المساعد على تسهيل الفوائد ، تحقيق د. محمد كامل بركات ،ط١، دار الفكر بدمشق ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- شرح التصريح على التوضيح ، للشيخ خالد الأزهري ، بحاشية الشيخ ياسين ،دار الفكر ، بيروت ، بلا تاريخ.
- شرح الرضي على الكافية ، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، دار الفكر ، بيروت ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام الأنصاري ، ضبط وتحقيق د. محمود حسن أبو ناجي ، ط١ دمشق١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- شرح المفصل لابن يعيش ، عالم الكتب بيروت والمتنبي بالقاهرة ، بلا تاريخ.
- شرح المفصل في صنعة الإعراب ، الموسوم بالتخمير ، للقاسم الخوارزمي ، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، مكتبة العبيكان ، ط١ الرياض ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- شرح المقرب لابن عصفور ، تأليف د. علي محمد فاخر ، ط١ القاهرة ١٩٩٠م.
- شرح المكودي على الألفية ، ضبط وشرح إبراهيم شمس الدين ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- العربية ، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب ، يوهان فُك ، مع تعليقات المستشرق شبيتالر ، ترجمة د. رمضان عبد التواب ، القاهرة ١٩٨٠م.
- العمدة لابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٥ دار الجيل ، بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- عيون الأخبار لابن قتيبة ، القاهرة ١٩٢٨-١٩٣٠م.

- غراس الأساس لابن حجر العسقلاني، تحقيق وتعليق د. توفيق محمد شاهين ، ط١ مكتبة وهبة ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- الفائق في غريب الحديث ، للزمخشري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٤٥-١٩٤٨م.
- الفاخر ، للمفضل الضبي ، تحقيق عبد العليم الطحاوي ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠م.
- في النحو العربي ، قواعد وتطبيق ، د. مهدي المخزومي ،ط١ الحلبي بمصر ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- كتاب سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.
- الكليات ، لأبي البقاء الكفوي ، تحقيق د. عدنان درويش ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- لباب الإعراب ، لتاج الدين الإسفراييني ، دراسة وتحقيق بهاء الدين عبد الوهاب عبد الرحمن ، دار الرفاعي بالرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
- لسان العرب لابن منظور الأفريقي ، دار صادر ، بيروت ، بلا تاريخ.
- اللغة بين التقعيد والاستعمال ، مجلة جذور التراث ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، العدد٦ ، رجب١٤٢٢هـ.
- اللغة العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير ، قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفي ، ود. بدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، بلا تاريخ.
- مجالس العلماء للزجاجي ، تحقيق عبد السلام هارون ، الكويت ١٩٦٢م.
- مجمع الأمثال للميداني ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ،ط٣ ١٣٩٣هـ/١٩٧٢م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية الأندلسي ، القاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب ، تحقيق المجلس العلمي بفاس ، المغرب ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، لابن قيم الجوزية ، تصحيح زكريا يوسف علي ، ط٢ القاهرة ١٤٠٠هـ.
- المزهر للسيوطي ، شرح وضبط محمد أحمد جاد المولى بك وآخرين ، ط٣ دار التراث بالقاهرة ، بلا تاريخ.
- المستقصى في أمثال العرب ، للزمخشري ، تصحيح وتعليق السيد عبد الرحمن خان وآخرِين ،ط٣ دار التراث.
- معجم الأمثال العربية ، خير الدين شمسي باشا ، ط١ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- معجم التعريفات للشريف الجرجاني ، تحقيق محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة، القاهرة ٢٠٠٤م.
- مقدمة لدراسة فقه اللغة ، د. محمد أحمد أبو الفرج ، ط١ ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٦٦م.
- الممتع الكبير في التصريف ، لابن عصفور الإشبيلي ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ، مكتبة لبنان ،ط١ ١٩٩٦م.
- النحو العربي والدرس الحديث ، د. عبده الراجحي .
- نهاية الأرب ، لشهاب الدين أحمد النويري ، تحقيق د. حسين نصار ، مراجعة د. عبد العزيز الأهواني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

توكيد الفعل بالنون

دراسة تطبيقية من خلال القرآن الكريم

الدكتور/ قباري محمد شحاته

كلية الألسن – جامعة عين شمس

مقدمة :

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد ،،

فهذه دراسة عن توكيد الفعل في القرآن الكريم ، والفعل الذي يتناوله التوكيد هو الفعل الدال علي الاستقبال ، وليس الدال علي الحال أو الماضي . ويكون توكيده بنوني التوكيد الثقيلة والخفيفة . عرضت فيها ما جاء عن هذا الموضوع في كتب التراث وما وقفت عليه في القرآن الكريم والقراءات القرآنية .

وكانت الدراسة وفق المنهج الوصفي ، الذي يُعنى بوصف الظاهرة اللغوية وتحليلها وتفسيرها ، بهدف الوقوف علي أصلها ومتابعة التغيرات التي طرأت عليها حتى وصلت إلي الصورة المستعملة .

وقد قسمت الدراسة على النحو التالي:

أولاً : التمهيد : وفيه تحدثت عن نوني التوكيد الشديدة والخفيفة ، وهل كل منها أصل قائم بذاته أم أن الخفيفة مأخوذة من الشديدة ، كما تحدثت عما يؤكد من الأفعال .

ثانياً : الدراسة الصوتية : وفيها تحدثت عن:

- التركيب الصوتي لنوني التوكيد .

- التغيرات الصوتية التي تحدث للفعل عند توكيده ، وذلك في حالة إسناده إلي الضمائر المختلفة : المفرد المذكر ، وألف الاثنين ، وواو الجماعة ، وياء المخاطبة ، ونون النسوة .

وقد صرفت الفعل بأنواعه المختلفة الصحيح منهـا والمعتـل مـع هـذه الضمائر ، وفي التحليل الصوتي عرضت للصورة الأصلية لكل صيغة ، وتتبعت المراحل المختلفة التي مرت بها حتى وصلت إلي الصورة المستعملة .

وقد سلكت في هذا التحليل وجهة النظر الحديثة ، وأردفت كل تحليـل بمـا ذكره القدماء عن ذلك ، حتى يقف القارئ علي وجهتي النظـر، ويتعـرف الفـرق بينهما .

ثانياً : الدراسة النحوية : وفيها تحدثت عن ثلاث نقاط :

١- ما يؤكد بنوني التوكيد : وفيها عرضت الحالات التي يؤكد فيها الفعل الدال علي الاستقبال بنوني التوكيد ، وهى ست حالات : التوكيد الواجب - التوكيد القريب من الواجب - التوكيد الكثير - التوكيد القليل - التوكيد الأقل - التوكيد الضرورة .

وقد عرضت في هذه النقطة ما عثرت عليه مؤكـداً فـي القـرآن الكـريم والقراءات القرآنية المختلفة ، وصنفته علي أبواب الفعل الثلاثي المجرد والمزيد .

٢- ما لا يؤكد بالنون الخفيفة ويؤكد بالنون الشديدة فقط : وفي هـذه الحالـة يكون الفعل مسنداً إلي ألف الاثنين / الاثنتين ، ونون النسوة .

٣- الحالات التي يجوز فيها حذف النون الخفيفة .

ثالثاً : الخاتمة : وفيها عرضت أهم النتائج التي توصلت إليها مـن خـلال الدراسة .

رابعاً : مراجع الدراسة .

وفي ضوء ما سبق يمكن القول بأن هذا البحث دراسة لغوية عـن توكيد الفعل بنوني التوكيد ، تجمع بين الجوانب الصوتية والصرفية والتركيبية .

والحمد لله أولاً وآخرا ،،

مدخل :

تُعَد النونان الشديدة والخفيفة أداتيِ التوكيد للفعل في اللغة العربية ، وهما من حروف المعاني، ولا تؤكدان من الأفعال إلا الفعل الدالّ عل الاستقبال خاصة ، وتؤثران فيه تأثيرين : أحدهما في اللفظ ، والآخر في المعنى ، فأما الذي في اللفظ فيتمثل في إخراج الفعل للبناء بعد أن كان معرباً .

وأما الذي في المعني فيتمثل في إخلاص الفعل للاستقبال ، وتأكيده وتحقيق أمر وجوده ، وذلك بعد أن كان – قبل دخول النونين – يصلح للاستقبال والحال .(١)

ولا يؤكد بهما الفعلان الدالان علي الحال والماضي(٢) ؛ لأنهما موجدان حاصلان ، فلا معني لطلب حصول ما هو حاصل ، وإذا امتنع الطلب فيه امتنع تأكيده ، فلذلك لا تقول : لآكُلَنَّ ، ولا : لاتأكلَنَّ، ولا : والله لآكُلَنَّ ، وهذا في حال في الأكل ، وإذا امتنع تأكيد الحال كان امتناعه من الماضي أولي (٣).

ويَلاحظ أن المستقبل الذي يؤكد بإحدى النونين ليس هو المستقبل الصرف من نحو: سيضربَنّ ،وسوف يضربَنَّ ، وإنما المستقبل الذى فيه معني الطلب أوشبهه ، كالأمر والنهي والاستفهام والتمني والعرض والقسم (٤).

والمشددة أبلغ في التأكيد من المخففة، يقول سيبويه : " وزعم الخليل أنهما توكيد كما التي تكون فصلاً، فإذا جئت بالخفيفة فأنت مؤكد ، وإذا جئت بالثقيلة فأنت أشد توكيداً " . (٥)

وذلك لأن تكرير النون بمنزلة تكرير التأكيد ، فقولنا : اضربَنْ ، خفيفة النون ، بمنزلة : اضربوا كلكم ، وقولنا : اضربَنَّ، ثقيلة النون ، بمنزلة : اضربوا كلكم أجمعون (٦).

وذهب الكوفيون إلي أن النون الخفيفة اصلها الشديدة ، وحففت كما خففتن إنْ ولكنْ ، ومذهب سيبويه أن كل واحدة منهما أصل وليست الخفيفة من الشديدة (٧) ، ولو كانت منها لكان حكمهما واحد ، والأمر ليس كذلك ، إذ الخفيفة تُبدل ألفاً حالة الوقف (٨) وتُحذف إذا لقيها ساكن (٩) ولا يصح القياس علي تخفيف إنْ ولكنْ : إذ

حكمهما يعد التخفيف كحكمهما قبلة . فإذا اختلف حكم النونين الخفيفة والشديدة دلّ علي اختلافهما في أنفسهما [١٠] .

وفيما يلى دراسة توكيد الفعل المستقبل بنونى التوكيد، نبدأها أولاً بـ:

١- الدراسة الصوتية : ونتناول فيها تركيب النونين ، والتغيرات التي تحدث الفعل عند توكيده بالنونين .

٢- الدراسة النحوية : ونتناول فيها الحالات التي يؤكد فيها الفعل المستقبل ، عرض ما جاء من ذلك في القرآن الكريم.

١ : الدراسة الصوتية

يؤكد الفعل الدال على الاستقبال – كما أشرنا من قبل – بنوني التوكيد ، الشديدة والخفيفة . والشديدة تتركب صوتياً من نونين ، أولاهما ساكنة مدغمة في الثانية المتحركة . أما النون الخفيفة فهي نون واحدة ساكنة .

وحركة المشددة هي الفتحة ، وقد حركت بها لثقل هذه النون وخفة الفتحة ، كما تحرك بالكسرة بعد ألف الاثنين وألف الفصل التي يؤتي بها فاصلاً بين نون النسوة ونون التوكيد ، كما في نحو : اضربْنانِّ، وقد حركت بالكسرة تشبيها بالنون علامة الرفع في المضارع والاسم ، فإنها تكسر بعد الألف ، نحو تضربانِ ، والزيدانِ [١١].

معني هذا أن نسج النون المشددة عبارة عن صامتين متلوين بحركة قصيرة (ص ص ح) والمخففة صامت واحد غير محرك (ص).

وهنا يرى الدكتور / عبدالصبور شاهين أن هذا التركيب الصوتي مرفوض ؛ لأن العربية لا تعرف مقطعاً يبدأ بصامت غير متلوّ بحركة . لهذا يرى أنه يجب أن تسبق النونان بهمزة وصل ليسهل النطق بها كما فعل بالأمر المشتق من المضارع ، وعلي هذا يرى أنه بعد أن يؤتى بالهمزة يجب أن تكتب النون

المشددة هكذا : (ʔanna) فهى أنّ الناسخة أخت إنّ(ʔinna) مع فارق مهم هو أن همزة الناسخة حين تتعامل مع الأسماء في الجملة همزة قطع ، وهمزة نون التوكيد حين تلحق الفعل همزة وصل . ومع فارق آخر بينها وبين كل همزة وصل عرفتها العربية هو : أن همزة نون التوكيد لا تظهر مطلقا ؛ لأنها مدرجة في الكلام دائماً ، لا يبدأ بها أبداً .

ثم يُتابع قوله بأن التعامل مع نون التوكيد هو تعامل مع التركيب المقطعي (ʔanna) في غالب الأحوال ، أى مع مقطعين، أحدهما طويل مقفل (ʔan) (ص ح ص) يتحول إلي (ح ص) في الاستعمال ، والآخر قصير مفتوح (ص ح) علي حين أن النون الخفيفة تكون مقطعا واحداً ، أى مقطع طويل مغلق : أنْ (ʔa n) [١٢].

ولا أوافق الدكتور / عبد الصبور شاهين في هذا التصور؛ لأننا لا ننطق بنوني التوكيد مستقلتين ، بل هما في حالة اتصال دائم بالفعل الذى يؤكدانه ، وما قبلهما متحرك دائماً وليس ساكناً ، وعلي هذا فلسنا بحاجة لهذا التصور . ولا يصح قياسهما علي همزة الوصل في الأمر الذي أوله ساكن ؛ لأن الأمر يُبدأ به في الكلام ، فإذا بدأنا به علي صورته هكذا كان مخالفاً للنسج المقطعي ، لهذا جيء بهمزة الوصل قبله ، ليسهل النطق بالساكن كما في نحو : اضْرِب ،من المضارع يضرب . وهذا لا شك بخلاف نوني التوكيد .

والدكتور / عبد الصبور في تحليله الصوتي لتوكيد المضارع بنوني التوكيد حاول تطبيق هذا التصور في المسند إلي ضمير المفرد فقط ، ولم يستطع تطبيقه علي المسند إلي الضمائر الأخرى : المخاطبة و المخاطبات أو الغائبات والمثني وجمع المذكر.

وفيما يلي نستعرض التغيرات الصوتية التي تحدث للفعل المضارع الدال علي الاستقبال عند اتصاله بالضمائر المختلفة : ضمير المفرد (للغائب أو المخاطب) وضمير المثني بنوعيه (ألف الاثنين أو الاثنتين) وضمير جمع المذكر (واو الجماعة) وضمير المخاطبة (ياء المخاطبة) وضمير النسوة للمخاطبات أو

الغائبات (نون النسوة) وسنعرض أولاً التحليل الصوتي من وجه النظر الحديثة ، ثم نعرض التحليل الصوتي للقدماء من علماء العربية ، لنقف علي الفرق بينهما :

١ : ١ : الفعل المسند إلي ضمير المفرد (الغائب أو المخاطب)

فيما تصريف المستقبل الصحيح والمعتل المسند إلي ضمير المفرد للغائب أوالمخاطب، وذلك في حالات الرفع والجزم والبناء (الأمر)

حالة الفعل		المستقبل المرفوع	المستقبل المجزوم	الأمر
الصحيح	السالم	هـل ينـصُرَنَّ – ينصُرَنْ	لا تنصُرَنَّ – تنصُرَنْ	انصُرَنَّ – انصُرَنْ
	المهموز	هل يقرأنَّ – يقرأنْ	لا تقرأ نَّ – تقرأنْ	اقرأنَّ – اقرأنْ
	المضعف	هل يمدَّنَّ – يمدَّنْ	لا تمدَّنَّ – تمدَّنْ	مُدَّنَّ – مُدَّنْ
المعتل	المثال	هل يقِفَنَّ – يقِفَنْ	لا تقفَنَّ – تقفَنْ	قِفَنَّ – قِفَنْ
	الأجوف	هل يقومَنَّ – يقومَنْ هل يبيعَنَّ – يبيعَنْ	لا تقومَنَّ – تقومَنْ لا تبيعَنَّ – تبيعَنْ	قومَنَّ – قومَنْ بيعَنَّ – بيعَنْ
	الناقص	هل يدعُوَنَّ – يدعُوَنْ هل يرمِيَنَّ – يرمِيَنْ هل يسعَيَنَّ – يسعَيَنْ	لا تدعُوَنَ – تدعُوَنْ لا ترمِيَنَّ – ترمِيَنْ لا تسعَيَنَّ – تسعَيَنْ	ارمِيَنَّ – ارمِيَنْ ادعُوَنَّ – ادعُوَنْ اسعَيَنَّ – اسعَيَنْ
	اللفيف المقرون	هل يطوِيَنَّ – يطوِيَنْ	لا تطوِيَنَّ – تطوِيَنْ	اطوِيَنَّ – اطوِيَنْ

ملاحظات :

١- يُفتح آخر الفعل المسند إلي ضمير المفرد المذكر عندما يتصل بنوني التوكيد : الثقيلة والخفيفة ، عندما يكون الفعل مرفوعاً أو مجزوماً أو مبنياً .

٢- كانت الحركة فتحة ولم تكن ضمة أو كسرة لأنها لو كانت ضمة لا لالتبس المسند إلي ضمير المفرد المذكر بالمسند إلي ضمير جمع المذكر ، أي في نحو: هل تنصرُنَّ . ولو كانت كسرة لالتبس بالمسند إلي ضمير المخاطبة ، أى في نحو : هل تنصرِنَّ.(١٣)

٣- اختلف في هذه الفتحة ، هل هي للتخلص من الساكنين أم للبناء فذهب سيبويه وابن يعيش إلي أنها للتخلص من التقاء الساكنين : أول الفعل بعد حذف حركته وأول النونين في النون المشدودة ، والنون المخففة . يقول سيبويه:

" اعلم أن فعل الواحد إذا كان مجزوماً فلحقته والثقيلة حركت المجزوم وهو الحرف الذي أسكنت للجزم ؛ لأن الخفيفة ساكنة ، والثقيلة نونان ، الأولى منهما ساكنة . والحركة فتحة ، ولم يكسروا فيلتبس المذكر بالمؤنث ، ولم يضموا فيلتبس الواحد بالجمع ، وذلك قولك : اعلمَنْ ذلك ، وأكرمَنْ زيداً ، وإما تكرمَنّه أكرمْه .

وإذا كان فعل الواحد مرفوعاً ثم لحقته النون صيرت المرفوع مفتوحاً ؛ لئلا يلتبس الواحد بالجميع ، وذلك قولك :هل تفعلَنْ ذاك، وهل تخرجَنْ يا زيد "(١٤)

ويقول ابن يعيش :

" فإذا لحقت هذه النون الفعل كان ما قبلها مفتوحاً مع الواحد المذكر شديدة كانت أو خفيفة سواء كان الفعل في موضوع جزم أو في موضع رفع... وإنما كان ما قبل هذه النون مفتوحاً هنا ؛ لأن آخر الفعل ساكن لحدوث البناء فيه عند اتصال هذه النون به ؛ لأنها تؤكد معني الفعلية ، فعاد إلي أصله من البناء . والنون الخفيفة ساكنة والشديدة نونان ، الأولى منها ساكنة ، فاجتمع ساكنان ، فكرهوا ضمها أو كسرها ؛ لأن ضمها يلبس بفعل الجمع وكسرها يُلبس بفعل المؤنث ، كقولك في فعل الجمع : لا تضربُنَّ ، وفي فعل المؤنث : تضربِنَّ " (١٥).

وإلي مثل هذا ذهب السيرافي والزجاجي . (١٦)

وذهب فريق آخر من النحاة إلي أنها حركة بناء ، وذلك للتركيب ، أى لتركيب النون بالفعل ، فصار هذان الشيئان شيئاً واحداً ومن هؤلاء النحاة : ابن السراج والمبرد والفارسي (١٧) وابن مالك (١٨)

وقد احتج أصحاب هذا الاتجاه بأن هذه الحركة لو كانت لالتقاء الساكنين لكانت عارضة ، وقد قالوا : قولُنَّ وبيعُنَّ، فأعادوا الواو والياء ، فدل أن الحركة حركة بناء لا حركة التقاء الساكنين .

ورد عليهم ابن يعيش بقوله : " فأما إعادة المحذوف فإن النون لما دخلت على الفعل صار كالتركيب ، وصار الكلمتان كالكلمة الواحدة ، وصارت الحركة كاللازمة لذلك " (١٩).

٤- للعرب في المعتل الآخر عند توكيده بالنونين وجهان ، أحدهما : الإبقاء علي حرف العلة مفتوحاً ، نحو : لا تخشَيَنَّ، ولا ترمِيَنَّ قال الشاعر :

استقدرِ الله خيراً وارضيَنَّ به   فبينما العُسْرُ إذ دارت مياسير

وهذه اللغة هي الأكثر والأقيس .

والوجه الآخر : حذف العلة ، فيقولون في الأفعال السابقة لا تخشَنَّ ، ولا ترمِنَّ ، ولا تغزُنَّ ، في : تخشى وترمي وتغزو(٢٠)

وحذف الياء بعد الكسرة لغة فزارة قال شاعرهم :

وابكِنَّ عيشاً تولي بعد جدَّتِهِ   طابت أصائلُه في ذلك البلدِ .

وقال آخر :

لا تتبِعَنْ لوعةً إثرى ولا هلعا   ولا تقاسِنَّ بعدى الهمَّ والجزَعَا.

والمراد : ابكِيَنَّ ، ولا تقاسِيَنَّ فحذف الياء . (٢١)

وحذفها بعد الفتحة لغة طيء (٢٢) وقيل الاثنان لغة طيء(٢٣)

ولى ملاحظات علي ما قيل إنه حذف لحرف العلة في لغة فزارة :

١- المعتل الآخر بالألف : لا تخشَنَّ . الأصل : لا تخشَيَنَّ : حذفت الياء لوقوعها بين حركتين متماثلتين ، وأدمجت الحركتان في حركة واحدة (فتحة طويلة) ثم قصرت لوقوعها في مقطع مغلق :

تَ - خ شَ - ى - نَ ن - > ت - خ شَ - × - نَ ن - > تَ - خ شَ -
- نَ ن - > ت - شَ - نَ ن - .

٢- المعتل الآخر بالواو :لا تغزنَّ . الأصل : لا تغزُوَنَّ ، تماثلت حركة الواو مع حركة الزاى فصارت ضمة مثلها ، ثم حذفت الواو لوقوعها بين حركتين متماثلتين ، وأدمجت الحركتان في حركة واحدة (الضمة الطويلة) ثم قصرت لوقوعها في مقطع مغلق .

تَ- غ ز - و - نَ ن - > ت - غ زُ- و - نُ ن - > ت - غ ز - × -
ن ن - > ت - غ ز - ’ - ’ ن ن - > ت - غ ز - ن ن - .

٣- المعتل الآخر بالياء : لا ترمِينَّ . الأصل : لا ترمِيَنَّ . تماثلت حركة الياء مع حركة الميم ، ثم حذفت الياء ، وأدمجت الحركتان في حركة واحدة (الكسرة الطويلة) ، ثم قصرت .

ت - رَ م - ي - نَ ن - > ت - رَ م - ى - نِ ن - > ت - رَ م - ×
- نِ ن - > ت - رَ م - - نِ ن - > ت - رم - نْ ن - .

١ : ٢ : الفعل المسند إلي ضمير المثنى

فيما يلي نستعرض نفس التصريف الذي ذكرناه من قبل في المسند إلي ضمير المفرد المذكر :

حالة الفعل		المستقبل المرفوع	المستقبل المجزوم	الأمر
الصحيح	السالم	هل ينصرانّ	لا تنصرانّ	انصرا نّ
	المهموز	هل يقرآنّ	لا تقرآنّ	اقرآنّ
	المضعف	هل يُمّدانّ	لا تمدّانّ	مُدّانّ
المعتل	المثال	هل يقفانّ	لا تقفانّ	قِفانّ

	الأجوف	هل يقومانّ هل يبيعانّ	لا تقومانّ لا تبيعانّ	قومانّ بيعانّ
	الناقص	هل يدعوانّ هل يرميانّ هل يسعيانّ	لا تدعوانّ لا ترميانّ لا تسعيانّ	ادعوانّ ارميانّ اسعيانّ
	اللفيف المقرون	هل يطويانّ	لا تطويانّ	اطويانّ

ملاحظات :

١- في حالة الرفع تحذف نون الرفع كراهية توالى النونات (الأمثال) هل ينصرانِنّ > هل ينصرانّ وكسرت النون المشددة تشبيهاً لها بنون الرفع المحذوفة .

يقول سيبويه : " وإذا كان فعل الاثنين مرفوعاً وأدخلت النون الثقيلة حذفت نون الاثنين لاجتماع النونات " (٢٤)

أما في حالة الجزم والأمر فإن النون التي للرفع محذوفة أصلاً قبل التوكيد بالنون الشديدة ؛ لأن حذفها علامة على الجزم ، وعلامة على البناء في الأمر .

٢- يرى القدماء من علمائنا أن المثنى عندما يؤكد بالنون الثقيلة يلتقي ساكنان علي حدها ، الحد الأول حرف المد (الألف) والثاني الساكن المدغم في مثله ، وهنا يرون عدم جواز حذف الألف هنا تخلصا من التقاء الساكنين ؛ لأنها لو حذفت لفتحت النون المشددة ، وأصبحت الصيغة ملتبسة بصيغة المسند إلي ضمير المفرد المذكر .

يقول سيبويه " ولم تحذف الألف لسكون النون ، لأن الألف تكون قبل الساكن المدغم ، ولو أذهبتها لم يُعلم أنك تريد الاثنين " (٢٥)

وفي علم الأصوات الحديث ليس في ذلك التقاء للساكنين إنما هــو مقطــع طويل ممدود (ص ح ح ص) تَ – نَ ص ـُ ر ــَ ـَ ن ن ـِ – فالمقطع هنا هـــــو (ر ـَ ـَ ن) فلو قصر لصار (ص ح ص / ر ـَ ن) وهنا تصح الـصيغة تَ – ن ص ـُ ر ـَ ن ن ـَ – وبذلك تشتبه بصيغة المسند إلي ضمير المفرد المذكر.

٣- لا يؤكد الفعل المسند إلي ضمير الاثنين أو الاثنتين بالنون الخفيفــة ، لأنه سيؤدي – كما يرى القدماء – إلي التقاء الساكنين علي غير حدهما . هذا عنـد البصريين ما عدا يونس بن حبيب ، وهو جائز عند الكوفيين ويونس .

يقول سيبويه : " ولم تكن الخفيفة ههنا ؛ لأنها ساكنة ليست مدغمة ، فــلا تثبت مع الألف ، ولا يجوز حذف الألف فيلتبس بالواحد " (٢٦).

وسنتعرض لهذا الخلاف – إن شاء الله– في الدراسة النحوية التالية (٢٦).

١ : ٣ : الفعل المسند إلي ضمير جمع المذكر (واو الجماعة)

حالة الفعل		المستقبل المرفوع	المستقبل المجزوم	الأمر
الصحيح	السالم	هـــل ينـــصرُونَّ – ينصرُنْ	لا تنصرُنَّ – تنصُرُنْ	انصرُنَّ – انصرُنْ
	المهموز	هل يقرؤنَّ– يقرؤنْ	لا تقرؤنَّ– تقرؤنْ	اقرؤنَّ– اقرؤنْ
	المضعف	هل يمدُّنَّ – يمدُّنْ	لا تمدَّانَّ	مُدَّانَّ
المعتل	المثال	هل يقِفُنَّ – يقفُنْ	لا تقِفُنَّ – تقِفُنْ	قِفُنَّ – قِفُنْ
	الأجوف	هل يقومُنَّ – يقومُنْ هل يبيعُنَّ – يبيعُنْ	لا تقومُنَّ – تقومُنْ لا تبيعُنَّ – تبيعُنْ	قومُنَّ – قومُنْ بيعُنَّ – بيعُنْ
	الناقص	هل يدعُنَّ – يدعُنْ هل يرمُنَّ – يرمُنْ هل يسعَوُنَّ – يسعَوُنْ	لا تدعُنَّ – تَدعُنْ لا ترمُنَّ – ترمُنْ لا تسعَوُنَّ – تسعَوُنْ	ادعُنَّ – ادعُنْ ارمُنَّ – ارمُنْ اسعَوُنَّ – اسعَوُنْ
	اللفيف المقرون	هل يطوُنَّ– يطوُنْ	لا تطوُنَّ – يطوُنْ	اطوُنَّ – اطوُنْ

ملاحظات :

١- يلاحظ أنه عند توكيد الفعل بنونى التوكيد حذفت نون الرفع من باب كراهية توالى الأمثال ، فعند التوكيد بالنون الثقيلة يكون هناك ثلاث نونات وعند التوكيد بالنون الخفيفة يكون هناك نونان . هذا في حالة الرفع [٢٨] أما في حالتي الجزم والأمر فالنون محذوفة أصلاً ؛ لأن حذفها علامة على الجزم في المجزوم وعلامة علي البناء في الأمر .

٢- يلاحظ في جميع ما سبق أن ضمير الجمع (واو الجماعة) ضمة طويلة وقد قصرت لوقوعها في مقطع مغلق ، فهي تشكل قبل الحذف مع الحرف الذي قبلها والذي بعدها مقطعاً طويلاً ممدوداً (ص ح ح ص) وبعد التقصير يتحول إلي مقطع طويل مغلق (ص ح ص) ولتوضيح ذلك نقول : أصل تنصُرُنَّ : تنصُرونَن . ثّم يحدث لهذا الأصل ما يأتي :

- تحذف نون الرفع من باب كراهية توالى الأمثال : تنصرونَّ ، ثم تقصر الضمة الطويلة علامة الإضمار : تنصُرُونَّ . وعلى هذا يتحول المقطع (ص ح ح ص / رـُـُ ن) إلي المقطع (ص ح ص / رـُ ن) .

ت ـَ ن ص ـُ ر ـُ ـُ ن ـَ ن ن ـَ > ت ـَ ن ص ـُ ر ـُ ـُ ن ن ـَ > ت ـَ ن ص ـُ ر ـُ ن ن ـَ .

أما علماؤنا القدامى فيرون أن الواو قد حُذفت لالتقاء الساكنين ، أى سكونها وسكون النون الأولى من النون المشددة أو سكون النون المخففة ، وبقيت الضمة دليلاً عليها [٢٩] تنصُرُونَنَّ > تنصُرُونَّ > تنصُرُنَّ .

ويرون أن الواو حذفت مع أن التقاء الساكنين هنا علي حدهما (واو مد + حرف ساكن مدغم في مثله) وذلك عند من لم اشترط التقاءها في كلمة واحدة (وهما هنا في كلمتين) وأما من اشترط التقاءها في كلمة واحدة فيكون التقاؤهما على غير حدهما ، هذا عند التوكيد بالنون الثقيلة . أما عند التوكيد بالنون الخفيفة فالتقاء الساكنين عند الجميع علي غير حدهما .

ويرون أن الحذف سببه أن الكلمة قد ثقلت واستطالت وكانت الضمة تــدل عليها ، فحذفت مع التوكيد بالثقيلة ، وحذفت كذلك مع الخفيفة تشبيهاً بها [٣٠]

ولأن الواو لما حذفت لم تلتبس الصيغة بصيغة أخرى ، كما كان يمكــن أن يحدث لو حذفت الألف عند توكيد الفعل المسند إلي ضمير التثنية الذي ذكرناه مــن قبل ، حيث سيلتبس حينئذ بالمسند إلي ضمير المفرد المذكر[٣١]

٣- يلاحظ في الفعل المعتل الآخر عند تأكيده ما يأتي :

أ – المعتل الآخر بالواو : الأصل في صيغته : يَدْعُونَنَّ ى ـَ د ع ـُ و ـُ ـُ ن ـَ ن ن ـَ .حدث لها : حذفت النون علامة الرفع من بــاب كراهيــة تــوالى الأمثال ، أو علامة علي البناء عند التوكيد ، ثم حذفت الواو (لام الفعل) لوقوعهــا بين حركتين متماثلتين ، ثم أدمجت الحركتان في حركة واحدة (الضمة الطويلــة) ثم قصرت لوقوعها في مقطع مغلق ، وبذلك يتحول المقطع الطويل الممــدود (ص ح ح ص / ع ـُ ـُ ن) إلي مقطع طويل مغلق (ص ح ص / ع ـُ ن)

يَ ـ د ع ـُ و ـُ ـُ ن ـَ ن ن ـَ > ى ـَ د ع ـُ و ـُ ـُ ن ن ـَ > ى ـَ د ع ـُ × ـُ ـُ ن ن ـَ > ى ـَ و ع ـُ ـُ ن ن ـَ > ى ـَ د ع ـُ ن ن ـَ .

ب- المعتل الآخر بالياء : الأصل في صيغته : يَرْمِيُــونَنَّ ى ـَ ر م ـِ ي ـُ ـُ ن ـَ ن ن ـَ . حدث لها : تماثلت حركة الميم مع حركة الياء ، فتحولت إلــي ضمة مثلها يرمُيونَنَّ ، ثم حدث لها باقي ما حدث للصيغة السابقة :

ى ـَ ر م ـِ ى ـُ ـُ ن ـَ ن ن ـَ > ى ـَ ر م ـُ ى ـُ ـُ ن ـَ ن ن ـَ > ى ـَ ر م ـُ ي ـُ ـُ ن ن ـَ > ى ـَ ر م ـُ × ـُ ـُ ن ن ـَ > ى ـَ ر م ـُ ـُ ن ن ـَ > ى ـَ ر م ـُ ن ن ـَ .

جـــ- اللفيف المقرون : الأصل في صيغته : يَطْوِيُــونَنَّ : ى ـَ ط و ـِ ى ـُ ـُ ن ـَ ن ن ـَ . ثم حدث لها ما حدث لصيغة المعتل الآخر بالياء السابقة :

ى ـَ ط و ـِ ى ـُ ـُ ن ـَ ن ن ـَ > ى ـَ ط و ـِ ي ـُ ـُ ن ـَ ن ن ـَ > ى ـَ ط و ـُ ى ـُ ـُ ن ـَ ن ن ـَ > ى ـَ ط و ـُ × ـُ ـُ ن ن ـَ > ى ـَ ط و ـُ ـُ ن ن ـَ > ى ـَ ط و ـُ ن ن ـَ .

٤- يلاحظ في المعتل الآخر بالألف عند توكيده أن الأصل في صيغته : يَسْعَيُونَنَّ ى ـَ س ع ـَ ى ـُـُ ن ـَ ن ن ـَ . ثم حدث لها ما يأتي :

تماثلت الياء مع حركتها الضمة الطويلة (علامة الإضمار) فقبلت واواً ، يَسْعَوُنَنَّ ، ثم حذفت نون الرفع ، وبعدها قصرت الضمة الطويلة لوقوعها في مقطع مغلق : يَسْعَوُنَّ

ى ـَ س ع ـَ ى ـُـُ ن ـَ ن ن ـَ > ي ـَ س ع ـَ و ـُـُ ن ـَ ن ن ـ
> ى ـَ س ع ـَ و ـُـُ ن ن ـَ > ى ـَ س ع ـَ و ـُ ن ن ـَ .

ويلاحظ أن الياء (لام الفعل) لم تحذف كما حذفت من قبل ؛ لأن حذفها سيؤدي إلي التقاء حركتها وحركة ما قبلها (ـَ / ـُـُ) وهذه الصورة تتولد عنها ضماً الحركة المركبة (ـَ و) فالواو تولدت عن الضمة الطويلة ، وفي هذه الحالة سيلتقي ساكنان : هذه الواو وأولى النون المشددة أو النون الخفيفة وهنا تحذف الواو تخلصاً من التقاء الساكنين ، فتصبح الصيغة هكذا : (يَسعَنَّ) وهنا ستلتبس بصيغة المسند إلي ضمير المفرد المذكر عند طئ أو فزارة ، التي تحدثنا عنها من قبل (٣٢)

ويرى علماؤنا القدامى أن الأصل في المعتل الآخر بالألف عند توكيده هو : يَسْعَيُونَّ (بعد حذف نون الرفع) حدث له ما يأتي :

حذفت الضمة (حركة الياء) لثقلها علي الياء ، فسكنت الياء ، ثم حذفت تخلصاً من الساكنين (سكونها وسكون الواو بعدها) ولم يجز حذف الواو (واو الجماعة) لعدم ما يدل عليها ، فحركت بما يُناسبها من الحركات ، وهي الضمة ، تخلصاً من التقاء الساكنين (سكونها وسكون النون الأولى من نون التوكيد)

يَسْعَيُونَّ > يَسْعَيْونَّ > يَسْعَوْنَّ > يَسْعَوُنَّ .(٣٣)

١ : ٤ : الفعل المسند إلى ضمير المخاطبة (ياء المخاطبة)

حالة الفعل		المستقبل المرفوع	المستقبل المجزوم	الأمر
الصحيح	السالم	هـــل تنـــصُرِنَّ – تنصُرِنْ	لا تنصُرِنَّ – تنصُرِنْ	انـــــصرِنَّ – انصُرِنْ
	المهموز	هل تقرَئِنَّ – تقرَئِنْ	لا تقرَئِنَّ – تقرَئِنْ	اقْرَئِنَّ – اقرَئِنْ
	المضعف	هل تمُدِّنَّ – تُحدِّنَّ	لا تمُدِّنَّ – تمُدِّنْ	مُدِّنَّ – مُدِّنْ
المعتل	المثال	هل تقِفِنَّ – تقِفِنْ	لا تقِفِنَّ – تقِفِنْ	قِفِنَّ – قِفِنْ
	الأجوف	هل تقومِنَّ – تقومِنْ هل تبيعِنَّ – تبيعِنْ	لا تقومِنَّ – تقومِنْ لا تبيعِنَّ – تبعِنْ	قومِنَّ – قومِنْ بيعِنَّ – بيعِنْ
	الناقص	هل تدعِنَّ – تدعِنْ هل ترمِنَّ – ترمِنْ هل تسعَيِنَّ – تسعَيِنْ	لا تدعِنَّ – تدعِنْ لا تسعَيِنَّ – تسعَيِنْ لا تطوِنَّ – تطوِنْ	ادعِنْ – ادعِنْ ارمِنَّ – ارمِنْ اسعَيِنَّ – اسعَيِنْ
	اللفيف المقرون	هل تطوِنَّ – تطوِنْ		اطوِنَّ – اطوِنْ

ملاحظات :

١- يلاحظ في جميع ما سبق أن النون التي للرفع قد حـذفت مـن بـاب كراهية توالى الأمثال ، أو علامة علي البناء (٣٤) وأنها قد حذفت أصلاً فـي حالـة الجزم وفي حالة الأمر ؛ لأن حذفها علامة على الجزم في المجزوم ، وعلامة على البناء في الأمر .

٢- يلاحظ كذلك أن علامة ضمير المخاطبة(ياء المخاطبة) كسرة طويلـة ، وقد قصرت لوقوعها في مقطع مغلق وقبل الحذف كانت تشكل مع الحـرف الـذى قبلها والذى بعدها مقطعاً طويلاً ممدوداً (ص ح ح ص) وبعـد تقـصير الحركـة

يتحول إلي مقطع طويل مغلق (ص ح ص) . فمثلاً أصــل تنــصُرِنَّ – تنــصُرينَنَّ يحدث له ما يأتي :

تحذف النون (علامة الرفع) ثم تقصر الكسرة الطويلة (ضمير المخاطبـة) وبذلك يتحول المقطع (ص ح ح ص / ر ـِ ـِ ن) إلي المقطع (ص ح / ر ـِ ن)

تـ ـَ ن ص ـُ ر ـِ ـِ ن ـَ ن ن ـَ > ت ـَ ن ص ـُ ر ـِ ـِ ن ن ـَ > ت ـَ ن ص ـُ ر ـِ ن ن ـَ (تَنْصُرِنَّ)

ويرى علماؤنا القدامى ما رأوه في المسند إلي ضـمير جمـع المـذكر السابق ، أى حذفت الياء لالتقاء الساكنين : سكون الياء وسكون النون الأولى مـن النون المشددة ، والنون المخففة ، وبقيـت الكـسرة دلـيلاً عليهـا : تنـصُرِينَنَّ) تنصُرِينَّ) تنصُرِنَّ .

وقد حذفت مع أن التقاء الساكنين علي حدهما، لكن سبب الحذف أن الكلمـة قد ثقلت واستطالت، وكانت الكسرة تدل عليها(٣٥).

٣- يُلاحظ في المعتل الآخر عند تأكيده ما يأتي :

أ- المعتل الآخر بالواو : الأصل في صيغته : تدعُوِينَنَّ ت ـَ د ع ـُ و ـِ ـِ ن ـَ ن ن ـَ .ثم يحدث لها :تتماثل حركة العين مع حركـة الـواو (الكـسرة الطويلة) فتقلب كسرة مثلها ، ثم تحذف نون الرفع ، ثم تحذف الواو (لام الفعـل) لوقوعها بين حركتين متماثلتين ، وتدمج الحركتان في حركـة واحـدة (الكـسرة الطويلة) ثم تقصر لوقوعها في مقطع مغلـق (المقطـع ص ح ح ص / ع ـ ـِ ـِ ن) يتحول إلي المقطع (ص ح ص / ع ـِ ن)

ت ـَ د ع ـُ و ـِ ـِ ن ـَ ن ن ـَ > ت ـَ د ع ـِ و ـِ ـِ نـَ ن ن ـَ > ت ـَ د ع ـِ و ـِ ـِ ن ن ـَ > ت ـَ د ع ـِ × ـِ ـِ ن ن ـَ > ت ـَ د ع ـِ ـِ ن ن ـَ > ت ـَ د ع ـِ ن ن ـَ . (تَدْعِنَّ)

ب- المعتل الآخر بالياء : الأصل في صيغته : تَـرْمِينَنَّ : ت ـَ ر م ـِ ى ـِ ـِ ن ـَ ن ن ـَ . وهنا يحدث لها ما حدث للصيغة السابقة بعد المماثلة هناك :

ت ـَ ر م ـِ ي ـِ ـِ ن ـَ ن ن ـَ > ت ـَ ر م ـِ ى ـِ ـِ ن ن ـَ > ت ـَ ر م ـِ × ـِ ـِ ن ن ـَ > ت ـَ ر م ـِ ـِ ن ن ـَ > ت ـَ ر م ـِ ن ن ـَ (تَرْمِنَّ)

ومثلها في نفس هذا التحليل صيغة اللفيف المقرون .

ج- المعتل الآخر بالألف : الأصل في صيغته: تَسعَيينَّ ت ـَ س ع ـَ ى ـِ ـِ ن ـَ ن ن ـَ ثم يحدث لها : تحذف نون الرفع ، ثم تقصر الحركة الطويلة لوقوعها في مقطع مغلق أى يتحول المقطع (ص ح ح ص / ى ـِ ـِ ن) إلي المقطع (ص ح/ى ـِ ن) : ت ـَ س ع ـَ ي ـِ ـِ ن ـَ ن ن ـَ > ت ـَ س ع ـَ ى ـِ ـِ ن ن ـَ > ت ـَ س ع ـَ ى ـِ ن ن ـَ .

ولا يجوز حذف الياء ؛ لأنها لو حذفت لالتقت الحركتان (ـَ / ـِ ـِ) وهنا ينتج عن الكسرة الطويلة ياء ساكنة ، تشكل مع الفتحة حركة مركبة (ـَ ى) فيلتقي ساكنان هذه الياء وأولى النون المشددة أو النون المخففة، فتحذف الياء ، فتصير الصيغة (ت ـَ س ع ـَ ن ن ـَ / تَسَعَنَّ) فتلتبس بصيغة المسند إلي ضمير المفرد المذكر السابق الذى حذفت لامه في لغة فزارة أو طئ .

ويرى علماؤنا القدامى-أن الصيغة الأصلية للمعتل الآخر بالياء (تَسْعَيينَّ) بعد حذف نون الرفع حدث لها : حذفت حركة الياء الأولى (الكسرة) لثقلها عليهاٰ ، فيلتقى ساكنان (الياءان – لام الفعل وضمير المخاطبة) فحذفت الياء الأولى تخلصاً من التقاء الساكنين ، وبعد الحذف ينتج ساكنان آخران : الياء الباقية (ضمير المخاطبة) والنون الأولى من النون المشددة ، وهنا لا يجوز حذف الياء ؛ لأنها لو حذفت ما كان هناك ما يدل عليها ، فحُركت بما يناسبها من الحركات وهو الكسرة تخلصاً من التقاء الساكنين :

تَسْعيينَّ > تَسْعَيْيْنَّ > تَسْعَيْنَّ > تَسْعَيِنَّ.(٣٦)

١ : ٥ : الفعل المسند إلي ضمير الغائبات / المخاطبات (نون النسوة)

حالة الفعل		المستقبل المرفوع	المستقبل المجزوم	الأمــر
الصحيح	السالم	هل ينصُرْنانِّ	لا تنصُرْنانِّ	انصُرْنانِّ
	المهموز	هل يقرأْنانِّ	لا تقرأْنانِّ	اقرأنانِّ
	المضعف	هل يمدُدْنانِّ	لا تمدُدْنانِّ	امدُدْنانِّ
المعتل	المثال	هل يقِفْنانِّ	لا تقِفْنانِّ	قِفْنانِّ
	الأجوف	هل يُقمْنانِّ هل يبِعْنانِّ	لا تقُمْنانِّ لا تبِعْنانِّ	قُمْنانِّ بِعْنانِّ
	الناقص	هل يدعُونانِّ هل يرمِينانِّ هل يسعَيْنانِّ	لا تدعُونانِّ لا ترمِينانِّ لا تسعَيْنانِّ	ادْعُونانِّ ارْمِينانِّ اسْعَيْنانِّ
	اللفيف المقرون	هل يطوِينانِّ	لا تطوِينانِّ	اطْوِينانِّ

ملاحظات :

١- عند توكيد المسند إلي ضمير الغائبات / المخاطبات (نــون النــسوة) يُفصل بين نون النسوة والنون المشددة بالألف (الألف الفاصلة) وجيء بها للفصل بين النونات وهنا ثلاث نونات ، لأن هذه لو لم يؤت بها لحذفت نون النسوة تخلــصاً

من ثقل توالي النونات ، وهنا تُفتح لام الفعل (علامة البناء) فتلتبس صيغة المسند إلي نون النسوة بصيغة المسند إلي ضمير المفرد والمذكر .

٢- تُكسر النون المشددة بعد الألف تشبيهاً بنون الرفع في المثني في نحو : الزايدانِ.

٣- لا يؤكد المسند إلي النسوة بالنون الخفيفة بعد إدخال ألف الفصل لأنه - كما يقول علماؤنا القدامى - سيلتقى ساكنان علي غير حدهما . وقد أشرنا إلي ذلك من قبل في المسند إلي ضمير التثنية (ألف الاثنين) وسنتعرض لهذا أيضاً في الدراسة النحوية [٣٧].

٤- تُسكن لام الفعل المسند إلي نون النسوة ، وهذا السكون علامة بناء، وهذا واضح في الصحيح بأنواعه ، وفي المثال والأجوف والمعتل الآخر بالألف . أما في المعتل الآخر بالواو والياء ، فإنهما عند تسكينهما تشكلان مع الحركة السابقة عليهما حركتين مركبتين ، ثم تتحولان إلي حركتين طويلتين :

ـُ و > ـُ ـُ / ى ـَ د ع ـُ و ن ـَ ـَ ن ن ـِ) ى ـَ د ع ـُ ـُ ن ـَ ـَ ن ن ـِ (يدعونانِّ) .

ـِ ى> ـِ ـِ / ى ـَ ر م ـِ ى ن ـَ ـَ ن ن ـِ > ى ـَ ر م ـِ ـِ ن ـَ ـَ ن ن ـِ (يرميانِّ) .

ى ـَ ط و ـِ ى ن ـَ ـَ ن ن ـِ > ى ـَ ط و ـِ ـِ ن ـَ ـَ ن ن ـِ (يطوينانِّ) .

٢ : الدراسة النحوية

٢ : ١ : ما يؤكد بنوني التوكيد

سبق أن ذكرنا أن الذي يؤكد بإحدى النونين الشديدة أو الخفيفة الفعل المستقبل ، وفى تأكيده بهما ستة أحكام نحوية ، يمكن بيانها علي النحو التالي :

٢ : ١ : ١ : التوكيد الواجب :

يجب توكيد المستقبل إذا مثبتا ، وواقعاً جواباً لقسم ، وغير مفصول من لامه . وكان التوكيد في هذه الحالة واجباً ؛ لأن القسم إنما يؤتى به للتحقيق ، فهو أشد احتياجاً للتوكيد (٣٨).

يقول سيبويه : " اعلم أن القسم توكيد لكلامك . فإذا حلفت علي فعل غير منفيٍّ لم يقع لزمته اللام ، ولزمت اللامَ النونُ الخفيفةُ أو الثقيلة في آخر الكلمة ، وذلك قولك :واللهِ لأفعلَنَّ .وزعم الخليل أن النون تلزم اللام كلزوم اللام في قولك : إنْ كان لصالحاً ، فإنْ بمنزلة اللام ، واللام بمنزلة النون في آخر الكلمة " (٣٩).

ومن أمثلة ذلك قولك : والله لأقومَنَّ ، وأقسمت عليك لتفعلَنَّ ، وقول النابغة الجعدى :

فمن يكُ لم يتأثرْ بأعراضِ قومِهِ   فأنِّي وربَّ الراقصات لأثأرَا

والأصل : لأثأرَنْ . قلبت النون الخفيفة ألفاً للوقوف عليها (٤٠) .

وإذا أتى المستقبل المثبت المتصل بلام القسم مبتدأ دون أن يسبق بمقسم به ، فإن التوكيد هنا واجب أيضاً ، والمقسم به يكون مقدراً . يقول سيبويه :

" وسألته (أي الخليل) عن قولك : لتفعلَنَّ ، إذا جاءت مبتدأة ليس قبلها ما يُحلف به ؟ فقال : إنما جاءت علي نية اليمين وإن لم يُتكلم بالمحلوف به " (٤١)

وهذه الحالة هي أكثر حالات التوكيد وقوعاً في القرآن الكريم ، حيث جاءت في مائة وتسعة وستين موضعا . يمكن عرضها علي النحو التالي مرتبة علي حروف المعجم ، وذلك بالنظر إلي الحرف الأول بعد حرف المضارعة ، ووفق أبنية الفعل : الثلاثي والمزيد :

* فعَـل يفعـُل :

١ – (وَلَأَمُرَنَّهُمْ) [٤٢] مرتان في النساء ٤/١١٩

٢ – (لَيَبْلُوَنَّكُمُ) في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ المائدة ٥/٩٤

٣ – (وَلَنَبْلُوَنَّكُم) في قوله تعالى :﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ البقرة " ٢/١٥٥

– ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ ﴾ محمد ٤٧/٣١

٤ – (لَتُبْلَوُنَّ) في قوله تعالي :﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ آل عمران ٣/١٨٦

٥ – (لَنَحْشُرَنَّهُمْ) في قوله تعالي:﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ مريم ١٩/٦٨

٦ – (لَنُخْرِجَنَّكَ) في قوله تعالي:﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ ﴾ الأعراف ٧/٨٨

٧ – (لَنَخْرُجَنَّ) في قوله تعالي:﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ الحشر ٥٩/١١

٨ – (لَيُخْرِجَنَّ)في قوله تعالي:﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ المنافقون ٦٣/٨ ٨

٩ – (لَيَخْرُجُنَّ)في قوله تعالي: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾النور ٢٤/٥٣

١٠ – (لَتَدْخُلُنَّ)في قوله تعالي:﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ الفتح ٤٨/٢٧

١١ – (لَأَرْجُمَنَّكَ) في قوله تعالي:﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ مريم ١٩/٤٦

١٢ – (لَنَرْجُمَنَّكُمْ) في قوله تبعالي:﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ يس ٣٦/١٨

١٣ – (لَيَرْزُقَنَّهُمُ) في قوله تعالي:﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ الحج ٢٢/٥٨

١٤ –(وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ)في قوله تعالي:﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾إبراهيم ١٤/١٤

١٥ – (وَلَتَعْلُنَّ) في قوله تعالي: ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ الإسراء ١٧/٤

١٦ –(لَتَعُودُنَّ)في قوله تعالي:﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾الأعراف ٧/٨٨وإبراهيم ١٤/١٣

١٧- (لَأَقْتُلَنَّكَ)[٤٣] في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ المائدة ٥/٢٧

١٨- (فَلَنَقُصَّنَّ) في قوله تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ الأعراف ٧/٧

١٩- (لَأَقْعُدَنَّ) في قوله تعالى: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ الأعراف ٧/١٦

٢٠- (لَنَقُولَنَّ) في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾ النمل ٢٧/٤٩

٢١- (لَيَقُولَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ النساء ٤/٧٣

- ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ هود ١١/٧

- ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ﴾ هود ١١/١٠

- ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ الروم ٣٠/٥٨

- ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ فصلت ٤١/٥٠

٢٢- (لَيَقُولُنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ التوبة ٩/٦٥

- ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ هود ١١/٨

- ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء ٢١/٤٦

- ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ العنكبوت ٢٩/١٠

- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ العنكبوت ٢٩/٦١

- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ العنكبوت ٢٩/٦٣

- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾
لقمان ٣١/٢٥ والزمر ٣٩/٣٨ والزخرف ٤٣/٨٧

- قوله تعالي: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ الزخرف ٤٣/٩ - ٨٧

٢٣- (لَأَكُونَنَّ)في قوله تعالي: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾الأنعام٦/٧٧

٢٤-(لَتَكُونَنَّ) في قوله تعالي: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ الشعراء ٢٦/١١٦

-﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ الشعراء٢٦/١٦٧

- ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الزمر ٣٩/٦٥

٢٥- (وَلَنَكُونَنَّ)[٤٤]في قوله تعالي: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ التوبة ٩/٧٥

٢٦- (لَنَكُونَنَّ) في قوله تعالي: ﴿ لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ الأنعام٦/٦٣

- ﴿ لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ الأعراف٨/ ١٨٩

- ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ يونس ١٠/٢٢

- ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف ٧/٢٣

- ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف٧/١٤٩

٢٧- (وَلَيَكُونًا) في قوله تعالي : ﴿ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ يوسف١٢/٣٢

٢٨- (لَّيَكُونُنَّ) في قوله تعالي: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ فاطر ٣٥/٤٢

٢٩- (وَلَيَنصُرَنَّ) في قوله تعالي: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ الحج ٢٢/٤٠

٣٠- (لَيَنصُرَنَّهُ) في قوله تعالي: ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ الحج ٢٢/٦٠

٣١- (وَلَتَنصُرُنَّهُ)في قوله تعالي: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ وَلَتَنصُرُنَّهُ ﴾ آل عمران ٣/٨١

٣٢-(لَنَنصُرَنَّكُمْ)في قوله تعالي: ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾الحشر ١١/٥٩

* فعَـل يفعِـل :

١ -(لَآتِيَنَّهُم)في قوله تعالي: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ الأعراف ١٧/٧

٢ - (لَيَأۡتِيَنِّي) في قوله تعالي : ﴿ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ النمل ٢١/٢٧

٣ - (وَلَيَأۡتِيَنَّهُم) في قوله تعالي: ﴿ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾العنكبوت ٥٣/٢٩

٤ - (لَتَأۡتُنَّنِي) في قوله تعالي : ﴿ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ ﴾ يوسف ٦٧/١٢

٥ - (فَلَنَأۡتِيَنَّكَ) في قوله تعالي: ﴿ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ ﴾طه ٥٨/٢٠

٦ -(فَلَنَأۡتِيَنَّهُم) في قوله تعالى : ﴿ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ ﴾ النمل٣٧/٢٧

٧ - (وَلَنَجۡزِيَنَّ)في قولـــه تعـــالى :﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾النحل ٩٦/١٦

- ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾فصلت ٢٧/٤١

٨ - (وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ)في قوله تعــالى :﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ النحل ٩٧/١٦

- ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ العنكبوت ٧/٢٩

- ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ فصلت ٢٧/٤١

٩ - (وَلَيَحۡلِفُنَّ)في قوله تعالى :﴿ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ ﴾التوبة ١٠٧/٩

١٠ -(وَلَيَحۡمِلُنَّ)في قوله تعالى:﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ ﴾العنكبوت١٣/٢٩

١١ - (لَأَزِيدَنَّكُمۡ)في قوله تعالى:﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾إبراهيم ١٤/٧

١٢ - (وَلَيَزِيدَنَّ) في قوله تعـــالى:﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ ﴾ المائدة ٥/٦٤ /٦٨

١٣ - (لَيُسۡجَنَنَّ) في قوله تعالى :﴿ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ يوسف ٣٢/١٢

١٤-(لَيَسۡجُنُنَّهُۥ) في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾يوسف ٣٥/١٢

١٥- (وَلَنَصۡبِرَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ ﴾ إبراهيم ١٢/١٤

١٦- (وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ)في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ ﴾ محمد ٤٧/٣٠

١٧- (لَأَغۡلِبَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ المجادلة ٥٨/٢١

١٨- (لَأَكِيدَنَّ) في قوله تعالي : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾ الأنبياء ٥٧/٢١

١٩- (ليُنبذَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴾ الهمزة ٤/١٠٤

٢٠- (لَنَنسِفَنَّهُۥ) في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴾ طه ٩٧/٢٠

٢١-(لَنُهۡلِكَنَّ) في قوله تعالى: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ إبراهيم ١٤/١٣

٢٢- (لَتَجِدَنَّ)في قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ ﴾ المائدة ٨٢/٥

٢٣- (وَلَتَجِدَنَّ) في قولــه تعـالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ﴾ المائدة ٨٢/٥

٢٣- (وَلَتَجِدَنَّهُمۡ) في قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ ﴾ البقرة ٩٦/٢

* فعـَل يفعَـل :

١- (لَيَبۡعَثَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ ﴾ الأعراف ١٦٧/٧

٢- (لَتُبۡعَثُنَّ) في قوله تعالى : ﴿ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ﴾ التغابن ٧/٦٤

٣- (لَأَجۡعَلَنَّكَ) في قوله تعالى : ﴿ لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾ الشعراء ٢٩/٢٦

٤ - (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) في قوله تعالى : ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾
النساء ٤/ ٨٧ الأنعام ٦/ ١٢

٥ -(لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ) في قوله تعالى : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ النمل ٢٧/ ٢١

٦ -(لَنَذْهَبَنَّ)في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾الإسراء ١٧/ ٨٦

٧ - (فَلَنَسْـَٔلَنَّ - وَلَنَسْـَٔلَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الأعراف ٧/ ٦

٨ - (لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ) في قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الحجر ١٥/ ٩٢

٩ -(وَلَيُسْـَٔلُنَّ)في قوله تعالى: ﴿ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾العنكبوت ٢٩/ ١٣

١٠ - (وَلَتُسْـَٔلُنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ النحل ١٦/ ٩٣

١١ - (لَتُسألُنَّ) في قوله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ النحل ١٦/ ٥٦

- ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ التكاثر ١٠٢/ ٨

١٢ - (لَنَسْفَعًۢا)(٤٥) في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾العلق ٩٦/ ١٥

١٣ - (لَتَرَوُنَّ) في قوله تعالي : ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ التكاثر ١٠٢/ ٦٠٥

١٤ - (لَتَرَوُنَّهَا) في قوله تعالي : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ التكاثر ٦/ ٧

١٥ -(لَأَمْلَأَنَّ) في قوله تعالي: ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الأعراف ٧/ ١٨

- ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾هود ١١/ ١١٩

- ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾السجدة ٣٢/ ١٣

- ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ص ٣٨/ ٨٥

١٦ - (لَنَنزِعَنَّ)في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ مريم ١٩/ ٦٩

* فعـل يفعـَل :

١- (لَيَحْبَطَنَّ) في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الزمر ٦٥/٣٩ .

٢- (لَتَرْكَبُنَّ) في قوله تعالى : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ الانشقاق ١٩/٨٤

٣- (وَلَتَسْمَعُنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ آل عمران ١٨٦/٣

٤- (فَلَيَعْلَمَنَّ) في قوله تعالى : ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ العنكبوت ٣/٢٩

٥- (وَلَيَعْلَمَنَّ) في قوله تعالى : ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العنكبوت ٣/٢٩

- ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ العنكبوت ١١/٢٩

٦- (وَلَتَعْلَمُنَّ) في قوله تعالى : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ طه ٧١/٢٠

- ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ص ٨٨/٣٨

٧- (لَيَمَسَّنَّ) في قوله تعـالى : ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المائدة ٧٣/٥

٨- (وَلَيَمَسَّنَّكُمْ) في قوله تعالى : ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يس ١٨/٣٦

* أفعـل يفعـِل :

١-(لَيُؤْمِنَنَّ)في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ النساء ١٥٩/٤

٢- (لَّيُؤْمِنُنَّ)(٤٦) في قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ الأنعام ١٠٩/٦

٣- (لَتُؤْمِنُنَّ) في قوله تعـالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ آل عمران ٨١/٣

٤- (لَنُؤْمِنَنَّ) في قوله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ الأعراف ١٣٤/٧

٥- (لَنُحْضِرَنَّهُمْ) في قوله تعـالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ مريم ٦٨/١٩

٦- (فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ) في قولـــه تعـــالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ النحل ٩٧/١٦

٧- (لَنُخْرِجَنَّكُم)في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾إبراهيم ١٣/١٤

٨- (وَلَنُخْرِجَنَّهُم) في قوله تعالى : ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ النمل ٣٧/٢٧

٩- (وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ) في قوله تعالى : ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾آل عمران ١٩٥/٣

١٠- (وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ) فـــي قولـــه تعـــالى : ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ المائدة١٢/٥

١١- (لَنُدْخِلَنَّهُمْ) فـــي قولـــه تعـــالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ العنكبوت٢٩/٩

١٢- (لَيُدْخِلَنَّهُم) في قوله تعالى:﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ﴾ الحج ٥٩/٢٢

١٣- (وَلَنُذِيقَنَّهُم)في قوله تعـــالى : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ السجدة ٢١/٣٢

- ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ فصلت٥٠/٤١

١٤- (فَلَنُذِيقَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾فصلت٢٧/٤١

١٥- (وَلَنُرْسِلَنَّ) في قوله تعالى:﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾الأعراف١٣٤/٧

١٦- (لَّيُصْبِحُنَّ) في قوله تعالى:﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾ المؤمنون ٤٠/٢٣

١٧- (وَلَأُضِلَّنَّهُمْ) [٤٧] في قوله تعالى : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ النساء ١١٩/٤

١٨- (لَنُغْرِيَنَّكَ) في قولـــه تعـــالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾الحجر ٣٩/١٥

١٩ - (وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ) في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الحجر ١٥/٣٩

٢٠ - (لَأُغْوِيَنَّهُمْ) في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ص ٣٨/٨٢

٢١ - (لَتُفْسِدُنَّ) في قوله تعالى : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ الإسراء ١٧/٤

* فَعَّلَ يُفَعِّلُ :

١ - (فَلَيُبَتِّكُنَّ) في قوله تعالى : ﴿ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ النساء ٤/١١٩

٢ - (وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ النور ٢٤/٥٥

٣ - (لَّيُبَطِّئَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ النساء ٤/٧٢

٤ - (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ) في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ النحل ١٦/٤١

- ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ العنكبوت ٢٩/٥٨

٥ - (لَنُبَيِّتَنَّهُۥ) في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ النمل ٢٧/٤٩

٦ - (وَلَيُبَيِّنَنَّ)في قوله تعالى: ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ النحل ١٦/٩

٧ -(لَأُزَيِّنَنَّ)في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الحجر ١٥/٣٩

٨ - (لَأُصَلِّبَنَّكُمْ) في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الأعراف ٧/١٢٤

٩ - (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ) [٤٨] في قوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ طه ٢٠/٧١

- ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الشعراء ٢٦/٤٩

١٠ - (لَأُعَذِّبَنَّهُۥ) في قوله تعالى : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ النمل ٢٧/٢١

١١ - (فَلَيُغَيِّرُنَّ) في قوله تعالى : ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ النساء ٤/١١٩

١٢ - (لَأُقَطِّعَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ الأعراف ٧/١٢٤ والشعراء ٢٦/٤٩

١٣-(فَلَأُقَطِّعَنَّ)[٤٩]في قوله تعالى:﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾طه ٧١/٢٠

١٤- (لَأُكَفِّرَنَّ) في قوله تعالى :﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ آل عمران ١٥٣/٣

- ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ المائدة ١٢/٥

١٥- (لَنُكَفِّرَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ العنكبوت ٧/٢٩

١٦- (وَلَيُمَكِّنَنَّ) في قوله تعالى:﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾النور ٥٥/٢٤

١٧- (وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ) النساء ١١٩/٤

١٨- (فَلَنُنَبِّئَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ فصلت ٥٠/٤١

١٩-(لَتُنَبِّئَنَّهُم)في قوله تعالى:﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ يوسف ١٥/١٢

٢٠- (لَتُنَبَّؤُنَّ) في قوله تعالى : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ التغابن ٧/٦٤

٢١- (لَنُنَجِّيَنَّهُۥ)[٥٠]في قوله تعالى:﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾العنكبوت ٣٢/٢٩

٢٢- (لَيُوَفِّيَنَّهُمْ) في قوله تعالى:﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ هود ١١١/١١

٢٣- (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ) في قوله تعالى : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾البقرة ١٤٤/٢

٢٤- (لَيُوَلُّنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ الحشر ١٢/٥٩

* تفعَّل يتـفعَّل :

١- (لَنَصَّدَّقَنَّ) [٥١]في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾التوبة ٧٥/٩

* افتعَـل يفتعـل :

١-(لَأَتَّخِذَنَّ)في قوله تعالى:﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾النساء ١١٨/٤

٢- (لَنَتَّخِذَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾الكهف ٢١/١٨

٣-(لَأَحْتَنِكَنَّ)في قوله تعـالى :﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء١٧/٦٢

٤ – (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ) فـي قولـه تعـالى :﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ النور ٢٤/٥٥

٥ –(لَأَسْتَغْفِرَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ الممتحنة ٦٠/٤

٢ : ١ : ٢ : التوكيد القريب من الواجب

وهي الحالة التي يكون فيها المستقبل شرطاً لـ (إنْ) الشرطية المؤكدة بما الزائدة (إمّا) ، نحو قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ الأنفال ٨ / ٥٨ وقولـه تعـالى : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم ﴾ الزخرف ٤٣ / ٤١

وذلك لأن إنْ الشرطية لما أكدت بما الزائدة أشبهت القسم في تأكيده باللام [٥٢] في مثل : والله لأزورَنَّ فلاناً .

وقد وردت في هذه الحالة تسع عشرة مرة في القرآن الكريم . يمكن عرضها مرتبة على حروف المعجم ووفق أبنيه الفعل على النحو التالي :

* فعَـل يفعـُل :

١ – (يَبْلُغَنَّ) [٥٣] في قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ الإسراء ١٧/٢٣

* فعـَل يفعـِل :

١ – (يَأْتِيَنَّكُم) في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة ٢/٣٨

– ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ طه ٢٠/١٢٣

- ﴿ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الأعراف ٣٥/٧

* فعَـل يفعَـل :

١ - (تَثْقَفَنَّهُمْ) في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ الأنفال ٥٧/٨

٢ - (نَذْهَبَنَّ)[٥٤] في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ الزخرف ٤١/٤٣

٣ - (تَرَيِنَّ)[٥٥] في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ مريم ٢٦/١٩

٤ - (يَنزَغَنَّكَ) في قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأعراف ٢٠٠/٧ و فصلت ٣٦/٤١

* فَعِـل يفعَـل :

١ - (تَخَافَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ الأنفال ٥٨/٨

* أفعَـل يُفعِـل :

١ - (نُرِيَنَّكَ) في قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ يونس ٤٦/١٠

- ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ الرعد ٤٠/١٣

- ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ غافر ٧٧/٤٠

- ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ الزخرف ٤٢/٤٣

٢ - (تُعْرِضَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ الإسراء ٢٨/١٧

٣ - (يُنسِيَنَّكَ) في قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنعام ٦٨/٦

* تفعّل يتفعّل :

١ - (نَتَوَفَّيَنَّكَ) في قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ يونس ٤٦/١٠

- ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ الرعد ٤٠/١٣

- ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ غافر ٧٧/٤٠

٢ : ١ : ٣ : التوكيد الكثير

وتكون إذا وقع المستقبل بعد ما يدل على الطلب : (النهي - الأمر - الدعاء - الاستفهام - العرض - التمني) لأن ما بعد الطلب أشبه ما بعد (إنْ) الشرطية في استدعاء الجواب [٥٧].

أ - النهي :

من أمثلته : قول الأعشى :

فإيّاك والمَيْتاتِ لا تقربَنّها ولا تعبدِ الشيطانَ والله فاعبدَا [٥٨]

وقوله كذلك :

أبا ثابتٍ لا تعلقَنْكَ رماحُنا أبا ثابتٍ فاقعُدْ وعرضُكَ سالمُ [٥٩]

ووقوع المستقبل مؤكداً بعد النهي هو أكثر حالات الطلب وقوعاً في القرآن الكريم ، حيث ورد ثلاثاً وأربعين مرة . يمكن عرضها وفق النظام السابق على النحو التالي :

* فعَل يفعَل :

١ - (لَّا يَدْخُلَنَّهَا)[٦٠] في قوله تعالى : ﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ القلم ٢٤/٦٨

٢ - (وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ الزخرف ٦٢/٤٣

٣ - (فَلَا يَصُدَّنَّكَ) في قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ طه ١٦/٢٠

٤ -(وَلَا يَصُدُّنَّكَ)[٦١]في قولـه تعـالى : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ القصص ٢٨/٨٧

٥- (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ / وَلَا يَغُرَّنَّكُم)[٦٢] في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ لقمان ٣١/٣٣ وفاطر ٣٥/٥

٦ -(وَلَا تَقُولَنَّ)في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ الكهف ١٨/٢٣

٧ -(فَلَا تَكُونَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ البقرة ٢/١٤٧ والأنعام٦/١١٤ ويونس١٠/٩٤

- ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الأنعام ٦/٣٥
- ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ القصص ٢٨/٨٦

٨- (وَلَا تَكُونَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾الأنعام ٦/١٤ ويونس١٠/١٠٥ والقصص ٢٨/٨٦

٩ -(وَلَا تَكُونَنَّ)في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾يونس ١٠/٩٥

١٠ -(فَلَا تَمْتَرُنَّ)في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾الزخرف ٤٣/٦١

١١- (لَا تَمُدَّنَّ) في قوله تعالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ الحجر ١٥/٨٨

١٢ -(وَلَا تَمُدَّنَّ)في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾طه ٢٠/١٣١

١٣- (فَلَا تَمُوتُنَّ) في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ البقرة ٢/١٣٢

١٤- (وَلَا تَمُوتُنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾آل عمران ٣/١٠٢

* فعَـل يفعِـل :

١- (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ)[٦٣] في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾ المائدة ٥/٢

- ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾المائدة ٥/٨

- ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ هود ٨٩/١١

٢ - (لَا يَفْتِنَنَّكُمُ)في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ الأعراف ٢٧/٧

٣ -(لَا تَحْسَبَنَّ – فَلَا تَحْسَبَنَّهُم)(٦٤) في قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ آل عمران ١٨٨/٣

٤ -(لَا تَحْسَبَنَّ)في قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ النور ٥٧/٢٤

٥ -(فَلَا تَحْسَبَنَّ)في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ إبراهيم ٤٧/١٤

٦ -(وَلَا تَحْسَبَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ﴾ آل عمران ١٦٩/٣

- ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ إبراهيم ٤٢/١٤

٧ - (وَلَا يَحْسَبَنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾ آل عمران ١٧٨/٣

- ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ﴾ آل عمران ١٨٠/٣

- ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ الأنفال ٥٩/٨

* فعَـل يفعَـل :

١ - (لَا تَذَرُنَّ – وَلَا تَذَرُنَّ) في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ نوح ٢٣/٧١

* أفعَـل يُفعِـل :

١ - (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا) في قوله تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ طه ١١٧/٢٠

* فاعـَل يُفاعـِل :

١ - (فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ) في قوله تعالى : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ الحج ٦٧/٢٢

* فعــّل يُفعــِّل :

١ -(لَا يَغُرَّنَّكَ)في قوله تعالى:﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾آل عمران٣/١٩٦

* افتعــَل يفتعــِل :

١ -(وَلَا تَتَّبِعَآنِّ) في قوله تعالى:﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾يونس١٠/٨٩

* استفعَــل يستفعــِل :

١ -(وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ) [٦٥] في قولـــه تعـــالى : ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ الروم٣٠/٦٠

ب – الأمر :

يؤكد الأمر بنوني التوكيد مطلقاً من غير شرط ؛ لأنه مستقبل دائماً ، سواء كان الأمر بالصيغة المعتادة المأخوذة من المضارع ، نحو قومَنً ، أو كـــان بـــلام الأمر المكسورة الداخلة علي المستقبل ، نحو : لِيقومَنَّ زيدُ [٦٦]

ومن أمثلة التوكيد بالنون الخفيفة قول الأعشى السابق :

فإيَّاك والمَيْتات لا تقربنَّها ولا تعبدِ الشيطانَ والله فاعبدَا .

فقوله (فاعبدا) فعل أمر أكد بالنون الخفيفة (فاعبــدَنْ) ثـــم قلبهـــا ألفـــاً للوقوف عليها .

ولم يرِد الأمر في القرآن الكريم مؤكداً بإحدى النونين مع كثرته ، حيث بلغ ألفاً وثمانيمائة وثمانية وأربعين موضعاً ، ولم يؤكد في القراءات العـــشرية ولا فـــي الأربعة الشواذ المشهورة . وورد مؤكدا في أربع قراءات شاذة ليست من الأربعـــة المشهورة [٦٧] ، يمكن بيانها علي النحو التالي :

١ – قال تعالى : ﴿ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران٣ /٣١

قرأ الرهري (فاتبعونّي) بتشديد النون ، فأكد فعل الأمر بنون التوكيد، وأدغمها فـــي نون الوقاية ، ولم تحذف واو الجماعة تشبيهاً بـــ (أتحاجونّى) وهذا توجيه شذوذ[٦٨]

٢ – قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ مريم ١٩/ ١١

روى ابن غزوان عن طلحة أنه قرأ (سبِّحُن) بنون مشددة من غير واو الجماعة ، ألحق فعل الأمر نون التوكيد الشديدة [٦٩] .

٣- قال تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ق ٢٤/٥٠

قرأ الحسن (ألقِيَنْ) بنون التوكيد الخفيفة ، وهي شاذة مخالفة لنقل التواتر بالألف [٧٠] ويجوز أن تكون الألف في (ألقيا) بدلاً من النون ، إجراء للوصل مجرى الوقف [٧١] .

٤- قال تعالى: ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ الفرقان ٣٦/٢٥

قرأ علي بن أبي طالب والحسن (فدمِّرانِّهِمْ) بالنون الشديدة ، على الأمر لموسى وهارون عليهما السلام [٧٢] .

جـ - الدعاء :

الدعاء مثل الأمر في التوكيد ، غير أن الأمر يكون من الأعلى للأدنى ، والدعاء من الأدنى للأعلى . ومن أمثلة توكيد الدعاء : اغفرَنْ لزيدٍ ، وقول ابن رواحة :

والله لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلَنْ سكينة علينا
وثبِّتِ الأقدام إن لاقينا [٧٣]

فأكد (أنزلَنْ) بنون التوكيد الخفيفة . وقول الخرنق :

لا يبعَدَنْ قومي الذين هم سَمّ العُداة وآفةُ الجَزْرِ

فأكدت (يبعَدَنْ) بالنون الخفيفة بعد حرف الدعاء [٧٤]

ولم يرد الدعاء مؤكداً في القرآن الكريم ولا في القراءات .

د - الاستفهام :

توكيد المستقبل بعد أدوات الاستفهام محمول على الأمر ، لأنه مضارع له ، حيث فيه معنى الطلب ، فإذا قلت : هل تفعلَنَّ كذا ، فإنك تستدعى منه تعريفك كما

يستدعي الأمر الفعل [٧٥] وهو مذهب سيبويه ، نحو : هل تقولَنَّ ، وأتقولَنَّ ذاك ؟ وكم تمكثَنَّ، وانظر ماذا تفعلَنَّ ؟ [٧٦].

ومن الشعر : قول الأعشى :

فهل يمنعَنِّي ارتيادي البلا   دَ من حذر الموت أنْ يأتيَنْ[٧٧]

وقول الشاعر :

وأقبلْ على رهطي ورهطك نبتحِثْ   مساعيَنا حتى ترى كيف تفعلا[٧٨]

وقول الكميت:

ليت شعري هل ثم هل آتيَنْهُمْ   أو يحولَنْ من دون ذاكَ الرَّدى[٧٩]

وقول مُقَنعَّ :

قال فطيمة حلَّ شعرَك مدحُه   أفبعْدَ كِندة تمدحَنَّ قبيلاَ [٨٠]

– ولم يأت المستقبل مؤكداً بعد أدوات الاستفهام في القرآن الكريم – مع كثرتها – إلا بعد هل في موضع واحد فقط، هو قوله تعالى :﴿ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ الحج ١٥/٢٢ [٨١]

هـ – العرض :

يؤكد المستقبل بعد ما يدل علي العرض ، ويرى يونس بن حبيب أن التوكيد في هذه الحالة محمول علي الأمر . يقول سيبويه : " وزعم يونس أنك تقول : هلا تقولَنَّ ، وألا تقولَنَّ . وهذا أقرب ؛ لأنك تعرض ، فكأنك قلت : افعل ؛ لأنه استفهام فيه معنى العرض . ومثل ذلك : لولا تقولَنَّ ؛ لأنك تعرض " [٨٢].

ومن أمثلة ذلك في الشعر : قول الشاعر يخاطب امرأة :

هلا تمُنِّنْ بوعد مُخلفةٍ   كما عهدتُكِ في أيام ذي سَلَمِ [٨٣]

والأصل : تمُنِّينَنْ ، ثم حذفت نون الرفع من باب كراهية توالى النونات ، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين هذا عند القدماء [٨٤]

وأرى أنه بعد حذف نون الرفع قصرت الكسرة الطويلة (ياء المد) لوقوعها في مقطع مغلق :

ت ـَ م ـُ ن ن ـِ ـِ ن ـَ ن > ت ـَ م ـُ ن ن ـِ ـِ ن > ت ـَ م ـُ ن ن ـِ ن .

-ولم يرد في القرآن الكريم ولا في القراءات توكيد المستقبل بعد العرض .

و - التمني :

يؤكد المستقبل بعد التمني ، وهو محمول في توكيده علي الأمر كذلك ؛ لأن قولك : ليتك تخرجَنَّ بمعني : اخرجَنَّ ؛ لأن التمني طلب في المعني [٨٥] .

ومن أمثلة ذلك : قول الشاعر يخاطب امرأة :

فليتك يوم الملتقي تُرِينَّني لكي تعلمي أني أمرؤ بكِ هائم[٨٦]

الاصل : ت ـُ رء ـِ ى ـِ ـِ ن ـَ ن ن ـَ ن ـِ ـِ > ت ـُ ر ـِ ى ـِ ـِ ن ن ـَ ن ـِ ـِ بحذف الهمزة من إلقاء حركتها علي الراء الساكنة قبلها، وحذف نون الرفع من باب كراهية توالى الأمثال > ت ـُ ر ـِ ى ـِ ن ن ـَ ن ـِ ـِ بتقصير حركة الياء (الكسرة الطويلة) لوقوعها في مقطع مغلق .

- وليس في القرآن الكريم ولا في القراءات توكيد المستقبل بعد التمنى .

٢ : ١ : ٤ : التوكيد القليل

يؤكد المستقبل قليلا بنوني التوكيد ، وذلك إذا كان منفياً بلا ، ولم ، وما الزائدة التي فيها معنى النفي ، علي التشبيه بالنهى ؛ لأن النهى نفي كما أن الأمر إيجاب [٨٧] يقول أبو حيان:

" وأما النفي بلا أو ما فمذهب الجمهور أنه لا يجوز أن تدخل في المضارع المنفي بهما ، وأجاز ابن جنى ذلك ، وأثبته ابن مالك ، ومثل بقوله تعالي :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ **الأنفال ٨/٢٥**... والآية متأولة عند الجمهور ، والذى في الشعر نادر أو ضرورة " [٨٨]

وعند أبي الفارسي لا يؤكد المنفي اختياراً لعريه عن معنى الطلب ، وتجرده من ما المؤكدة [٨٩].

-ومن الأمثلة علي توكيد المنفي بلا وقد فصل بين لا والفعل المؤكد قول الشاعر:

فلا ذا نعيم يُتركَنْ لنعيمه وإنْ قال قرِّظْني وخذ رِشوةً أبَى.

فالفصل هنا بمعمول الفعل المؤكد (**ذا نعيم**)

وقال النمر بن تولب .

فلا الجارةُ الدنيا تلحَيَنَّها ولا الصَّيْفُ فيها إنْ أناخ مُحوِّلُ.

فالفصل هنا بمفسر الفعل (٩٠) .

- ومن الأمثلة علي توكيد المنفى بلم ، قول أبى حيان الفقعسى :

يحسبه الجاهل ما لم يعلما شيخاً علي كرسيه معَمَّمَا (٩١)

أراد : ما لم يعلمَنْ ، فقلب النون الخفيفة ألفاً للوقوف عليها .

- ومن أمثلة توكيد المنفي بما ، قول حاتم الطائي :(٩٢)

قليلاً به ما يحمدنَّك وارثٌ إذا قال مما كنت تجمع مغنمَا.

وقول الشاعر :

إذا مات منهم ميت سرق ابنه ومن عِضَةٍ ما يُنْبِتَنَّ شكيرُها . (٩٣)

-وقد جاء في القرآن الكريم توكيد المنفي بلا في آيتين مختلف في تخريجهما ، وهما :

١- (لَا تُصِيبَنَّ) في قوله تعالي : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ **الأنفال** ٢٥/٨ اختلف في تخريج **(لا تصيبَنّ)** في الآية السابقة ، وقد عرض لذلك أبو حيان (٩٤).

أولاً : الجمهور لا يجوزون توكيد المنفي بلا، ويحملون ما جاء منه علي الضرورة أو الندرة . وذهب الزمخشرى إلي أن جملة (لاتصيبَنَّ) صفة ، ولا ناهية ، قال : " وكذلك إذا جعلته صفة علي إرادة القول ، كأنه قيل : واتقوا فتنة مقولاً فيها لا تصيبَنَّ ، ونظيره قوله :

حتى إذا جنَّ الظلامَ واختلَطْ جاءوا بمَذْقٍ هل رأيتَ الذِّئبَ قط .

أي : بمذقٍ مقول فيه هذا القول ، لأن فيه لون الزرقة التى هي معنى الذئب " (٩٥)

وتحريره : أن الجملة معمولة لصفة محذوفة .

وذهب بعض النحويين إلي أن الجملة (لا تُصيبَنَّ) جواب قسم محذوف ، وهي موجبة ، وعلي ذلك تكون النون قد دخلت في محلها ، ومُطِلَتِ اللام فصارت (لا) والمعني (لتُصيبَنَّ) ويؤيد هذا قراءة ابن مسعود وعلى وزيد بن ثابت والباقر والربيع بن أنس وأبي العالية (لتُصيبَنَّ) وفي ذلك وعيد للظالمين فقط .

ثانياً : ذهب أبو حيان إلى جواز توكيد المنفى ، و(لا) في الآية نافية . وذكر أن بعض النحويين ذهب لهذا (٩٦) وإذا كان قد جاء لحاقها الفعل مبنياً بلا مع الفصل ، نحو قول حسان بن السعدي :

فلا ذا نعيم **يُتْرَكَنْ** لنعيمهِ　　وإن قال قرِّظنى وخُذْ رشوةً أبى

ولا ذا بئيس **يُتْرَكَنْ** لبؤسهِ　　فينفعهُ شكوى إليه إن اشتكى

فلا أن يلحق مع غير الفصل أولى ، نحو : (لا تُصيبَنَّ) .

- ورغم بعضهم أن قوله (لا تُصيبَنَّ) جواب قسم محذوف ، وقيل (لا) نافيه ، وشبه المنفي بالموجب ، ودخلت النون كما دخلت في لتضربَنَّ والتقدير : والله لا تُصيبَنَّ .

٢-(لَا يَحْطِمَنَّكُمْ) في قوله تعالى :﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ النمل ١٧/٢٧.

أولاً : قيل (لا) ناهية من باب (لا أرينك ههنا) والمعنى : لا تظهروا بأرض الوادي .

ثانياً : قيل (لا) نافيه والفعل جواب للأمر ، ورُدَّ بالضعف ؛ لأن جواب الشرط لا يؤكد بالنون في الاختيار .(٩٧)

- وقد جاء في قراءة شاذة توكيد المستقبل المنفى بلن ، وذلك في قوله تعالى:﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ التوبة ٥١/٩

ذكر ابن خالويه أن طلحة بن مصرف قرأ (**لن يُصيبَنَّا**) بالنون المشددة (٩٨) وقال أبو حيان : قال عمرو بن شفيق : سمعت أعين قاضي الري يقول : (لن يُصيبَنَّا) قال أبو حاتم : ولا يجوز ذلك لأن النون لا تدخل مع (لن)

ووجه هذه القراءة تشبيه (لن) بـ (لا ولم) وقد سمع لحاق هذه النون بـ (لا ولم) فلما شاركتهما (لن) في النفي لحقت معها نون لتوكيد . وهذا توجيه شذوذ " [٩٩]

-وجاء كذلك في قراءة شاذة توكيد المستقبل المنفي بلماً في قوله تعالي: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾آل عمران ١٤٢/٣

قرأ ابن وثاب والنخعي (يعلمَ) بفتح الميم وخرج على أنه إتباع لفتحة اللام ، وعلى إرادة النون الخفيفة وحذفها ، كما قال الشاعر :

لا تهينَ الفقير علّكَ أنْ تركعَ يوماً والدّهرُ قد رفَعَهْ [١٠٠]

٢ : ١ : ٥ : التوكيد الأقل :

ويكون ذلك بعد غير إنْ الشرطية المؤكدة بما الزائدة (إمَّا) [١٠١]

وذكر سيبويه أن ذلك قليل في الشعر ، شبهوه بالنهي حين كان مجزوماً غير واجب ، واستشهد بقول النجاشي الحارثي :

نَبَتُّمْ نباتَ الخيزُرانيِّ في الثرى حديثاً متى ما يأتِكَ الخبرُ **ينفعَا** .

أراد : **ينفعَنْ** ، فقلب النون الخفيفة ألفاً للوقوف عليها .

وبقول ابن الخرع أو الكميت :

فهما تشأْ منه فزارةُ تُعطِكُمْ ومهما تشأْ منه فزارةُ **تمنعَا** .

أراد : **تمنعَنْ** ، وقلبت النون ألفاً كذلك للوقوف عليها .

وقول بنت مرة بن عاهان :

من يُثْقَفَنْ منهم فليس بآئبٍ أبداً وقتل بنى قتيبةَ شافِي [١٠٢]

٢ :١: ٦ : التوكيد الضرورة

جاء توكيد المستقبل ضرورة بعد رُبَّ المتصل بها ما الزائدة (رُبمَّا)

يقول سيبويه : " وزعم يونس أنهم يقولون : رُبمَّا تقولَنَّ ذاك .. ؛ لأنه فعل غير واجب ، ولا يقع بعد هذه الحروف إلا و(ما) له لازمة ، فأشبهت عندهم لام القسم [١٠٣]

يفهم من هذا أن مسوغ التوكيد يكمن في الشبه بين ما الزائدة هنا وبين لام القسم في نحو : والله لتفعَلَنَّ كذا .

ويرى التفتازاني أن السبب في توكيد المستقبل بعد (ربما) يكمن في أنه شبيه بالنفى ، من حيث إن (ربما) للقلة ، والقلة تناسب النفي ، والعدم والنفي مشبه بالنهى [١٠٤] .

وقد جاء في الشعر قول جذيمة الأبرش :

رُبَّما أوفيت في عَلَمٍ   تَرفَعَنْ ثوبي شَمالاتُ . [١٠٥]

– ولم يأتِ في القرآن الكريم ولا في القراءات متواترها وشاذها توكيد المستقبل في الحالتين السابقتين .

٢ : ٢ : مالا يؤكد بالنون الخفيفة

كل موضع تدخل فيه النون الشديدة تدخل فيه النون الخفيفة أيضاً كما لاحظنا من قبل في عرضنا للآيات القرآنية والقراءات حولها ، إلا في موضعين ، هما : المستقبل المسند إلي ضميري التثنية والتأنيث ، كما في نحو : يضربانِ ، ويضرِبْنَ . فإذا أريد توكيد المسند إلي هذين الضميرين فإن توكيدهما يكون بالنون الشديدة ، فتقول في نحو : يضربانِ المسند إلي ضمير التثنية : يضربانِّ .

الأصل : يضرِبانِنَّ ، حذفت نون الرفع من باب كراهية توالي النونات (الأمثال) ثم كسرت النون الشديدة ، قياساً علي كسر نون الرفع المحذوفة : يضربانِّ .

وإذا أريد توكيد المسند إلي ضمير المؤنث (نون النسوة) فتقول في نحو :يضرِبْنَ : يضرِبْنانِّ. الأصل : يضرِبْنَنَّ، فاجتمع ثلاث نونات ، وهم يستثقلون ذلك ، ألا ترى أنهم قالوا:أنّي وكأنّي وأصلهما :أنّنى وكأنّنى ، فحذفوا إحدى النونات استثقالاً لاجتماعهن . فلما أدى إدخال نون التأكيد علي المسند إلي ضمير المؤنث إلى اجتماع النونات ، ولم يجز حذف إحداهن ، فأدخلوا بينها ألفاً فاصلة ليزول في اللفظ اجتماعهن،فقالوا:يضرِبْنانِّ بكسر النون المشددة بعد الألف [١٠٦] .

أما توكيد المسند إلي هذين الضميرين بالنون الخفيفة ، ففيه خلاف بين العلماء ، فسيبويه والبصريون لا يرون توكيدهما بالنون الخفيفة ، فلا يقال علي

مذهبهم : يضربانْ ويضربِنانْ ؛ لأن ذلك يؤدى إلي اجتماع الساكنين (الألف والنون) علي غير حدهما [١٠٧] ولا يجوز حذف الألف من المسند إلي ضمير التثنية؛ لأن ذلك سيؤدى إلى الالتباس بالمسند إلى ضمير المفرد (يضربَنْ) كما لا يجوز ذلك في المسند إلى ضمير المؤنث ؛ لأن ذلك سيؤدي إلى حذف ما زيد لغرض ، أي أن زيادة الألف كان لغرض إزالة الاستثقال في اجتماع النونات كما ذكرنا من قبل . ولا يجوز تحريك النون ؛ لأن ذلك يخرجها عن وضعها [١٠٨] .

أما يونس – من البصريين ، شيخ سيبويه – والكوفيون فيرون جواز توكيدهما ، يقول سيبويه ، نقلاً عن يونس : " وأما يونس وناس من النحويين فيقولون : اضربانْ زيداً ، واضربنانْ زيداً ، فهذا لم تقله العرب ، وليس له نظير في كلامها ، لا يقع بعد الألف ساكن إلا أن يدغم [١٠٩]

وكأنه يكتفى بأحد الشرطين ، وهو المد الذي في الألف ، أي تصير الألف هذه بمقدار ألفين ، وبذلك يكون الساكنان كلا ساكنين ، ويتضح ذلك على مذهبه عند الوقف على النون ، حيث تمد بمقدار ألفين ، ومع ذلك فهذه الصورة ، كما صرح سيبويه ، خلاف كلام العرب [١١٠] .

وقد احتج الكوفيون بجوار توكيدها هذين الموضعين بأمرين :

أولهما : أن هذه مخففة من الثقيلة ، فكما جاز للثقيلة أن تدخل هذين الموضعين جاز ذلك للخفيفة أيضاً .

وثانيهما : أن هذه النون الخفيفة كما جاز دخولها لتوكيد المستقبل في القسم والأمر والنهى والاستفهام والشرط بإما ، جاز دخولها فيما وقع الخلاف فيه، أى في هذين الموضعين اللذين معنا ، فُصارى ما يُقدَّر أن يقال : أنه يؤدى إلي اجتماع الساكنين الألف والنون ، وقد جاز ذلك في كلام العرب ؛ لأن الألف فيها فرط مَدٍ ، والمدّ يقوم مقام الحركة ، وقد قرأ نافع (محايْ) [١١١] في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الأنعام ١٦٢/٦ بسكون الياء ، فجمع بين ساكنين : الألف والياء ، فكذلك ههنا ، وحكي عن بعض العرب أنه قال : التقت

حلقتا البطان ، بإثبات الألف مع لام التعريف ، وحُكى عن بعضهم كذلك : له ثُلثا المال ، ومما يدل علي ذلك أيضاً قراءة ابن عامر (ولاتتبعانْ) بتسكين النون[١١٢] من قوله تعالي : ﴿ فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يونس ١٠/٨٩

وقالوا – رداً علي البصريين– ولا يجوز أن يُقال إنما يجتمع الساكنان في الوصل إذا كان الثاني منهما مدغماً في مثله، نحو : دابَّة وتُمودَّ وأُصيَّم ؛ لأنا نقول : إنَّ هذا النحو قد يلحقه ما يوجب له الإدغام ، نحو : اضربا نُعمان ، واضربانِّي . فالنون الأولى في اضربا نُعمان هي النون الخفيفة والثانية نون نعمان، والأولى في : اضربانّي هي النون الخفيفة والثانية هي النون التي تصحب ضمير المتكلم (نون الوقاية) فينبغي أن تجيزوا هذا الإدغام ؛ لأن الألف تقع وبعدها نون مشددة كما في قراءة من قرأ بالتشديد في (ولا تتبعانِّ) [١١٣] من قوله تعالى السابق: ﴿ فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلمَّا لم تجيزوا ذلك دلَّ علي فساد ما ذهبتم إليه .[١١٤]

– ولم يرد في القرآن الكريم توكيد المسند إلي ضميري التثنية والمؤنث بالنون الخفيفة ، وما ورد إنما في القراءات القرآنية ، وقد مر مَعنا قراءة ابن عامر (ولاتتَّبعانْ) بتوكيد المسند إلي ضمير التثنية بالنون الخفيفة الساكنة

وقد ورد أيضاً تحريك النون الخفيفة بالكسر ، تخلصاً من التقاء الساكنين ، ومن باب القياس علي كسر النون المشددة بعد الألف ، وذلك في موضعين :

١ – (ولاتتَّبعانِ) وهى قراءة ابن ذكوان ، وابن عامر والدجواني عن أصحابه عن هشام بن عمار[١١٥].

٢ – (فدمِّرانِهِمْ) في قوله تعالى :﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ الفرقان٢٥/٣٦ وهي قراءة على بن أبي طالب رضي الله عنه[١١٦].

٢ : ٣ : حذف النون الخفيفة

٢ : ٣ : ١: عند الوقف عليها

أمر النون الخفيفة في الفعل كالتنوين في الفعل ؛ لأن مجراها واحد ، فالنون تمكن الفعل كما يمكن التنوين الاسم . وحكمها واحد في الوقف .

فإذا كان ما قبل النون الخفيفة فتحة ، فإن هذه النون تُقلب ألفاً ، كقولك في اضربَنْ : اضربا ، وفي ليضربَنْ : ليضربا . قال تعالي : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ **العلق** ٩٦/١٥ وقد فُعل بها هذا كما فَعل بالاسم المنون في حالة النصب عند الوقف عليه، فتقول عند الوقف علي (زيداً) في نحو: رأيت زيداً : رأيت زيدا.

وإذا كان ما قبل النون الخفيفة مضموماً أو مكسوراً ووقف عليها فإنها تحذف ولاتبدل ، ويرجع ما كان قد حذف لأجلها . فتقول في حالة الوقف علي هل تَضربُنْ : هل تضربون . وفي حالة الوقف علي هل تضربِنْ : هل تضربين . فحذفت النون ولم تُبدل كما يُفعل بالاسم المنون في حالتي الرفع والجر ، فتقول في نحو : هذا زيدُ : هذا زيد ، وفي: مررت بزيدٍ : حررت بزيدْ .

ويُلاحظ أنه بعد حذف النون الخفيفة عاد ما كان قد حذف لأجلها ،فعادت نون الرفع التي كانت قد حذفت من باب كراهية توالي الأمثال،وعادت واو الجماعة وياء المخاطبة التي كانتا قد حُذفتا لالتقائهما ساكنتين مع النون الخفيفة :

هل تضربونَنْ – تضربينَنْ > هل تضربونْ – تضربينْ > هل تضربُنْ – تضربِنْ .

٢ : ٣ : ٢ : عند التقائها مع حرف آخر ساكن

يجوز حذف النون الخفيفة في الشعر وفي قلة من الكلام إذا لقيت ساكناً في أول الكلمة التي تليها ، فتقول في اضربَنْ الرجل : اضربَ الرجل ، ومنه في الشعر قول الأضبط بن قريع .

لا تُهينَ الفقير علك أن ترْ كعَ يوماً والدَّهرُ قدِ رفَعَهْ

أراد : **لا تُهينَنْ** ، بنونين ، الأولي لام الكلمة والثانية نون التوكيد الخفيفة ، فحذف نون التوكيد لأن التالي لها ساكن ، وهو لام (الفقير) والدليل علي

هذا الحذف الفتحة التي علي لام الكلمة ، ولو لم يكن التقدير علي حذف النون الخفيفة لحذفت الياء ؛ لأن الأجوف المجزوم تحذف عينه للتخلص من التقاء الساكنين : سكون العين المعتلة وسكون اللام للجازم [١١٨].

ملاحظة :

جاء في الشعر حذف النون الخفيفة وليس بعدها ساكن ، وذلك على توهم الساكن ، من ذلك : قول الشاعر:

اضربَ عنك الهمومَ طارقَها ضربَكَ بالسيفِ قَوْنَس الفرس .

والتقدير: اضربَنْ ، فحذف النون وما بعدها ليس ساكناً وبقيت الياء مفتوحة [١١٩]

وقول الشاعر :

خلافاً لقولى من فيالة رأيه كما قيل قَبْلَ اليوم خالفَ تُذكرا .

والتقدير : خالفَنْ ، فحذف النون مع أن ما بعدها ليس ساكناً .

وقول الشاعر :

إنَّ ابنَ الأحوصِ مغرورٍ فبلِّغَهُ في ساعديه إذا رام العُلا قصُر .

والتقدير فبلغَنْهُ . فحذف النون وبقيت الغين مفتوحة .

وقول الشاعر :

ياراكباً بلِّغَ إخواننا من كان من كندةَ أو وائل .

والتقدير : بلغَنْ . فحذف النون .

فيلاحظ فيما سبق أن الحرف الذي قبل النون المحذوفة قد بقى مفتوحاً ولم يسكن علامة علي البناء ؛ لأن الأفعال كلها للأمر ، وهذه الفتحة تدل علي النون المحذوفة [١٢٠].

وقد جاء هذا الحذف في قراءة قرآنية لم يُعرف قارئها ، في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ص٣٨/٢٤

فقرئ (ليَبْغِيَ) بفتح الياء علي تقدير حذف النون الخفيفة ، والأصل : (لَيَبْغِيَنْ) وعلي تقدير قسم محذوف ، كما قال الشاعر :

اضربَ عنك الهمومَ طارقَها ضربَكَ بالسيفِ قَوْنَس الفرس .

يريد : اضربَنْ ؛ فحذف النون [١٢١]

٣ : الهوامش

١- شرح المفصل ٩ / ٤٧ و٤٠ -٤١

٢- قيل لاستدعاء النونين الطلب ، والطالب إنما يطلب في العادة ما هو المراد له ، فكان ذلك مقتضياً لتأكيده ، لأنه غرضه في تحصيله ، والطلب إنما يتوجه المستقبل غير الموجود . شرح مختصر التصريف العزي ٧٧

٣- شرح المفصل ٩/٤١

يلاحظ هنا أن الماضي لا يجوز تأكيده لفظاً ومعنى لتحققه فعلاً ؛ لأن النونين يُخلصان مدلولهما للاستقبال ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم : " فإمَّا أدركنَّ أحد منكم الدجال " وقول الشاعر :

دامَنْ سعدك لو رحمت متيما .

فهذان الفعلان مستقبلان في المعنى . شرح التصريح ٢/٢٠٣ وراجع كذلك الارتشاف ٢/٦٣٥ وأما الحال وإن كان يحتمل التأكيد ، وذلك بأن يُخبر المتكلم بأن الحاصل في الحال متصف بالمبالغة والتأكيد ، لكنه موجود ويمكن للمخاطب في الأغلب الاطلاع علي ضعفه وقوته ، لأجل ذلك كان تأكيده لا داعي له ، وعلى ذلك يجب أن يتوجه التأكيد إلي المستقبل الذي لم يقع بعد . شرح مختصر التصريف العزي ٧٧-٧٨

٤- شرح مختصر التصريف العزي ٧٨

٥- الكتاب ٣/٥٠٩

٦-شرح المفصل ٩/٣٧ويدل له قوله تعالي :﴿ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ يوسف ١٢/٣٢ فإن امرأة العزيز كانت أشد حرصا علي سجنه من كينونتة صاغراً.شرح التصريح ٢/٢٠٣

٧- عورض سيبويه بأن الفرع قد يختص بما ليس للأصل أحياناً ، وقد قال سيبويه نفسه في (أنَّ المفتوحة) أنها فرع المكسورة ، ولها إذا خففت أحكام تخصها . شرح التصريح ٢/٣٠٢

٨- مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ العلق ٩٦/١٥وقوله تعالى: ﴿ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾يوسف ١٢/٣٢ . الإنصاف ٢/٦٥٣-٦٥٤

٩- نحو : اضربَ القومَ . والأصل : اضربَنْ القوم ، فحذفت النون لالتقاء الساكنين ، ولا يجوز الإبقاء عليها وتحريكها ، ولو كانت مخففة من الثقيلة كما في إنْ ولكنْ لما كان يجوز أن تحذف . قال الشاعر:

لا تهينَ الفقير علكَ أنْ   تركع يوماً والدَّهرُ قد رفعَهْ

والأصل : لا تهيننْ الفقير .   الإنصاف ٦٥٩/٢

١٠- راجع في رأى الكوفيين والبصريين في هذا : الإنصاف ٦٥٨/٢ وشرح المفصل ٣٨/٩ والمغنى ٢٥٧/٤ والجنى الداني ١٤١ وحاشية الصبان على شرح الأشموني ٢١٠/٢ وشرح التصريح ٢٠٣/٢

١١- شرح كافية ابن الحاجب ٥٢٣/٤   ١٢- المنهج الصوتي للبنية العربية ٩٨

١٣/ ١٤ - الكتاب ٥١٨/٣ - ٥١٩

١٥- شرح المفصل ٣٧/٩

١٦ / ١٧- شرح التصريح ٢٠٦/٢

١٨- شرح التسهيل ٣٦/١   ١٩- شرح المفصل ٣٧/٩

٢٠- رصف المباني ٣٣٧-٣٣٨   ٢١- الهمع ٤٠٢/٤

٢٢- شرح التصريف العزي ٨٦

٢٣- شرح كافية ابن الحاجب ٥٣٢/٤-٥٣٣   ٢٤- الكتاب ٥١٩/٣

٢٥- الكتاب ٥١٩/٣ وشرح المفصل ٣٨/٩ ونزهة الطرف ٢٨٠شرح كافية ابن الحاجب ٥٣٤/٤

٢٦- الكتاب ٥١٩/٣   ٢٧- انظر ٢ :٢   ٢٨- الكتاب ٥١٩/٣

٢٩- يزعم علماؤنا القدامى أن حروف المد حروف ساكنة مسبوقة بحركات من جنسها ، فالألف مسبوقة بفتحة ، والواو مسبوقة بضمة ، والياء مسبوقة بكسرة . فلما حذفت الواو بقيت الضمة التي قبلها تدل عليها وهذا تصور غير مقبول ؛ لأن حروف المد هذه حركات طويلة ، والحركة الطويلة تساوي حركتين ، وهى حركات للحروف التي قبلها . وإذا وافقنا القدماء على هذا التصور يكون الحرف محركاً بثلاث حركات : هذه الحروف والحركات المجانسة لها التي تسبقها . وهذا شيء لا يتُصور .

٣٠- راجع في ذلك : شرح المفصل ٣٨/٩ وشرح الكافية الشافية ٥٩/٢ وشرح التصريح ٢٠٦/٢

٣١- شرح المفصل ٣٨/٩   ٣٢- راجع ما سبق ١ : ١ ملاحظة ٢

٣٣- راجع في ذلك : شرح كافية ابن الحاجب ٥٣١/٤ وشرح الكافية الشافية ٦٠/٢ وشرح مختصر التصريف العزي ٨٥ وشرح التصريح ٢٠٦/٢

٣٤- شرح المفصل ٣٨/٩   ٣٥- راجع ما سبق ١ : ٣ ملاحظة٢

٣٦- انظر مراجع الحاشية السابقة رقم ٣٣   ٣٧- راجع فيما سبق ١ : ٢

٣٨- شرح المفصل ٢٠٣/٢ و ٢٠٥ ويُلاحظ أن لام القسم تدل على التوكيد ، وهي توطئة لدخول نون التوكيد ، ووجود هذه اللام واجب . شرح كافية ابن الحاجب ٥٢٣/٤

٣٩- الكتاب ١٠٤/٣ ٤٠- شرح المفصل ٣٩/٩ ٤١- الكتاب ١٠٦/٣

٤٢- جاء في هذه الآية ستة أفعال مؤكدة توكيداً واجباً :﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ النساء ٤ / ١١٩ وسنعرضها في مواضعها في هذه الحالة .

٤٣- قرأ زيد بن على ويعقوب (لأقتلنْكَ) بالنون الخفيفة البحر ٤٧٦/٣ ومعجم القراءات ٢٥٥/٢

٤٤- قرأ الأعمش (لنكونَنْ) بالنون الخفيفة البحر ٧٥/٥ ومختصر في شواذ القرآن ٥٨ وعجم القراءات ٤٢٧/٣ وقبل هذا الفعل فعل آخر في الآية هو (لنصدقَنَّ) وقرئ كذلك بالت خفيف ، وسيأتي في حينه .

٤٥-روى محبوب وهارون كلاهما عن أبى عمرو أنه قرأ(لنسفعَنَّ) بالنون المشددة . مختصر في شواذ القرآن ١٧٦ ومعجم القراءات ٥٠٨/١٠ وراجع كذلك الكشاف ٧٧٨/٤

٤٦- قرأ طلحة بن مصرف (ليُؤمَنَنْ) بالبناء للمفعول وبالنون الخفيفة .
البحر ٢٠٣/٤ ومعجم القراءات ٥١٨/٢

٤٧- قرأ يحي عن يعقوب وعن جده (ولأضِلَّنْهُمْ) بالنون الخفيفة . مختصر في شواذ القرآن الكريم ٣٥ ومعجم القراءات ١٥٩/٢

٤٩/٤٨ – قرأ ابن محيص (فلأقطعَنْ – ولأصلِّبَنْكم) بالنون الخفيفة مختصر في شواذ القرآن ٩١ وراجع الكشاف ٧٦/٣

٥٠- قرأت فرقة (لَنُنَجِّيَنْه) بالنون الخفيفة البحر ١٤٦/٧ والكشاف ٤٥٣/٣ ومعجم القراءات ١٠٩/٧ ودراسات لأسلوب القرآن ٤٥٧/٣

٥١- قرأ الأعمش (لنَصَّدَّقَنْ) بالنون الخفيفة . مختصر في شواذ القرآن ٥٨ ومعجم القراءات ٤٢٧/٣ وراجع كذلك الكشاف ٢٩٣/٢ ودراسات لأسلوب القرآن ٤٥٧/٣ والأصل : لنتصدقَنَّ . فقلبت التاء صاداً وأدغمت في الصاد الثانية .

٥٢-شرح التصريح ٢٠٣/٢ و٢٠٥ وراجع كذلك شرح مختصر التصريف العزي ٧٨

٥٣- روى عن ابن ذكوان أنه قرأ (يسبلُغَنْ) بالنون الخفيفة . البحر ٢٤/٦ ومعجم القراءات ٤٠/٥ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٥٧/٣

٥٤ – قرأ يعقوب برواية رويس (**نذهبَنْ**) بالنون الخفيفة في الوصل ، وفي الوقف يقبلها ألفاً (**نذهبًا**) النشر ٢٤٦/٢ والإتحاف ٢٣٤ ومعجم القراءات ٣٧٨/٨ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٥٧/٣

٥٥– جاء في قراءة شاذة عدم التأكيد (**تَرَيْنَ**) يقول ابن جني : " وأما قراءة طلحة (**فإما تَرَيْنَ**) فشاذة ولست أقول إنها لحن ، لثبات علم الرفع ، وهو النون في حالة الجزم ، لكن تلك لغة : أن تثبت هذه النون في الجزم " المحتسب ٤٢/٢ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٥٣/٣ وهي قراءة أبي جعفر وشبية كذلك . البحر ١٧٥/٦ ومعجم القراءات ٣٥٩/٥

٥٦– قرأ يعقوب برواية رويس (**نُرِيَنْكَ**) بالنون الخفيفة . راجع مراجع الحاشية رقم ٢٧ السابقة .

٥٧– شرح التصريح ٢٠٣/٢

٥٨– الكتاب ٥٠٩/٣ وشرح المفصل ٣٩/٩ ٥٩– الكتاب ٥١٠/٣

٦٠– قرأ عبد الله بن مسعود وابن عبلة (**لا يدخُلَنْها**) بالنزن الخفيفة ، وبإسقاط (**أنْ**) على إضمار (**يقولون**) البحر ٨ / ٣١٢ وراجع كذلك : مختصر في شواذ القرآن ١٦١ والكشاف ٤ / ٥٩٠ ومعجم القراءات ٣٥/١٠ ومعنى إضمار يقولون ، أي يتخافتون ، يقولون (**لا يدخُلَنْها**) والنهي عن الدخول للمسكين نهي له عن تمكينه منه ، أي : لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل ، كقولك : لا أرينك ههنا . الكشاف ٥٩٠/٤

٦١– قرأ "يعقوب براوية رويس وابن أبي إسحاق (**ولا يصدَنْكَ**) بالنون الخفيفة . البحر ١٣٢/٧ ومعجم القراءات ٨٢/٧

٦٢– قرأ يعقوب وابن أبي إسحاق وابن أبي عبلة (**فلا تغُرَنْكم / ولا يغُرَنْكم**) بالنون الخفيفة . البحر ١٥٤/٣ و١٨٩/٧ ومعجم القراءات ٢١٢/٧

٦٣– قرأ الحسن وإبراهيم وابن وثاب ، ورويس والوليد عن يعقوب (**ولا يجرمَنْكم**) بالنون الخفيفة – البحر ٤٣٦/٣ ومعجم القراءات ٢١٩/٢–٢٢٠

٦٤–جاء عن بعضهم قراءة (**فلا تحسِبَنْهم**) بالنون الخفيفة وكسر السين . مختصرات شواذ القرآن ٣٠ ومعجم القراءات ٦٤٥/١ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم٤٥٧/٣

٦٥– قرأ رويس عن يعقوب وابن أبي عبلة وابن إسحاق(**ولا يستخِفَنْك**) بالنون الخفيفة . راجع في ذلك : مختصر في شواذ القرآن ١١٨ والنشر ٢٤٦/٢والإتحاف ٢٣٤ والبحر ٥٩/٧ ومعجم القراءات ١٨٠/٧ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٥٧/٣

٦٦– شرح التصريح ٢٠٣/٢

٦٧– دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٤٨/٣

٦٨-البحر ٤٤٨/٢ ومعجم القراءات ٤٧٥/١ودراسات لأسلوب القرآن الكريم٤٤٩/٣

٦٩-البحر ١٨٦/٦ ومعجم القراءات ٣٤٦/٥ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم٤٤٩/٣

٧٠- المحتسب ٢٨٤/٢ومختصر في شواذ القرآن الكريم ١٤٤والبحر ١٢٦/٨والكشاف ٣٨٧/٢ ومعجم القراءات ١٠٩/٩ودراسات القرآن الكريم ٤٤٩/٣

٧١- الكشاف ٣٨٧/٤

٧٢- المحتسب ١٢٢/٢ ومختصر في شواذ القرآن ١٠٦ والبحر ٤٥٧/٦ ومعجم القراءات٣٥١/٦ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٤٩/٣

٧٣- شرح الكافية الشافية ٥٢/٢ وشرح التصريح ٢ / ٢٠٣ والمستقصى في علم التصريف ١٨٩/١

٧٤- شرح التصريح ٢٠٤/٢ ٧٥- شرح المفصل ٣٩/٩ ٧٦- الكتاب ٥١٣/٣

٧٧- الكتاب ٥١٣/٣ وشرح المفصل ٣٩/٩ والرواية (وهل) وشرح الكافية الشافية ٥٢/٢ والرواية (وهل)

٧٨- الكتاب ٥١٣/٣ وشرح الكافية الشافية ٥٢/٢ والرواية (فأقبل) وشرح كافية ابن الحاجب ٥٢٤/٤

٧٩- رصف المباني ٣٣٤

٨٠-شرح كافية ابن الحاجب٥٢٤/٤وشرح الكافية الشافية ٥٢/٢وشرح التصريح٢٠٤/٢

٨١- دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٥٠/٣

٨٢- الكتاب ٥١٤/٣ وراجع كذلك شرح المفصل ٤٠/٩

٨٣- شرح الكافية الشافية ٥٢/٢ والارتشاف ٦٥٤/٢ والهمع ٣٩٧/٤وشرح التصريح٢٤ ٢٠٤/

٨٤- شرح التصريح ٢٠٤/٢ ٨٥- شرح المفصل ٤٠/٩

٨٦-شرح الكافية الشافية ٥٢/٢والارتشاف٦٥٤/٢والهمع٣٩٨/٤وشرح التصريح ٢٠٤/٢

٨٧- شرح المفصل ٤٢/٩

٨٨- الارتشاف ٦٥٦/٢ - ٦٥٧ وشرح كافية ابن الحاجب ٥٢٨/٤

٨٩- شرح كافية ابن الحاجب ٥٢٨/٤

٩٠- الارتشاف ٦٥٧/٢ والمستقصى في علم التصريف ١٩٧/١

٩١- الكتاب ٥١٦/٣ وشرح المفصل ٤٢/٩ وشرح التصريح ٢٠٥/٢

٩٢- الارتشاف ٦٥٧/٢ وشرح التصريح ٢٠٥/٢

٩٣- شرح المفصل ٤٢/٩ وشرح التصريح ٢٠٥/٢

٩٤- البحر ٤٧٧/٤ - ٤٧٨ ٩٥- الكشاف ٢١١/٢

٩٦- إشارة إلي ابن جنى في عرضنا السابق

٩٧- راجع : البحر ٦٠/٧ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٥٥/٣

٩٨- مختصر في شواذ القرآن٥٨ ودراسات لأسلوب القرآن ٤٥٥/٣

٩٩- البحر ٥٣/٥ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٥٥/٣ ومعجم القراءات ٤٠/٣

١٠٠- البحر ٧٢/٣ ومعجم القراءات ٥٨٠/١ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم ٤٥٧/٣ وراجع كذلك : الكشاف ٤٢٠/١ – ٤٢١

١٠١- شرح التصريح ٢٠٥/٢

١٠٢- الكتاب ٥١٥/٣ – ٥١٦وراجع كذلك:شرح كافية ابن الحاجب٥٢٥/٤-٥٢٦وشرح الكافية الشافية ٥٤وشرح التصريح ٢٠٥/٢والمستقصى في علم التصريف ٢٠٣/١

١٠٣- الكتاب ٥١٨/٣ وراجع : الارتشاف ٦٥٨/٢- ٦٥٩

١٠٤- شرح مختصر التصريف العزى ٧٨ وشرح التصريح ٢٠٦/٢

١٠٥- الكتاب ٥١٧/٣ – ٥١٨ والارتشاف ٦٥٨/٢ وشرح مختصر التصريف العزى ٧٨ وشرح التصريف ٢٠٦/٢

١٠٦- راجع في ذلك شرح المفصل ٣٨/٩

١٠٧- حد التقاء الساكنين هو أن يكون الأول منها حرفاً من حروف اللين الثلاثة : الألف أو الواو أو الياء ، والثاني منها مدغم في مثله ، نحو : دابَّة. فالألف والباء في هذا المثال ساكنان ، وإدغام الباء في مثلها يؤدى عند النطق بهما إلي ارتفاع اللسان بهما دفعة واحدة من غير كلفة ؛ لأن المدغم فيه (الباء الثانية) محرك ، فيصير الثاني من الساكنين كلا ساكن فيه ، فلا يتحقق التقاء الساكنين الخالِصَي السكون . شرح التصريف العزى ٨٢ أما في علم الأصوات الحديث فليس في دابَّة وما شابهه التقاء للساكنين ؛ لأن الألف حركة طويلة (فتحة طويلة) وهي تشكل مع الصوت الذى قبلها والصوت الذى بعدها مقطعاً طويلاً من النوع الرابع (ص ح ح ص / د ـَ ـَ ب)

١٠٨- وذلك لأنها لا تقبل الحركة بدليل حذفها في نحو: اضـرِبَ القـوم . الأصل : اضربَنْ القوم دون تحريكها، قال الأضبط بن قريع :

لا تهينَ الفقير علك أنْ   تركع يوماً والدهر قد رفَعَهْ

أى لا تهينَنْ الفقير ، وإلا لوجب أن يُقال : لا تهنْ ؛ لأنه نهى ، فحذف النون لالتقاء الساكنين ولم يحركها . شرح التصريف العزى ٨٠ – ٨١

١٠٩- الكتب ٥٢٧/٣

١١٠- شرح المفصل ٣٨/٩

١١١- وهي كذلك قراءة قالون وورش (راويي نافع) والأزرق والأصبهاني (طريقي ورش) . معجم القراءات ٦٠١/٢

١١٢- الإتحاف ٣١٧ والذي في البحر ١٨٧/٥ (ولا تَتْبعانْ) بتخفيف التاء الثانية وسكون النون بعد الألف . وراجع كذلك معجم القراءات ٦١٥/٣

١١٣- هم الجمهور ماعدا ابن عامر وابن ذكوان . التيسير ١٠٠

١١٤- راجع الإنصاف ٦٥٠/٢-٦٥١ وشرح اللمع ٣٧٨/٢-٣٧٩

١١٥- راجع في ذلك : التيسير ١٠٠ والنشر ٢٨٦/٢ والإتحاف ٣١٧ ومعجم القراءات ٦١٥/٣

١١٦- مختصر في شواذ القرآن ١٠٦ ومعجم القراءات ٣٥٢/٦ وشرح الكافية الشافية ٦٠/٢

١١٧- راجع فيما سبق : شرح المفصل ٤٣/٩ وشرح الكافية الشافية ٦٢/٢ والهمع ٤٠٤/٤ وشرح التصريح ٢٠٨/٢

١١٨- الإنصاف ٥٦٩/٢ وشرح المفصل ٤٣/٩-٤٤

١١٩- الإنصاف ٥٦٨/٢ وشرح المفصل ٤٤/٩

١٢٠- راجع في هذه الأبيات : هامش الإنصاف ٥٦٩/٢

١٢١- الكشاف ٨٧/٤ ومعجم القراءات ٩٥/٨ ودراسات لأسلوب القرآن الكريم٤٥٧/٣

٤: الخاتمة

بعد عرض الدراسة السابقة نستطيع أن نخلص إلي أهم الملاحظات الآتية:

١- لا يؤكد من الأفعال إلا الفعل الدال علي الاستقبال ، أما الدالان علي الحال والماضي فلا يؤكدان ؛ لأنهما حاصلان موجودان ، فلا معنى لطلب ما هو كذلك ، ذلك أن النونين تستدعيان الطلب ، أما الدال علي الاستقبال فلم يحدث بعد ، فهو أشد احتياجاً للتوكيد من غيره .

والمستقبل الذي يؤكد هو المستقبل الذي فيه معنى الطلب أو شبهه ، كالأمر والنهى والاستفهام والتمني والعرض .

٢- النون المشددة أبلغ في التأكيد من المخففة ؛ لأن تكرير النون كما في المشددة كتكرير التأكيد . وليست الخفيفة من الشديدة ، بل كلاهما أصل قائم بنفسه في رأى البصريين ، والكوفيون علي أن المخففة من المشددة .

٣- الأصل في النون المشددة أن تحرك بالفتحة ، وذلك لثقل النون وخفة الفتحة ، وتُحرك بالكسرة علي التشبيه بنون الرفع في المضارع والاسم (**يضربانِ – الزيدانِ**) إذا كانت بعد ألف الاثنين وألف الفصل في حالة تأكيد المسند إلي نون النسوة ، كما في نحو : **اضرِبانِّ واضرِبْنانِّ** .

٤- يُحرك آخر المسند إلي ضمير المفرد المذكر بالفتحة عند توكيده ، وهي علامة بناء له ، ولا يجوز تحريكه بالكسرة لئلا يلتبس بالمسند إلي ضمير المخاطبة (ياء المخاطبة) ولا بالضمة لئلا يلتبس بالمسند إلي ضمير جمع المذكر (واو الجماعة) نحو: **هل تنصُرَنَّ** ، ولا يجوز : **تنصُرِنَّ ولا تنصُرُنَّ** .

٥- في حالة توكيد المسند إلي ضمير جمع المذكر (واو الجماعة) فإن هذا الضمير يُقصر؛ لأنه ضمة طويلة واقعة في مقطع مغلق، مثال ذلك :**تنصُرُونَّ**.
الأصل تنصرونَنَّ : ت ـَ ن ص ـُ ر ـُـُ ن ـَ ن ن ـَ . حدث له ما يأتي :
حذفت نون الرفع من باب كراهية توالي الأمثال ، فينشأ المقطع الطويل الممدود (ص ح ح ص / ر ـُـُ ن) فتقصر الضمة الطويلة فيه ، فيتحول إلي المقطع الطويل المغلق (ص ح ص / ر ـُ ن)

ت ـَ ن ص ـُ ر ـُـُ ن ـَ ن ن ـَ > ت ـَ ن ص ـُ ر ـُـُ ن ن ـَ > ت ـَ ن ص ـُ ر ـُ ن ن ـَ .

وينطبق هذا الكلام علي المسند إلي ضمير المخاطبة (ياء المخاطبة) ، مثل : تنصُرِنَّ . الأصــل : **تنـصُرِينَنَّ . ت ـَ ن ص ـُ ر ـِ ـِ ن ـَ ن ن ـَ > ت ـَ ن ص ـُ ر ـِ ـِ ن ن ـَ > ت ـَ ن ص ـُ ر ـِ ن ن ـَ .**

ويرى علماؤنا القدامى في هذا الأصل أنه بعد حذف نــون الرفــع التقــى ساكنان (واو الجماعة + أول النونين) فتحذف الواو وتبقي الضمة التي قبلها تــدل عليها : **تنصُرُونَنَّ > تنصُرُونَّ > تنصُرُنَّ .**

وينطبق هذا علي المسند إلي ياء المخاطبة، مثل: **تنصُرِينَنَّ > تنصُرِينَّ > تنصُرِنَّ .**

وقد حذفت الواو والياء في رأيهم مع أن التقاء الساكنين علي حــدهما ؛ لأن الكلمة لما استطالت ثقلت ، وفي حالة حذفها لا نعدم أن نجد ما يــدل عليهمــا ، أي الضمة تدل علي الواو ، والكسرة تدل علي الياء .

٦- عند توكيد المسند إلي نون النسوة يُفصل بين هذه النون وبــين النــون المشددة بألف فاصلة ؛ ليزول ثقل التقاء النونات ، ولأن هذه الألف لو لــم توضــع لحذفت نون النسوة ، وهنا يُفتح آخر الفعل ، ومن ثم تلتبس هذه الــصيغة بــصيغة المسند إلي ضمير المفرد المذكر ، مثال ذلك : ينصُرْنانِّ .

٧- تنحصر الحالات التي يؤكد فيها المستقبل بنوني التوكيــــد فــي ســت حالات ، هي :

* **التوكيد الواجب** : ويكون إذا كان المستقبل مثبتاً جواباً لقسم غير مفصول مــن لامه بفاصل ، والمقسم به قد يكون مذكوراً، وقد يكون غير مذكور ، وهنا يُقــدر . وهذه الحالة هي أكثر الحالات وقوعا في القرآن الكريم ، حيث وردت فــي **مائــة وتسعة وستين موضعاً** ، جاء أكثرها من الثلاثي المجرد على باب **فعَل يفعُــل** ثــم يأتي بعد ذلك أبواب **فعَل ويفعِل ويفعَل** ، **وفعِل يفعَل** ، أما من غير الثلاثي فيأتي في صدارتها ما جاء علي وزن **فعَّل ، ثم أفعل ، وتفعَّل .**

* **التوكيد القريب من الواجب** : وفيها يكون المستقبل شرطاً لإنْ الــشرطية المؤكدة بما الزائدة (إمَّا) وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في **تسعة عشر موضــعاً** ، جاء في صدارتها من حيث الكثرة ما كان علي زنة **فعَل يفعَل** ، ثــم **فعَــل يفعُــل** ، **وفعِل يفعَل** من المجرد ، أما من المزيد فيأتي في الصدارة ما كان علي زنة **أفعــل** ثم **تفعَّل** .

* **التوكيد الكثير** : وفيها يكون المستقبل واقعاً بعــد ما يدل علــى الطلــب (النهى – الأمر – الدعاء – الاستفهام – العرض – التمني) وكان توكيــده علــي

التشبيه **بإنْ** الشرطية في الحالة السابقة ؛ من حيث إن الطلب أشبه ما بعد إنْ الشرطية في استدعاء الجواب .

وكان النهى أكثر حالات الطلب وقوعاً في القرآن الكريم ، حيث ورد في **ثلاثة وأربعين موضعاً** ، جاء في صدارتها ما كان علي زنة **فعَل يفعَل** ، **ثم فعَل يفعِل، وفعِل يفعَل** ، ويتساوى في الورود ما جاء علي أبواب المزيد : **أفعل وفاعل وفعّل وافتعل واستفعل** .

ولم يرد الأمر مؤكداً في القرآن الكريم – مع كثرة استعماله – وإنما ورد في أربع قراءات شاذة ، كما لم يرد في حالة الاستفهام إلا في موضوع واحد . ولم ترد باقي أنواع الطلب مؤكدة في القرآن الكريم ولا في القراءات .

* **التوكيد القليل** : وفيها يكون المستقبل منفياً ، وتوكيده علي التشبيه بالنهى ؛ لأن النهي نفي كما أن الأمر إيجاب . وفي تأكيد المنفي خلاف بين العلماء ، فبعضهم ضد تأكيده لعريه عن معنى الطلب وتجرده من ما المؤكدة . وقد ورد تأكيد المنفي بلا في موضعين في القرآن الكريم . كما ورد تأكيد **بلمّا ولنْ** في قراءتين شاذتين.

* **التوكيد الأقل** : وفيها يكون المستقبل شرطا لغير إن الشرطية المؤكدة بما الزائدة (إمّا) ولم ترد هذه الحالة في القرآن الكريم ولا في القراءات .

* **التوكيد الضرورة** : وفيها يكون المستقبل واقعاً بعد رُبَّ المتصلة بما الزائدة (**رُبَّما**) ولم ترد كذلك في القرآن الكريم ولا في القراءات .

٨- اختلف البصريون والكوفيون في توكيد المسند إلي ألف الاثنين ونون النسوة بالنون الخفيفة ، فالبصريون علي عدم الجواز ؛ لأنه سيلقي ساكنان علي غير حدهما ، وإنما يؤكدان بالنون المشدد ؛ لأنه سيلتقي ساكنان علي حدهما (**ألف المد + أول النونين**) والكوفيون ومعهم يونس من حبيب من البصريين علي جواز ذلك .

٩- تُحذف النون الخفيفة في موضعين ، **الأول** : إذا وقف عليها وكان ما قبلها مفتوحاً ، وهنا تُقلب ألفاً ، نحو : **اضربَنْ > اضربا** . وإذا كان مضموماً أو مكسوراً حذفت دون إبدال ورجع ما كان قد حذف لأجلها نحو : **هل تضربُنْ- تضربِنْ > تضربون – تضربين** . **والثاني** : عند التقائها مع حرف آخر ساكن كما في نحو : **اضربَنْ الرجل > اضربَ الرجل** .

٥ : مراجع الدراسة

* الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين والبصريين والكوفيين ، لابن الأنباري (كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن محمد بن أبي سعيد) تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت / لبنان ١٩٨٧

* إتحاف فضلاء البشر في القراءات (الأربعة) عشر ، للدمياطى الشهير بالبناء (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني) وضع حواشيه الشيخ / أنس مهرة – دار الكتب العلمية- بيروت / لبنان ١٩٩٨.

* تفسير البحر المحيط، لأبى حيّان الأندلسي (محمد بن يوسف) تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين – دار الكتب العلمية- بيروت / لبنان ١٩٩٣.

* حاشية الصبان علي شرح الأشموني – عيسى اليابى الحلبى – القاهرة- د . ت .

* دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، لمحمد بن الخالق عضيمة – دار الحديث – القاهرة – د . ت .

* ارتشاف الضرب من لسان العرب ، لأبى حيَّان الأندلسي (محمد بن يوسف) تحقيق الدكتور / رجب عثمان – مكتبة الخانجي – القاهرة ١٩٩٨.

* رصف المباني في شرح حروف المعاني، للمالقي (أحمد بن عبد النور) تحقيق/ أحمد محمد الخرَّاط – مجمع اللغة العربية – دمشق / سوريا – د . ت .

* شرح التسهيل ، لابن مالك (جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله الطائي الحيَّانى الأندلسيّ) تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيد ، والدكتور محمد بدوى المختون – دار هجر – القاهرة ١٩٩٠.

* شرح التصريح علي التوضيح ، للشيخ خالد الأزهري ، علي ألفية ابن مالك للشيخ جمال الدين بن هشام – دار إحياء الكتب العلمية – فيصل عيسى البالى الحلبى – القاهرة- د . ت .

* شرح كافية ابن الحاجب، لرضى الدين الاستراباذى (محمد بن الحسن) تحقيق الدكتور إميل بديع يعقوب – دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ١٩٩٨.

* شرح الكافية الشافية لابن مالك – تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود – دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ٢٠٠٠

* شرح اللمع ، لابن برهان العكبرى (أبو القاسم عبد الواحد بن على الأسدي) تحقيق الدكتور فائز فارس - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٨٤.

* شرح مختصر التصريف العزي في فن الصرف، للتفتازاني (مسعود بن عمر) تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم - ذات السلاسل - الكويت١٩٨٣.

* شرح المفصل، لابن يعيش (موفق الدين يعيش بن على) - مكتبة المتنبي - القاهرة - د . ت .

* الكتاب ، لسيبويه (أبى بشر عمرو بن عثمان بن قنبر) - تحقيق عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي- القاهرة ١٩٨٨.

* كتاب التيسير في القراءات السبع ، للداني (أبى عمرو عثمان بن سعيد)- تصحيح أوتو برتزل - دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ١٩٩٦.

* الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، للزمخشرى (محمد بن عمر) - تصحيح مصطفي حسين أحمد - دار الكتاب العربي - بيروت / لبنان ١٩٤٧.

* المحتسب في تبيين وجوه شواذ القرآن والإيضاح عنها ، لأبي الفتح عثمان بن جني- تحقيق علي النجدي ناصف والدكتور عبد الحليم النجار والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي - المجلس الأعلي للشئون الإسلامية - القاهرة ١٩٩٩

* مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع ، لابن خالويه - مكتبة المتبنى - القاهرة - د . ت .

* المستقصى في علم التصريف ، للدكتور عبد اللطيف الخطيب - درا العروبة - الكويت ٢٠٠٣.

* معجم القرءات ، للدكتور عبد اللطيف الخطيب- درا سعد الدين - دمشق / سوريا ٢٠٠٠.

* مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام - تحقيق الدكتور عبد اللطيف الخطيب - المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب - الكويت٢٠٠٢.

* المنهج الصوتى للبنية العربية ، رؤية جديدة في الصرف العربي ، للدكتور عبد الصبور شاهين - مؤسسة الرسالة - بيروت / لبنان ١٩٨٠.

* نزهة الطرف في علم الصرف ، للميدانى (أحمد بن محمد) – تحقيق الدكتور السيد محمد عبد المقصود درويش – القاهرة ١٩٨٢.
* النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري (أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي) – تصحيح علي محمد الضباع – دار الكتاب العربي – بيروت / لبنان – د . ت .
* همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، للسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) – تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم – دار البحوث العلمية – الكويت١٩٧٩.

أصول نظرية النحو التحويلي عند عبد القاهر الجرجاني [٤٧١هـ]

الدكتور/ عاطف عبد العزيز معوض

أولاً: الإطار العام :

[١] موضوع البحث:

يُعالج هذا البحث " أصول نظرية النحو التحويلي عند عبد القاهر الجرجاني ٤٧١هـ " ، ويُقصد بأصول نظرية النحو التحويلي تلك القواعد والأسس التي وضعها اللغوي الأمريكي تشومسكي Chomsky عام ١٩٥٧م من خلال كتابيه: البنى النحوية Syntactic Structures، ومظاهر النظرية النحوية Aspects of the theory of Syntax .

والأول منهما – أعني الكتابين – يمثل المرحلة الأولى من هذه النظرية، والثاني يمثل المرحلة الثانية، وهما معاً يؤرخان للنظرية التحويلية التوليدية عند تشومسكي، وهذه الأصول والقواعد التي أشار إليها تشومسكي لها جذور في تراثنا النحوي العربي، فقد أدخل النحاة القدامى فكرة التحويل على قواعد اللغة العربية – وإن لم يدركوا هذه التسمية – فما تحدّث عنه النحاة من قواعد تشمل: التقديم والتأخير، والحذف والزيادة، والتقدير والتأويل، والحمل على المعنى ... إلخ هذه القواعد ، يُعدُّ جزءاً من القواعد التي استخدمها تشومسكي وطوَّرها .

كما أنّ " التمييز " وما دار حوله من حديث في التراث النحوي يشهد على معرفة النحاة القدامى بهذه الأصول؛ فالزمخشري يستخدم مصطلح " الإزالة " بمعنى التحويل ، يقول : " واعلم أن هذه المميزات عن آخرها أشياء مزالة عن أصلها ... والسبب في هذه الإزالة قصدهم إلى ضرب من المبالغة والتأكيد "(١) .

وقد ذكر الأشموني ما يقترب به من هذه الفكرة ، حيث ذكر لفظ "محول"، وذلك خلال عرضه لقضية التمييز المحول عن الفاعل والمفعول، يقول الأشموني في قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ (٢) ، والتمييز فيه محول عن الفاعل، والأصل: اشتعل شيبُ الرأس، ونحو: غرست الأرض شجراً، التمييز فيه محول عن المفعول، والأصل: غرست شجر الأرض " (٣) .

إلاّ أنّ هـذا الـبحث يتـناول أصول هذه النظرية من خلال مؤلفات عبد القاهـر الجرجاني، ويبحث عن وجود جذور لهذه الأصول في التراث النحوي، وقـد وقـع الاختـيار على مؤلفات عبد القاهر خاصة لأنّه نحوي بلاغي قامت دراسـته علـى الحركة الذهنية والتنظيم الصياغي، أو بتعبير التحويليين: البنية السطحية والبنية العميقة، ومن ثمّ فإنّ مادة هذا البحث تأتي من خلال البحث عن أصـول هـذه النظـرية فـي المؤلفات التي بين أيدينا لعبد القاهر وهي: دلائل الإعجاز، وأسرارِ البلاغة. والعوامل المائة، والمقتصد في شرح الإيضاح.

[٢] الدراسات السابقة:

لـم تُعن دراسة – على حد اطّلاعي – بموضوع " أصول نظرية النحو التحويلي عند عبد القاهر الجرجاني ٤٧١هـ " ، وذلك ربما يعود – في نظري– إلـى تصنيف عبد القاهر الجرجاني على أنه من رجال البلاغة عند من يفصلون بين الدرس النحوي والدرس البلاغي؛ إلاّ أنّ الحديث عن هذه النظرية جاء عاماً وشاملاً دون ربطها بمؤلفات عبد القاهر وذلك من خلال المؤلفات التالية : قواعد تحويلـية للغة العربية للدكتور/ محمد علي الخولي عام ١٩٨١م ، ودراسات في ضـوء علم اللغة المعاصر في نحو اللغة وتراكيبها للدكتور/ خليل أحمد عمايرة عام ١٩٨٤م ، والألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية "الجملة البسيطة

للدكـتور/ ميشال زكريا عام ١٩٨٦م، ونحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية للدكتور/ مازن الوعر عام ١٩٨٦م، والنحو العربـي والـدرس الحـديث للدكتور/ عبده علي الراجحي عام ١٩٨٨م، ومن الأنمـاط التحويلـية في النحو العربي، للدكتور/ محمد حماسة عبد اللطيف عام ١٩٩٠م، واتجاهـات معاصـرة لدراسة النحو العربي للدكتور/ السيد أحمد علي صقر عام ١٩٩٩م .

وهناك مجموعة من الأبحاث المنشورة منها ما يربط بين الدرس التراثي من خلال نحوي من النحاة والنظرية التحويلية وهي الدراسة التي قدّمها الدكتور/ فكـري محمـد أحمد سليمان عن: التقدير عند سيبويه والمنهج التحويلي، حيث يعرض فيه لأصول النظرية عند تشومسكي والأسس التي قامت عليها، ثم يطبق العملـيات التحويلـية على بعض نصوص سيبويه من خلال الحديث عن الحذف والاختصار والتقديم والتأخير والأصلية والفرعية والعامل، وهي دراسة منشورة بالكتاب التكريمي للمستشرق الألماني " فيشر " عام ١٩٩٤م [٤].

ومـنها مـا يؤرخ للنظرية التحويلية ويعرض لأبرز أعلامها مع محاولة لبـيان دور هذه المدرسة في تحليل دلالات التراكيب، وهي الدراسة التي قدّمها الدكـتور/ محمد أحمد محمد خضير بعنوان : دور المدرسة التحويلية في تحليل دلالات التراكيب وهي دراسة منشورة بمجلة علوم اللغة، المجلد الخامس، العدد الثالث ٢٠٠٢م [٥] .

ومـنها مـا يعمـم الحديث؛ فيتناول المنهج التحويلي بصفة عامة ويقوم بدراسته في النحو العربي دون تحديد مستوى أو نموذج للدراسة، وهي الدراسة التي قدَّمها الدكتور/ عبد الله أحمد جاد الكريم حسن بعنوان: المنهج التحويلي في

الـــنحو العربـــي، حيث عرض فيها حديثاً عن النظرية التحويلية يشمل: مؤسس النظـــرية، وتعـــريفها وأهـــم الأسس التي قامت عليها، وأسباب الحاجة إليها، ثم يعـــرض لأهـــم مظاهر النحو التحويلي في النحو العربي منها: الحذف والاتساع والـــزيادة والاعتـــراض والـــتقديم والتأخير، ويعرض - كذلك - لنتائج المنهج التحويلـــي على النحو العربي(٦). وهي دراسة منشورة بمجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد ٣١ عام ١٤٢٤ هـــ، ٢٠٠٤م .

من أجل ذلك تُعالج هذه الدراسة هذا الموضوع في محاولة لربط وتقريب الدرس الحديث بالدرس التراثي من خلال مؤلفات عبد القاهر الجرجاني.

[٣] أسباب اختيار الموضوع وأهداف البحث:

تحاول هذه الدراسة الكشف عن :

أولاً: أصول النظريات النحوية الحديثة في التراث النحوي.

ثانـــياً: الربط بين الدرس النحوي الحديث والدرس النحوي البلاغي التراثي من خلال مؤلفات عبد القاهر الجرجاني .

ثالـــثاً: إبراز دور النحاة البلاغيين في تطور الدراسات النحوية، وأثر هؤلاء في النظريات النحوية واللغوية الحديثة .

رابعاً: بيان مكانة عبد القاهر في الدرس النحوي .

ومن منطلق هذه الأهداف وقع الاختيار على عبد القاهر الجرجاني٤٧١هـــ لتمـــثل مـــؤلفاته عيـــنة لهذه الدراسة؛ ذلك لأنّ عبد القاهر الجرجاني وقع تحت مؤثـــرات خاصة به ، من حيث التشكيل اللغوي والمذهبي، فهو إلى جانب ثقافته الدينية كان شافعياً متكلماً على طريقة الأشعري، إضافةً إلى تلقينه النحو على يد

أبـــي الحسين محمد بن علي الفارسي، وكذلك براعته في علم البلاغة إلى جانب الثقافة الأدبية الواسعة، كل هذه المؤثرات انعكست على أسلوب عبد القاهر فجاء بأسلوبٍ ذي سمتٍ خاص على نحو ما تعكس لنا هذه الدراسة.

[٤] المادة عينة الدراسة :

تمـــثل مؤلفات عبد القاهر – التي وقعت تحت يدي – مادة لهذه الدراسة؛ وذلـــك لأنّ مؤلفات عبد القاهر اتسمت بالموسوعية، فكتابه دلائل الإعجاز يقوم علـــى بلاغـــة الكلام التي تكمن في النظم، والنظم هو تعلق معاني الكلم بعضها ببعض، وليس ذلك سوى أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وهي الفكـــرة التي ألحّت على عبد القاهر طويلاً، وهي نحوية خالصة، وكتاب أسرار الـــبلاغة ألّفه عبد القاهر ليعالج مسائل المجاز والتشبيه والاستعارة باعتبارها لها دخـــلٌ كبيـــر في بلاغة القول، وكتابه: العوامل المائة وكذلك المقتصد في شرح الإيضاح يوضحان بصورة جليّة موسوعية عبد القاهر الجرجاني وغزارة علمه، من أجل ذلك اعتمدت الدراسة على المؤلفات مجتمعة لبيان أصول هذه النظرية عـــند عـــبد القاهر؛ ذلك لأنّ عبد القاهر في معالجة موضوعاته نحوية كانت أم بلاغـــية انطلـــق من الحركة الذهنية والتنظيم الصياغي وهما معاً الأساس الذي انطلقـــت منه البنية السطحية والبنية العميقة لدى رواد النحو التحويلي والتوليدي علـــى نحـــو ما تكشف عنه الصفحات القادمة؛ إضافة إلى ما كُتب عن النظرية التحويلية سواء بالعربية أم الإنجليزية لمحاولة رد الأصول إلى الجذور.

[٥] حدود البحث:

وفي إطار الأهداف المحددة للبحث – سالفة الذكر – فقد قُسِّم البحث إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يُعالج الإطار العام للدراسة ويشتمل على خمسة محاور:

الأول: يعرض لموضوع البحث، **والثاني:** يناقش الدراسات السابقة للبحث موضحاً أن البحث بتناوله هذا الموضوع يُعدُّ جديداً، ولم يُسبق وحري بالدراسة، **والثالث:** يوضح أسباب اختيار الموضوع، وأهداف البحث التي يسعى للكشف عنها، **والرابع:** يتناول المادة عينة الدراسة، من حيث الكم والكيف، وأسباب اختيار هذه المادة وطبيعتها، **والخامس:** يتناول حدود البحث.

والقسم الثاني يتناول الدراسة التأصيلية من خلال الحديث عن : **أولاً:** النشأة النحوية لعبد القاهر الجرجاني، **ثانياً:** تشومسكي وأصول نظريته، **ثالثاً** : أصول تحويلية في التراث النحوي وتشتمل على: [أ] قضية العامل، [ب] الحذف، [ج] إعادة الترتيب، [د] الزيادة والإقحام والاتساع، [د] الأصلية والفرعية.

أما القسم الثالث من البحث فيعني برصد أهم النتائج التي توصل إليها البحث من خلال رصد الظواهر في المادة عينة الدراسة.

ثانياً: الدراسة التأصيلية :

[١] النشأة النحوية لعبد القاهر الجرجاني:

عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجانيّ كان من أكابر النحويين(٧)، أخذ النحو عن أبي الحسين محمد بن علي الفارسي(٨)، وهو من أهل جرجان، ومن تصانيفه: المقتصد في شرح الإيضاح، والعوامل المائة، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة وغيرها(٩)، نشأ ولوعاً بالعلم، محباً للثقافة، فأقبل على الكتب خاصة كتب النحو، وربما كان هذا من أثر أستاذه أبي الحسين محمد بن

علـــي الفارسي، حيث قرأ كتاب " الإيضاح " في النحو لأبي علي الفارسي علي عبد القاهر، ومن ثمّ اهتم به عبد القاهر اهتماماً شديداً، ووضع عليه شرحاً كبيراً سـمّاه " المغنـــي " ، ثمّ اختصر هذا الشرح في كتابه " المقتصد " ، وكان كثير الأخذ عن أستاذه " [١٠] .

وقـــد تتلمذ عبد القاهر على الكتب بعد ذلك، يقرؤها بفكرٍ واعٍ، ويُلاحَظ علـــى مؤلفاته – التي بين أيدينا – أنه يُكثر من النقل عن أبي علي الفارسي[١١]، وسيبويه، وأبي الحسن الأخفش [١٢]، والقاضي الجرجاني وغيرهم، وهذا يؤكد أنّ عـــبد القاهـــر تـــثقّف ثقافةً نحويةً أدبيةً إلى جانب ثقافته الدينية، فقد كان شافعيّ المـــذهب متكلماً على طريقة الأشعري [١٣]، ولكن المادة التي غلبت عليه كانت الـــنحو، فكـــان يُلقّـــب بالنحوي [١٤]، بل إنّه عُدَّ من أكابر النحويين[١٥]، وأنّ له فضـــيلةً تامةً في النحو [١٦]، وعلى معاني النحو بنى نظريته في البلاغة والبيان فاشـــتُهِرَ بـــذلك، فلـــذلك لُقِّب بـــ " شيخ العربية وإمامها "، واتفقت الألسنة على إمامـــته فـــي النحو، وذلك ربّما يعود لكثرة ما صنّف في هذا العلم ، ولاستعداده العقلـــي فـــيه، وتصدَّرَ العلم بجرجان، وشُدَّت إليه الرحال [١٧]، وقصده التلاميذ يأخـــذون عـــنه العلم، منهم عليّ بن زيد الفصيحيّ، وأبو النصر أحمد بن محمد الشَجْري، وقد قرأ الأخير على عبد القاهر كتابه " المقتصد " من أوّله إلى آخره قراءةَ ضبطٍ وتحصيل سنة ٤٥٤ هـــ [١٨].

وعلى أية حالٍ فإنّ عبد القاهر الجرجاني له جهدٌ كبيرٌ في مجال الدرس الـــنحوي، يظهـــر هذا الجهد من خلال المؤلفات التي خلّفها لنا؛ فكتاب "العوامل المائة" ، كتابٌ في أصول علم النحو، يقوم في مجمله على شرح وتفسير نظرية هامة في النحو العربي وهي نظرية العامل، وكتابه " المقتصد في شرح الإيضاح"

يقــوم علـــى شــرح كتاب " الإيضاح لأبي علي الفارسي " ، وكلاهما في النحو العربي، أما كتاب " دلائل الإعجاز " فلا يخرج عن هذا الإطار – في نظري – حيث إنّ الفكرة التي يدور حولها الكتاب هي بلاغة الكلام التي تكمن في النظم، والـــنظم هو تعلّق معاني الكلم بعضها ببعض، وليس ذلك سوى أن تضع كلامك الوضـــع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل بقوانينه وأصوله، وأن نظم الكلام تابعٌ لمعناه (١٩)، تلك هي الفكرة التي قام حولها كتاب الدلائل، وهي فكرة ألحّت على عــبد القاهر طويلاً؛ فأخذ يشرحها حيناً، ويبرهن على صحتها حيناً، وهي فكرة نحوية خالصة، ونظراً لإلحاح هذه الفكرة على عبد القاهر يبدو في كتاب الدلائل التكرار وعدم تركيز الأفكار، وعدم التقسيم المحكم للأبواب، "وكل ما أورده عبد القاهــر في كتاب " الدلائل " من المسائل إنّما ذُكِرَ لتوضيح هذه الفكرة؛ فالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير، وغير ذلك من الموضوعات التي أوردهـــا، جاء بها عبد القاهر ليبيِّن معنى بلاغة النظم، وأن الألفاظ جاءت على نحوٍ معينٍ؛ لأنّها إنما جاءت كذلك تابعة للمعاني " (٢٠).

أمّا كتاب " أسرار البلاغة " فله هدف آخر غير ما ورد في الدلائل، وذلك أن مســـائل المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية مسائل لها دخلٌ كبير في بلاغة القول، فألّفه عبد القاهر ليعالج هذه الأبواب معالجة خاصة، تبيِّن سحرَها، وألوانَ فــنونها، وهــدف دراسة هذه الأبواب في الدلائل يختلف عن هدف دراستها في الأســـرار؛ ففي الدلائل الهدف بيان أن البلاغة راجعة إلى المعنى، وهي قاطعة الدلالـــة علـــى ذلك الهدف، أما في كتاب الأسرار فالهدف معرفة أقسامها وبيان الفـــروق بيـــنها، ومعرفة القوي والضعيف من هذه الأقسام، ورغم معالجة كتابه لأســـرار لأبـــوابٍ لها أثرها الكبير في البلاغة؛ إلاَّ أنه لا يخلو من رؤية نحوية للعـــالم اللغـــوي عبد القاهر الجرجاني؛ ذلك لأنه يحاول أن يصل من خلال هذا

الكتاب – أعني أسرار البلاغة – إلى وضع القوانين الشاملة ، وبيان الأقسام في كل شيء، وذكر الفروق بين العبارات، ولا يكتفي بذلك، بل يبحث عن الأسباب ويوضـح الفكـرة بالأمثلة الكثيرة، ويشرح ويحلل شرحاً وتحليلاً واضحيْن، فلا سبيل عنده للتعبير الرمزي.

وبعـد ذلك فإنّ عبد القاهر – بصفةٍ عامة – لم يكن يفكر إلاّ في البرهنة على فكرة النظم، وأنه ليس سوى توخي معاني النحو التي تعقد الصلة بين الكلم، لـم يكن يفكر إلاّ في البرهنة على هذه الفكرة، وتجليتها، ودفع الشُبه عنها، ولم يَدْرِ بخَلَده أنه يضع في البلاغة العربية أساسَ علمٍ جديدٍ عُرِف بعد ذلك بـ " علم المعاني " .

وتجدر الإشارة إلى أنّ عبد القاهر كان يبدي ويعيد في أنها " معاني النحو " ، لكـن الـنحاة بتروا هذا الاسم وأطلقوا عليه " علم المعاني " . يقول الأستاذ **إبراهيم مصطفى** : " فجمهور النحاة لم يزيدوا به في أبحاثهم النحوية حرفاً، ولا اهـتدوا مـنه بشيء، وآخرون منهم أخذوا الأمثلة التي ضربها عبد القاهر بياناً لـرأيه، وتأيـيداً لمذهـبه، وجعلوها أصول علم من علوم البلاغة سموه : " علم المعانـي " ، وفصلوه عن النحو فصلاً أزهق روح الفكرة، وذهب بنورها؛ وقد كـان أبو بكر يبدي ويعيد في أنها معاني النحو ، فسموا علمهم "المعاني" وبتروا الاسم هذا البتر المضلل " (٢١) .

نعـم لقد رأى من جاء بعد عبد القاهر أنّ المسائل التي أثارها خاصةً في كتابه "الدلائل" أمور يتصل بعضها ببعض، وترتبط كلها بالمعاني التي تستفاد من الجملة عندما توضع على نحوٍ خاص من تقديم وتأخير، وذكر وحذف، وتعريف وتنكير، وتوكيد أو عدم توكيد، إلى غير ذلك فيما أطلقوا عليه "علم المعاني" .

من هنا جاء الفصل بين علم المعاني والنحو، والصواب أن تكون "معاني النحو" ، وعلى أية حالٍ فإن " علم المعاني " هو ما أطلق عليه عبد القاهر "معاني النحو" ، والفضل يعود إليه وحده في هذا العلم؛ ذلك لأنّ مسائل هذا العلم – على حد علمي – لم تدرس قبله، ولم تُعالج على هذا النحو الذي قام به عبد القاهر، لذلك فإنّ الأستاذ إبراهيم مصطفى حزين كلَّ الحُزن على موقف النحاة من عبد القاهر، وكأني به يناديهم ليلتفتوا إلى نصوصه ومؤلفاته وموقفه من المسائل النحوية المختلفة .

والقول الجامع أن عبد القاهر له أثر كبير في مجال الدراسات النحوية من خلال مؤلفاته التي بين أيدينا، وهذا الأثر يظهر من خلال آرائهِ المتناثرة في الدلائل والأسرار، ومن خلال كتابيه : العوامل المائة والمقتصد في شرح الإيضاح، وينبغي لمن يقف بإزاء جمهود عبد القاهر النحوية أنْ يُمْعِن النظر في آرائـهِ من خلال مؤلفاته مجتمعةً ، فلا يبحث في كتاب ويترك الآخر، وهذا ما جعلني أذهب خلاف ما ذهب إليه الدكتور كاظم بحر مرجان (٢٢) ، حيث يرى أنّ الحديث عن عبد القاهر "نحوياً" يقتصر على الحديث عن كتاب "المقتصد في شرح الإيضاح" فقط، ويرى أن مؤلفات عبد القاهر النحوية تنتظم في مجموعتين محددتين : **الأولى**: مجموعة العوامل المائة وشروحها، **والثانية**: مجموعة شروح الإيضاح، والمجموعة الأولى: تضم كتاب العوامل المائة، وكتاب الجمل، وهذه المجموعة ليس فيها آراء خاصة أو أفكار تُثير المناقشة أو تدعو إلى الجدل أو التأمل، وإنما هي ذكر لأبواب أو عرض لرؤوس موضوعات فحسب، وأما المجموعة الثانية، وهي مجموعة شروح الإيضاح، فأولها "الإيجاز" وهو من كتب عبد القاهر المفقودة، وآخرها كتاب " المقتصد " في شرح التكملة وموضوعه الصرف واللغة، ويتبقى منها الكتاب المخصص لموضوعات النحو وهو كتاب "

المقتصد في شرح الإيضاح " ، وعلى هذا يكون الحديث عن عبد القاهر " نحوياً " – بالضرورة – هو الحديث عن كتابه هذا [٢٣]، إضافةً إلى أنه يرى أن كتاب " دلائل الإعجاز " لم يكن كتاباً مخصصاً للحديث عن موضوعات النحو، قدرَ ما هو دفاع عن النحو بكونه باباً عظيم الأهمية من أبواب المعرفة اللغوية، ودعوة عالية الصدى للاهتمام بفهمه ومعرفة أسراره؛ لأنّ في ذلك مدار البلاغة التي هي في جوهرها وحقيقتها – كما يرى عبد القاهر – توخي معاني النحو [٢٤].

وهذا الرأي الذي ذكره الدكتور كاظم بحر مرجان في حاجة إلى نظر لما يلي :

أولاً: كيف يكون كتاب " العوامل المائة " لعبد القاهر الجرجاني لا يحمل رأياً خاصاً أو أفكاراً تثير المناقشة أو تدعو إلى الجدل والتأمل، وإن نظرةً واحدةً في هذا المصنف تُبين إلى أي مدى تتضح الدقة في التقسيم والتنظيم، وذلك لاشك أثر ثقافة موسوعية ونتيجة فكرٍ واعٍ وتعمق وإحاطة [٢٥].

وهذا دليل على تمكن عبد القاهر الجرجاني من دراسات شيوخه وأعمال السابقين عليه، واستيعابه لكل هذا ، ممّا يدخل في مجال الدرس النحوي الخالص، وهذا يدعو – بدوره – إلى الاهتمام والتركيز على هذا المؤلَّف .

ثانياً : يُلاحَظ في التقسيم الذي قدَّمه عبد القاهر للعوامل النحوية [٢٦] تطبيقاً لما قدَّمه ابن جني عن نظرية العامل [٢٧]، إضافةً إلى أن كل التفاسير الحديثة لنظرية العامل تعود أصولها إلى عبد القاهر الجرجاني في كتابه "العوامل المائة "، غير أن الباحثين أفادوا – في القديم والحديث – من عبد القاهر في هذا الإطار، حيث إن عبد القاهر استطاع أن يتخذ من نظرية العامل

التـي أرادوا أن يجعلـوا منها منطلقاً لهدم النحو، استطاع أن يتخذ منها مرتكزاً لانطلاقة جديدة في علوم النحو تُعدُّ إلى يومنا هذا أحدث ما انتهى إليه اللغويون المحدثون في هذا المجال، ومازال الفكر اللغوي الحديث في كـل يـوم يحرك أبعادها إيضاحاً وتعميقاً واستفادةً، سواء في ميدان علم التراكيب أو علم الدلالة، أو علم الأسلوب " [٢٨]، فكيف – إذن – يتسنى لمـن يـدرس عـبد القاهر من جانب النحو أن يترك هذا المؤلَّف شديد التركيـز دون أن يقـف علـى تقسيمات عبد القاهر للعوامل إلى لفظية ومعنوية، ومدى الترابط الموجود بين هذين القسمين، إنّ ترك مؤلَّف مثل هذا معناه ترك نظريةٍ بأكملها قام على أساسها علمٌ بأكمله هو علم النحو.

ثالـثاً: هل يُعدُّ كتاب " دلائل الإعجاز " باباً من أبواب المعرفة اللغوية وحسب، وأنـه دعوة عالية الصدى للاهتمام بجوهر البلاغة، وأنه دفاع عن فكرة عامة متسعة [٢٩].

إن هـذا الـرأي في حاجة إلى نظر ، ذلك أن هذا الكتاب قد رسم طريقاً جديداً للبحث النحوي تجاوز به عبد القاهر أواخر الكلم وعلامات الإعراب، وبيَّن أن للكـلام نظمـاً، وأن رعايـة هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام، وأنه إذا عُدِل بالكلام عن سنن هذا النظم لم يكن مفهماً معناه، ولا دالاً علـى مـا يُـراد مـنه، ثم بيَّن أن النظم يشمل ما في الكلام من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، وفصل ووصل، وعدول عن اسم إلى فعل، أو عن صيغة إلى أخـرى [٣٠]، وهـذا واضح من كتاب " الدلائل "، يقول عبد القاهر الجُرْجاني : " واعلـم أن ليس " النظمُ " إلاّ أن تضعَ كلامك الوضعَ الذي يقتضيه " علمُ النحو "، وتعمـلُ علـى قوانينه وأصولِه، وتعرف مناهجَه التي نُهِجت فلا تزيغُ عنها، وتحفـظ الرسوم التي رُسِمَت لك فلا تُخلَّ بشيٍ منها؛ وذلك أنا لا نعلم شيئاً يتبعه

الناظمُ بنظمِه، غيرَ أن ينظرَ في وجوهِ كلِّ بابٍ وفروقِه فينظر في " الخبرِ " إلى الوجــوه التي تراها في قولك : زيدٌ منطلقٌ، وزيدٌ ينطلق، وينطلق زيدٌ، ومنطلقٌ زيــدٌ، وزيدٌ المنطلق، والمنطلق زيدٌ، وزيدٌ هو المنطلق، وزيدٌ هو منطلقٌ، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إنْ تخرجْ أخرجْ، وإن خرجتَ خــرجتُ، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارجٌ إن خرجتَ، وأنا إن خرجتَ خارجٌ ... ويتصــرَّف فــي التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كلِّه ، وفي الحذف، والتكرار، والإضمار، والإظهار، فيصيب بكُلٍّ من ذلك مكانه، ويستعمله علــى الصحة وعلى ما ينبغي ، هذا هو السبيل، فلست بواجدٍ شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخَطَؤُه إن كان خطأً إلى " النَظْم " ، ويدخل تحت هذا الاسم إلاّ وهو معنى من معاني النحو، قد أُصيب به موضعه، ووضع في حقِّه، أو عومل بخــلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستُعْمِل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وُصِفَ بصحة " نَظْمٍ " ، أو فسادِه، أو وُصِف بمزيّةٍ وفضلٍ فيه إلاّ وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصلٍ من أصولِه ويتصل ببابٍ من أبوابه"(٣١).

ولعــلّ ما ذهب إليه الدكتور كاظم المرجان ليس بغريب؛ ذلك لأنّ النحاة بصفةٍ عامة لم يزيدوا في أبحاثهم النحوية حرفاً من كلام عبد القاهر، ولم يهتدوا منه بشيءٍ، والذين اهتدوا من كلامِه بشيءٍ اهتدوا بالأمثلة التي ضربها بياناً لرأيه وتأييداً لمذهبه .

وخلاصة القــول فــي هذه المسألة أن عبد القاهر له دورٌ كبير في تطوير الدرس النحوي، حيث خرج به من الجفاف إلى الذوق والفن والجمال فيما أطلق عليه " معاني النحو " ، كذلك فإن دراسة عبد القاهر الجرجاني دراسةً نحويةً لا تــتم إلاّ بالــبحث الدقيق في كل مؤلفاته التي بين أيدينا، فربما يُشير إلى مسألة

أغفلها – بدوره – في كتاب آخر وهكذا، وإذا كان كتاب المقتصد هو الكتاب الذي عرض بتفصيل مناسب كل أبواب النحو (٣٢)؛ فإنّ هذا لا يؤدي إلى إهمال باقي مؤلفاته التي تحمل في ثناياها آراءً لها قيمتها البالغة في مجال البحث النحوي.

[٢] **تشومسكي وأصول نظريته:**

ولد أفرام نوعم تشومسكي Avram Noam Chomsky عام ١٩٢٨م ، ودرس اللسانيات السامية مع مستشرق يعرف العربية وآدابها هو "فرانز روزنتال" ، وكان مهتماً بالتراث العربي والعبري بالإضافة إلى دراسته للماجستير التي كانت حول النحو العبري في العصور الوسطى، وكان أبوه متخصصاً في النحو العبري والعربي في هذه المرحلة، وقد درس تشومسكي النحو على يدي والده، إضافةً إلى أنه درس النحو العربي الحديث في جامعة بنسلفانيا، وكذلك نحو القرون الوسطى (٣٣).

إلاَّ أنّني لا أُريد أن أُطيل الحديث عن تشومسكي وحياته وآرائه السياسية وفكره الاشتراكي، وغير ذلك ؛ لأننا في حاجة لبيان أصول نظريته التي أصبحت ثورة في ميدان علم النحو واللغة والبلاغة، وكذلك لا أريد أن أحكم – مسبقاً – على نظريته بأن أصولها جاءت مكتملة في الدرس النحوي، وإنما أترك هذا لتؤكده هذه الدراسة إن أمكنها ذلك .

لقد مرّت نظرية " النحو التحويلي التوليدي " (٣٤) " Transformational Generative Grammar" بمرحلتين لدى تشومسكي، وذلك من خلال كتابين من مجموعة مؤلفاته (٣٥) على النحو التالي:

المــرحلة الأولــى: من خلال كتابه " البنى النحوية "[٣٦] Syntactic Structures

وفي هذا الكتاب يميز بين ثلاثة طرق للتحليل النحوي، وكل طريقة ترمز إلى نوعٍ معين من النحو، وبناءً عليه فإن تشومسكي يميز بين أنواع ثلاثة هي :

١- نحو الحالة المحدودة [٣٧] Finial State grammar

٢- نحو بنية العبارة [٣٨] Phrase Structure grammar

٣- النحو التوليدي التحويلي [٣٩] T. G. grammar

المرحلة الثانية : من خلال كتابه " مظاهر النظرية النحوية [٤٠]:

" Aspects of The Theory of Syntax"

وهذه المرحلة تمثل تطور فكر تشومسكي، حيث قدَّم نظرية أكثر تماسكاً، اهتم فيها بعنصر الدلالة ليؤكد أهمية المعنى ودوره في التحليل ، ويؤكد أن هناك جانبــين لا مــناص من الاهتمام بهما معاً لفهم اللغة الإنسانية؛ أما الجانب الأول فهو "الأداء" اللغوي الفعلي، وهو الذي يمثل ما ينطقه الإنسان فعلاً أي يمثل البنية الســطحية للكــلام الإنساني، وأما الجانب الثاني فهو " الكفاءة " التحتية عند هذا المــتكلم الســامع المثالــي، وهــي التي تمثل " البنية العميقة للكلام " ، وهذان المصطلحان الأداء Performance ، والكفاءة Competence يمثلان حجر الزاوية فــي النظرية اللغوية عند تشومسكي ؛ لأن الأداء أو السطح يعكس الكفاءة، أي يعكس ما يجري في العمق من عمليات، ومعنى ذلك أن اللغة التي ننطقها فعلاً، إنمــا تكمــن تحتها عمليات عقلية عميقة، تختفي وراء الوعي ، بل وراء الوعي الباطن أحياناً، ودراسة " الأداء " أي دراسة " بنية السطح " تقدم التفسير الصوتي للغــة، أمــا دراسة " الكفاءة " أي " بنية العمق " فتقدم التفسير الدلالي لها "[٤١]،

وهــذا مــا أطلــق عليه تشومسكي البنية السطحية Surface Structure ، والبنية العمــيقة Deeb Structure ، وهــذا هو الأصل في " النحو التحويلي " الذي يهتم بالقوانين التي تحدد البنية التحتية وتربطها ببنية السطح .

وقد وضعت نظرية " النحو التحويلي " – خلافاً لما سبق – مجموعة من القواعد [٤٢] ، وهي:

أولاً: قواعد الحذف Deletion --- > أ + ب --- > ب حذف (أ) .

ثانــياً: قواعد الإحلال والاستبدال Replacement --- > أ --- > ب " إحلال (ب) مكان (أ) " .

ثالثاً: قواعد التوسع أو التمديد Expasion أ --- > ب + جـ " صورة جديدة للجملة " .

رابعاً: قواعد الاختصار Reduction أ + ب --- > جـ " صورة جديدة للجملة " .

خامســاً: قواعد الزيادة أو الإضافة Eddition أ --- > أ + ب --- > زيادة (أ) .

سادساً: قواعد إعادة الترتيب Permutation---> أ + ب ---> ب+ أ

وجديــر بالذكــر أن نقــول إن بعــض القواعد والأصول التي وضعها "تشومسكي" في نظريته، وأقام عليها هذه الثورة ، عادَ مرةً أُخرى ونقدها وأثبت عــدم ملاءمــتها؛ ففي حديثه عن " نحو الحالة المحدودة " يثبت أنه نوع عاجز؛ وذلــك لأنه يعجز عن توليد عدد غير محدود من الجمل لملائمة اللغة؛ إذ إن كل لغة تشتمل على عدد غير محدود من الجمل [٤٣]، إضافة إلى أن هذا النوع يعتمد

علـــى وجود علاقة مشتركة بين كلمات غير متجاورة، وهذه الكلمات التي تعتمد علـــى بعضها قد تكون عرضةً لأن تفصل بينها " جملة معترضة " مشتملة على زوجٍ من الكلمات غير المتجاورة رغم اعتماد كل منها على الأخرى؛ وقد أشار تشومسكي إلى أن ثمة طرق معينة لبناء الجملة يقف عندها ذلك النوع من النحو عاجزاً عن وصفها (٤٤).

والأمر كذلك مع النوع الثاني " نحو بنية العبارة " ، فالقواعد التي وضعها تشومسكي في هذا النوع " لا تناسب العربية تماماً، فهي تناسب الجمل التي تتألف من مبتدأ خبره جملة فعلية **فقط** " (٤٥)، وقد رفضه تشومسكي أيضاً ؛ إذ لا يمكن تطبـيقه علـــى اللغـــات الطبيعـــية، كما أنه يعجز عن توليد (٤٦) الجمل المبنية للمجهـــول، والجمـــل المركبة أو المتعاطفة، ويعجز عن وصف بعض العمليات النحوية كالقلب والإبدال ، ولذلك عدل عنه " تشومسكي " إلى النوع الثالث الذي يلائم كل العمليات والعلاقات وهو " النحو التحويلي التوليدي " .

مـــن أجل ذلك تقتصر الدراسة على أهم قواعد النحو التحويلي التوليدي دون غيـــرها من قواعد نحو الحالة ونحو بنية العبارة ، تلك القواعد التي تعتمد علـــى أصـــول تـــراثية عربية يمثلها في هذه الدراسة النحوي الكبير عبد القاهر الجرجاني .

[٣] أصول تحويلية في التراث النحوي:

قلـــنا من قبلُ إنّ النحاة القدامى قد أدخلوا " الفكرة التحويلية " في قواعد اللغة منذ أمدٍ بعيد، بيد أنهم لم يدركوا مفهوم هذا المصطلح بصورة واضحة، إذ إنهـــم اســـتخدموا قواعد التقديم والتأخير، والحذف والزيادة، والتقدير والتأويل، والتي تعدُّ – بدورها جزءاً من القواعد التحويلية التي استخدمها تشومسكي إضافة

إلى قواعد الأصلية والفرعية وما يتصل بالعامل، وأيضاً قواعد الزيادة والإقحام وإعادة الترتيب وغيرها.

وقد يكون مفيداً هنا أن نذكر مرةً ثانية أن مصطلح التحويل استخدم في التراث النحوي بمعنى " الإزالة "، وذلك حينما تحدث الزمخشري عن التمييز، يقول : " واعلم أن هذه المميزات عن آخرها أشياء مزالة عن أصلها ... والسبب في هذه الإزالة قصدهم إلى ضربٍ من المبالغة والتأكيد " (٤٧)، وكذلك ذكر الأشموني أثناء عرضه لقضية التمييز المحول عن الفاعل والمفعول، حيث يقول : " في قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (٤٨) ، أن التمييز محول عن الفاعل، والأصل : "اشتعل شيبُ الرأس " (٤٩) .

ويعلّق الدكتور حماسة على كلام الأشموني ويرى أن الأشموني على وعيٍ بأن هذا التحويل إنما هو تحويل في الصناعة، وإنما يُراد به ضرب من المبالغة والتأكيد؛ فالتحويل في اللغة العربية ليس وسيلة تفسيرية فحسب لازمة لبنية الجملة، وإنما مكون من مكونات دلالة الجمل والتراكيب له أهميته (٥٠)، ويمضى الدكتور حماسة مؤكداً أن النحاة القدامى عرفوا النحو التحويلي يقول : " نستطيع القول – إذن – بأن منهج النحويين العرب في تناول الظاهرة اللغوية كان منهجاً يقوم على افتراض " بنية عميقة " لم يعبروا عنها – بالطبع – بهذا المصطلح، ولكنهم عبّروا عنها باصطلاحات مختلفة تبدت في معالجتهم، و" بنية سطحية " عبروا عنها بما يفيد هذا المفهوم، وتعاملوا مع عدد من القوانين التحويلية التي تحكم تحول البنية العميقة إلى بنية سطحية " (٥١).

والدراسة تعرض لمجموعة من القواعد التحويلية التي شكّلت أصول النظرية المعروفة بنظرية النحو التحويلي، تلك القواعد الموجودة في التراث

النحوي والذي يمثله في هذه الدراسة " عبد القاهر الجرجاني " من خلال مؤلفاته؛ لنرى كيف أن الدعائم الأساسية لهذه النظرية مستمدةٌ من التراث النحوي العربي بصفةٍ عامة، وتراث عبد القاهر بصفةٍ خاصةٍ، وهذا بدوره لا يُغمط حق تشومسكي في تطويره لهذه الدعائم وبلورتها حتى غدت نظريةً قائمةً استطاعت أن تحول وجهة الدارسين في مجال النحو وعلوم اللغة .

أولاً: قضية العامل :

إذا كان التحويليون قد نظروا إلى العامل من خلال الربط بين البنية السطحية والبنية العميقة، فإن دراسة هذه البنى جعلتهم يركزون على العلاقات باعتبارها تؤثر وتتأثر، وهذا لا يختلف – بدوره – عن نظرة النحاة العرب؛ " فالتحليل النحوي عند التحويليين يكاد يتجه إلى تصنيف " العناصر" النظمية وفقاً لوقوعها تحت تأثير عوامل معينة ينبغي على الدارس أن يعرفها ابتداءً، وتكاد المصطلحات التي يستعملها التحويليون لا تختلف عن كلام العرب القدماء "(٥٢).

إنّ جذور هذه القضية تمتد إلى سيبويه أثناء حديثه عن باب مجاري أواخر الكلم من العربية (٥٣)، كذلك ما يتعلق بالافتراضات والتمارين غير العملية له صدى كبير عند الخليل، وله أمثلة كثيرة يتضح هذا من تعرف كتاب سيبويه (٥٤)، وهذا الأمر يترتب عليه أنّ مجرد التفكير في هدم هذه النظرية – أعني "العامل" أو مجردَ التفكير في الخروج عليها أمرٌ عسير.

غير أن اللغويين كانوا قد أسرفوا على أنفسهم في كل ما ترتب على نظرية العامل من افتراضات وتقديرات وتأويلات، وأدخلوا مناهج أخرى من العلوم خاصةً مناهج المتكلمين والأصوليين وغيرهم، وقد أشار ابن جني في خصائصه – صراحةً – إلى شيء من ذلك (٥٥).

ومنذ ذلك الحين – وقبل مجيء عبد القاهر الجُرْجاني ظهرت محاولات الإصلاح، ومن أبرزها محاولة أبي علي الفارسي أستاذ عبد القاهر في مؤلفه : "مختصر عوامل الإعراب " ، إضافةً إلى موقف ابن جني حيث يوضح أن الهدف من نظرية العامل هدف تعليمي غرضه التيسير، وأن العامل اللفظي والمعنوي إنما يعني أن بعض العوامل تصاحب الألفاظ، والبعض الآخر لا يصاحبها (٥٦).

والقول الجامع في هذه النظرية ، أن العمل " رفع، ونصب، وجر، وجزم" إنما هو للمتكلم، لا لشيء آخر، أي أنه نتيجة لما تعارفت عليه الجماعة اللغوية، واتخذته منهجاً لتعبيرها والإبانة عمّا في نفسها، وإنما كان التقسيم إلى لفظي ومعنوي؛ لأنّ آثار فعل المتكلم هي التي فعلت هذا، وهذا يعني أن تفاعل الوحدات اللغوية داخل التركيب هو الذي يؤدي إلى هذا العمل، وهذا ما دفع عبد القاهر ليقدم – لنا – تفسيراً جديداً لهذه النظرية، قدَّمه عبد القاهر على مرحلتين لإقناع الناس بهذا التطوير؛ المرحلة الأولى جاءت في كتابه "عوامل عتيق" (٥٧)، والمرحلة الثانية يمثلها كتاب " الجمل "، وبعد تصنيف دقيق للعوامل جعل عبد القاهر العوامل المائة عبارة عن تأثير وحدات اللغة بعضها في بعض، فقسّم هذه العوامل ما بين مؤثِّر ومتأثر، فهناك مؤثرات لغوية، وهناك متأثرات، وأخيراً، الأثر " وهو الحركة الإعرابية، والعامل هو المؤثر في المعمول، وأثره هو تلك الحركة الإعرابية التي تظهر في آخر المعمول، والمعمول هو الذي تتغير حركة آخره تبعاً لنوع العامل أو المؤثر الداخل عليه (٥٨).

إنّ التقسيم الذي قدّمه عبد القاهر للعوامل يُعدُّ حجر الزاوية في فهم الدارسين من غير العرب الذين بنوا عليه نظرياتهم اللغوية الحديثة؛ لأنّه نظر إلى العامل باعتباره علاقات تؤثر وتتأثر، وهذا ما فعله التحويليون من بعده بمئات السنين؛ فكأنني بعبد القاهر يبحث عن التأثير والتأثر في ضوء البنية

السطحية والبنية العميقة، تلك البنية التي تمثل العملية العقلية أو الناحية الإدراكية في اللغة، ففي حديث عبد القاهر عن تقسيم العوامل يقول : " اعلم أنّ العوامل على ضربَيْن:عامل لفظي، وعامل معنوي لا حظَّ للِّسان فيه،وإنَّما يُعبَّر عنه"(٥٩)، حيث يربط عبد القاهر بين المعنى أو الدلالة والعامل المعنوي أو البنية العميقة، وكذلك يربط بين المستوى المنطوق اللفظي أو البنية السطحية، ويشرح العملية العقلية الإدراكية التي تربط هذه العلاقات، حيثُ يرى أن المعمول لا يقع إلاَّ حيث يقع العامل (٦٠)، ويناقش عوامل رفع المبتدأ والخبر، ويرى أن الرفع فيهما يعود إلى التعري من العوامل وهذا بدوره يُعدُّ عاملاً معنوياً يرتبط بتأثير لا يظهر على السطح إنما يظهر في العمق أو في البنية التحتية (٦١).

ويقول في علة إعراب الفعل المضارع : " اعلم أن هذه الأفعال لمّا ضارعت الأسماء من حيث ذكرْنا، استحقت بذلك أن يكون لها الإعراب الذي حقيقته اختلاف الآخر باختلاف العوامل، كما كان ذلك للأسماء، فلكل واحدٍ من الأنحاء الثلاثة التي هي الرفع والنصب والجزم عامل، كما أن لكل واحد من الرفع والنصب والجر عاملاً في الأسماء؛ فعامل الرفع معنوي، وهو وقوعه موقع الاسم. وذاك أنك تقول: زيدٌ يكتب، فيكون الموضع صالحاً للاسم؛ إذ لو قلت: زيدٌ كاتبٌ، كان أسدَّ كلامٍ، فالذي عمل الرفع في " يفعل " هو هذا المعنى الذي ذكرنا، وليس عامله بلفظي كما كان نحو " إنَّ " ، و"ضرب" في قولك : إنَّ زيداً منطلقٌ، وضربَ زيدٌ، لفظياً؛ لأنّ وقوعه موقع الاسم معنى يُعبّر عنه، وليس للِّسان فيه نصيب " (٦٢).

ويُشير عبد القاهر الجرجاني إلى العوامل التي تُغير إعراب الابتداء لفظاً ومعنى، ويعني بذلك " ظننتُ وأخواتها " (٦٣)، وهي مجموعة الأفعال التي تنصب

كــلّ واحدٍ من الجزأين [٦٤]، ويرى أن الأسماء لا أصل لها في العمل؛ فالكلمات نحو: رجل وفرس لا ترفع ولا تنصب ، وإنما العمل للفعل وما يشابهه [٦٥].

ويُصــرِّح عبد القاهر بأنّ الاسم فرعٌ على الفعل في العمل، فلا يعمل إلاّ بعد أن يُشابهه [٦٦].

إن نظــرةً واحدةً في نصوص عبد القاهر تبيّن إلى أي مدى إدراك عبد القاهــر للناحــية العقلية أو الإدراكية والتي تمثل لدى التحويليين البنية العميقة، ومــدى ارتباط هذا المستوى بالمعنى الذي يُعبَّر عنه ولا حظّ للسان فيه، وكذلك إدراكــه للعامــل اللفظــي الذي يمثل البنية السطحية لدى التحويليين في ضوء معطــيات الــتفاعل بــين المستويين أو التأثير والتأثر، أو إن شئت قل: الحركة الذهنية والتنظيم الصياغي، وهو ما يقابل أيضاً البنية السطحية والبنية العميقة.

يقــول فــي أســرار البلاغة ما يحمل هذا المعنى : " والمعقد من الشعر والكــلام لــم يُذَمّ لأنّه ممّا تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة، بل لأن صاحبه يُعثِــرُ فكرك في متصرَّفِهِ ويُشيكُ طريقَكَ إلى المعنى، ويوعِّر مذهبك نحوَهُ، بل ربَّما قسَّم فكرك، وشعّبَ ظنّكَ، حتى لا تدري من أين تتوصل وكيف تطلب ... وبعدُ فإذا مُدَّت الحلباتُ لجرى الجياد، ونُصبت الأهداف لتعرف مقتل الرماة في الإبعــاد والسَّــداد، فرِهان العقول التي تستبق ، ونضالها الذي تمتحِن قواها في تعاطيه هو الفكر والروية، والقياس والاستنباط " [٦٧].

إنّ هذا النص دليل قاطعٌ على إدراك عبد القاهر للبنية العميقة التي ترتبط بالفكــر، والتي توصل بدورها إلى المعنى، والتي تحتاج إلى القياس والاستنباط، ويقول في نصٍ آخر مدركاً البنية السطحية والبنية العميقة إدراكاً تاماً: " إن قولنا:

غفـر الله لـزيدٍ أن المعنى: اللهم اغفر لزيدٍ؛ فاللفظ على الخبر، والمعنى على الدُّعاء، كما أن أكرم بزيدٍ ، لفظ الأمر، والمعنى معنى الخبر " (٦٨).

لقد ناقش عبد القاهر قضية العامل من منطلق فهمه بطبيعة اللغة، وكيفية عملية البناء اللغوي فيها، أو التوليد على حد تعبير التحويليين، وأوضح أن مفهوم النظـرية ما هو إلاّ عمل الوحدات اللغوية بعضها في بعض، ودليل ذلك أنه قسم كتاب العوامل المائة ثلاثة أقسام، قسم في العامل، وآخر في المعمول، وثالث في العمـل أو الإعـراب، والعامل والمعمول هما الترتيب الخاص، وهي قاعدة من قـواعد الـنحو التحويلـي لدى تشومسكي، أما الإعراب فهو العمل، أي الثمرة الطبيعـية التـي تأتي نتيجة لعمل العامل في المعمول، ويتغير العمل – أي آخر الكلمات تبعاً لنوع العامل والمعمول، ونتيجة لمضامة الكلمات بعضها إلى بعض.

وهـذا ما دفع أحد اللغويين إلى أن يقول : " لقد استطاع عبد القاهر في مقـدرة بارعة أن يتخذ من نظرية العامل – التي أرادوا أن يجعلوا منها منطلقاً لهدم النحو – مرتكزاً لانطلاقة جديدة في علوم اللغة تُعدُّ إلى يومنا هذا من أحدث ما انتهى إليه اللغويون في هذا المجال، ومازال الفكر اللغوي الحديث في كل يوم يُحـرك أبعادهـا إيضـاحاً وتعمـيقاً واستفادة في مجالها، سواء في ميدان علم التراكيب، أو علم الدلالة، أو علم الأسلوب، وما نجم عن ذلك من نظريات ابتداءً بمـا توصـل إلـيه اللغوي الرائد في هذا المجال " دي سوسير Ferdinand De Saussure " ، ومـروراً بــ " مشـيل بـريل Michel Breal "، وأنتون مييه " Antoine Miellette "، وغيـرهم، وانـتهاء بتشومسـكي فـي نظريته مظاهر النظـرية النحوية " Aspects of The Theory of Syntax " ، وما تفرع عنها من دراسـات وأبحاث ونظريات في مجال الأسلوبية Stylistics والدلالة Semantics وغير ذلك " (٦٩).

ثانياً: الحذف:

احتلت ظاهرة الحذف مكانةً كبيرةً في الدرس النحوي (٧٠)، وقد وُضِعَت لهـا الضوابط التي تتفق مع الاستعمال العربي، إلاَّ أن عبد القاهر الجرجاني قد أخلص في تناوله للجانب التطبيقي بوصفه متابعةً وصفيةً للصيغة الإبداعية دون الدخول في دوائر التقنين التي انتهى إليها السكاكي ومدرسته " (٧١).

وقد وضع عبد القاهر مجموعةً من الضوابط لظاهرة الحذف منها جواز الحـذف مـع إقامـة الدليل ونية الحال يقول : " فكل موضع قام فيه دليل على الراجع ونية الحال عليه جاز أن يحذف " (٧٢)، وكذلك تفرقته الدقيقة بين الحذف والإضمار يقول : " ... وأما من قال: إن الفاعل هنا محذوف، فقد ترك الظاهر، لأجل أن الفعل لابُدَّ له من فاعل. فأنْ يُقال: إنه مضمرٌ على شريطة التفسير أولى مـن أن يُقال إنه محذوف، إذ المضمر بمنزلة المُظهِر وجارٍ مجراه في الحكم، والمحذوف ليس كذلك " (٧٣).

وكـذلك أورد عبد القاهر كثيراً من النماذج التعبيرية الناقصة بالنظر إلى بنيتها المثالية، ولم يرَ في هذا النقص خللاً بالنظم، بل على العكس يرى أنه "بابٌ دقـيق المسـلك، لطيفُ المأخذ، عجيب الأمر، شبيهٌ بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن " (٧٤).

وقد عرض عبد القاهر مجموعة كبيرة من الشواهد التي يقع فيها الحذف، إلاَّ أن حديـثه عـن الحذف يقوم على أساس إدراكه لربط الحذف بالدلالة وأثر المحذوف على السطح في الدلالة والمعنى العميق، يقول عبد القاهر: " واعلم أن الكلمـة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها ... فقد توصف به لنقلها عن

حكمٍ كان لها إلى حكمٍ ليس هو بحقيقة فيها، ومثال ذلك: أن المضاف إليه يكتسب إعراب المضاف في نحو: "واسأل القرية" (٧٥)، والأصل :" واسأل أهل القرية(٧٦)؛ فـالحكم الـذي يجب للقرية في الأصل وعلى الحقيقة هو الجر، والنصب فيها مجـاز، وهكذا قولهم : " بنو فلان تطؤهم الطريق " ، يريدون "أهل الطريق" ، الـرفع فـي "الطريق" مجاز؛ لأنّه منقول إليه عن المضاف المحذوف الذي هو "الأهـل"، والذي يستحقه في أصله هو الجر، ولا ينبغي أن يقال إن وجه المجاز فـي هـذا الحـذفُ؛ فإن الحذف إذا تجرَّد عن تغيير حكم من أحكام ما بقي بعد الحـرف لـم يُسمَّ مجازاً؛ ألا ترى أنك تقول: " زيدٌ منطلقٌ وعمروٌ " ، فتحذف الخبر، ثم لا توصف جملة الكلام من أجل ذلك بأنه مجاز ؟ ، وذلك لأنه لم يؤدِّ إلى تغيير حكم فيما بقي من الكلام، ويزيدُه تقريراً أن المجاز إذا كان معناه: أن تجوزَ بالشيء موضعَهُ وأصله، فالحذف بمجَّرده لا يستحق الوصف به؛ لأن ترك الذكر وإسقاط الكلمة من الكلام، لا يكون نقلاً لها عن أصلها، إنما يُتصور النقل فيما دخل تحت النطق " (٧٧).

وهذا يعني ربط عبد القاهر الجرجاني بين المبنى والمعنى والتعدد الدلالي والتأويل وظلال المعاني التي تخلقها التراكيب المؤلفة بطريقة مخصوصة حسب قصـد المتكلم، وملائمة التركيب اللغوي للحالة النفسية والدوافع الموجودة خلفَهُ لأن الألفاظ خدمٌ للمعاني " إذ الألفاظ خدمٌ للمعاني والمصرِّفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها ، المستحقة طاعتها " (٧٨).

وهـذا يعني أيضاً أن غياب عنصر من العناصر في بناء السطح يُقدَّر له اللفـظ الذي يُظهِر وظيفته في البناء العميق، وذلك " لأنه من حق المحذوف أو المـزيد أن يُنسب إلى جملة الكلام، لا إلى الكلمة المجاورة له، فأنت تقول : إذا سُـئِلت عـن " سـل القرية " ، في الكلام حذف، والأصل أهل القرية، ثم حذف

"الأهل" تعني حذفاً من بين الكلام " (٧٩)، لذلك فإن الجرجاني يحدد ضوابط يمتنع فيها حمل الكلام على ظاهره في البناء السطحي، هذه الضوابط تقوم على أساسٍ من تداخل الدلالة مع مقتضى التركيب اللغوي(٨٠) .

وأما ما يرجع إلى المعنى فهو غرض المتكلم مثلما في الآية "سل القرية"، والغـــرض للمتكلم والله أعلم بمراده، فقد يوجه السؤال إلى أهل القرية التي كان فـــيها أخـــوة يوســـف عليه السلام، لكن قد يأتي غرض المتكلم بغير قصد الحي والمســـؤول المـــدرك، كـــأنْ يكون الأمر في سياق العبرة لمن يمرُّ بالقرية التي تهـــدمت ومـــات أهلهـــا ، فيقول " سل القرية" للعظة والعبرة، وأما ما يعود إلى مقتضـــى التـــركيب فإنـــه يقـــوم على حذف إحدى الوظائف المتلازمة بالعلاقة التـــركيبية فـــي الجملة كحذف أحد أجزائها من مبتدأ وخبر، أو فعل وفاعل، أو قصـــر مـــتعدٍ، أو إسقاط موصوف، وهذا يعني أن الحذف عند عبد القاهر يُعدُّ وسيلة تتولد من خلالها مجموعة من الجمل، فقوله تعالى : " اسأل القرية " تنتج عنها جملة " اسأل أهل القرية " على تقدير ذكر المضاف، وكذلك " اسأل القرية " علـــى غـــرض المجاز الذي يخرج للعظة والعبرة حسب قصد وغرض المتكلم، وهـــذه هـــي الطريقة التي عُرفت بطريقة توليد الجمل في النحو التحويلي، وهذا الأمـــر يعود إلى أن الكلام يقوم على عناصر التأليف في الإسناد، كالتأليف بين الاسم والفعل، والفعل والاسم، والاسم والاسم، يقول عبد القاهر في هذا الشأن : " ومما يجب ضبطه هنا أيضاً: أن الكلام إذا امتنع حمله على ظاهره حتى يدعو إلى تقدير حذفٍ، أو إسقاط مذكورٍ، كان على وجهين :

أحـــدهما: أن يكـــون امتناع تركه على ظاهره لأمرٍ يرجع إلى غرض المتكلم، ومـــثاله قـــوله تعالى : " اسأل القرية " ، ألا ترى أنك لو رأيت " اسأل القرية " في غير التنزيل لم تقطع بأن ههنا محذوفاً، لجواز أن يكون كلام

رجـل مــرَّ بقرية قد خَرِبَت وباد أهلها، فأراد أن يقول لصاحبه واعظاً ومذكــراً، أو لنفسه متعظاً ومعْتَبِراً : " سل القرية عن أهلها وقل لهم: ما صــنعوا " علــى حـد قولهم : " سلِ الأرضَ مَنْ شقّ أنهارَكِ، وغرسَ أشجارَكِ، وجنى ثمارَكِ، فإنّها إن لم تجبك حِواراً أجابتك اعتباراً.

والوجه الثاني: أن يكون امتناعُ ترك الكلام على ظاهره، ولزوم الحكم بحذف أو زيادة، من أجل الكلام نفسه، لا من حيث غرض المتكلم به، وذلك مثل أن يكــون المحــذوف أحــد جــزأي الجملة، كالمبتدأ في نحو قوله تعالى : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ (٨١)، وقوله تعالى : ﴿ **مَتَاعٌ قَلِيلٌ** ﴾ (٨٢)، لابُدَّ من تقدير محذوف، ولا سبيل إلى أن يكون له معنى دونه، سواء كان في التنزيل أو في غيره، فإذا نظرت إلى "صبرٌ جميلٌ " في قول الشاعر:

يشكو إليَّ جملي طول السُّرَى   صبرٌ جميلٌ فكلانَا مُبتَلَى

وجدته يقتضي تقدير محذوف، كما اقتضاه في التنزيل، وذلك أن الدّاعي إلى تقدير المحذوف هاهنا أن الاسم الواحد لا يُفيد، والصفة والموصوف حكمهما حكم الاسم الواحد، و " جميل " صفة " للصبر " (٨٣).

والقــول الجامع أن حديث عبد القاهر بصفة عامة عن الحذف ما هو إلاَّ ربــط بــين المنطوق السطحي والدلالة المحذوفة، وهو ما يقابل البناء السطحي والبــناء العمــيق عند التحويليين التوليديين؛ إضافة إلى أنه وسيلة يتم بواسطتها تولــيد جمــل جديدة، وهذه هي القاعدة الأساسية التي انطلق منها تشومسكي بعد رفضه لنحو الحالة ونحو بنية العبارة كما سبق ذكره في بداية هذه الدراسة.

ثالثاً: إعادة الترتيب:

ربط التحويليون بين ترتيب الجملة في البناء العميق والقوانين التي تحكم تحــوّل هــذا التــرتيب إلى أنماط مختلفة في الكلام الفعلي على السطح، وتجدر الإشــارة إلـــى أن كل عناصر الجملة معرض لتغيير الموضع، وهذا مطرد فيما أطلق عليه النحاة " فضلة " (٨٤).

وقد انطلق عبد القاهر الجرجاني في قضية الترتيب من الربط بين النظم أو التأليف من جهة والدلالة من جهة أخرى، وهذا يُعدُّ فهماً للصياغة التي تعني الســطح، والدلالة المقصودة التي تعني العمق، وهذا مفهوم من خلال حديث عبد القاهــر عــن إعادة الترتيب في بيت امرئ القيس يقول : " ومن البيِّن الجليِّ أن التــباين في هذه الفضيلة، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة، ليس بمجرد اللفظ . كيف ؟! والألفاظ لا تُفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويُعْمَدُ بها إلى وجهٍ دون وجهٍ من التركيب والترتيب " (٨٥).

ويمضـــي عبد القاهر مؤكداً على فكرته التي يرى فيها أن الألفاظ تترتب فـــي الشـــكل بناءً على ترتيب المعاني في الفكر، وهذا يؤكد إدراك عبد القاهر للفكرة العقلية التي تقابل البنية العميقة، ويرى أن إعادة ترتيب الجملة عن طريق التقديم والتأخير مرتبط بالمعنى أو الفهم لدى السامع، وهذا ما أكده بقوله : " فخذ إليك الآن بيت الفرزدق الذي يُضرَب به المثل في تعسُّف اللفظ :

وما مِثْلُهُ فِي النّاس إلاَّ مُمَلَّكاً　　　أبو أمِّهِ حيٌّ أبوه يُقاربه

فانظــر أيُتصــوَّر أن يكــون ذمُّك للفظهِ من حيث إنك أنكرت شيئاً من حــروفهِ، أو صادفت وحشياً غريباً، أو سوقياً ضعيفاً ؟ أم ليس إلاّ لأنه لم يُرتِب الألفاظ في الذكر، على موجب ترتُّب المعاني في الفكر، فكدَّ وكدَّر، ومنع السامع

أن يفهم الغرض إلاَّ بأن يُقدِّم ويؤخر، ثم أسرف في إبطال النِّظام، وإبعاد المرام، وصار كمن رَمَى بأجزاءٍ تتألف منها صورة، ولكن بعد أن يُراجَع فيها بابٌ من الهندسة لفرط ما عادَى بين أشكالها، وشدَّة ما خالف بين أوضاعها " (٨٦).

وبــناءً على ما سبق فإنّ أي خللٍ في الترتيب يؤدي إلى خللٍ في الدلالة لارتــباط السطح بالعمق، يقول عبد القاهر : " فإنما أرادوا بقولهم: ما كان معناه إلــى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك، أن يجتهد المتكلم في ترتيب اللفظ وتهذيبه وصــيانته مــن كل ما أخلَّ بالدلالة، وعاق دون الإبانة ... فإن المعاني الشريفة اللطيفة لابُدَّ فيها من بناء ثانٍ على أوّل، ورد تالٍ إلى سابق ... " (٨٧).

وقــد عــالج عبد القاهر قضية " التقديم والتأخير " من حيث تأثيرها على تــركيب الجملة، وكذلك الوظيفة يعني بذلك الإعمال والإلغاء، ومن حيث التغير الدلالي، وهذا يعني أن هذه الظاهرة تأخذ طبيعة ذهنية بالدرجة الأولى أو ناحية إدراكية، وهي التي تسمى " البنية العميقة " عند التحويليين، والتي يتم من خلالها تولــيد عدد من الجمل؛ وربما كان هذا الإدراك وراء تصنيف عبد القاهر للتقديم على النحوين التاليين:

الأول: تقــديم يقــال إنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدَّمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدَّمته على الفاعل كقولك : " منطلقٌ زيــدٌ " و "ضــرب عمــراً زيدٌ " ، ومعلوم أن " منطلقٌ " و " عمراً " لم يخــرجا بالتقديم عمّا كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعاً بذلك، وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله كما يكون إذا أخرت.

الثاني: تقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكمٍ إلى حكم، وتجعل له باباً غير بابه، وإعراباً غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحدٍ منهما أن يكون مبتدأ، ويكون الآخر خبراً له، فتقدِّم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا، ومثاله ما تصنعه بزيدٍ والمنطلق، حيث تقول مرة : زيدٌ المنطلق، وأخرى: المنطلق زيد، فأنت في هذا لم تقدم " المنطلق " على أن يكون متروكاً على حكمه الذي كان عليه مع التأخير؛ فيكون خبر المبتدأ كما كان، بل على أن تنقله عن كونه خبراً إلى كونه مبتدأ، وكذلك لم تؤخر "زيداً" على أن يكون مبتدأ كما كان، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ إلى كونه خبراً " (٨٨).

وبناءً عليه يرى عبد القاهر أنه من الخطأ أن يُقسَّم هذا الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيُجعل مفيداً في بعض الكلام، وغير مفيد في بعض، وأن يُعلَّل تارة بالعناية، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه ولذاك سجعُهُ؛ ذلك لأنّ من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أُخرى، فمتى ثبت في تقديم المفعول – مثلاً – على الفعل في كثير من الكلام، أنه قد اختُص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير، فقد وجب أن تكون تلك قضية في كل شيء وكل حال، ومن سبيل من يجعل التقديم وترك التقديم سواء أن يدَّعي أنه كذلك في عموم الأحوال، وأما من يجعله شريحيْن فيزعم أنه للفائدة في بعضها وللتصرف في اللفظ من غير معنى في بعض، فمما ينبغي أن يرغب عن القول به (٨٩).

والربط بين الترتيب في ظاهره أو بنائِه السطحي وما ينتج عنه من عمل في البناء العميق يتضح لدى عبد القاهر في حديثه عن " ظنّ وأخواتها " ، حيث يجعل تقديم هذه الأفعال وهو مرتبط بالمنطوق السطحي يؤدي بدوره في بنائِه

العمـــيق الـــذي يـــرتبط بالوظيفة والدلالة إلى إعمال هذه الأفعال، ولا يجوز إلاَّ الإعمـــال نحو: ظننتُ زيداً منطلقاً ؛ لأن التقديم من أعلام العناية ، والإلغاء من دلائل ضعفها، فلا يجتمع الإلغاء والتقديم (٩٠)، وإذا توسطت هذه الأفعال التركيب يحسنُ فيها الإلغاء والإعمال تقول: زيدٌ ظننتُ منطلقٌ، وزيداً ظننتُ منطلقاً، وإنما تساويا لأجل أنَّ واحداً من المفعولَيْن تقدَّم والفعلُ واقعٌ بينهما فهو متأخرٌ من وجهٍ ومتقدمٌ من آخر (٩١).

أما إذا تأخرت هذه الأفعال فالأحسن في التركيب الإلغاء نحو: زيدٌ منطلقٌ ظننتُ، لأن الفعل لاحظٌ له في التقدم بوجهٍ، وإذا كان كذلك ضعُفَ أمرُهُ، وحَسُنَ إلغاؤه لأجل أنك إذا لفظت الجزأين قبل الفعل كان الابتداء أقرب إليهما من الفعل وأولـــى العاملَيْن الأقربُ، وليس كذلك حال التوسط لأنك إذا لفظت بأحد الجزأين بعد الفعل لم يكن الابتداء بأقرب إليه، بل كان مرتبةُ الابتداء مساويةَ لمرتبة الفعل لأجـــل أنَّ كـــلَّ واحدٍ من الجزأين لا يتم إلاَّ بصاحبه، والابتداء قد استولى على الجـــزء الأول والفعل على الثاني فهما كشيءٍ مشترك بينهما، لهذا أنْ يأخذهُ أخْذَ ذلـــك حَذْو النعل بالنعل، وأما حالُ التقديم نحو: ظننتُ زيداً منطلقاً فليس للابتداء فيه حظٌ بوجه، فلذلك لم يجز إلاَّ الإعمال (٩٢).

وكـــذلك كـــان الأمر في جملة كان فقد جوَّز عبد القاهر تقديم المنصوب علـــى المـــرفوع حملاً على الفعل فأجاز: كان زيدٌ قائماً مشبه بـــ " ضرب زيدٌ عمـــراً " ، وكذلك: كان قائماً زيدٌ مشبه بقوله : ضرب عمراً زيدٌ ، وأجاز تقديم المنصـــوب علـــى كان ومثَّل بقوله: منطلقاً كان زيدٌ، وحمل على " كان " باقي أخواتها (٩٣).

ويتجلى إدراك عبد القاهر للبنية العميقة وارتباطها بالترتيب في الجملة – خاصة الفعلية – أثناء حديثه عن التمييز، حيث يرى أن التمييز في قوله تعالى : ﴿ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ [٩٤]، محول عن الفاعل، وذلك أنّا نعلم أن " اشتعل " للشيب في المعنى، وإن كان للرأس في اللفظ، كما أنّ " طاب " للنفس ، و " قرَّ " للعين، و "تَصَبَّبَ" للعرق، وإن أُسند إلى ما أُسند إليه يُبَيِّن أن الشَّرَف كان لأن سُلِكَ فيه هذا المسلك، وتُوخِّي به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحاً، فتقول : اشتعل شيبُ الرأس، أو " الشيبُ في الرأس " ، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسنَ وتلك الفخامة، وهل ترى الروعة التي كنت تراها "[٩٥]، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً ﴾ [٩٦]، فالتفجير للعيون في المعنى، وقد أُوقع على الأرض في اللفظ، كما أُسند الاشتعال إلى الرأس، وقد حصل بذلك من معنى الشُّمول ههنا، مثل الذي حصل هناك، وذلك أنه قد أفاد أنّ الأرض قد كانت صارت عيوناً كلُّها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها، ولو أُجْرِي اللفظ على ظاهِرِه فقيل : " وفجّرنا عيون الأرض " ، أو العيون في الأرض لم يُفِدْ ذلك ولم يدل عليه، ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيونٍ متفرقة في الأرض وتنبجس من أماكن منها [٩٧].

وبناءً على ما سبق ينبغي أن نتعامل مع سياقات إعادة الترتيب أو "التقديم والتأخير " بشيءٍ من الحذر، حتى يمكن الربط بينها وبين حركة الفكر من ناحية، وطبيعة المقام من ناحية أخرى، يقول الدكتور محمد عبد المطلب : " فمقولة كمقولة " التقديم " للأهمية – مثلاً – تُصبح في حاجة إلى مراجعة من خلال رصد حركة الذهن وتوافقها مع الحركة الصياغية أفقياً، على أن يؤخذ في الاعتبار طبيعة الاحتمالات القائمة في بنية التراكيب " [٩٨].

رابعاً: الزيادة والإقحام والاتساع :

مـــن القـــواعد التـــي قامت عليها نظرية النحو التحويلي قاعدة " الزيادة والإقحام "؛ فقد أشار التحويليون إلى أن هناك تركيبات نظمية تدخل فيها كلمات لا تـــدل على معنى في العمق، وإنما تفيد وظيفة تركيبية، وقد تُعدُّ لوناً من ألوان الزخارف (٩٩).

إلاَّ أن عـــبد القاهر الجرجاني قد أشار إلى هذه القاعدة في ضوء إدراكه لما يقابل لدى التحويليين البنية السطحية والبنية العميقة، وذلك حينما قسم الزيادة إلـــى: زيادة وإقحام لمعنى، وأخرى بدون معنى، والأخيرة هي التي تعدُّ لوناً من ألوان الزخارف، وإنما لها وظيفة على مستوى سطح التركيب، وذلك على النحو التالي:

أولاً: زيادة وإقحام لمعنى :

وقـــد مثّل لهذا النوع بالباء المؤكدة للنفي، تقول: ليس زيدٌ قائماً، وما زيدٌ قائمـــاً، ومـــا كان زيدٌ قائماً، فتفيد انتفاء القيام من زيد، ثم يتم الإجراء التحويلي بإدخـــال الباء، نقول: ليس زيدٌ بقائمٍ، وما كان زيدٌ بقائم، فتدل الباء على المبالغة والتشـــديد " وذلـــك فـــي البناء العميق " في نفي كونه قائماً، وعلى ذلك قول الله تعالـــى: ﴿ **أَوَ لَـــمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ** ﴾ (١٠٠)، والأصل: إن الله قادرٌ ؛ فقد دخلت الباء لتأكيد النفي الموجود في " لم يروا " (١٠١)، ويمكن تمثيل هذا الإجراء التحويلي بالمخطط التالي:

بنية عميقة تحويلية



إن الله قادرٌ

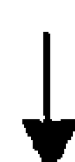
إجراء تحويلي بإقحام الباء بين اسم الحرف الناسخ وخبره لغرض دلالي وهو توكيد النفي

بنية سطحية تحويلية



أَوَ لَـمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَـمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ

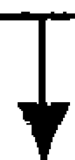
بنية عميقة تحويلية



ليس زيدٌ قائماً

ما زيدٌ قائماً

ما كان زيدٌ قائماً

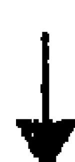


الهدف

انتفاء القيام من زيد

إجراء تحويلي بإقحام الباء بين اسم ليس وما والخبر لغرض دلالي

بنية سطحية تحويلية



ليس زيدٌ بقائم

ما زيدٌ بقائم

ما كان زيدٌ بقائم

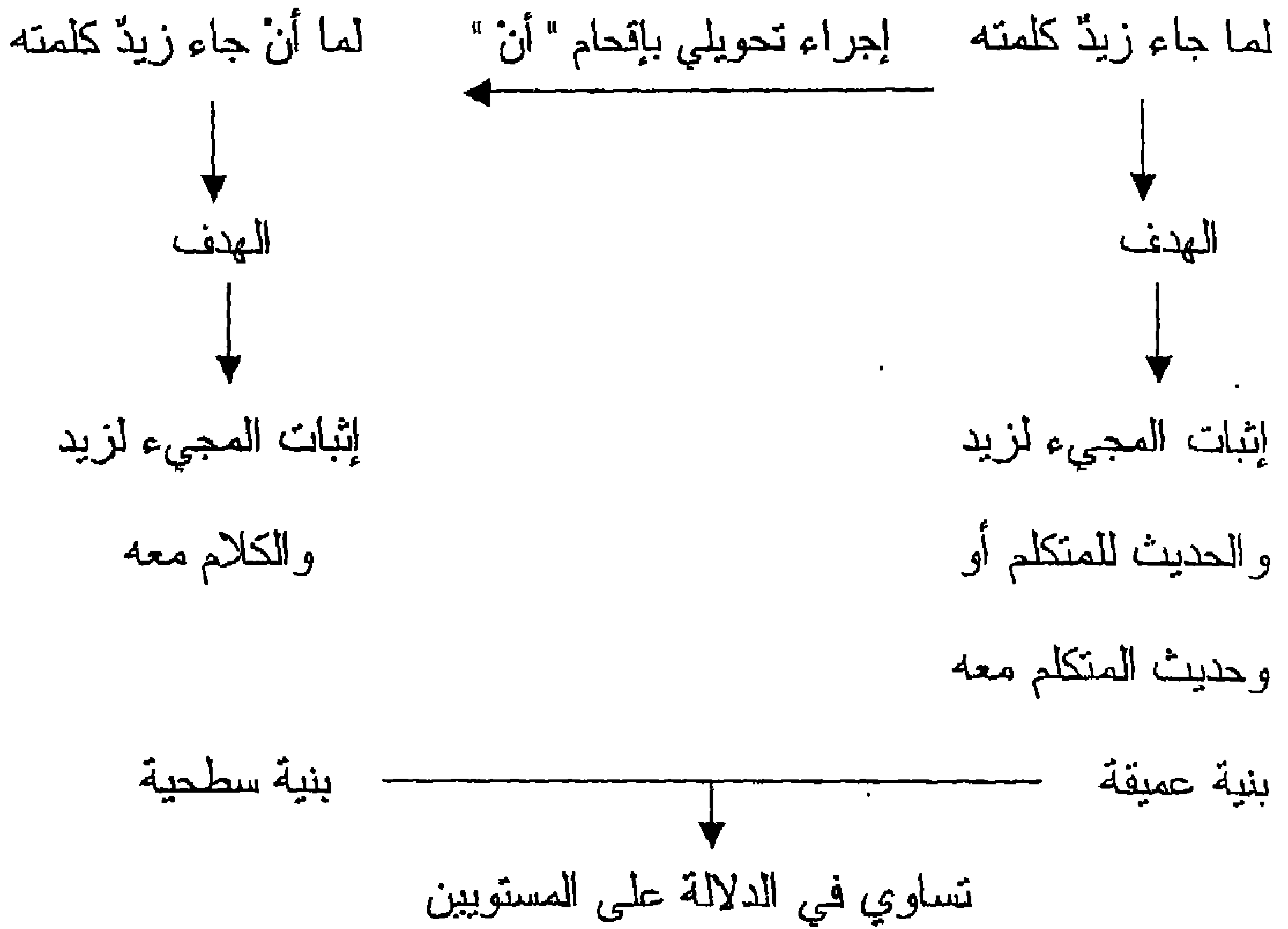


الهدف

المبالغة والتشديد في نفي كونه قائماً

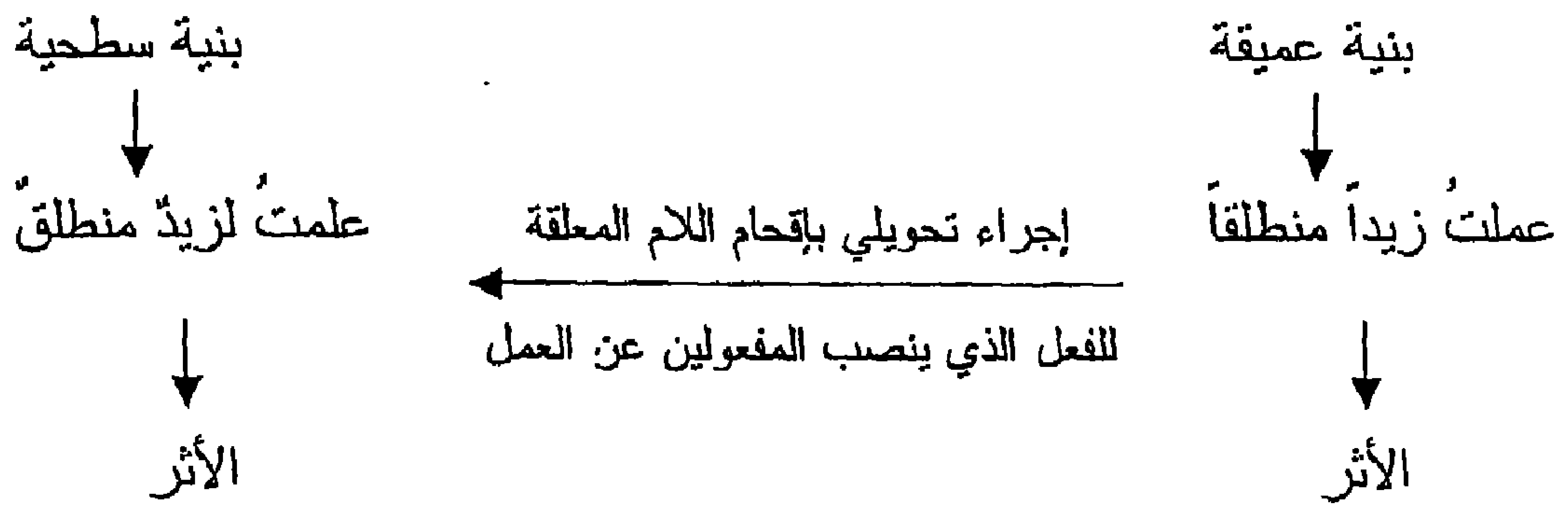
ثانياً: زيادة وإقحام بدون معنى :

وهو عند عبد القاهر الجرجاني ما لا يعمل بوجهٍ، وذلك مثل "ما" إذا كانت صلةً كقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (١٠٢)، وك " أنْ " في قولهم : لمـا أنْ جاء زيدٌ كلمته وما أشبه ذلك من الحروف التي تدخل حشواً ، فلا تفيد معنى ولا تغير لفظاً وحكماً (١٠٣)، ويمكن تمثيل المثال السابق على النحو التالي:



ويبدو أثر إدراك عبد القاهر للبنية العميقة في أنّ هناك مجموعة من الحروف تعمل في المعنى واللفظ، ولا تعمل في الحكم، ومثال ذلك اللام في قولهم : لا غلامي لزيدٍ ولا يديّ لعمروٍ، وذلك أن الإضافة تُحدث في المضاف معنى وتوجب حكماً؛ فالمعنى إعطاؤها إياهُ من المضاف إليه التعريف، تقولُ: غلام، وغلامان، فيكون نكرة، فإذا قلت: غلامُ زيدٍ وغلاما زيدٍ، صار معرفةً، وأما الحكم فحذف التنوين والنون، واللام من غلامَي لزيدٍ سلَبت " غلامين " التعريف الذي كان يكون لو لم تأتِ بها، ولكنها لم تُزِل الحكم الذي هو سقوط النون، فقد عملت إذاً في المعنى ولم تعمل في الحكم، وعملت من وجهٍ آخر وهو إفادتها الملْك، وعملت في اللفظ بجرِّها " زيد "، فهي إذاً عاملة لفظاً ومعنى غيرُ عاملة حكماً (١٠٤).

وهناك ما يعمل حكماً ولا يُغير معنى ولا يؤثر في لفظ، ومثاله اللام في قـولك : علمتُ لزيدٌ منطلقٌ، الأصل علمتُ زيداً منطلقاً، فلمّا دخلت اللام منعت "علمتُ" عن العمل، وأوجبت إعادة الاسمين المنصوبين إلى الرفع بالابتداء، فأنت إذا تأملـت المعنـى وجدتّه على حالِه؛ لأنّ العلم قد نفَدَ في قولك : زيدٌ منطلقٌ، ونفـاده قبل دخول اللام، وأما اللفظ فهو وإنّ تغيَّر، فليس العمل للام، لأنّ الرفع بالابـتداء الـذي يكـون في قولك : زيدٌ منطلقٌ ، فعملُ اللام – إذنْ – صرفُها الاسمين عن كونهما منصوبين بـ "علمتُ" إلى كونهما مرفوعيْن بالابتداء (١٠٥)، ويمكن إجراء المخطط التحويلي على النحو التالي:



١- عملت " علمت" في المبتدأ والخبر معاً
٢- نصبت "علمت" المفعولين فصرفتهم عن الابتداء إلى المفعولية .

١- منعت اللام "علمت" عن العمل.
٢- أوجبـت إعـادة الاسميـن المنصرفين إلى الرفع بالابتداء.

أمـا حـديث عبد القاهر عن " الاتساع " ففي معرض حديثه عن " أفعل الـتعجب " يسـوق عـبد القاهر نصاً يوضح به معنى الاتساع، وهو يعني عنده التعبيـر عـن المعنـى الواحد بلفظين، يقول عبد القاهر : " إلاَّ أنهم على عادة توسـيعهم يعبرون عن المعنى الواحد بلفظين اعتباراً لاختلافِ الحال والموضع فيُنزلون الشيء الواحد إذا وقع على حَدَّين منزلة الشيئين كقولهم : " لطمتُ " إذا

كـــان علـــى الخدِّ وباليد، ولكزْتُ بالرِّجل كيف اتفق، وَوَعيْتُ للجمع إذا كان في العلم ونحوه " (١٠٦).

وكـــذلك الأمر تحدث عن الاتساع في مواطن متفرقة (١٠٧) وأثناء شرحه لقول أبي علي الفارسي : " ومما يرتفع فيه الاسم بالابتداء قولهم : ضربي زيداً قائماً، وأكثر شربي السُّويق ملتوتاً، وأخطبُ ما يكونُ الأميرُ قائماً؛ فضربي وأكثر وأخطـــبُ يرتفع بالابتداء، وقائماً سدَّ مسد خبر المبتدأ، والتقدير: ضربي زيداً إذا كان قائماً، أو إذْ كان قائماً" (١٠٨).

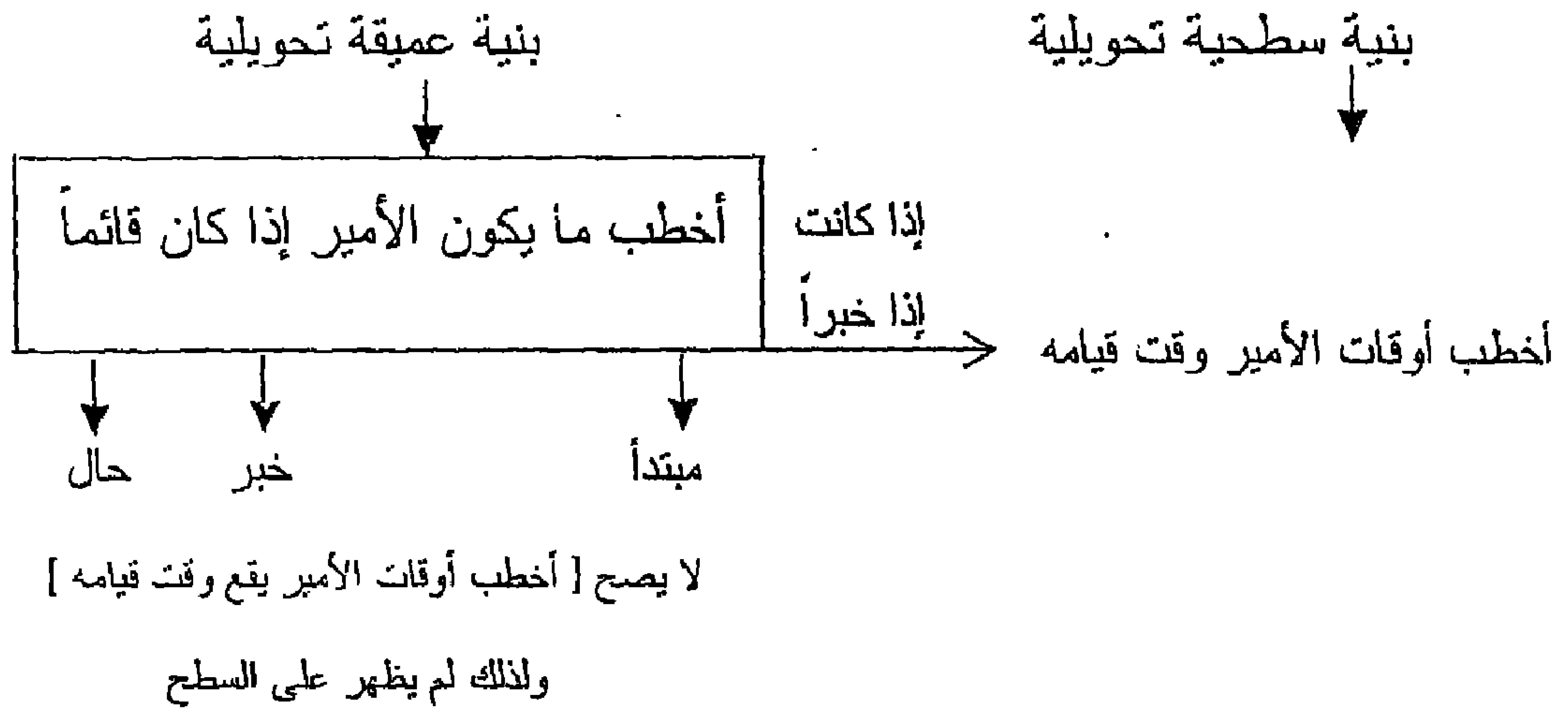
وفي شرحه لنص أبي علي الفارسي ينطلق عبد القاهر من قاعدة ترى أن الاتســـاع وســـيلة من وسائل توليد الجمل – وهذا ما صنعه التحويليون – ، أو وسيلة من خلالها يتم توليد عدد من الجمل، حيث يرى أن نص أبي علي الفارسي يحمل نوعين من الاتساع لكل نوع جملة خاصة، وذلك في شرحه لقول أبي علي " أخطبُ ما يكون الأميرُ قائماً " .

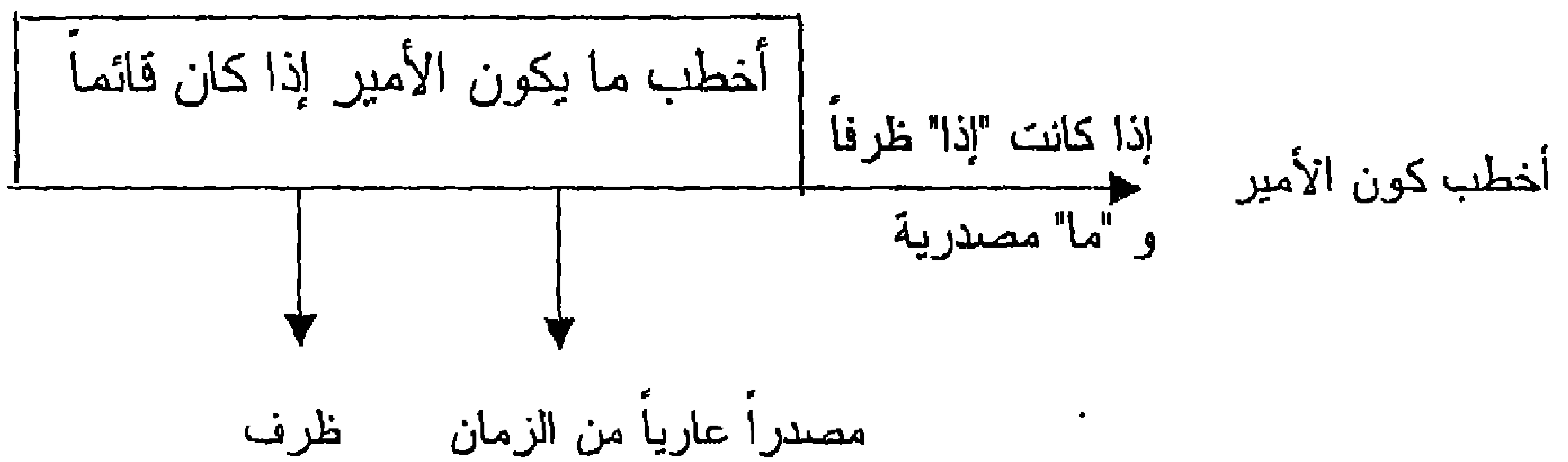
الاتساع الأول: أن " أفعل " لا يضاف إلى ما لا يكون منه " أي من جنسه"، فلا يصـــح : زيـــدٌ أفضـــل الحمير، فإذا لم يكن بين زيد والحمير خصلة أو مشـــاركة فـــي الخصلة المقصودة فلا يكون للتفضيل وجه، وأخطبُ هذا كـــناية عـــن الأميـــر في الظاهر، و" ما يكون " بمعنى الزمان في البناء العمـــيق ؛ لأن " مـــا " مع ما بعده مصدر، " فما يكون الأمير " بمنزلة " كـــون الأمير "، والمصدر يدل على الزمان على تقدير حذف المضاف؛ والتقديـــر: أخطبُ أوقات كون الأمير، يعني أخطب أوقات وجود الأمير. ثم قام "ما يكون" مقام هذا، فصار بمنزلة قولك: أخطبُ أوقات الأمير، و "الأوقـــات " ليست من جنس " أخطب " في الظاهر، كما لا تكون الحمير

مـــن جنس أفضل في قولك: زيدٌ أفضلُ الحمير، يقول عبد القاهر: " إلاّ أنهم قد يجعلون الفعل للزمان على السعة، فيقولون: نهارك صائم، وليلك قـــائم، فينسبون الصومَ والقيامَ إلى النهار والليل ؛ لأنهما يقعان فيه، ومنه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ (١٠٩)، بمعنى أنكم تبصرون فيه، ثم جعـــل الفعل له حتى كأنّه الذي يُبصر دون المخاطَب، ونحو ذا كثير في كلامهـــم، فكذلك جعل أيام الأمير خاطبةً على سعة الكلام، لكونه خطيباً فـــيها حتى كأنه قيل: خَطَبَتْ أيامُ الأمير، ثم أدخل عليه همزة التفضيل: أخطبُ أيام الأمير، كما يُقال مثلاً: أَقْوَمُ لياليكَ ليلة كذا، ثم قام " ما يكون الأميـــر " مقام " أوقات الأمير " على ما فسّرنا فأضيف إليه أخطب " ما يكـــون الأمير " فهذا الطرفُ من المسألة قد صحَّ وتقرّر كونه بمنزلة أن تقـــول : أخطـــبُ أوقات الأمير، وهذا هو الاتساع الأول " (١١٠)، ويمكن إجراء المخطط التحويلي للاتساع الأول على النحو التالي:

بنية سطحية	الإجراءات التحويلية من البنية العميقة إلى البنية السطحية	بنية عميقة
....	[١] إجـــراء تحويلـــي " تقديـــر حـــذف المضاف لأن " ما يكون " = المصدر " كون الأمير " .	أخطب أوقات كون الأمير
......	[٢] إجـــراء تحويلـــي بإحلال " ما يكون " محل " أوقات الأمير "، ونظراً لأن"الأوقات" ليست من جنس "أخطب" يأتي الإجراء الثالث.	أخطب أوقات الأمير
......	[٣] إجـــراء تحويلـــي بجعـــل الفعل للزمان على السعة تصبح " أيام الأمير " خاطبةً على سعة الكلام، لكونه خطيباً فيها .	خطبتْ أيام الأمير
أخطـــب ما يكون الأمير قائماً .	[٤] إجراء تحويلي بإقحام الهمزة للتفضيل "أخطب أيام الأمير".	......

الاتســـاع الثاني: هو حذف الذي تقدم في المسألتين الأوليين؛ لأنّ المعنى أخطبُ مـــا يكون الأمير إذا كان قائماً، فأخطب مبتدأ خبره " إذا " ، وقائماً حال، وعلــيه فـــلا يصــح لو قلت: أخطبُ أوقات الأمير يقع وقت قيامه، إنما يصح: أخطبُ أوقات الأمير وقتُ قيامه، أما إن أردت أن تنصب إذا على الظــرف، فالوجه عندي أن يكون "ما" مصدراً عارياً من تقدير الزمان، فكأنـــه قال: أخطبُ كون الأمير، وأخطبُ وجوده، فيجعل كونه ووجوده ممّا يخطب " (١١١).





وحيـنما تحـدّث عـن الأسباب التي يتعدى بها الفعل يُشير إلى السطح والعمق؛ فالهمزة تزيدُ في الكلام مفعولاً، ولذلك يرى عبد القاهر أن: ذهبتُ زيداً غيـر صـحيح على مستوى السطح والعمق، أما إذا حدث إجراء تحويلي بزيادة الهمزة يكون : أذهبتُ زيداً، فهذا صحيح على المستويين، وكذلك الباء في قولك: ذهـبتُ بـزيدٍ، فقد أوقع الذهاب على زيد، إلاّ أنه لما أتى بعد الفعل دخل على الاسم فكان له فيه عملٌ وهو الجر، فالباء في ذهبتُ بزيدٍ جزءٌ من الفعل وداخلٌ فـي جملته من وجهٍ، وهو أنه أوصله إلى زيدٍ وأوقعه عليه في المعنى، ومتصلٌ بالاسـم من وجهٍ آخر وهو أنه داخلٌ عليه لفظاً" ، وهذا يؤكد إدراك عبد القاهر لمـا يدخل على الكلمة لفظاً – أي على مستوى السطح الظاهر – وما تؤديه هذه الزيادة من معنى – أي على مستوى المعنى العميق (١١٢).

ويـؤكد عبد القاهر التفرقة والإدراك للسطح الظاهر والدلالة العميقة في مجال الزيادة بقوله : " اعلم أنك إذا قلت: ذهبتُ بزيدٍ كان على وجهين: أحدهما: أن تُـريد أنّك صاحَبْتَه ، والثاني: على أن لا يكون صاحَبْتَه ويكون المعنى على أنّـك نجيـتَه وأزلته عن مكانه، ويدُلك على ذلك قوله تعالى : ﴿ **يكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَـذْهَبُ بِالأَبْصَارِ** ﴾ ، ألا ترى أنّ الأبصار ليست بأشخاص، كذا البرق فيُتصوّر فيه المصاحبة، وإنما المعنى أن البرق يكادُ يزيل نور البصر " (١١٣).

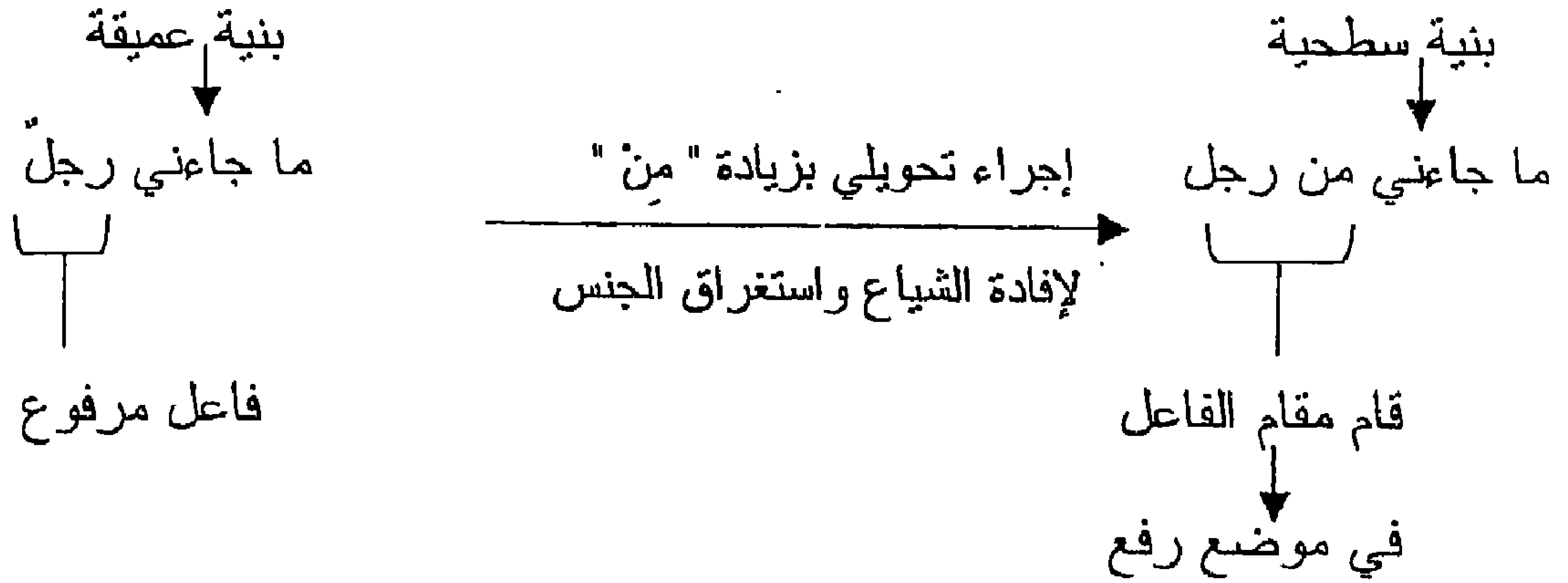
ويفصـل عبد القاهر بين إقحام الحروف، وإقحام الضمير، حيث يرى أن الفـاء تأتـي عاطفة نحو: ضربتُ زيداً فعمراً، أو للجزاء، نحو: إن تأتني فأنتَ مُكـرمٌ محـبوٌ، ولا تدخل الفاء في الأسماء التي لا يوجد فيها معنى الشرط ولا العطف؛ لأنّ الخبر لا يصح عطفه على المبتدأ، وذلك لأن حرف العطف يوجب مشـاركة الثانـي الأول، نحو: ضربتُ زيداً فعمراً (١١٤)، ويتحدث عن الإقحام

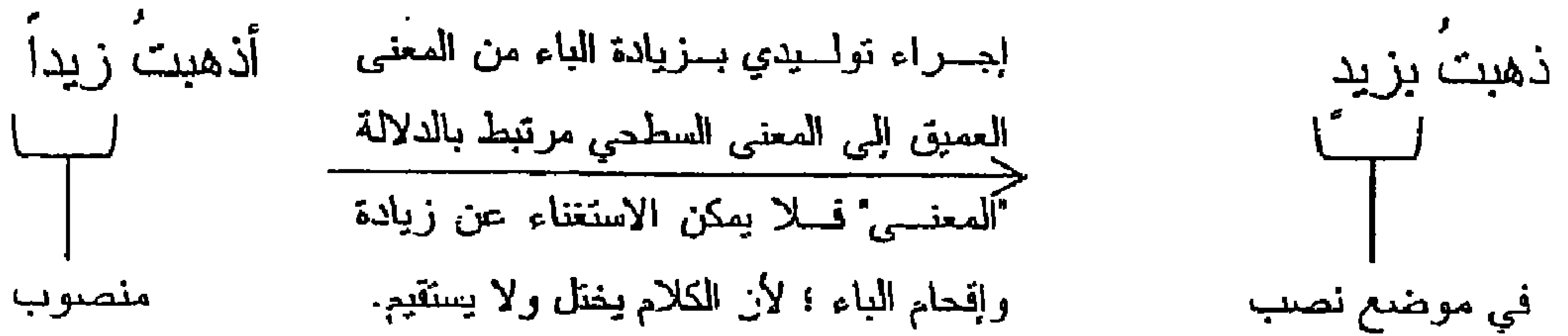
ويـــرى أنه من قبيل الزيادة، حيث يرى أن الباء تزاد في المنصوب على سبيل الاتســـاع، ومـــنه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ؛ لأنّ حروف الجـــر لما جاءت لأجل المفعولية نحو قولهم: مررت بزيدٍ، كان القياس أن تكون زيادتهـــا كائنةً فيما هو منصوب في المعنى ليتبع حال الزيادة حال الإفادة، وتزاد كذلك في المرفوع وهذا قليل ومثله قولك: بحسبك زيد؛ لأن المعنى: حسبك زيد، والباء داخلة على المرفوع مزيداً (١١٥).

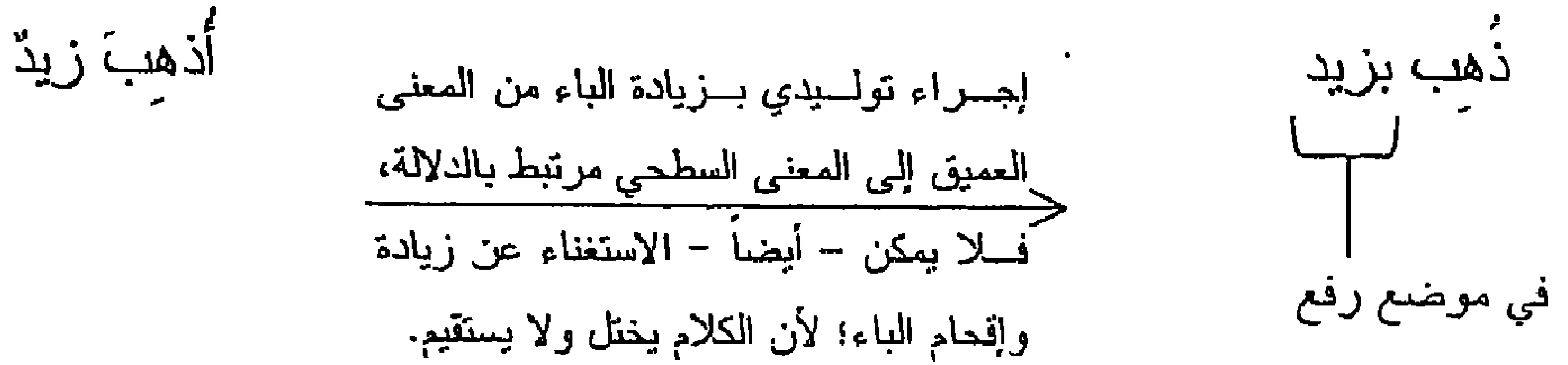
ويعلـــل عبد القاهر التزام " فعل التعجب" الإفراد والتذكير في نحو: أكرم بـــزيد مـــن منطلق توليد الجمل؛ فيرى أن الفعل لزيد في المعنى وهو ما يتصل بالبـــناء العميق؛ لأن الفعل إخبار وليس للمخاطبين حظٌ في الفعل فيضمروا فيه؛ ولذلك قيل: يا رجلُ أكرم بزيد، ويا رجال أكرم بزيد، ويا رجلان أكرم بزيد، ويا هـــند أكـــرم بزيد، ويا هندان أكرم بزيد، ويا نسوة أكرم بزيد، ولا تقول: أكرما وأكرموا، وأكرمي، وأكرمن، ولو كان على الظاهر وهو ما يتصل بالبناء العميق لـــوجب أن يقـــال: أكرما، وأكرموا ... ، وعكس هذا قولهم: غفر الله لزيد لأن المعنـــى اللهم اغفر لزيد، فاللفظ على الخبر، والمعنى على الدُّعاء، كما أن أكرم بزيدٍ لفظ الأمر، والمعنى معنى الخبر (١١٦).

وفي قوله: " ذهبتُ بزيدٍ " يرى أن الجار مع المجرور في موضع نصب؛ لأن المعنـــى أذهبتُ زيداً، فإذا قلت: ذُهِبَ بزيدٍ كان قولك: بزيدٍ في موضع رفع كمـــا يكون " زيدٌ مرفوعاً في قولك: أُذهِبَ زيدٌ ... وأما : ما جاءني من رجلٍ؛ فوجه مشابهته لهذا أن " مِنْ " مزيدة ، والأصل: ما جاءني رجلٌ فهو ما بعده في موضع رفع؛ لأنه قائم مقام الفاعل، ولا يمكن أن يُقال: إن " الباء " بمنزلة "مِن" علـــى الإطلاق، لأنك لو قلت: ما جاءني رجلٌ لم يختل الكلام بسقوط " مِنْ " ، وإن تغيّر المعنى بزوال ما توجبه من الشياع واستغراق الجنس، ولو قلت: ذُهِبَ

زيـدٌ، وأسـقطت الـباء حَصَـلَ الاختلالُ فلم يستقم بوجهٍ [١١٧]، ويمكن إجراء العمليات التحويلية لأمثلة عبد القاهر على النحو التالي:







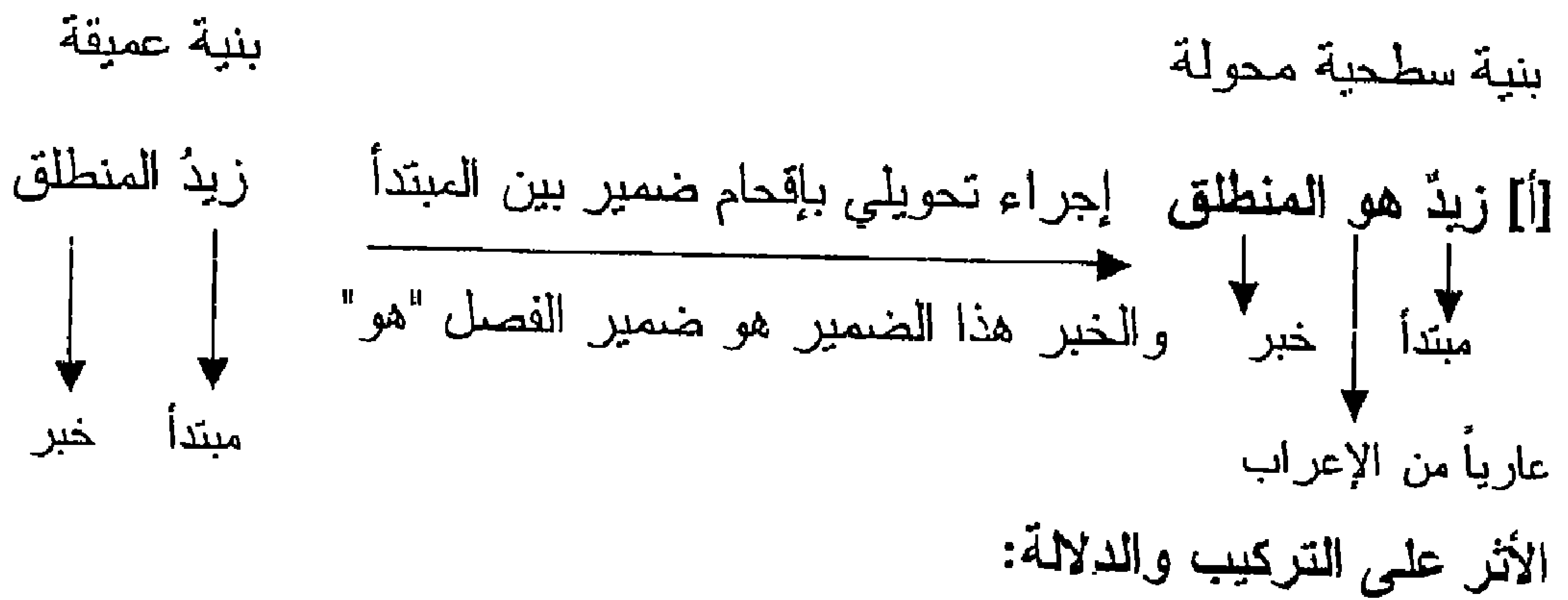
أما إقحام الضمير فله عند عبد القاهر شروط:

الشـرط الأول: أن يكـون الضـمير بين المبتدأ والخبر، أو ما هو جارٍ مجرى ذلك من باب كان ، وإن ، وظننتُ .

الشرط الثاني: أن يقع بين معرفتين [١١٨].

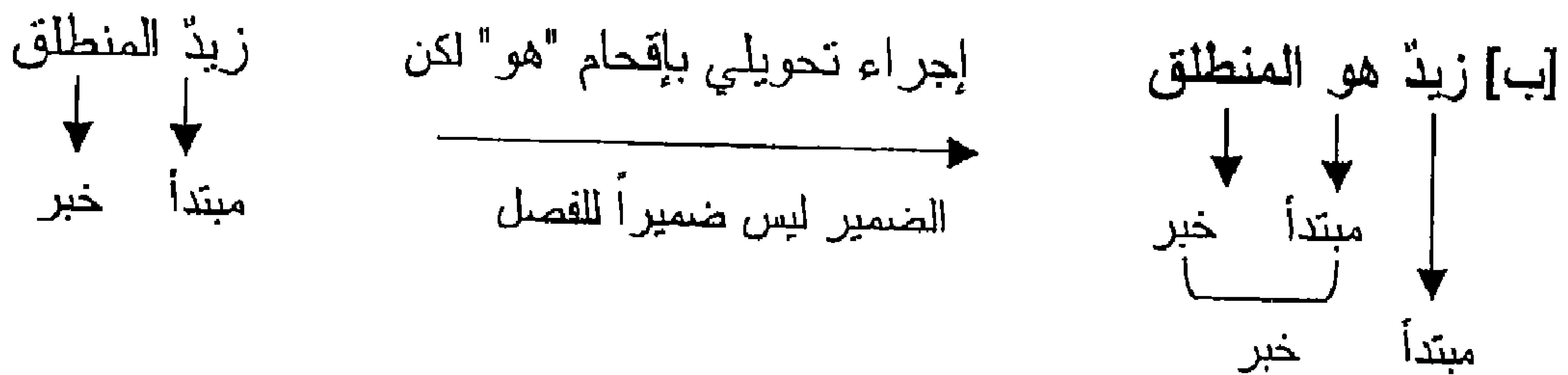
ولإقحام الضمير عند عبد القاهر أثرٌ كبير على التركيب والدلالة على النحو التالي:

أولاً: وقوع الضمير بين المبتدأ والخبر، نحو: زيدٌ هو المنطلق، حيث يُجوِّز عبد القاهر أن يكون " هو " فصلاً عارياً من الإعراب، وبناءً على ذلك يكون " المنطلق " خبر زيد، ويكون الكلام من جزأين، أما إذا كان غير " فصل" يكون الضمير حينئذٍ مبتدأ ، خبره " المنطلق " ، والجملة في موضع خبر زيد، غير أنك إذا جعلته فصلاً لم يجز إسقاط الألف واللام من المنطلق؛ لأنه لا يقع إلاّ بين معرفتين (١١٩)، ويمكن تمثيل العملية التحويلية بالمخطط التالي:



الأثر على التركيب والدلالة:

إذا كان الضمير للفصل ، يتكون الكلام من جزأين مبتدأ وخبر ، ولا يجوز إسقاط الألف واللام من الخبر " المنطلق " ؛ لأن الضمير لا يقع إلاّ بين معرفتين، وهي طريقة من طرق توليد الجمل .



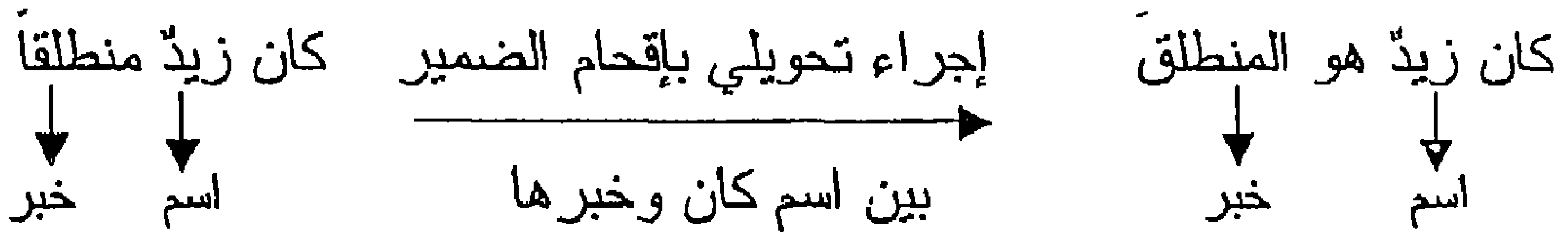
الأثر على التركيب والدلالة:

إذا كان الضمير ليس فصلاً ، يتكون الكلام من ثلاثة أجزاء، مبتدأ، وخبر للمبــتدأ يتكون بدوره من جملة اسمية " مبتدأ وخبر ، ويجوز حينئذٍ إسقاط الألف والـــلام من " المنطلق " ، فيجوز: زيد هو منطلق، وهي طريقة من طرق توليد الجمل .

ثانــياً: وقــوع الضمير في باب كان ، نحو: كان زيدٌ هو المنطلق، على النحو التالي:

بنية سطحية محولة   بنية عميقة

[أ]



[ب]

كان زيدٌ هو المنطلقُ

أثر إقحام الضمير على التركيب والدلالة:

إذا كان الضمير للفصل، يكون المنطلق خبراً منصوباً لــ " كان " ؛ لأنه لا اعــتداد بالضــمير حينئذٍ (١٢٠)، مثل الجملة [أ]، وإن لم يكن الضمير فصلاً، يكون المنطلق خبراً له، والجملة خبر كان " كان زيدٌ هو المنطلقُ " ، نحو الجملة فــي [ب]، وكــذا حكــم الضــمائر كلها، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمــِينَ** ﴾ (١٢١)، وهذه الطريقة يتولد من خلالها عدد من الجمل على نحو ما فعل التحويليون من بعد.

ثالثاً: وقوع الضمير في باب " إن " ، نحو: إنك أنت الخارج، وهذا لا يختلف عمّا سبق من حيث توليد الجمل، فالضمير يأخذ حكم الابتداء، فلا فرق بين أن تقول: إنك أنت الخارج، على أن تجعل " أنت " فصلاً، وتجعل الخارج مرفوعاً بأن، حتى كأنك قلت: أنّك الخارج، ولم تأت بأنت، وأن تجعل "أنت" مبتدأ، والخارج خبره، والجملة خبر " إن " ، نحو قوله تعالى : ﴿ **فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ (١٢٢)، يحتمل الوجهين؛ إلاّ أنك إذا جعلت ذلك فصلاً لم يجز إسقاط الألف واللام (١٢٣).

رابعاً: وقوع الضمير في باب ظن، نحو: ظننتُ زيداً هو المنطلق، وهذا المثال يأخذ حكم إقحام الضمير في باب " كان " ، ويؤثّر إقحامُ الضمير فيجوز: ظننتُ زيداً هو المنطلق، ولا يجوز: ظننتُ زيداً هو منطلقاً؛ لأنّ ما بعده نكرة، وبذا يفقد شرطاً من شروط إقحامه، وهو الشرط الثاني: أن يقع بين معرفتين، ويجب أن يكون ضمير الفصل مرفوعاً، نحو: ظننتُ زيداً هو الخارج، ولا يجوز: ظننتُ زيداً إياه الخارج، وتجعل إياه فصلاً، وكذلك ينبغي أن يكون من جنس ما قبله إن كان غائباً فغائبٌ، وإن كان متكلماً فمتكلمٌ، وإن كان مخاطباً فمخاطبٌ (١٢٤)، وإن كان مجموعاً فمجموع، ولا يخفى ما في حديث عبد القاهر من أن إقحام الضمير ما هو إلاّ طريقةٌ من طرق توليد الجمل وتحويلها من البنية السطحية إلى البنية العميقة على نحوٍ ما مرّ قبل .

خامسا: الأصلية والفرعية:

عــرض التحويلــيون لقضية الأصلية والفرعية في مواضع مختلفة منها بحــثهم للألفــاظ " ذات العلامة Marked ، وتلك التي بلا علامة Unmarked ، وقــرروا أن الألفاظ غير المعلمة هي الأصل، وهي أكثر دوراناً في الاستعمال، وأكثر تجرداً، ومن ثمّ أقرب إلى " البنية العميقة " (١٢٥) .

ومن يُطالع التراث النحوي يُلاحظ أن النحاة القدامى شُغِلوا بهذه القضية، حيث قامت معظم أبواب النحو العربي على الخلاف حول الأصل والفرع، ومن يُطالع كتاب الإنصاف للأنباري يُلاحظ الصراع الذي دار حول هذه القضية(١٢٦)، فقــد قــرر النحاة أن النكرة أصل والمعرفة فرع، وأن المفرد أصل للجمع، وأن المذكر أصل للمؤنث، وأن التكسير والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها (١٢٧)، وكــذلك الخلاف الذي قام حول أصول المشتقات الفعل أم المصدر، والزمن هل هو أصل في الفعل أم لا ، ... إلخ هذه الخلافات، ولا يخفى الخلاف حول أصول ترتيب الجملة اسمية كانت أم فعلية.

وتجدر الإشارة إلى أن عبد القاهر في حديثه عن الأصلية والفرعية يتفق مــع النحاة القدامى السابقين عليه في التصنيف، ويختلف عنهم فيما يترتب على هــذا التصنيف، فمثلاً : يرى " أن اسم الفاعل فرعٌ على الفعل، فلا يقوى قوّته؛ لأن مراتب الفروع بعد مراتب الأصول، فلا يعمل اسم الفاعل عمل الفعل إلاّ بعد اعتماده على شيء " (١٢٨) .

وفــيما يــتعلق بالعمل النحوي يرى أن الأسماء لا أصل لها في العمل؛ فالكلمــات نحو: رجل وفرس لا ترفع ولا تنصب، وإنما العمل للفعل وما يشابهه

- يعنـــي بـــذلك اسم الفاعل يقول : " إن نحو ضارب وذاهب فرعٌ على يذهب ويضرب في تضمن الضمير، وإذا كان فرعاً لم يجر مجراه في التصرف "(١٢٩).

ويقترب من فكرة البنية العميقة لدى التحويليين، حيث يرى أن "ما" أكثر تجـــرداً، ولـــذلك جعلها فرعاً على " ليس "؛ ولما كان الفرع عنده لا يقوى قوة الأصل، فقد أجاز نحو: ليس منطلقاً زيدٌ، ومنع نحو: ما منطلقاً زيدٌ، لأنَّ "ما" لا تعمل مع تقديم الخبر على الاسم خلافاً لــ " ليس " التي تعمل " إذ الفرع لا يقوى قوة الأصل، وليس الشيء إذا شُبِّه بالشيء أُجرى مجراه في كل شيء، ألا ترى أن باب ما لا يتصرف إنما أُجري مجرى الفعل في بعض الأحوال، وهو أنْ مُنِعَ الجـــر مع التنوين، وليس يمنع جميع ما لا يكون في الفعل، فكذلك "ما" لا يُعطى جمـــيع مـــا " لليس " من التصرف، وعلى هذا تجرى الفروع مع الأصول في الغالب وهو القياس المنقاد " (١٣٠).

ويـــرى – أيضاً – أن الحرف فرعٌ على الفعل في العمل النحوي، وذلك حيـــنما تحدث عن باب " إن وأخواتها " ، مشيراً إلى أن الحرف أكثر تجرداً من الفعل، ولذلك حُمِلَ في العمل على الفعل، وذلك نحو: ضرب زيداً غلامُهُ يقول: " وإنمـــا أُلزِمَ هذا الوجه لأجل أنه ليس للحرْف حظٌ في العمل، وإنما هو محمول على الفعل وفرعٌ عليه " (١٣١).

ويجـــوِّز عـــبد القاهـــر جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً في حديثه عن الموازنة بين التشبيه والتمثيل (١٣٢)؛ إلاَّ أنه يُعلق هذا الأمر بقصد المتكلم، فما بدأ بـــه في الذكر فقد جعله فرعاً، وجعل الآخر أصلاً، وهو في موازنته هذه يفرق بين المعنى المجازي والمعنى الحقيقي، يقول: " لأن كل مبالغة ومجاز فلابد من أن يكـــون له استنادٌ إلى حقيقة " (١٣٣)، وبهذا يقترب عبد القاهر من فكرة البنية العميقة ، فما يظهر من التشبيه على السطح يختلف عمّا يظهر في العمق.

وكـــذلك يرى عبد القاهر " أن الفعل فرعٌ للمصدر ومأخوذٌ منه، كما أنّ الأواني المصوغة من الفضة فرعٌ عليها ومأخوذةٌ منها؛ إذ حالُها مع الفضة كحال الفعل مع المصدر" (١٣٤)، ويعلل لذلك بما يلي:

أولاً: أن الفعل يدل على الزمان والمصدر لا يدل عليه، ولذلك فإن الفعل يتضمن المصـــادر، والمصـــادر لا تتضـــمنه، وهذا يوجب أن الفعل مأخوذٌ من المصدر (١٣٥).

ثانــياً: المصـــدر يكون على مثالٍ واحدٍ، نحو:الضرب، والفعل يكون على أمثلة مخـــتلفة كمـــا أن الفضـــة نـــوعٌ واحـــدٌ وما يؤخذ منها أنواعٌ وصور متفاوتة (١٣٦).

ثالـــثاً: أن الفعـــل يدل على معنيين: الزمان والحدث، والمصدر يدل على معنى واحد، فكما يُعلم ضرورة أن الإفراد أصل للتثنية، كذلك يجب أن يُقضى بأن المصدر الدّال على معنى واحد أصل للفعل الدال على معنيين(١٣٧)، وذلك لأنه أكثر تجرداً، وهذا ما يقابل البنية العميقة لدى التحويليين.

ويـــتحدث عـــن الأصل والفرع في الأفعال، نحو " يخشى " و " يغشى "، ويـــرى أن الألـــف فـــيهما منقلبة عن ياءٍ، فالأصل يَخْشَ ويَغْشي، ألا ترى إلى الخشية والغشيان (١٣٨)، ويرى أن الأصل في الأسماء الإعراب، وأصل الأفعال والحـــروف البناء، ويعلل سبب ذلك بأن الاسم يكون فيه معانٍ توجب الاختلاف كالفاعلـــية والمفعولية والإضافة، فلو لم تأتِ بالاختلاف لم يُفصَل بين المقاصد، ولـــيس كـــذلك الأفعـــال والحروف؛ لأن صيغها تدلُّ على معانيها – يعني بذلك المعانـــي المجـــردة فـــي البناء العميق – يقول : " ألا ترى أن ضرب للماضي، وسيضرب للمستقبل، أما الفعل الذي دخل على الاسم في الإعراب، نحو: يفعل، لأنك تقول: هو يفعل، ولن يفعل، ولم يفعل ، فتجعل له ثلاثة أوجه من الاختلاف، كما كان ذلك في الأسماء " (١٣٩).

ثالثاً: النتائج والتوصيات :

[أ] النتائج :

[١] أدرك النحاة القدامى فكرة التحويل، وهذا يتضح من خلال حديثهم عن قواعد التقديم والتأخير، والحذف والزيادة، والتقدير والتأويل، والحمل على المعنى، وكذلك ما دار حول التمييز من حديث يشهد بذلك الفهم .

[٢] تُصنف هذه الدراسة عبد القاهر الجرجاني على أنه نحوي له جهد كبير في تطور الدرس النحوي، وهذا الأمر يأتي من خلال مؤلفاته التي تركها لنا؛ وينبغي لمن يقف بإزاء جهود عبد القاهر النحوية أن يُمعن النظر في آرائه المتناثرة من خلال مؤلفاته مجتمعة .

[٣] يُعدُّ كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني كتاباً في النحو، حيث يدور الكتاب عن فكرة بلاغة الكلام التي تكمن في النظم، والنظم هو تعلق معاني الكلم بعضها ببعض، وليس ذلك سوى أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل بقوانينه وأصوله، وأن نظم الكلام تابعٌ لمعناه، وهذه الفكرة نحوية خالصة ألحت على عبد القاهر طويلاً؛ فأخذ يشرحها ويبرهن عليها، من هنا جاء التكرار في الدلائل، وكل ما ذُكِرَ من موضوعات إنما ذُكِرت لتوضيح هذه الفكرة وخدمتها .

[٤] إذا كان عبد القاهر قد تناول مسائل المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة؛ فإن الهدف يختلف؛ ذلك أن هدف تناولها في الدلائل بيان أن البلاغة راجعة إلى المعنى، وهي قاطعة الدلالة على ذلك الهدف، أما أسرار البلاغة فالهدف معرفة أقسامها وبيان الفروق بينها، ومعرفة القوى والضعيف من هذه الأقسام، وهذا لا يعني خلو كتاب

أســرار البلاغة من آراءٍ نحوية؛ فالكتاب يسعى لوضع القوانين الشاملة وذكر الفروق بين العبارات، والبحث عن الأسباب والعلل وتوضيح الفكرة بالأمثلة الكثيرة.

[٥] وضــع عبد القاهر الجرجاني – وهو يتحدث عن فكرة النظم – أساس علم جديــد عُرِفَ عنده بعلم معاني النحوَ، وعُرِف من بعده بعلم المعاني، فقد كــان عبد القاهر يُبدي ويُعيد في أنها معاني النحو، وهذا يؤكد أنّ النحاة مــن بعــد عبد القاهر الجرجاني لم يزيدوا في أبحاثهم النحوية حرفاً من جهــد عبد القاهر، ولم يهتدوا منه بشيء، والذين اهتدوا أخذوا الأمثلة – فقط– بياناً لرأيه وتأييداً لمذهبه وأقاموا عليها " علم المعاني " بعدما بتروا الاسم، وفصلوه عن النحو فصلاً أزهق روح الفكرة وذهب بنورها .

[٦] يُعدُّ كتاب " العوامل المائة " لعبد القاهر الجرجاني مرآةٌ تعكس بوضوح الدقة فــي التقســيم والتنظــيم، وكــذلك أيضاً تعكس فكر عبد القاهر الواعي وإحاطته، وهذا دليل على تمكن عبد القاهر من دراسات شيوخه وأعمال الســابقين علــيه، واســتيعابه كل هذا، إضافةً إلى أن هذا الكتاب يتناول نظرية قام على أصولها علم بأكمله، اتخذها عبد القاهر مرتكزاً لانطلاقة جديــدة تعــدُّ إلى يومنا أحدث ما انتهى إليه اللغويون المحدثون، ومازال الفكــر اللغوي يحرك أبعادها إيضاحاً وتعميقاً واستفادة، سواء في ميدان علم التركيب، أو علم الدلالة ، أو علم الأسلوب.

[٧] إنّ الــدّعائم الأساسية لنظرية تشومسكي اللغوية مستمدةٌ من التراث النحوي العربــي بصفةٍ عامة، وتراث عبد القاهر بصفةٍ خاصة، والذي يؤكد ذلك أن تشومســكي درس اللســانيات الســامية مع مستشرق يعرف العربية وآدابهــا هو " فرانز روزنتال " ، وكان تشومسكي مهتماً بالتراث العربي

حيث درس النحو العربي في جامعة بنسلفانيا، وهذا – بدوره – لا يُغمط حــق تشومسكي في تطويره لهذه الدعائم وبلورتها حتى أضحت نظرية قائمة استطاعت أن تحول وجهة الدارسين في مجال النحو وعلوم اللغة.

[٨] تناول عبد القاهر نظرية العامل تناولاً يبحث فيه عن التأثير والتأثر في ضوء البنية العميقة والبنية السطحية – دون إدراك لهذين المصطلحين – فيربط بــين المعنـــى أو الدلالة والعامل المعنوي أو ما يقابل البنية العميقة من جهة، والمستوى اللفظي المنطوق أو البنية السطحية من جهة أخرى، أو الحركة الذهنية والتنظيم الصياغي، ويشرح العملية العقلية الإدراكية التي تربط هذه العلاقات، حيث يرى أن المعمول لا يقع إلاّ حيث يقع العامل، وهذا التفسير لنظرية العامل يُعدُّ حجر الزاوية في فهم الدارسين من غير العرب للعامل، وهذا بالفعل ما أدركه التحويليون من بعدُ بمئات السنين.

[٩] أخلــص عبد القاهر في تناوله للجانب التطبيقي لظاهرة الحذف دون الدخول فـــي دوائر التقنين، وجاء تناوله للظاهرة قائماً على أساس إدراكه لربط الحذف بالدلالة، وأثر المحذوف على السطح في الدلالة والمعنى في البناء العميق، إضافةً إلى هذا فإن عبد القاهر يربط بين المبنى والمعنى والتعدد الدلالـــي، والتأويل وظلال المعاني التي تخلقها التراكيب المؤلفة بطريقة مخصوصـــة حسب قصد المتكلم وملائمة التركيب اللغوي للحالة النفسية والدوافع الموجودة خلفه ؛ لأنّ الألفاظ خدمٌ للمعاني، وهذه الفكرة هي التـي تحدث عنها تشومسكي تحت عنوان: الدوافع النفسية للنحو التحويلي، فقد تعــاون تشومســكي في بداية عام ١٩٥٨م مع عالم النفس جورج ميلر George Miller ، فـــيْ كـــتابة بحث عنوانه : اللغة ذات الحالة المحدودة Finit State Language ، وفي عام ١٩٦٣م اشترطا معاً كتابة فصلين من

كتاب يسمى " دليل علم النفس الرياضي " Hand book of Mathmatical Psychology ، وفي هذين المؤلَّفين يُفصّلان القول فيما يحتوي عليه النحو التحويلي من العمليات الآلية النفسية التي تكمن وراء الأداء اللغوي على نحو ما فعل عبد القاهر.

[١٠] تَرى الدراسة أن عبد القاهر انطلق في قضية إعادة الترتيب من الربط بين النظم أو التأليف من جهة، والدلالة من جهة أخرى، وهذا يُعدُّ فهماً للصياغة التي تقابل البناء السطحي، والدلالة المقصودة التي تقابل البناء العميق؛ إضافة إلى هذا فإن عبد القاهر يرى أن الألفاظ تترتب في الشكل بناء على ترتيب المعاني في الفكر، ويرى أن إعادة الترتيب مرتبط بالمعنى أو الفهم لدى السامع؛ وأن إعادة الترتيب لها تأثير كبير على تركيب الجملة وكذلك الوظيفة والتغير الدلالي، وهذا الأمر واضح من حديثه عن إعادة الترتيب في باب ظن وأخواتها وكان وأخواتها والمبتدأ والخبر ... إلخ .

[١١] ترى الدراسة أن حديث عبد القاهر عن الإقحام والزيادة والاتساع ما هو إلاّ طريقة من طرق توليد الجمل، وأن هذا الإقحام يؤثر تأثيراً كبيراً على التركيب والدلالة، وهذا ما فعله التحويليون التولينيون من بعده بمئات السنين، إضافة إلى أنه يرى أن الشيء الأكثر تجرداً يُعدُّ فرعاً فلا يقوى قوة الأصل، وهو بهذا يؤكد فهمه لفكرة البنية العميقة التي جعلها التحويليون أساساً قامت عليه نظريتهم .

[ب] **التوصيات** :

١ - توصـــي الدراسة بضرورة البحث عن أصول النظريات الحديثة في مجال النحو وعلوم اللغة داخل كتب البلاغة العربية؛ ذلك لأن البلاغيين أقرب إلى هذه النظريات من النحاة القدامى .

٢- ضـــرورة إعـــادة النظر في قضايا البلاغة العربية، وإعادة تقسيم فروعها، ووضع علم المعاني في إطار دراسة النحو على نحو ما فعل عبد القاهر الجرجاني .

٣- تشـــجيع الباحثـــين في مجالي البلاغة والنحو على تناول قضايا مشتركة يتم اختـــيارها من التراث النحوي والبلاغي، على أن تُدرس هذه القضايا في إطـــار مـــا كتب من نظرياتٍ حديثة في المجالين معاً؛ في محاولة جادة للربط بين القديم والحديث .

الهوامش والتعليقات

١- شرح المفصل، ابن يعيش ، مكتبة المتنبي، ٢/٧٤ .

٢-سورة مريم، الآية [٤] .

٣-شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، المسمى: منهج السالك على ألفية ابن مالك، حققه وشرح قواعده د. عبد الحميد السيد عبد الحميد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢/٣٤١ .

٤-حول هذه الدراسة يُنظر: المستشرق الألماني "فيشر" دراسات عربية وسامية، المحرر أ.د. محمود فهمي حجازي، مركز اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٩٤م، بحث الدكتور/ فكري محمد أحمد سليمان، التقدير عند سيبويه والمنهج التحويلي، ص ٣٢٧ – ٣٦٨.

٥-لمزيد من تفصيل القول حول هذه الدراسة يُنظر: د. محمد أحمد محمد خضير: دور المدرسة التحويلية في تحليل دلالات التراكيب، بحث منشور بمجلة علوم اللغة، المجلد الخامس، العدد الثالث، ٢٠٠٢م، دار غريب للطباعة والنشر، ص ١١١ – ١٤٧ .

٦-حول هذه الدراسة يُنظر: د. عبد الله احمد جاد الكريم حسن، المنهج التحويلي في النحو العربي، بحث منشور بمجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد ٣١، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م ، ص ٥٥٣ – ٦١٢.

٧-أبو البركات: كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري: نُزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطباع والنشر، القاهرة، ص ٣٦٣ .

٨-محمـد بن شاكر الكَتْبِي: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ودار الثقافة، ٣٦٩/٢ .

٩-لمـزيد مـن تفصـيل القول حول عبد القاهر الجرجاني ومؤلفاته يُنظر ترجماته في:

[أ] الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، المتوفى ٦٢٤ هـ: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ١٨٨/٢ - ١٩٠ ، رقم الترجمة ٤٠٢ .

[ب] خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء مـن العـرب والمسـتعربين والمستشرقين، ط٣، بيروت، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، ١٧٤/٤ ، تحـت عـنوان: عبد القاهر الجُرجاني ٤٧١هـ - ١٠٧٨م .

[ج] محمـد بـن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عباس، ٣٦٩/٢ .

[د] أبـو البركات الأنباري: نُزهة الألْباء في طبقات الأدباء، ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

١٠- حول ذلك يُنظر: إنباه الرواة ، ١٨٨/٢ .

١١- هـذا التأثيـر واضح في شرحه للإيضاح في كتابه " المقتصد في شرح الإيضـاح " ، تحقـيق الدكـتور/ كاظم بحر المرجان، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر ١٩٨٢م، سلسلة كتب التراث ١١٥ ، وكـذلك نقـل عن أبي علي الفارسي في: دلائل الإعجاز، تعليق: محمود

محمد شاكر، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م، ص ٣٢٨ ، يقول : " قال الشيخ أبو عليّ في " الشّيرازيّات " .

١٢- أخـذ عن أبي الحسن الأخفش وسيبويه والفارسي في دلائل الإعجاز ص ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٥٢ ، والـنقل كثير في كتابه المقتصد عن سيبويه وأبي علي الفارسي.

١٣- حول ذلك يُنظر: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة القاهرة ١٣٥٠هـ، ٣/٣٤٠، وتاج الدين السُبكي: طبقات الشافعية، المطبعة الحسينية المصرية، ط١ ، ١٣٢٤هـ ، ٣/٢٤٢.

١٤- فوات الوفيات، ٢/٣٦٩ .

١٥- نُزهة الألباء، ٢/١٨٨ - ١٩٠ .

١٦- شذرات الذهب، ٣/٣٤٠ .

١٧- إنباه الرواة، ٢/١٨٨ .

١٨- نفسه، ٢/١٩٠ .

١٩- حول هذه الفكرة " فكرة النظم يُنظر: دلائل الإعجاز ص ٨١ ،٨٢ .

٢٠- د. أحمد أحمد بدوي: عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، سلسلة أعلام العرب [٨]، الناشر مكتبة مصر ص ٢٩٨.

٢١- إبـراهيم مصطفى: إحياء النحو، دار الآفاق العربية، طبعة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م ، ص ١٩ .

٢٢- الدكـــتور كاظم بحر المرجان محقق كتاب " المقتصد في شرح الإيضاح" لعـــبد القاهـــر الجرجاني والكتاب جزءان، وهو من منشورات وزارة الثقافة والإعـــلام، الجمهـــورية العـــراقية ١٩٨٢م ، دار الرشيد للنشر سلسلة كتب التراث ١١٥ .

٢٣- حـــول رأي الدكـــتور كـــاظم بحـــر المرجان يُنظر: المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني، مقدمة المحقق، ٣٣/١ .

٢٤- نفسه، ٣٣/١ .

٢٥- حول ذلك يُنظر: العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية للجُرْجاني ٤٧١ هـــ، شرح الشيخ/ خالد الأزهري الجرجاوي ٩٠٥ هـــ، تحقيق وتقديم وتعليق: د. البدراوي زهران، ط١، دار المعارف ١٩٨٣م، ص ٣٣ – ٣٦، ويُنظـــر: د. الـــبدراوي زهران: مقدمة في علوم اللغة، ط١، دار المعارف، مصر ١٩٨١م ، ص ٩٤ .

٢٦- انظـــر مـــا قدَّمـــه عبد القاهر في " العوامل المائة " ، ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ .

٢٧- حـــول مـــا قدّمه ابن جني عن نظرية العامل يُنظر : ابن جني "أبو الفتح عـــثمان ٣٩٢هـــــ " ، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م ، ١١٠/١ " باب في مقاييس العربية " .

٢٨- العوامل المائة ، مقدمة المحقق، د. البدراوي زهران ص ٢١ ، ٢٢ .

٢٩- حـــول هـــذا الـــراي للدكـــتور كاظم بحر المرجان يُنظر: مقدمته لكتاب المقتصد، ٣٤/١ .

٣٠- حول ذلك يُنظر: إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص ١٦ ، ١٧.

٣١- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٨١، ٨٢ ، ٨٣ .

٣٢- هذا ما ذكره الدكتور/كاظم بحر المرجان في مقدمته لكتاب المقتصد ١/٣٤

٣٣- Lyons, John, Chomsky, (1991). P 15-16.

ويُنظر : د. محمد محمود غالي، أئمة النحاة، دار النشر للجامعات، مصر، ط٢ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ، ص ١٠، ويُنظر: د. عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية ١٩٨٨م ص ١١٠، ويُنظر: د. محمد عبد المطلب : البلاغة العربية قراءة أخرى، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١ ١٩٩٧م، ص ٨٩ وما بعدها.

٣٤- كما يظهر فإن لمصطلح النحو التحويلي التوليدي جانبين، الأول: تحويلي Transformational ، بدأه هاريس عام ١٩٥٢م، وجانب توليدي Generative بدأه تشومسكي عام ١٩٥٧م، ومهّد به الطريق لنحوٍ قادرٍ على توليد الجمل النحوية وتحليلها، ونظراً لاعتماد التوليد على التحويل فقد جمع بين المصطلحين وأطلق على نظريته " النحو التحويلي التوليدي " .

٣٥- أشار إلى مؤلفات تشومسكي الدكتور/ عبده الراجحي في كتابه "النحو العربي والدرس الحديث ص ١١١ " ، كما أشار إلى مؤلفات تشومسكي التي تحمل آراءه السياسية الدكتور/ حلمي خليل في ترجمته لكتاب " نظرية تشومسكي اللغوية لجون ليونز " ، ص ١٥ ، وهي :

1- Chomsky, peace in the middle east, New York, 1974.

2- ________ American power and the New Mandarins, New York, 1969.

3- ________ , At war with Asia, New York, 1969 .

٣٦- حــول ذلــك يُنظر: د. صبري إبراهيم السيد: تشومسكي ، فكره اللغوي وآراء الـنقاد فيه، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية ١٤٠٩هـــ - ١٩٨٩م ص ١٠٩ ، ويُنظـــر كذلك: جون ليونز: تشومسكي، ترجمة الدكتور/ محمد زياد كبة، ط١ ١٤٠٨هـــ ، ص ٤٠ .

٣٧- هــو بمثابة تطبيق لعملية الحالة المحدودة عند ماركوف "Markof" ، وقد بنى تشومسكي نظريته على افتراضية أن لديه آلة تعمل في عدد محدود من الحالات الداخلية، بحيث تبدأ من نقطة معينة هي الحالة الأولية Initial State وتــدور خلال سلسلة من الحالات، وتنتج كلمة في كل دورة، وتنتهي إلى ما يســمى " الحالـــة النهائية " ، ويُطلق على هذه الكلمات التي تُنتج خلال هذه الدورات جملاً، ويقوم نحو الحالة على أساس سلسلة من عمليات "الانتقاء" في اختــيار عناصر الجملة، ويتم من اليسار إلى اليمين، لمزيد من تفصيل القول حول هذا النوع يُنظر:

- Chomsky, N, Syntactic Structures, (1968) P. 18-19 , 34 .
- Lyons (John) " Chomsky " (1991) P. 51, 52, 54 .

ويُنظر: النحو العربي والدرس الحديث، ص ١٢٨ - ١٣٠ .

٣٨- نحو " بنية العبارة " أكثر قوة وقدرة على تحليل الجملة، يقول جون ليونز عـــنه : " يكـــون أكثر قبولاً، وأن أي مجموعة من الجمل التي يمكن توليدها بواســـطة الحالـــة المحدودة يمكن توليدها بواسطة " نحو بنية العبارة " وليس العكس .

- See- Lyons (John), Chomsky, (1991) P.57 .

وقد وضع مجموعة من القواعد الأساسية، ومثّل بمجموعة من الأمثلة منها :

الرجل يضرب الكرة = The man hit the ball

ويعتمد تحليله على اشتقاق أو تشكيل سطر من السطر السابق له بواسطة قــواعد إعادة الكتابة، مستعيناً في هذا النوع بالمنهج الرياضـي والمنطقي؛ إذ إن فكــرة العناصر الأساسية تشبه فكرة الأقواس في الرياضـة، كذلك استعان بفكرة "الشجرة التخطيطية " ، وضرب أمثلة لها، لمزيد من تفصيل القول يُنظر :

- See Chomsky, N, Syntactic Structure (1968), P. 26-33 .
- See : Lyons, (John), Chomsky, (1991), P. 56, 57 , 60 .

٣٩- يعكس هذا النوع من النحو لدى تشومسكي الحدس اللغوي الفطري، وهو أكثر وضوحاً من سابقيه من الوجهة الدلالية، والنحو التحويلي يضم بالإضافة إلــى القــواعد التحويلــية مجمــوعة قواعد بنية العبارة التي تعتمد القواعد التحويلــية علــى تطبيقها، وأن قواعد بنية العبارة تقوم بتوليد البنية العميقة للجملة في حين تقوم " القواعد التحويلية بتغيير وتحويل البنية العميقة " Deep Structure إلى بنية سطحية Surface Structure ، ولذلك فإن هذا النوع يكمل " نحــو بنية العبارة، وليس بديلاً عنه، وقد وسَّع تشومسكي في قواعد " نحو بنية العبارة " لتشمل : الإفراد، والجمع، والأزمنة، والأفعال المساعدة، والبناء للمجهــول لتصبح قادرة على توليد كل الجمل النحوية في اللغة، إضافة إلى القــواعد الصــرفية والصــوتية، وقد مثَّل برسم يمثل المراحل التي تمر بها الجملة خلال إنتاجها، لمزيد من تفصيل القول يُنظر المراجع التالية :

See : Wardhaugh Ronald, introduction to linguistics, Mccrow – Hill, INC, (1972). P. 108 .

See : Lyons (John), Chomsky, (1991) P. 60 , 74 .

See : Chomsky, N, Syntactic Structures, (1968) P. 111 .

ويُنظـــر: جون ليونز " تشومسكي ، ترجمة د. كبة ص ١٦٠، ويُنظر: جون ليونز: نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة وتعليق د. حلمي خليل، ط١ ، ١٩٨٥م، دار المعرفة الجامعية ص ١٤٩ .

٤٠- لمـــزيد من تفصيل القول حول هذه المرحلة والأشكال والمخططات التي تبين صورها ومكوناتها " الأساسي والتحويلي والصوتي والصرفي والدلالي"، وغير ذلك يُراجع :

- Lyons "John", Chomsky (1991). P.79 .
- Chomsky. N, Aspects of the theory of syntax, The MIT press, (1965) P. 15-16.
- And see : Crystal, D, A Dictionary of linguistics phonatics, (1985). P. 314-315.

وكـــذلك يُـــراجع: نظرية تشومسكي اللغوية، تأليف: جون ليونز، ترجمة د. حلمي خليل ص ١٦٠وما بعدها، ويُنظر: د. محمد أحمد محمد خضير، دور المدرسة التحويلية في تحليل دلالات التراكيب، مجلة علوم اللغة، ص ١١٦ وما بعـــدها، حـــيث أضـــاف تشومسكي عنصر "الدلالة" أو المعنى ، باعتباره جزءاً أساسياً في التحليل النحوي.

٤١- د. عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، ص ١١٥.

٤٢- حول هذه القواعد يُنظر:

- Bach E, An Introduction to transformational grammar holt, Rinehart and Winston, New York (1964). P.70 .

ويُنظر: د. صبري إبراهيم السيد، تشومسكي، فكره اللغوي وآراء النقاد فيه، ص ١١٨، ويُراجع : د. عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث ص ١٤٠ ، ١٤١ .

٤٣- See : Chomsky N, Syntactic Structures, [1968]. P.34 .

٤٤- See : Lyons (John) Chomsky, (1991). P.54.

٤٥- د. محمد زياد كبة في ترجمته لكتاب جون ليونز عن "تشومسكي"ص٤٥.

٤٦- Chomsky , N, Syntactic Structure (1968). P. 35 , 42 .

٤٧- شرح المفصل : ٧٤/٢ .

٤٨- سورة مريم: من الآية ٤ .

٤٩- منهج السالك على ألفية ابن مالك: ٣٤١/٢ .

٥٠- حول ذلك يُنظر: د. محمد حماسة عبد اللطيف: من الأنماط التحويلية في النحو العربي، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٩٠م ، ص ٢٥ ، ٥٤.

٥١- نفسه، ص ٣٦ .

٥٢- د. عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، ص ١٤٨.

٥٣- حول ذلك يُنظر: سيبويه، الكتاب، تحقيق هارون، ٣/١ .

٥٤- حول ذلك يُنظر: نفسه، ٤١/٢ وما بعدها .

٥٥- حول ذلك يُنظر: ابن جني: الخصائص، ٤٩/١ ، تحت عنوان: باب ذكر علل العربية أكلامية هي أم فقهية ؟ ، ويُنظر لمزيد من التفصيل: ابن مضاء "أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن اللخمي القرطبي ٥١٣ – ٥٩٢هـ ، الرد على النحاة ، دراسة وتحقيق د. محمد إبراهيم البنا، ط١ ، دار الاعتصام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، ص ١٢ – ٣٥ .

٥٦- لمزيد من التفصيل يُنظر: ابن جني الخصائص، ٤٩/١ وما بعدها.

٥٧- حول ذلك يُنظر: عبد القاهر الجرجاني، العوامل المائة ، ص ٦ .

٥٨- نفسه: ص ١١ .

٥٩- عبد القاهر الجرجاني: المقتصد في شرح الإيضاح، ٢١٣/١.

٦٠- حول ذلك يُنظر: نفسه، ١/ ٣٠٣ - ٣٠٥ .

٦١- حول ذلك يُنظر: نفسه، ٢٥٥/١ - ٢٥٧، ويُنظر: أسرار البلاغة، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م ، ص ٤٢٣ يقول : " والمبتدأ هو المعري من العوامل اللفظية " .

٦٢- المقتصد، ١٢٠/١ ، ١٢١ .

٦٣- يرى عبد القاهر أن " كأنّ " و " حسبتُ " و " خلتُ " ، و " ظننتُ " تدخل إذا كان الخبر والمفعول الثاني أمراً معقولاً ثابتاً في الجملة، راجع أسرار البلاغة ص ٣٣١.

٦٤- حول ذلك يُنظر: المقتصد، ٤٩٤/١ .

٦٥- يعني عبد القاهر بما يشابه الفعل اسم الفاعل، حول ذلك يُنظر: المقتصد ٥٠٦/١ .

٦٦- يُنظر: المقتصد ٥٠٨/١ ، ولمزيد من تفصيل القول حول حديث عبد القاهر عن نظرية العامل يُنظر: المقتصد ٨٢/١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٥٣ ، ١٧٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤، ٢٥٦، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥ ، ٤٤٧ ، ٥٠٦ . ويُنظر أيضاً : العوامل المائة ص ٤٥، ٢٩٠ ، ٢٨٩ ، وأسرار البلاغة الصفحات ٢١٨ . ٢١٩ ، ٢٣٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣١٧ ،

٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٨٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

٦٧- عبد القاهر: أسرار البلاغة ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ولمزيد من النصوص التي تؤكد إدراك عبد القاهر لهذين المستويين يُنظر: أسرار البلاغة ص ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣٦٣ .

٦٨- المقتصد : ٣٧٦/١ ، ٣٧٧ ، ولمزيد من النصوص التي تؤكد هذا الأمر يُنظر: نفسه، ٣٧٦/١ ، ٣٧٧ ، ٣٩١ ، ٥٤٠ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ .

٦٩- العوامل المائة: مقدمة المحقق د. البدراوي زهران ص ٢١.

٧٠- حول ذلك يُنظر: سيبويه، الكتاب، ١/ ٢٨ ، ١٣٤ ، ٢٧٩ ، ٤٧٥ ، وابن جني: الخصائص: ٣٦٢/٢ ، باب في شجاعة العربية " الحذف " .

٧١- حول ذلك يُنظر: د. محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أُخرى، ص ٢٢٢ .

٧٢- عبد القاهر: المقتصد ٢٨١/١، ويُنظر: ٢٨٣/١ .

٧٣- نفسه، ٣٣٧/١، ويُنظر: ٢٩٩/١، ويُنظر: د. أحمد أحمد بدوي: عبد القاهر الجرجاني ، ص ٥٢ وما بعدها .

٧٤- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص ١٤٦ .

٧٥- سورة يوسف: الآية ٨٢ .

٧٦- تحدث عبد القاهر عن هذه الآية في كتابه : المقتصد ٢٩٠/١ ، ٣٧١/١، وله حديث في ثنايا المقتصد عن الحذف بصوره الجزئية، انظر مثلاً: ٧٤/١ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢١٨ ، ٢٧٥ ، ٣٧٢ .

٧٧- عبد القاهر: أسرار البلاغة ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

٧٨- نفسه، ص ٨ .

٧٩- نفسه، ص ٤٢٠ .

٨٠- حول علاقة التركيب بالدلالة يُنظر: د. محمد عبد الرحمن الريحاني: أثر الحـذف التركيبي في التوليد الدلالي " دراسة نصية من خلال معاني القرآن للفـراء ت ٢٠٧هـ " ، بحـث منشـور بمجلة " رسالة المشرق " مركز الدراسـات الشـرقية، جامعة القاهرة، المجلد العاشر، الأعداد من الأول إلى الرابع ٢٠٠١م ، ص ٥٠٤ – ٥٨٦ .

٨١- سورة يوسف: الآية ٨٣ .

٨٢- سـورة الـنحل : الآية ١١٧، وانظر حديث عبد القاهر عن هذه الآيات، المقتصـد ١/٣٠٠ ، ٣٠١، وقـد ربط عبد القاهر بين الحذف والاتساع في مواضع من كتابه المقتصد، انظر : ١/٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١، ٣٢٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ .

٨٣- عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص ٤٢١ ، ٤٢٢ .

٨٤- د. عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، ص ١٥٤ .

٨٥- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص٤ ، ويُنظر: ص ٥ وما بعدها.

٨٦- نفسه، ص ٢٠ ، ٢١، ويُنظر: ص ١٠٩ – ١١١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .

٨٧- نفسه، ص ١٤٤ .

٨٨- عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

٨٩- نفسه، ص ١١٠ ، ١١١ .

٩٠- حول ذلك يُنظر: عبد القاهر، المقتصد ٤٩٦/١ .

٩١- نفسه،٤٩٧/١ .

٩٢- نفسه، ٤٩٧/١ .

٩٣- حـول ذلـك يُنظر: نفسه،٤٠٦/١ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩، ولمزيد من تفصيل القول في المواضع التي تحدث فيها عبد القاهر عن إعادة الترتيب في الأبـواب المخـتلفة يُنظر: نفسه، ١/ ٧٨ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢، ٣٠٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣١، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤، ٣٣٥ ، ٣٦٧، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ .

٩٤- سورة مريم: الآية ٤ .

٩٥- عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص ١٠٠ ، ١٠١، ولمزيد من تفصيل القول حـول حديث عبد القاهر عن هذه الآيات يُنظر: دلائل الإعجاز ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ٣٩٣ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٢٧ ، ٥٢١ .

٩٦- سورة القمر: الآية ١٢.

٩٧- عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص ١٠٢ .

٩٨- د. محمد عبد المطلب: البلاغة العربية، قراءة أخرى ص ٢٣٧.

٩٩- د. عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، ص ١٥٢.

١٠٠- سورة الأحقاف: الآية [٣٣] .

١٠١- حـــول ذلــك يُنظــر: المقتصد ١/٩٠، ولمزيد من هذه النماذج يُراجع: المقتصد، ١/٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٢٢، ١٦١ ، ١٧٥ ، ١٩١، ٢٨٢، ٣٢٢ ، ٣٢٣، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٤٣٦ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

١٠٢- سورة آل عمران: الآية ١٥٩ .

١٠٣- حول ذلك يُنظر: المقتصد، ١/٩١ .

١٠٤- نفسه، ١/٩١ .

١٠٥- نفسه، ١/٩١ .

١٠٦- نفسه، ١/٣٨٥ ، ولمزيد من تفصيل القول حول ظاهرة الاتساع وعلاقتها بالحذف يُنظر: نفسه، ١/٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٦، ٣٧٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ .

١٠٧- لمعرفة ذلك يُنظر: نفسه، ١/١٠٠ ، ١٤٢، ٢٤٠ ، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥ ، ٢٤٦، ٢٩٥ ، ٣٨٥ ، ٤٤٧ .

١٠٨- نفسه، ١/٢٤٠ .

١٠٩- سورة يونس : الآية ٦٧، سورة النمل: الآية ٨٦، سورة غافر: الآية٦١.

١١٠- المقتصد: ١/٢٤٢، ٢٤٣ .

١١١- نفســـه، ١/٢٤٤ ، ولمزيد من تفصيل القول حول الاتساع يُنظر: أسرار البلاغة: ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٣٧٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢١.

١١٢- حول ذلك يُنظر: المقتصد، ١/٥٩٢، ويتحدث عبد القاهر عن قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ في كتابه أسرار البلاغة، ويرى أن " ما" إذا كانت تأكيداً فهذا يُعدّ نقلاً لها عن أصلها ومجازاً فيها، وكون الباء المزيدة في "ليس

زيـد بخارج " لتأكيد النفي مجاز في الكلمة؛ لأن أصلها أن تكون للإلصاق، يقـول عبد القاهر: "فإن ذلك على بُعده لا يقدح فيما أردت تصحيحه، لأنه لا يُتصوّر أن تصف الكلمة من حيث جُعلت زائدة بأنها مجاز، ومتى ادّعينا لها شـيئاً من المعنى، فإنّا نجعلها من تلك الجهة غير مزيدة " . أسرار البلاغة، ص ٤١٩ ، ويُنظر: ص ٤٢٠ .

١١٣- المقتصد: ٥٩٣/١.

١١٤- حول ذلك يُنظر: نفسه، ٢١٨/١ ، ٣١٢، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢.

١١٥- حول ذلك يُنظر: نفسه، ٣٧٦/١ ، ٣٧٧ .

١١٦- نفسه، ٣٧٧/١ .

١١٧- نفســه، ٣٥٣/١ ، ٣٥٤، ولمزيد من حديث عبد القاهر يُنظر: نفسه، ١/ ٣٤٧ ، ٣٥٥، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩، ٣٧٦، ٣٧٧ ، ٦٠٣.

١١٨- نفسه، ٤١٤/١.

١١٩- حول ذلك يُنظر: نفسه، ٤١٤/١.

١٢٠- حول ذلك يُنظر: نفسه، ٤١٤/١ .

١٢١- سورة الزخرف: الآية ٧٦.

١٢٢- سورة الأنبياء: الآية ٦٤ .

١٢٣- المقتصد: ٤١٧/١ .

١٢٤- نفسه، ٤١٧/١، وللمزيد من حديث عبد القاهر، يُنظر: ٤٢١/١، ٤٢٦ .

١٢٥- د. عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، ص ١٤٤ .

١٢٦- حول ذلك يُنظر: الأنباري، كمال الدين عبد الرحمن [٥١٣ - ٥٧٧هـ] ، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ، الجزء الأول، المسألة الأولى، [الاختلاف في أصل اشتقاق الاسم] ، ص ٦، و [التصغير يرد الأشياء إلى أصولها]، ص ١٣، و [الأصل في تحمل الضمير هو الفعل] ، المسألة السابعة ص ٥٦ ، و [الأصل في الأسماء ألا تعمل] ، المسألة الحادية عشرة ص ٨٠، و [اسم الفعل فرع في العمل على الفعل]، المسألة السابعة والعشرون ص ٢٢٩، و [أصل الاشتقاق الفعل أم المصدر] ، المسألة الثامنة والعشرون ص ٢٣٥ ، و [الأصل في الأفعال البناء]، المسألة الحادية والسبعون، ٥٣٤/٢، ، و [أصل الحركة همزة الوصل] ، المسألة السابعة بعد المائة، ٧٣٧/٢، ... إلخ هذه الخلافات حول قضية الأصلية والفرعية.

١٢٧- د. عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، ص ١٤٣ ، ١٤٤.

١٢٨- المقتصد: ٥٠٨/١، ويُنظر: ٥٣٣/١.

١٢٩- نفسه، ٢٦٧/١، ويُنظر: ٢٨٠/١ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ .

١٣٠- نفسه، ٤٣٣/١.

١٣١- نفسه، ٤٤٤/١ .

١٣٢- حول الموازنة التي عقدها عبد القاهر بين التشبيه والتمثيل يُنظر: أسرار البلاغة ص ٢٠٤، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦ .

١٣٣- نفسه، ص ٢٣٦.

١٣٤- المقتصد: ١/١١١ .

١٣٥- نفسه، ١/١١١ .

١٣٦- نفسه، ١/١١١ .

١٣٧- نفسه، ١/١١٢، ولمزيد من التفصيل يُنظر: ١/١١٥، ١٢٧ ، ١٦٨، حيث يرى عبد القاهر أن الإعراب في الفعل فرعٌ على الإعراب في الاسم، ويُنظر : ١/١٨٠ أيضاً، ١/٥٥٣ ، ٥٥٤، حيث يرى أن ما ذكره يتعلق بالاشتقاق، ولا يــتعلق بالعمل؛ فالمصادر فروع على الأفعال في العمل، والأفعال فروع على المصادر في الاشتقاق، وذاك أن المصادر أسماء معلقة على أشياء فهي كــالغلام والرجل والثوب والدار في أنها لا أصل لها في العمل وإنما تعمل لمشابهتها للأفعال في تضمن حروفها.

١٣٨- نفسه، ١/١٠٦ .

١٣٩- نفسه، ١/١٠٧ ، ١٠٨ ، ويُنظر: ١/١٣٢ ، ١٣٣ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، حيث يــرى عــبد القاهر أن أسماء الأفعال فروع على الأفعال؛ لأنها لا تتصرف تصرفها .

رابعاً: أهم المراجع :

أولاً : العربية:

- **إبراهيم مصطفى** : إحياء النحو، دار الآفاق العربية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

- **د. أحمد أحمد بدوي**: عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، سلسلة أعلام العرب [٨]، الناشر: مكتبة مصر.

- **الأشموني**: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك منهج السالك على ألفية ابن مالك، حققه وشرح قواعده د. عبد الحميد السيد عبد الحميد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.

- **ابن الأنباري : [أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ٥١٣ - ٥٧٧هـ] :**

- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، طبعة عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

- نُزْهة الألَبَّاء في طبقات الأدباء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

- **د. البدراوي زهران**:مقدمة في علوم اللغة، ط١، دار المعارف،مصر ١٩٨١م.

- **تاج الدين السُبْكي**: طبقات الشافعية، المطبعة الحسينية المصرية، ط١ ، ١٣٢٤هـ .

- **جمـــال الدين أبو الحسين علي بن يوسف القفطي ت ٦٢٤هـــ**: إنباه الرواة علـــى أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـــ - ١٩٨٦م.
- **ابن جنـي : [أبو الفتح عثمان ٣٩٢ هــ] :**
- الخصــــائص، تحقــيق: محمد علي النجار، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م .
- **جون ليونز** : تشومسكي، ترجمة الدكتور/ محمد زياد كبة، ط١، ١٤٠٨هـــ.
- نظـــرية تشومســـكي اللغوية، ترجمة وتعليق د. حلمي خليل، ط١ ، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٥م .
- **خير الدين الزركلي**: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمســـتعربين والمستشرقين، ط٣، بيروت ١٣٨٩ هـــ - ١٩٦٩م .
- **ســـيبويه [أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر] ١٨٠هـــ** : الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢ ١٩٧٩م .
- **د. صـــبري إبـــراهيم السيد**: تشومسكي، فكره اللغوي وآراء النقاد فيه، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٤٠٩هـــ - ١٩٨٩م .
- **عبد القاهر الجرجاني ٤٧١هـــ :**
- أســـرار البلاغة، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطـــبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة، ط١ ، ١٤١٢هـــ - ١٩٩١م .

- دلائل الإعجاز، تعليق: محمود محمد شاكر، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م .

- العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية، شرح الشيخ خالد الأزهري الجرجاوي ٩٠٥هـ، تحقيق وتقديم وتعليق: د. البدراوي زهران، ط١، دار المعارف ١٩٨٣م .

- المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق: الدكتور/ كاظم بحر مرجان، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر ١٩٨٢م، سلسلة كتب التراث ١١٥ .

- **د. عبد الله أحمد جاد الكريم حسن:** المنهج التحويلي في النحو العربي، بحث منشور بمجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد ٣١، عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م .

- **د. عبده الراجحي:** النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ١٩٨٨م .

- **أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي:** شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة القاهرة ١٣٥٠هـ.

- **فيشر:** دراسات عربية وسامية، تحرير أ.د. محمود فهمي حجازي، مركز اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٩٤م.

- **د. محمد أحمد خضير:** دور المدرسة التحويلية في تحليل دلالات التراكيب، بحث منشور بمجلة علوم اللغة، المجلد الخامس، العدد الثالث، دار غريب للطباعة والنشر والتوريع ، ٢٠٠٢م .

- **محمد بن شاكر الكتبي**: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ودار الثقافة، د.ت .

- **د. محمد حماسة عبد اللطيف**: من الأنماط التحويلية في النحو العربي، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٩٠م.

- **ابن مضاء القرطبي [أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن اللخمي ٥١٣ – ٥٩٢هـ]** : الرد على النحاة، دراسة وتحقيق: د. محمد إبراهيم البنا، ط١، دار الاعتصام ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

- **د. محمد عبد الرحمن الريحاني**: أثر الحذف التركيبي في التوليد الدّلالي، دراسة نصية من خلال معاني القرآن للفرّاء ت ٢٠٧هـ، بحث منشور بمجلة رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، المجلد العاشر، الأعداد الأول إلى الرابع، ٢٠٠١م .

- **د. محمد عبد المطلب**: البلاغة العربية قراءة أخرى، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١، ١٩٩٧م .

- **د. محمد محمود غالي**: أئمة النحاة، دار النشر للجامعات، مصر، ط٢، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م .

- **ابن يعيش**: شرح المفصل، مكتبة المتنبي، د.ت .

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1- Bach, Emmon : An Introduction to Transformational grammars, hot Rinehart and Winston, Inc : New York, 1964.

2- Chomsky, Noam :

- Aspects of the theory of syntax, the M.I.T. press, (1965).
- Syntactic structures, (1968) .

3- Crystal, David :

- A dictionary of linguistics phonetics, (1985) .

4- Lyons, John :

- Chomsky, (1991) .

5- Wardhaugh, Ronald :

- Introduction to linguistics, Mccrow – Hill, INC, (1972).

الهجاء في شعر المرأة

د. على جاد الحق سعيد

الأستاذ المساعد بكلية الدراسات الإسلامية بقنا

المقدمة

هذه الدراسة تحاول استكشاف فن الهجاء فى شعر المرأة العربية. والهجاء فن أساسى من فنون الشعر العربى يعبر قائله من خلاله عما يجيش ويعتمل فى وجدانه، وهو نجوى الذات الذى ينبعث من أغوار النفس ليصور ما حولها ويجسد الواقع ويعكس أصداءه المتباينة «فقبل أن يكون الشعر ديوان العرب كان ديوان النفس البشرية ومرآة المستوى الفكرى وميزان التطور الاجتماعى»(١).

«ومن ثم كان الهجاء واحداً من فنون الشعر العربى فى العصر الجاهلى، وكان يعتمد على سلب الفضائل والرمى بالنقائص المتعارف عليها فى البيئة الجاهلية..؟»(٢).

وإذا كان العصر الجاهلى شهد ميلاد فن الهجاء، ففى العصر الأموى بلغ أوج قوته.

«على أن هذا الفن عاش عصره الذهبى فى فترة الحكم الأموى، حين قامت المناقضات بين جرير والفرزدق وغيرهما من الشعراء...»(٣).

---

(١) خواطر الحياة ـ المقدمة ـ لمحب الدين الخطيب ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٦٦هـ.

(٢) الأدب العربى فى الجاهلية وصدر الإسلام صـ ٧٢ د. إبراهيم عوضين الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ مطبعة السعادة بالقاهرة.

(٣) نظرية الشعر فى النقد العربى القديم صـ ٢٧٠ د. عبد الفتاح عثمان مكتبة الشباب.

ويعرف الدكتور محمد حسين الهجاء بقوله: «اصطلح الناس على أن الهجاء فن الشتم والسباب، وهو نقيض المدح كما يقول قدامة»[1].

يقول قدامة بن جعفر: «وليس الهجاء إلا سلب هذه الفضائل عن المهجو»[2].

والفضائل التى يشير إلى سلبها قدامة بن جعفر هى: «العقل والشجاعة والعدل والعفة.

وإذا كان الهجاء سلب الفضائل وفن الشتم والسباب، فلم يكن هذا الفن حكراً على الشعراء من الرجال، بل لقد أسهمت فيه المرأة الشاعرة وضربت فيه بسهم وافر منذ فجر الشعر العربى.

وأكدت من خلال هذا الإسهام أنها لا تقل بحال عن الشعراء الرجال فى هذا المضمار بل كانت من بينهن من تفوقت على كثير من شعراء الهجاء، ومنهن على سبيل المثال: عفيرة بنت عفان، وحميدة بنت النعمان، ونزهون القلاعية، وولادة بنت المستكفى شاعرة قرطبة والأندلس، والأخيرة عند الدكتور الشكعة «أهجى من نزهون بل إننى لا أتردد فى أن أجعلها فيما قالت أهجى من حماد عجرد، وهو يهجو بشار بن برد»[3].

وعلى ضوء ذلك التفسير يمكن أن نتعرف إسهام المرأة العربية فى شعر الهجاء وبراعتها وقدرتها على التميز فيه.

---

(١) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية صـ ٥ د. محمد محمد حسين دار النهضة بيروت الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ.

(٢) نقد الشعر صـ٩٢ لأبى الفرج قدامة بن جعفر تحقيق كمال مصطفى الطبعة الثالثة مكتبة الخانجى بالقاهرة.

(٣) الأدب الأندلسى صـ ١٨٦ د. مصطفى الشكعة دار العلم للملايين. بيروت لبنان الطبعة السادسة ١٩٨٦م.

ولعل هذا كان من دوافع اختيارى لأن يكون فن الهجاء عند المرأة فى الشعر العربى القديم موضوعاً للدراسة، بالإضافة إلى إغفال الدراسات الأدبية القديمة والحديثة هذا الجانب من شعر المرأة، حيث لم تُفَرَد له دراسة فى حدود ما وقفت عليه، ولم يحظ هذا الغرض الفنى من شعر المرأة العربية بجهد متكامل فى دراسة مستقلة من منظور فنى محض، لأن هذا الفن يتطلب دراسة فنية متأنية بالرغم من كثرة ما دفعت به إلينا مصادرنا الأدبية المتنوعة من رصيد شعرى هائل للمرأة فى مختلف العصور.

ومن بين المصادر القديمة التى شغلت بأخبار المرأة وشعرها على اختلاف عصورها كتب الاختيارات الشعرية كالمفضليات والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب، ومنها ما شغل بالترجمة للنساء الشاعرات على طريقة كتاب «طبقات فحول الشعراء» وكتاب «الشعر والشعراء» لابن قتيبة، وكتاب الأغانى للأصفهانى الذى يحتوى على كثير من أخبار المرأة الشاعرة على مدار أجزائه، أو ما نهض به المرزبانى فى كتابه من جمع «لأشعار النساء» وابن طيفور فى كتابه «بلاغات النساء»،والمقرى فى «نفح الطيب» والسيوطى فى «نزهة الجلساء فى أشعار النساء»، كثيرة إذن هى المصادر القديمة التى شغلت بأخبار المرأة وشعرها على اختلاف عصورها ومكانتها فى الشعر. وهو ما أكملته اهتمامات الدراسات الحديثة بالدور البارز فى الإسهام فى رصد ذلك الشعر النسائى وإعادة طرحه فى زحام الحركة الأدبية ومن بين هذه الدراسات الحديثة.

«الدر المنثور فى أخبار ربات الخدور» لزينب فواز(١).

---

(١) مطبعة بولاق ١٩١٢م.

«شاعرات العرب فى الجاهلية والإسلام» بشير يموت[1].

«المرأة فى الشعر الجاهلى» للدكتور أحمد الحوفى[2].

«الشاعرات من النساء: أعلام وطوائف» لسليم التنير[3].

«معجم الأديبات الشواعر» لمحمد الحسن الحموى الحسينى[4].

«الشعر النسائى فى أدبنا القديم» دكتورة مىّ خليف[5].

واستكمالاً لتلك الجهود السابقة وملئاً للفجوة السحيقة فى دراسة «فن الهجاء فى شعر المرأة كانت هذه الدراسة للكشف عن بعض مجاهل هذا الفن فى شعرها، بوصفه انعكاساً طبيعياً عن المرأة، وتحقيقاً لهذه الغاية كانت هذه الدراسة، وكان رائدى فيها ربط هذا الفن من فنون الشعر العربى بالحياة العامة عند المرأة فى مناحيها الأسرية والقومية والسياسية.

ومن ثم قامت خطة هذه الدراسة على ما يلى:

مقدمة: أشارت إلى أصالة فن الهجاء فى الشعر العربى، وأسباب الاختيار والدراسات السابقة فى القديم والحديث.

كما تضمن البحث عدة فكر رئيسة هى:ـ

أولاً: دور المرأة فى الشعر العربى القديم.

ثانياً: بواعث الهجاء ومكانته فى شعر المرأة.

---

(٢) المكتبة الأهلية ١٩٣٤م.

(٢) نهضة مصر ١٩٧٢م.

(٣) دار الكتاب العربى دمشق سوريا ١٩٨٨م.

(٤) دار الثقافة العربية دمشق الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

(٥) دار غريب بالقاهرة د. ت.

ثالثاً: اتجاهات الهجاء فى شعر المرأة.

رابعاً: سمات الهجاء فى شعر المرأة.

ولعلى استطعت من خلال هذه الأفكار أن أرسم صورة علمية واضحة لفن الهجاء عند المرأة فى الشعر العربى القديم.

وبعد فليس إدعاء أن أقول: إن هذا البحث قد جاء جديداً فى عرضه وطريقة تناوله، وهو ليس إلا جهداً متواضعاً أضيفه إلى تلك الجهود القيمة التى تبذل فى حقل الدراسات الأدبية، وثمرة يانعة أقدمها فى خدمة تراثنا العربى النفيس.

والله أسأل أن يلهمنى السداد فى القول وبلوغ الغاية فى العمل

إنه حسبى ونعم الوكيل

د. على جاد الحق

أولاً: دور المرأة فى الشعر العربى القديم:

دنيا الشعر والأدب ليست قاصرة على الرجال وحدهم، فالتاريخ الإنسانى حافل بكاتبات وشواعر عبرن عن شعورهن فى أسلوب عذب رقيق، وأسهمن فى بناء النهضة الفنية والفكرية والأدبية.

«عرف تاريخ آداب العرب منذ زمن بعيد إسهام المرأة فى فنون القول المعروفة عند القوم، حتى أضاء فجر الإسلام الدنيا، رأينا من النساء من كانت راوية حديث رسول الله ﷺ،ومن كانت شاعرة كبيرة يستنشدها النبى الكريم عليه الصلاة والسلام شعرها ويواصل الاستماع إليها»(١).

والذى يهمنا من فنون القول التى أسهمت فيها المرأة العربية «فن الشعر» لنتبين حجم هذا الإسهام ونتوقف عند طبائعه التى تحكيها لنا المصادر والمراجع.

«استطاعت المرأة العربية أن تفرض وجودها المتميز فى زحام الحركة الأدبية، وضجيج مذاهبها واتجاهاتها، على مدار العصور المختلفة، وهو وجود تكرر ظهوره فى مجالات الحياة المتعددة، إذا أخذنا بما تمدنا به المصادر من أخبار حول دور المرأة العربية فى حياة المجتمع القديم»(٢).

وتمدنا المصادر بفيض عن أخبار المرأة فى المجتمع العربى القديم تكشف عن المكانة التى أسهمت بدورها فى حركة الشعر من حولها بخاصة حيث نجد فى هذه الأخبار ما يشير إلى الاعتداد بمكانة المرأة

(١) التفكير النقدى عند العرب صـ ٩٨، ٩٩ د. عيسى العاكوب دار الفكر المعاصر دمشق سورية الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

(٢) الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ١٥ د. مى خليف دار غريب للطباعة. بالقاهر.

الشاعرة، ابتداء من إنشادها للشعر، وشهودها منتديات الشعراء، ووفودها على الخلفاء والأمراء، إلى المجالس الأدبية التى تقوم بإدارتها، فتعبر عن وجودها وتميزها، وتعتد بمكانتها. ومراسلات الشعراء لها، والحوار الذى يدور «بين الشاعر والمرأة وتهاجيها مع الشعراء، وشهادة الشعراء للشاعرة، أو تحولها إلى ناقدة للشعر إلى جانب كونها مبدعة فيه.

«وكانت المرأة تحتل موقعها البارز من خلال حضورها المتميز فى وجوه النشاط الإنسانى فضلاً عن قدرتها على تشخيص قيم الاستقرار ودفء المشاعر الإنسانية فى بيئة تقفر من مظاهر لين العيش أو تكاد[1].

وعندما نتأمل دور المرأة الشاعرة نجد لها مكاناً بارزاً فى المصادر القديمة حاولت الترجمة لها، أو حرصت على التوقف عند أخبارها. وقد سبقت الإشارة فى المقدمة إلى بعض هذه المصادر والدراسات الحديثة التى دارت حول شعر المرأة.

وفى زحام هذا الكم من الدراسات الأدبية نجد المرأة شغلت موضوعاً للدرس على مدار عصور الأدب المختلفة.

يقول الدكتور الحوفى: «إن النساء فى العصر الجاهلى كن ملهمات للشعراء، أعظم منهن منتجات للشعر وناقدات»[2].

وكون المرأة فى العصر الجاهلى ملهمة للشاعر لا يقلل من قدرتها على قرض الشعر أو يحط من مكانتها شاعرة تعبر عما يجيش فى صدرها ويعتمل فى وجدانها، والدكتور الحوفى فى كتابه «المرأة فى الشعر

---

(١) دراسات نقدية فى الأدب العربى صـ ٦٧ د. عبد الله الجادر مطبعة دار الحكمة ـ الموصل ١٩٩٠م.

(٢) المرأة فى الشعر الجاهلى صـ٦٨٨ د. أحمد الحوفى، نهضة مصر ١٩٧٢م.

الجاهلى، كشف عن صورة المرأة الشاعرة وكذلك ما فعله الدكتور الهاشمى وغيرهما من دارسى العصر الجاهلى.

وتكثر الشواهد والأمثلة الدالة على مكانتها فى الشعر الجاهلى فيبدو شعر المرأة عنصراً بارزاً فيه.

وما حفلت به المصادر القديمة من أشعار فى الجاهلية والإسلام كالأغانى، بل لقد ألف المرزبانى كتاباً فى ثلاثة أجزاء وجمع فيه كثيراً من شعرهن أسماه «أشعار النساء» وذكر ابن سلام فى طبقاته: الخنساء بعد الطبقة العاشرة، وعدها فى طبقات أصحاب المرأثى بعد تميم بن نويرة(١).

وإعجاب النابغة الذبيانى بشعر الخنساء وقوله لها: اذهبى فأنت أشعر من كانت ذات ثديين، ولولا هذا الأعمى أنشد لى قبلك، يعنى الأعشى، لفضلتك على شعراء هذا الموسم، فإنك أشعر الإنس والجن(٢).

وفى عصر صدر الإسلام طرأ على الإبداع الشعرى عند المرأة تطور كشفت عنه تلك الدراسات التى تناولت فترة الخضرمة بين الجاهلية والإسلام الذى تجلى بصورة واضحة فى موقف المرأة المسلمة فى الدفاع عن الدعوة والإسهام الفعلى لشعرها فى غزوات الإسلام وفتوحاته ومنهن:

أمامة الريذية: كانت شاعرة من شواعر العرب، وكانت صحابية محدثة أخذ عنها جملة من المحدثين، ويروى أنها قالت: لما قتل سالم بن عمير أبا عفك أحد بنى عمرو بن عوف وكان من المنافقين، وظهر نفاقه،

---

(١) طبقات فحول الشعراء صـ ٢٠٣ لابن سلام تحقيق محمود شاكر.
(٢) الأغانى جـ٩ صـ ٣٣٠ لأبى الفرج ثم انظر تاريخ النقد الأدبى عند العرب صـ ٢٨ ـ ٢٩ د. عبد العزيز عتيق.

فقال رسول الله ﷺ من لى من هذا المنافق الخبيث، فخرج إليه سالم بن عمير فقتله فقالت فى ذلك(١).

تكذب دين الله والمرء أحمدا ... لعمرى الذى أمناك أن بئس ما يمنى
حباك حنيف آخر الدهر طعنة ... أبا عفك خذها على كبر السن

وتملأ الفرحة قلب أمامة وتقر عينها بقتل عدو الله «أبى عفك» على يد رجل حنيف مسلم سالم بين عمير ـ رضى الله عنه.

ومنهن خزانة ابنة خالد بن جعفر بن قرط، كانت من الأدب على جانب عظيم، ومن الفصاحة والبلاغة على جانب أعظم، والفروسية عندها زائدة حضرت فتوح العراق مع سعد بن أبى وقاص، وخاضت معه المعامع، وحضرت فتوح الحيرة، وحينما استشهد خمسمائة وثلاثون فارساً من المسلمين قالت ترثيهم(٢).

أيا عين جودى بالدموع السواجم ... فقد شرعت فينا سيوف الأعاجم
فكم من حسام فى الحروب وذابل ... وطرف كميت اللون صافى الدعائم
حزنا على سعد وعمرو ومالك ... وسعد مبيد الجيش مثل الغمائم
هم فتية غر الوجوه أعزة ... ليوث لدى الهيجاء شعث الجماجم

وتمتزج مشاعر الإعجاب بشجاعة هؤلاء الشهداء الأبطال الذين سقطوا فى ساحة الوغى وهم فتية يتصفون بالعزة والمنعة، وأنهم ليوث فى الجرأة والأقدام والشجاعة لا يهابون الموت فى سبيل الدفاع عن دينهم

---

(١) السيرة النبوية جـ٢ صـ١٣٦ لابن هشام، والروض الآنف ٤٩٩/٧ والإصابة فى تمييز الصحابة ١٣/١٢ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ٨٨.
(٢) معجم الأديبات الشواعر صـ ٢٠٥.

لتكون كلمة الله هى العليا بعاطفة الحزن على فراق هؤلاء الأبطال وتؤكد هذا بقولها(١).

طوى الدهر بينى وبين أحبة | بهم كنت أعطى ما أشاء وأمنع
فلا يحسب الواشون أن قناتنا | تلين ولا أنا من الموت نجزع
ولكن للألاف لابد لوعة | إذا جعلت أقرانها تتقطع

وما نقلته إلينا كتب السير والأخبار ـ عن خولة بنت الأزور الكندى، أخت ضرار بن الأزور ـ من مواقف تشهد لها بالشجاعة والجرأة والأقدام فى حروب الشام ومصر، وكانت تفوق الرجال فى الفروسية والبسالة، ولها وقائع مشهورة فى وقعة أجنادين لما أسر أخوها ضرار بن الأزور، وأيضاً ما ظهر من بسالتها يوم أسر النسوة فى وقعة «صحورا» من أعمال الشام، وقد جمعت النسوة، وقامت فيهن خطيبة وهجمت خولة وهجم النساء وراءها، وقاتلن حتى استخلصت النسوة من أيدى الروم، وخرجت وهى تقول:

نحن بنات تبع وحمير | وضربنا فى القوم ليس ينكر
لأننا فى الحرب نار تسعر | اليوم تسقون العذاب الأكبر

ومن قولها حين أسر ضرار فى مرج دابق(٢):

ولم أنس إذ قالوا ضرار مقيد | تركناه فى دار العدو ويممنا
فما هذه الأيام إلا معارة | وما نحن إلا مثل لفظ بلا معنى
أرى القلب لا يختار فى الناس غيرهم | إذا ما ذكرهم ذاكر القلب المضنى
سلام على الأحباب فى كل ساعة | وإن بعدوا عنا وإن منعوا منا

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) فتوح الشام جـ١ صـ ٢٨٥ للواقدى.

ووقائع خولة بنت الأزور ومواقفها كثيرة، وقد أبلت بلاء حسناً في فتوح الشام ومصر وعمرت طويلاً، وكانت وفاتها في أواخر خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، فعلى مثل هذه يأسف كل ذي قلب إلى يوم القيامة رحمها الله رحمة واسعة(١).

أما عن مكانة المرأة ومشاركتها في الشعر الأموي، فتقول الدكتورة مي خليف: يقل عدد الشاعرات، ويقل إبداعهن المرصود في مصادرنا الأدبية، في مقابل ازدياد مكانة المرأة موضوعاً للشعر في ظل التخصص البيئي عند كثير من شعراء العصر، ممن لا شأن لهم إلا بالنساء، سواء منهم شعراء الغزل العذري، أو الغزل اللاهي(٢).

وعلى الرغم من ازدياد مكانة المرأة موضوعاً للشعر في العصر الأموي في ظل التخصص كانت مكانتها شاعرة وناقدة ـ مرموقة في هذا العصر، ولم يؤثر الاتجاه الغزلي في الشعر الأموي على هذه المكانة، ويرجع قلة المرصود من إبداع المرأة في المصادر الأدبية إلى فقده، أو قصور في رصده وتسجيله.

ومن هؤلاء الشاعرات الموصوفات بالأدب، اللائي لهن اليد الطولى بالنظم والنثر مع رقة المعنى ودقة المبنى والحماسة الزائدة التي تقصر عنها حماسة الرجال:

الشاعرة أم سنان ابنة خيثمة تمدح آل البيت، وتحرض آل مزحج على نصرتهم إذ تقول(٣).

---

(١) معجم الأديبات الشواعر صـ٢٠٩، ٢١٠.
(٢) الشعر النسائي في أدبنا القديم صـ٥١.
(٣) شاعرات العرب صـ١٨٣ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ٦٦.

عزب الرقاد فمقلتي لا ترقد والليل يصدر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لا مقام فشمروا إن العدو لآل أحمد يقصد
هذا على كالهلال تحفه وسط السماء من الكواكب أسعد
خير الخلائق وابن عم محمد إن يهدكم بالنور منه تهتدوا
ما زال مذ شهد الحروب مظفرا والنصر فوق لوائه ما يفقد

وعندما وفدت على معاوية بن أبى سفيان... فانتسبت فعرفها، فقال لها، مرحبا يا ابنة خيثمة، ما أقدمك أرضنا! وقد عهدتك تشتمينا، وتحضين علينا عدونا! وأنشدها قولها السابق قالت قد كان ذلك... فقال رجل من جلسائه وهى القائلة(١).

إما هلكت أبا حسين فلم تزل بالحق تعرف هاديا مهديا
فاذهب عليك صلاة ربك ما دعت فوق الغصون حمامة قمريا
قد كنت بعد محمد خلفا كما أوصى إليك بنا فكنت وفيا
فاليوم لا خلف نؤمل بعده هيهات نمدح بعده إنسيا

واعتذرت إلى معاوية، فقبل شفاعتها، وأمر لها براحلة، وخمسة آلالاف درهم وانصرفت إلى قومها(٢).

ومن هؤلاء الشاعرات بكارة الهلالية حين برزت فى العصر الأموى وشاركت بشعرها فى أحداث هذا العصر، وكان لها صدى فى شعرها نقلته كتب الأخبار وكانت من نساء العرب الموصوفات بالشجاعة والإقدام والفصاحة، والشعر والنثر والخطابة، حضرت مع على بن أبى طالب ـ

---

(١) شاعرات العرب صـ١٨٣.
(٢) بتصرف معجم الأديبات الشواعر صـ٦٧، ٦٨.

رضى الله عنه ـ حرب صفين، ولها هناك مقالات جعلت كل من سمعها يقدم على الهلاك بدون مبالاة بالعواقب، وقد دخلت على معاوية، وهو يومئذ بالمدينة، وكانت قد أسنّت وعشى بصرها، وضعفت قوتها، فسلمت وجلست فرد عليها معاوية السلام، وقال: كيف أنت يا خالة؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين... فقال عمرو بن العاص: هى والله يا أمير المؤمنين القائلة(١).

يا زيد دونك فاحتفر من دارنا — سيفا حساما فى التراب دفينا
قد كنت أدخره ليوم كريهة — فاليوم أبرزه الزمان مصونا

وقال مروان بن الحكم: هى والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أترى ابن هند للخلافة مالكا — هيهات ذاك وإن أراد بعيد
منتك نفسك فى الخلاء ضلالة — أغراك عمرو للشقا وسعيد
فارجع بأنكد طائر بنحوسها — لاقت عليا أسعد وسعود

وقال سعيد بن العاص: هى والله القائلة:

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى — فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخر مدتى، فتطاولت — حتى رأيت من الزمان عجائبا
فى كل يوم للزمان خطيبهم — بين الجميع لآل أحمد عائبا

ثم سكتوا فقالت: يا معاوية كلامك أعشى بصرى، وقصر حجتى، أنا والله قائلة ما قالوا، وما خفى عليك منى أكثر، فضحك وقال: ليس يمنعنا ذلك من برك.

---

(١) أخبار الوافدات صـ٧١ وبلاغات النساء صـ٤٠، والعقد الفريد جـ١ صـ٢٩٣ شاعرات العرب صـ١٨٥

اذكرى حاجتك قالت: أما الآن فلا والله، وانصرفت فوجه إليها معاوية بجائزة سنية(١).ومن هؤلاء الشاعرات اللائى سجلن مشاركة بارزة فى الشعر الأموى تكشف عن مكانة المرأة الشاعرة ودورها فى أحداث العصر ـ الرباب بنت امرئ القيس ـ زوجة الحسين بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ رثت زوجها الحسين حين قتل فقالت(٢) :

إن الذى كان نورا يستضاء به ... بكر بلاء قتيل غير مدفون
سبط النبى جزاك الله صالحة ... عنا وجنبت خسران الموازين
قد كنت لى جبلا صعبا ألوذ به ... وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن ... نعنى ويأوى إليه كل مسكين
والله لا أبتغى صهرا بصهركم ... حتى أغيب بين الرمل والطين

ولابنة عقيل بن أبى طالب فى وقعة كربلاء بعد مقتل الحسين عليه السلام إذ قالت(٣) :

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى ... منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزاء لى إذ نصحت لكم ... أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

ومنهن أيضاً: سودة ابنة عمارة بنت الأشتر الهمدانية! كانت أديبة عاقلة شاعرة، وفدت على معاوية بن أبى سفيان، فاستأذنت عليه، فأذن

---

(١) معجم الأديبات الشواعر صـ ١٢٦ : ١٢٨ .
(٢) الأغانى ١٦/ ٩١ ـ ٩٢، وفى شاعرات العرب صـ ١٧٢ وأعلام النساء جـ١ صـ٤٣٨ .
(٣) الكامل فى التاريخ جـ٤ صـ ٨٩، وتاريخ بن عساكر جـ٣ صـ١٢٣، ١٢٤ قسم تراجم النساء تحقيق الشهابى الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٢ .

لها، فلما دخلت عليه سلمت، فقال لها: كيف أنت يا بنت الأشتر؟ قالت بخير يا أمير المؤمنين، قال لها: أنت القائلة يوم صفين(١):

شمر كفعل أبيك يا بن عمارة	يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر عليا والحسين ورهطه	واقصد لهند وابنها بهوان
إن الإمام أخا النبى محمد	علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه	قدما بأبيض صارم وسنان

فقالت يا أمير المؤمنين: مات الرأس، وبتر الذنب، فدع عنك تذكار ما قد نسي. قال: هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى، قالت: صدقت ـ والله ـ يا أمير المؤمنين ما كان أخي خفي المقام، ذليل المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

وإن صخرا لتأتم الهداة به	كأنه علم فى رأسه نار

وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائى مما استعفيته، قال: قد فعلت.

وكانت سودة بنت عمارة، قدمت على معاوية لتشكو عامله ابن أرطاة، وقد أغلظت القول لمعاوية بقولها: «ولو لا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإما عزلته فشكرناك، وإما أبقيته فعرفناك! فقال معاوية: إياى تهددين بقومك؟ والله لقد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك، فسكتت، ثم قالت:

صلى الإله على روح تضمنه	قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى به ثمنا	فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال: ومن ذلك؟ قالت: على بن أبى طالب، رحمه الله تعالى.

---

(١) العقد الفريد جـ١ صـ ٢٩١ وبلاغات النساء صـ٣٥ والوافدات على معاوية صـ٦٧.

وما زالت سودة ـ رضى الله عنها ـ تحاور معاوية، حتى أمر لها بحاجتها، وانصرفت(١) وهناك العديد من النماذج التى تؤكد مشاركة المرأة ودورها فى الشعر السياسى فى هذا العصر، وقد ازدحمت الدواوين الشعرية بمادة هذا الشعر، وبخاصة نساء الخوارج وكثرة مشاركتهن فى شعر هذا العصر للدفاع عن نظرية الخوارج فى خلافة المسلمين.

وتقول مى خليف: «وتكاد رسالة شعر المرأة تختلف فى هذا العصر، عما نراه من رسالة شعر جيل السلف، أعنى بذلك ما كان من مشاركات نادرة لنساء أمويات فى شعر السياسة أو الفرق الدينية، التى عرفت بها البيئة الأموية وازدحمت بمادتها دواوين الشعراء»(٢).

ثم تعود فتؤكد ما تقول: «ففى زحام هذا الالتزام وذلك الدفاع عن النظرية نجد المرأة تسجل مشاركة بارزة لا يحسن إغفالها، بقدر ما تجد الإشارة إليها، والوقوف عندها، والتنويه بها، فإذا بحزب الخوارج يفرز عدداً من الشاعرات ينهضن بتحمل العبء السياسى فى الانتصار لنظريته، والدعاية لمبادئه ابتداء من صيغ الرثاء السياسى التى تطرحها المرأة الشاعرة على القتيل الخارجى على نحو ما قالته أم الجراح العدوية فى رثاء بلال وعروة(٣).

وما بعد مرداس وعروة بيننا ... وبينكم شىء سوى عطر منشم

فلست بناج من يد الله بعدما ... هرقت دماء المسلمين بلا دم

وعلى نحو ما قالته امرأة من بنى سليط(٤):

(١) بتصرف معجم الأديبات الشواعر صـ ٢٨٦، ٢٨٧.
(٢) الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ ٥١.
(٣) شعر الخوارج صـ ٥٣ جمع وتحقيق إحسان عباس.
(٤) المرجع نفسه..

سقى الله مرداسا وأصحابه الألى ... شروا معه غيثا كثير الزماجر

فكلهم قد جاء لله مخلصا ... بمهجته عند التقاء العساكر

فهو نغم سياسى تبنيه الشاعرة الأولى على إراقة دماء المسلمين بلا دم، والثانية على حديثها حول الشُراة ضمن مسميات الخوارج وألقابهم التى اعتزوا بها، بل قد نجد للمرأة الخارجية شعراً يدل صراحة على مشاركتها حزبها مبادئه وأهدافه، على نحو ما يروى من شعرها، وقد أقامت فى معسكر الضحاك سنين، وعندما نهاها زوجها أن تكون مع الخوارج ودعاها للرجوع إليه فأجابته(١):

أبلغ مجاشع إن رجعت فإننى ... بين الأسنة والسيوف مقيلى

أرجو السعادة لا أحدث ساعة ... نفسى إذا ناجيتها بنفولى

ووهبت حذرى والفراش لكاعب ... فى الحى ذات دمالج وحجول

ثم يظهر أنا اشتاقت إلى الزوج فانصرفت عن معسكر الضحاك وقالت:

تركت رمحا لينا مسه ... وجئت رمحا مسه قاتل

سيان هذا بدم سائل ... وذاك منه عسل سائل

مطعون ذاكم منه فى لذة ... وأم مطعون بذا ثاكل

مروا بنا نرجع إلى ديننا ... فكل دين غيره باطل

وملة الضحاك متروكة ... لا يحيينها أحد عاقل

ولا نسعى إلى استقصاء شعر نساء الخوارج، وهو كثير، بل تكفى هذه الشواهد رموزاً لمشاركتهن السياسية الصريحة.

---

(١) شاعرات العرب صـ٢٠٩ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ٩٦ وانظر شعر الخوارج صـ٢٠٦.

وعلى النهج نفسه يمكن أن ينضم تفجع الشاعرة، الشيعية على مقتل الحسين والمشاركة العنيفة فى صيغ الحزن والغضب الشديد الذى سيطر على الشيعة بسبب مقتله، ومن ذلك ما جاء على لسان الرباب بنت امرىء القيس زوج الحسين بن على فى رثائها له، وقول عقيلة بنت عقيل ابن أبى طالب فى وقعه كربلاء. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. وفى العصر العباسى تكثر مشاركات المرأة وترتقى مكانتها فى الشعر لازدياد حركة المد الحضارى واختلاط الأجناس، وزيادة ضجيج الحياة المادية، وتوغل العناصر الأجنبية فى المجتمع العربى، وارتقاء موجة الغناء، وبالتحديد فى مطلع الحياة العباسية وما شهدته من دور القيان، وانتشار المجون، وارتقاء نشاط حركة الشعر فى كل الاتجاهات والاعتداد بدور المرأة الشاعرة حرة كانت أو أمة، عربية كانت أو غير عربية وقد سجل الجاحظ فى رسالته «المتظرف من أخبار القيان» أو على طريقة يونس الكاتب فى كتابه «القيان» وأبى الفرج فى كتابه الأغانى على مدار أجزائه، وابن المعتز فى كتابه «طبقات الشعراء المحدثين» واهتمامهم بموقع المرأة من هذا العالم الشعرى المتميز.

وتقول مى خليف عن مكانة المرأة الشاعرة فى هذا العصر: «وعند ابن المعتز فى كتابه «طبقات الشعراء المحدثين» بما يعد مؤشراً يستحق تأمل مكانة المرأة الشاعرة سواء على مستوى عصرها، أو على مستوى كم الموضوعات الشعرية التى أبدعت فيها، أو على مستوى بيت معين فى موضوع بعينه أبرزت فيه تفوقاً ظاهراً يحسب لها كشاعرة[١].

وفى هذا العصر تزداد مشاركة المرأة الشاعرة على الصعيد

(١) الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ٨٥.

السياسى، ومن ذلك ما نجده عند شعر الأميرات من سلالة آل البيت الحاكم، إذ يبدو شعرهن أقرب إلى الحس السياسى على نحو ما يذكره ابن عبد ربه من شعر عائشة بنت المهدى(١) أو ما يذكره صاحب كتاب «مصارع العشاق» من خبر ابنة الوالى على ديار مصر، الذى غضب على بعض عماله فحبسه وقيده فأشرفت عليه ابنة الوالى فهويته، فكتبت إليه شعراً وكتب إليها(٢).

أو ما رواه صاحب العقد الفريد من موقف لبانة زوجة الخليفة الأمين بن هارون الرشيد من رثاء زوجها، وكانت من أجمل النساء فقتل عنها ولم يبن بها فقالت ترثيه(٣):

أبكيك لا للنعيم والأنس بل للمعالى والرمح والفرس
يا فارسا بالعراء مطرحا خانته قواده مع الحرس
أبكى على سيد فجعت به أرملنى قبل ليلة العرس
أم من لبرٍّ أم من لعائدة أم من لذكرا الإله فى الغلس
من للحروب التى تكون لها إن أضرمت نارها بلاقبس

فهذا من قبيل الرثاء السياسى الذى يتعلق بجريمة اغتيال الخليفة، وينتمى إلى شعر الأميرات أيضاً ما نظمته أم الكرام بنت المعتصم بالله، وكان لها إخوة ثلاثة شعراء الواثق عز الدولة أبو محمد عبدالله، ورفيع الدولة أبو زكريا وأبو جعفر(٤)، وكذلك كانت خديجة بنت أمير المؤمنين

---

(١) العقد الفريد جـ٦ صـ ٢٢٨.
(٢) مصارع العشاق جـ١ صـ ٣٣٣: ٣٣٤ لأبى محمد بن جعفر السراج. دار صادر بيروت.
(٣) العقد الفريد جـ٣ صـ ٢٣٢.
(٤) نزهة الجلساء فى أشعار النساء صـ٢٥ للسيوطى، وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ٤١٤ وانظر الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ٧٠.

عبدالله المأمون، إذ كانت شاعرة طريفة وأديبة كانت تقلد عمتها علية بنت المهدى فى التشبيب والتلحين(٤).

ومشهورة كانت «العباسة بنت الخليفة المهدى» أخت الرشيد، إذ كانت شاعرة فاضلة جليلة، قال الجاحظ: «كتبت إلى وكيل لها يقال له: سباع، وقد بلغها أنه يحتاج إلى مالها ويبنى به المساجد والحياض:

إلا أيها المعمل العيسى بلغن ... سباعا وقل إن إياكما سفر
أتظلمنى ما لى، فإن جاء سائل ... رفعت له أن حطه نحوك الفقر
كشافية المرضى بفائدة الزنا ... تؤمله أجرا وليس له أجر(٢)

وربما جمعت الأميرة بين كونها شاعرة ومغنية فى آن مثل «علية بنت المهدى» ويصفها الجاحظ بقوله: «من أحسن النساء وأظرفهن، وأعقلهن، ذات صيانة وأدب بارع، تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الألحان الحسنة، وكانت شاعرة مغنية جميلة متجملة، وكان الرشيد يبالغ إكرامها، ولها ديوان شعر، وكانت من أعف الناس، كانت إذا طهرت لازمت المحراب، وإذا لم تكن طاهرة غنت، ولما خرج الرشيد إلى الرى أخذها معه فلما وصلت المرج قالت(٣) :

ومغترب بالمرج يبكى لشجوه ... وقد غاب عنه المسعدون على الحب
إذ ما أتاه الركب من نحو أرضه ... تنشق يستشفى برائحة الركب

وغنت بهما فلما بلغ الرشيد الصوت: علم أنها اشتاقت إلى العراق فأمر بردها.

---

(١) نزهة الجلساء صـ٤٨، شاعرات العرب صـ٢٣٧، أعلام النساء جـ١ صـ٣٤٠ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ ٢٢١، والشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ٧١

(٢) نزهة الجلساء صـ ٦٧ وانظر الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ٧١.

(٣) الأغانى ١٠/١٩٣، وشاعرات العرب ص ٢٣٢.

«وعند غير الأميرات نجد انتشار الشعر على ألسنة الجوارى، وهن يتخذن من المنحى السياسى خير وسيلة لإرضاء الخليفة والقرب منه، وهو مسلك الشاعرة والمغنية على السواء(١).

«ثم تظل الأبعاد السياسية مسيطرة على بقايا الخوارج ممن حملوا على الخلافة العباسية كما كان عهدهم بالخلافة الأموية من قبل، ومازالت أصوات النساء الشاعرات تتردد بشعر خارجى على ما عرضته الفارعة بنت طريف، وهى شاعرة فارسة خاضت غمار الحروب، لابسة درعها، شاهرة سيفها، وهى أخت الفارس الخارجى الوليد بن طريف الشيبانى الذى لقب بـ «الشارى» وكان رأساً للخوارج أيام الرشيد الذى أرسل إليه قائده المشهور يزيد بن مزيد الشيبانى فقتله سنة ١٧٩هـ.

وعلمت الفارعة بمقتله فلبست لباس الحرب، وهاجمت جيش يزيد الذى طاردها، وضرب بسيفه مؤخرة فرسها قائلاً: اغربى قد فضحت العشيرة، يريد بذلك عشيرة بنى شيبان التى ينتمى إليها كل من يزيد والوليد وأخته الفارعة، وتتأثر الفارعة بمقتل أخيها فتنظم فى رثائه قصيدتها الطويلة وتقول فيها منوهة بحسه الخارجى ومبادئه الحزبية(٢):

فتى لا يلوم السيف حين يهزه ... إذا ما اختلى من عاتق وصليف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الخيل إلا كل جرداء صلدم ... وأجرد ضخم المنكبين عطوف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد ... فيا رب خيل فضها وصفوف
بكت تغلب الغلباء يوم وفاته ... وأبرز منها كل ذات نصيف

---

(١) الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ ٧٢.
(٢) الأغانى ٩٣/١٠، وفيات الأعيان ٣١/٦ وانظر الشعر النسائى صـ٧٢.

يقلن وقد أبرزن من بعدك الورى   معـــايذ حلى من برى وشنوف
كأنك لم تشهد مصاعا ولم تقم   مقاما على الأعداء غير خفيف
ولم تشتمل يوم الوغى بكتيبة   ولم تبد فى خضراء ذات رفيف

وبذا استطاعت أخت الخارجى أن تعرض موقفاً حزبياً مذهبياً شغلها فيه ين منطق العنف الخارجى وأدوات القتال وموقف الشراة من الخروج، فإذا بأبياتها تمزج بين حديث الحرب والسياسة، وهكذا كان شعر الخوارج فى معظمه إلى جانب تغليفه بذلك الحس الدينى الذى طالما اعتدوا به فى تصويرهم لقتلاهم.

أما البيئة الأندلسية التى تميزت بالتفوق الحضارى والتحرر الاجتماعى، والنزوع إلى الاستمتاع بمباهج الحياة، المليئة بالخمائل الجميلة والأرواح الظليلة، والأنهار الروية والسهول الغنية، مما سما بالوجدان، وألان الطباع ورقق العواطف، ومن ثم فقد شاع الغناء، وعقدت له وللشعر مجالس وأندية شاركت فيها النساء[1].

«ومهما يكن من شيء فإن الشعر الأندلسى قد بلغ نهاية النهايات من الحضارة والرفاهية واللهو والترف، وليس أدل على هذا من شيوع الأدب النسائى حتى كانت مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى التى اشتهرت بإشبيلية بعد الأربعمائة تدارس النساء الأدب، وهذه ولادة صاحبة ابن زيدون، ثم حمدونة بنت زياد، واعتماد جارية المعتمد، وسعدونة بنت عصام الحميرى، وحسانة التميمية، ومهجة القرطبية، ونزهون الغرناطية، وغيرهن[2].

---

(١) بتصرف ابن زيدون صـ ٣٠ حسن جاد حسن المطبعة المنيرية ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م.
(٢) نفح الطيب جـ١ صـ ٧٥ وانظر ابن زيدون حياته وأدبه صـ٣٠.

وسنعرض نماذج من إسهامات المرأة الأندلسية عند الحديث عن الهجاء فى شعر المرأة. وخلاصة القول من خلال هذا الطرح السابق، الذى برزت فيه أعلام الشاعرات تبعاً لمقاييس العصور الأدبية المختلفة، فكانت لهن مكانة واضحة فى الشعر العربى، ودور بارز فى الإسهام للمشاركة فى رصد جوانب من أبعاد الحياة الاجتماعية والسياسية، منذ العصر الجاهلى، مع استمرار هذه المكانة، وما تطرحه علينا مصادرنا وخاصة كتب الطبقات التى تفرد للنساء مواضع معينة ضمن طبقات الشعراء، لأقوى دليل على ذلك.

ثانياً: بواعث الهجاء فى الشعر عند المرأة:

أوضح الحديث السابق مكانة المرأة فى الشعر، حيث أسهمت بدور كبير فى حركة الشعر من حولها واستطاعت المرأة العربية أن تفرض وجودها المتميز فى زحام الحركة الأدبية، وضجيج مذاهبها واتجاهاتها على امتداد العصور الأدبية المختلفة.

ويطول بنا الحديث عند الوقوف على حجم هذا الإسهام، الذى نقصره على جانب من جوانب إبداعها الشعرى، وهو «فن الهجاء عند المرأة فى الشعر العربى القديم».

ويبرز فن الهجاء واضحاً جلياً فى شعر المرأة العربية، حتى لتحرز فيه تفوقاً خاصاً وسبقاً متميزاً، عندما تنثر هجاءها وترسل سخطها على كل من حولها وما حولها على طريقة الهجاء فى شعر الرجال، من أمثال الحطيئة وبشار وابن الرومى، وحماد عجرد، فإذا هى هجاءة فى إطار قومى أو قبلى أو كذلك على المستوى الذى توزع موقفها بين هجاء أقرب الناس إليها أو أبعدهم عنها.

ولذا، لدينا بلا شك ـ تراث أدبى كبير ـ من شعر الهجاء عند المرأة فى الأدب القديم، ولقد نقلت إلينا أمهات الكتب ذلك الشعر فى صدق وأمانة وساقت إلينا روائع كثيرة منه أذكت جذوته بواعث عديدة منها:

أ ـ الرد على مثله.

ب ـ الضيق بعمل ما.

ج ـ البغض والكراهية.

د ـ المخالفة فى الدين.

أ ـ الرد على مثله: وقد تعددت صور ونماذج هذا الباعث فى هجاء شعر المرأة ومن بين هذه الصور:

عندما خطب دريد بن الصمة الخنساء ورفضته قائلة:

ما كنت لأدع بنى عمى، وهم مثل عوالى الرماح وأتزوج شيخاً سخط عليها وهجاها بقوله(١):

وقاك الله يا ابنة آل عمرو ... من الفتيان أشباهى ونفسى
وقالت إننى شيخ كبير ... وما نبأتها أنى ابن أمسى
فلا تلدى ولا ينكحك مثلى ... إذا ما ليلة طرقت بنحس
تريد شرنبث القدمين شثنا ... يباشر بالعشية كل كرسى(٢)

فأجابته بقولها:

---

(١) الأغانى ١٣/٣٠ والأمالى ٢/١٦٢ لأوبى على القابى وانظر المرأة فى الشعر الجاهلى صـ ٦٣٤.

(٢) طرقت بنحس: جاءت بظلمة وغبرة والمراد: إذا حدثت حرب، وشر نبث: غليظ الكفين والأصابع والكرسى: البعر والبول المتجمد، وششناً:غليظاً.

معاذ الله ينكحنى حبركى ... قصير الشبر من جشم بن بكر
يرى شرفا ومكرمة أتاها ... إذا أغذى جريم تمر
ولو أصبحت فى جشم هديا ... إذا أصبحت فى دنس وفقر
قبيلة إذا سمعوا بذعر ... تخفى جمعهم فى كل جحر[1]

فرمته بضعف الجسد، وبطء المشية، والشيخوخة، والبخل، ورمت قبيلته بالجبن.

وفى الأغانى رواية أخرى[2] أنها رفضته وقالت لأبيها:

أتخطبنى هبلت على دريد ... وقد أطردت سيد آل بدر

معاذ الله.. الأبيات.

وهجاء الخنساء لدريد بن الصمة إجابة على هجائه لها ورداً عليه، حينما رفضته زوجاً لها، وكانت لا تهجو إلا من يستحق هجاءها، وروى أن حساناً قال لها يوما: اهجى قيس بن الخطيم. فقالت: لا أهجو أحداً أبداً حتى أراه، فجاءته، فوجدته فى مشرقة ملتفاً فى كساء، فنخسته برجلها، وقالت: أدبر فأدبر، ثم قالت: أقبل فأقبل، وكأنها تعرض عبداً تشتريه، ثم عاد إلى حاله نائماً، فقالت: والله لا أهجو هذا أبداً[3].

وهذه الرواية على ما فيها من مبالغة تكشف عن طبيعة الخنساء، أنها كانت لا تبدأ بالهجوم ولا تهجو إلا من يستحق الهجاء[3].

(١) الديوان صـ١٢٠ . الحبركى: طويل الظهر قصير الرجلين. قصير الشبر: المتقارب الخطو. جريم: تمر يابس.
(٢) الأغانى ٩/٣١١.
(٣) والشعر طـ صـ٣٤٣ لابن قتيبه تحقيق وشرح أحمد شاكر دار المعارف.
(٤) المرأة فى الشعر الجاهلى صـ ٦٣٥.

ومن ذلك قول العوراء من بن سليطة بن يربوع ـ رداً على قول يزيد بن الصعق يربى بجيرا بن سلمة بقوله:

أواردة على بنور باح بفخر هم وقد قتلوا بخبرا

فأجابته العوراء البربوعية فى هجاء مرير إذ تقول:

قعيدك يا يزيد أبا قبيس أتنذركى تلاقينا النذورا
وتوضع بجمر الركبان إنا وجدنا فى مرداس الحرب خورا
ألم تعلم قعيدك يا يزيد بأنا نقمع الشيخ الفجورا
ونفقا ناظريه ولا نبالى ونجعل فوق هامته الدوورا
فأبلغ إن عرضت بنى كلاب فإنا نحن أقعصنا بجيرا
وضرجنا عبيدة بالغوالى فأصبح موثقا فينا أسيرا
أفخرا فى الخلاء بغير فخر وعند الحرب خوار ضجورا[1]

وتكشف هذه المنازلة عن مدى قدرة المرأة وبراعتها فى شعر الهجاء بالرد على خصومها، ورميها لخصمها وقومه بالضعف عند اللقاء والنيل من سادة القوم فى ساحات الحرب ما بين قتيل وأسير، ولا مكان للاستطالة والافتخار لمن لم يقو على الصبر فى ساحات النزال، والشاعرة فى هذه الأبيات تشيد بشجاعة قومها وبسالتهم فى يوم «المروت»[2] وتهجو الشاعر يزيد بن الصعق وقومه.

وأيضاً من هذه النماذج الباكرة فى تجربة الهجاء فى شعر المرأة،

---

(١) العقد الفريد جـ١ صـ٣٧ لابن عبد ربه، معجم الأديبات الشواعر صـ٣٧٨.

(٢) من أيام العرب فى الجاهلية وكان لبنى العنبر على بنى بشر.

التى تتم كسابقتها بفتح جبهة هجائية مع شاعر والرد عليه، ما دار بين ليلى الأخيلية والنابغة الجعدى فقد هجا النابغة ليلى الأخيلية بقوله(١) :

ألا حييا ليلى وقولا لها هلا ... فقد ركبت أمرا أغر محجلا
بريذنة بلّ البراذين ثغرها ... وقد شربت فى أول الصيف أيلا
وقد أكلت بقلا وخيما نباته ... وقد نكحت الأخايل أخيلا
وكيف أهاجى شاعرا رمحه استه ... خضيب البنان لا يزال مكحلا(٢)

فأجابته وفاقته(٣) :

أنابغ لم تنبغ ولم تك أولا ... وكنت وُشَيْلا بين لصبين مجهلا
أعير تنى داء بأمك مثله ... وأى جواد لا يقال له هلا
تساور سوارا إلى المجد والعلى ... وفى ذمتى لئن فعلت ليفعلا(٤)

ومن هؤلاء الشاعرات اللاتى رددن بهجاء على من يبدأ هن بالهجاء نزهون بنت القلاعى المروانية الغرناطية، من أهل المئة الخامسة من شواعر الأندلس الصادحات، ومن أعذبهن نفسا وأطيبهن طبعا، ولها فى مجالس الوزراء منزلة عالية، وكانت نزهون تصارع الشاعر أبا بكر

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ صـ٤٤٨ .

(٢) هلا: اسم صوت لزجر الخيل، وأراد به النابغة زجر المهرة إذا لم تقر للفحل. الأيل: بضم الهمزة، وهو اللبن الخاثر، وهو يسمن ويغلم، وبكسر الهمزة: هو الوعل ذو القرن الأشعث الضخم مثل الثور الأهلى، ويقال من ثرب لبنها اغتلم. الأخايل: قوم ليلى بنو الأخيل.

(٣) الشعر والعشراء جـ١ صـ٤٤٨، ٤٤٩ .

(٤) وشيل: تصغير: الوشل: وهو الماء القليل.. اللصب: مضيق الوادى.

المخذومى الأعمى، وكان معروفاً بالهجاء بشعر أكثر بذاءة، ولما قال فيها المخزومى(١):

على وجه نزهون من الحسن مسحة ... وتحت الثياب العار لو كان باديا
قواصد نزهون توارك غيرها ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

فأجابته بقولها(٢):

إن كان ما قلت حقا ... من بعد عهد كريم
فصار ذكرى ذميما ... يعزى إلى كل لوم
وصرت أقبح شيء ... فى صورة المخزومى

وهنا العديد من الشواهد على هذا الباعث، والمزيد من الشواهد ربما لا يقدم جديداً، إلا ما يبدو توكيداً لهذا الباعث.

ب ـ الضيق بعمل ما: من البواعث التى أذكت جذوة الهجاء فى شعر المرأة، فأنشأت كثيراً من هذا الشعر تعبر فيه عن تبرمها عند صدور عمل ما، أو وقوع ما لا تتوقعه، ولم يكن فى حسبانها فيترك فى نفسها الألم العميق: ومن ذلك قول: دختنوس(٣) بنت لقيط بن زرارة فى هجاء النعمان ابن قهوس التميمى، وكان من فرسان العرب، وكان يحمل لواء الرباب فى يوم «شعب جبلة»(٤) اليوم الذى قتل فيه لقيط بن زرادة، وفر النعمان وترك لقيطا فقتل، فهجته دختنوس بقولها(٤):

---

(١) معجم الأدبيات الشواعر صـ٤٥٨.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) دختنوس: أخت لقيط فى رواية العقد الفريد ٣/٦٤.
(٤) شعب جبلة: من أيام العرب فى الجاهلية كان لعامر وعبس على ذبيان وتيم وكان قبل الإسلام بأربعين سنة وهو العام الذى ولد فيه النبى ﷺ.
(٥) الأغانى ١٠/٣٤ وسمط اللالئ ٢/٨٣٥ وانظر المرأة فى الشعر الجاهلى صـ٦٣٥ وما بعدها.

فـر ابن قـهـوس الشـجـا	ع بكفـه رمـح مـتـل
يعـدو بـه خـاطى البـضـيع	كـأنـه سـمـع أزل
إنـك مـن تـيـم فـدع	غطـفـان إن سـاروا وحلوا
لا مـنـك عـدهـم ولا	أبـاك إن هـلـكـوا وذلـوا
فـجـر البـغى يحـدج ربتـهـا	إذا الـنـاس اسـتـقـلـوا
لا حـوجـهـا ركـبـت ولا	لرغـال فـيـه مـسـتظل
وقـد رأيت أباك وسط القـوم	يـبـزو أو يـجـل
مـتـقلدا ربق الفـرار كـأنه	فـى الجـيـد غـل(١)

وفى هذه الأبيات يضيق صدر دختنوس بما صدر من «النعمان بن قهوس» بتخليه عن لقيط وفراره عنه، فتهكمت به، إذ وصفته بالشجاعة وهجته بالجبن والفرار السريع ثم حقرت من شأنه بأنه من تيم، فلا يجدر به أن يلحق بغطفان، وقالت إن فخره وفخر قومه بغطفان كالأمة التى تفخر بسيدتها لا بنفسها، ثم عيرته بحقارة أبيه، فقالت: إنها رأته جباناً يخضع ويخنع، ويجمع البعر، وإنه لا يصلح إلا لرعى الغنم، حين حبالها فى عنقه كالغل، فهو عبد حقير(٢).

وكذلك هجت الخرنق عبد بن عمرو بن بشر حين وشى بأخيها طرفة إلى عمرو بن هند فقتله ومن هجائها قولها(٣):

---

(١) حقل: مستقيم مستوى، خاظى البضيع: مكتنز، سمع: ولد الذئب من الضبع. أزل: أرح سريع خفيف الوركين. رغال: الأمة،يبزو: يبرز عجزه أو يحنى ظهره: الربق: حبل البهم. الفرار: الخرفان والحملان. يجل: يلقط البعر بيده.

(٢) امرأة فى الشعر الجاهلى صـ ٦٣٦.

(٣) جمهرة أشعار العرب صـ٧٧ لأبى زيد محمد ابن طباطبا القرشى ١٧٠هـ مطبعة صادر بيروت.

ألا ثكلتك أمك عبد عمرو ... أبا الخزيات واخيت الملوكا
هم ركلوك للوركين ركلا ... ولو سألوك أعطيت البروكا
قيوما عند زانية هلوك ... كصل الرجع مزهرها ضحوكا(١)

فالشاعرة تدعو عليه بالهلاك، وتعجب من منادمته عمرو بن هند، وهو موصوم بالخزى، وتحقر من شأنه، بأن الملوك نبذوه وحقروه ورضى عن ذلك، ولو أنهم سألوه أعز ما يملك لقدمه زلفى إليهم وصنوعاً، ثم تطعن أخلاقه بقولها: إنه حلس مومسات يغشاهن، ويسمع الغناء عندهن، وتهجوه مرة أخرى فتذكره بجبنه عن الثأر(٢):

أرى عبد عمرو قد أساط ابن عمه ... وانضجه فى غلى قدر وما يدرى
فهلا ابن حسحاس قتلت ومعبدا ... هما تركاك لا تريش ولا تبرى
هما طعنا مولاك عطف صله ... وأقبلت ما تلوى على محجر تجرى(٣)

البغض والكراهية: لعل طبيعة المرأة التى جبلت عليها تجعلها أكثر خضوعاً للوجدان وأسرع استجابة للانفعال، وتسجل من خلال تجربة الهجاء فى شعرها ضروباً من تمزق العواطف والانفعالات، وتخبط المشاعر من القلق والحيرة، ويتمثل هذا الباعث فى هجاء المرأة ضرتها أو ضرائرها(٤) وسميت بذلك، لأن كل واحدة منهما تضار صاحبتها، وكره

---

(١) فى رواية الجمهرة أبا النخبات: الجبناء، البروك: الإبل الباركة، صل: حية، الرجع: الغدير.

(٢) مراثى شواعر العرب صـ٣٦: ٣٧، معجم الأديبات الشواعر صـ ٢١٦: ٢١٧ وانظر المرأة فى الشعر الجاهلى صـ٦٣٧.

(٣) ابن حسحاس ومعبد: رجلان غلباه. لاتريش ولا تبرى: كنايه عن خذلانه وضعفه عطف: جانب. محجر موضع منخفض ذوماء ومرعى.

(٤) ضرة المرأة: امرأة زوجها والجمع ضرائر.

فى الإسلام أن يقال لها ضرة، وقيل لها جارة كذلك فى الحديث(١):

«ولقد كان من المرتقب من المرأة أن تكثر هجاء ضرتها أو ضراتها، لأن العداوة بين الضرائر متأصلة متفاقمة، ولكن لم يرد من هذا الضرب إلا قليل، ولعلها كانت تقتنع بالكيد، والإغارة، والنظرات الشزر، والكلمات المرة، والحركات الساخرة، ثم هى تأنف أن تسجل على نفسها أنها دون ضرتها، وأن زوجها يؤثر ضرتها عليها، لذلك لا تهجوها، حتى لا تكشف عن موجدتها، أما سكوتها فيؤول على أنها حظية عند زوجها وأنها لا تحفل بضرتها، وهذا من مكر النساء(٢):

ومن هذا الهجاء ما قالته امرأة فى هجاء أخرى قد خطبها زوجها(٣):

لا خار ربى لأبى الفصيل
ولا وقاه عثرة الذلول
بدل منى أخبث البديل
هوجاء مقاء كشبه الغول
تحمل ردفا واسع الفضول
مثل إهاب المنحة المنجول
يبيت فيه الذئب أو يقيل(٤)

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة ضر .

(٢) المرأة فى الشعر الجاهلى صـ٦٣٧.

(٣) بلاغات النساء وانظر المرأة فى الشعر الجاهلى صـ ٦٣٨،

(٤) هوجاء: حمقاء، مقاء: عارية من اللحم، المنحة: الناقة أو الشاة الحلوب، الإهاب المنجول: المشقوق عن العرقوبين إلى الرأس، ثم يسلخ.

وما يتصل بكراهية المرأة وبغضها وحقدها وغيرتها هجاؤها لزوجة ابنها، وبغض زوجة الابن سمة نسائية خالصة، كشفتها هند بنت عصم الدوسية حين شكت زوجة ابنها يزيد فى لغة هجائية عنيفة، تنال بها من مقومات المرأة مالاً وجمالاً وحسناً وخلقاً إذ تقول فيها(٤):

أيزيد قد لاقيت منكرة ... عجلت بأمك مدخل القبر

هو جاء جاهلة إذا نطقت ... ليست كعابا بيضة الخدر

سوداء ما تنفك متأقة ... ملأى مضبية على حجر(٢)

وقد تجمع المرأة فى هجائها لزوجة الابن هجاء الابن نفسه أيضاً إذ تتهمه بالعقوق لها، والتآمر عليها فتقول فى حقه ساخطة عليه وغاضبة من مسلكه(٣).

قالت له عرسه يوما لتسمعنى ... مهلا فإن لنا فى أمنا أربا

ولو رأتنى فى نار مسعرة ... ثم استطاعت لزادت فوقها حطبا

وكأنها لا تنسى أن تحمل ابنها تبعة ما تصنعه لها زوجته، فإذا فعالها جزء من سلوكه الذى تعيره وتمن عليه بما كان من جهدها معه حتى ربته، فإذا هى الآن تضيق به، فتهجوه على المستويين الأخلاقى والجسدى(٤).

أضحى يمزق أثوابى يؤدبنى ... أبعد شيبى عندى يبتغى الأدبا

إنى لأبصر فى ترجيل لمته ... وخط لحيته فى خده عجبا

---

(١) بلاغات النساء صـ ١٠٠.
(٢) متأقة: مملوءة بالشر والغضب. مضبية على حجر: ممسكة به تريد أنها شريرة مؤذية.
(٣) بلاغات النساء صـ ٢٧٧.
(٤) المرجع نفسه.

هجاء الزوج أو الأزواج، يكشف عن تجارب مريرة فى شعر المرأة وحملتها على الرجل، وتعكس بشكل تلقائى مصادر بغضها وضيقها بالزوج أو الأزواج وسيأتى توضيح ذلك عند الحديث عن اتجاهات الهجاء فى شعر المرأة.

من بواعث الهجاء عند المرأة المخالفة فى الدين: فتهجو المرأة من يخالفها فى دينها، كما هجت هند بنت عتبة رملة بنت شيبة بن ربيعة، لما تزوجها عثمان بن عفان وهاجرت معه، فعابت عليها إسلامها واتباعها دين من قتلوا أباها. وكما هجت المسلمين والإسلام عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد فقال النبى: «ألا آخذ لى من ابنة مروان؟ فسرى إليها عمير بن عدى الخطمى فقتلها»[١].

ومما قالته:

باست بنى مالك والنبيت ... وعوف وباست بنى الخزرج

أطعتم أتاوى من غيركم ... فلا من مراد لا مذحج

ترجونه بعد قتل الرؤوس ... كما يرتجى مرق المنضج

ألا أنف يبتغى غرة ... فيقطع من أمل المرتجى[٢]

ومن ذلك أيضاً هجاء ميمونة بنت عبد الله وكانت مسلمة فأحست كثرة بكاء كعب بن الأشرف على قتلى المشركين فى بدر فراحت تعيب عليه تلك التبعية فى البكاء وتعيره لها، وتفتح معه جهة هجائية يعكسها قولها[٣]:

---

(١) السيرة النبوية ٤/٤٦٦ لابن هشام أبى محمد عبد الملك بن هشام المعافرى المتوفى ٢١٣هـ دار المنار الطبعة الثانية ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

(٢) الأتاوى: الغريب. ومراد ومذحج: قبيلتان من اليمن. الرؤوس: أشراف القوم. الأنف: المرتفع. الغرة: الغفلة.

(٣) السيرة النبوية ٣/٥٦.

تحنن هذا العبد كل تحتن يبكى على قتلى وليس بنا صب
بكت عين من يبكى لبدر وأهله وعلت بمثليها لؤى بن غالب
فليت الذين ضرجوا بدمائهم يرى ما بهم من كان بين الأخاشب(١)

وحين وصلت الأبيات إلى مسامع كعب بن الأشرف أحس هوان موقفه، وضعف أمره أمام امرأة تقدمت لهجائه، فلم يسعه إلا أن يجيبها مبرراً دوافعه إلى البكاء وكاشفاً عن إصراره على الدفاع عن معسكر الكفر، فيقول هاجياً ميمونة(٢).

ألا فازجروا منكم سفيها لتسلموا عن القول يأتى منه غير مقارب
أتشتمنى أن كنت أبكى بعبرة لقوم أتانى ودهم غير كاذب
فإنى لباك ما بقيت وذاكر مآثر قوم مجدهم بالحباحب(٣)

وتكشف هذه البواعث السابقة عن خصوبة تجربة الهجاء فى شعر المرأة العربية وعمقها، لأنها تعد الهجاء وسيلة للتنفيس عن نفسها وإخراج كم العواطف التى تحملها كرهاً أو حقداً ضد خصومها.

ولذا تبدو التجربة الهجائية قادرة على كشف حالات سخط المرأة على كل ما حولها، ومن ثم تشغل هذه التجربة مكانة متقدمة بين أغراض الشعر عند المرأة.

ويأتى شعر الهجاء عند المرأة بعد شعر الرثاء، لأن شعر الهجاء يحوى الكثير من معاناتها، وتعرض من خلاله أبعاداً من شكواها، حين

---

(١) الأخاشب: جبلان بمكة يقال لهما الأخشبان.
(٢) الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ ١٠٦، ١٠٧.
(٣) الحباحب: موضع بمكة.

تبدو هاجية زوجة أخرى، أو هاجية زوجها، أو زوجة ابنها، أو هاجية شاعراً آخر على ما مر بنا من النماذج أو ما سنلتقى به منها فى الصفحات القادمة من هذه الدراسة إن شاء الله.

وإن كان هناك من الباحثين من يذهب إلى القول بضعف فن الهجاء وقلته فى شعر النساء ويعلل ذلك بقوله: وهن لم يبرعن فى الهجاء، براعة الرجال، لأنه لون من التهجم والتطاول ومضغ الأعراض، والسفه، يجافى الأنوثة وينافى الحياء، ولأن الرجال يبلون فيه أعظم البلاء «ولا طاقة للمرأة أن تنيل القبيلة مثل ذلك ــ على أن النساء كن يشعر أنهن لسن قديرات على الهجاء ومقارعة الشعراء قدرة الرجال، يدل على ذلك أنه لما هجا جرير بنى مجاشع وعيرهم بما حل «بأيمن بن ضبيعة» والد زوجة الفرزدق اغتم نساؤهم ـ وكان الفرزدق قد حجَّ وعاهد الله ألا يهجو أحداً أبداً، وأنه قيد نفسه ولا يحل قيده حتى يحفظ القرآن ـ فأتين الفرزدق فقلن له: قبح الله قيدك فقد هتك جرير عورات نسائك، فلحيت شاعر قوم، فأحفظه ففض قيده وهجا جريراً[1] ولعل ما أغرى الحوفى إلى هذا المذهب ما جاء عن بشار بن برد: «لم تقل امرأة قط شعراً إلا تبين الضعف فيه، فقيل له: أو كذلك الخنساء[2]، قال: تلك فوق الرجال أو ما جاء عن العقاد حيث يقول: «فالمرأة قد تحسن كتابة القصص، وقد تحسن التمثيل، وقد تحسن الرقص الفنى من ضروب الفنون الجميلة، ولكنها لا تحسن الشعر، ولم يشتمل تاريخ الدنيا كله على شاعرة عظيمة»[3].

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى صـ ٦٤١ د. أحمد الحوفى.

(٢) الكامل صـ ١٢١٣ للمبرد تحقيق محمد الدالى مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ، ١٩٨١.

(٣) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى صـ ١١٦ عباس العقاد. كتاب الهلال العدد ٢٥٢ سنة ١٩٧٣م.

ثالثاً: اتجاهات الهجاء فى شعر المرأة:

يعد شعر الهجاء من الفنون الشعرية الذى تميزت فيه المرأة، وأحرزت فيه تفوقاً على المستوى الشخصى توزع فيه موقفها بين هجاء يبدأ من أقرب الناس إليها صلة، أو أبعدهم عنها، إذ قد تنثره على زوجها، أو على نظيراتها من الشاعرات، أو نظرائها من الشعراء أو تطرحه على من يهجوها، أو تضيق بشىء فتخلع عليه غضبها، بل ربما وظفته أيضاً فى الانتقام من خصمها الذى قد يكون واحدة من بنات جنسها.

والعلاقات الاجتماعية التى تربط الشاعرة بمن حولها تدفعها إلى أن تكون هجاءة فى إطار أنوثتها. ويأتى فى مقدمة هذه العلاقات التى أفرغت فيها الشاعرة تجربتها الهجائية ومثلت اتجاهاً شعرياً فى الهجاء عند المرأة ما يلى: ـ

أ ـ الاتجاه الشخصى: «وهو يعتمد على مهاجمة الأفراد، وهو أقدم أنواع الشعر الجاهلى وهو متأثر بالأهواء الشخصية، بعيد عن العدل والإنصاف، لأنه لا يرتقى إلى مشكلات الحياة العامة إلا فى القليل من نواحيه، فهو أقرب للباب وأدنى للسباب أن يتورط فى الفحش»(١).

ومن بين الأفراد الذين تشملهم قائمة هذا الهجاء الأزواج والأبناء وزوجات الأبناء وأمهات الأزواج، وغيرهم.

ومن النماذج الباكرة فى تجربة الهجاء فى شعر المرأة هجاؤها لزوجها أو أزواجها، إذا كانت تزوجت أكثر من مرة، ما جاء عن أم الأسود الكلابية قالت تهجو زوجها(٢).

---

(١) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية بتصرف صـ٥.

(٢) الأبيات فى بلاغات النساء صـ١٠٠، ١٠١ وفى أعلام النساء ١/ ٧٠، وشاعرات العرب صـ ١٩١: ١٩٢ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ ٦٣.

سأنذر بعدى كل بيضاء حرة ... منعمة خود كريم نجارها
قصير قبال النعل يضحى وهمه ... قريب ويمسى حيث يعشيه نارها
إذا قال قد أشبعتنى بات راضيا ... له شملة بيضاء ضاق خمارها
يرى الطيب عارا أن يمس ثيابه ... أو المسك يوما إن علاه صوارها

...... إلخ

ولا يقف هجاء المرأة لزوجها بالكشف عن مساوئه الجسدية والحسية، إنما تبرز عن ما تجنه الصدور وتبطنه الضمائر كما فى قول هذه المرأة التى تذم زوجها(١):

من عذيرى من بعل سوء يرانى ... وأراه بأعين البغضاء
تتهادى منا الضمائر وحيا ... بقلى يستكن فى الأحشاء
غاض مكتون ما عليه اجتوينا ... فى قلوب على الفراق ظماء
نتناشى حديث إثر وعين ... بائن أنسه عن الأهواء
فكلانا على أسى البغض مبد ... كاذب الود من لسان رياء
رجل لو تخير اللؤم لؤما ... كان أو رائد أولى اللواء
ملئ عين من الفواحش كاسى ... الوجه من سوءة سليب حياء

..... إلخ

وفى هذه النماذج وغيرها كثير من هجاء المرأة للزوج، لعلها اتخذت من الشعر قوساً تسدد من خلالها سهام الانتقام لنفسها، لأنها لا تملك ما

(١) شاعرات العرب صـ ٢٠٥، وبلاغات النساء صـ ١١٠ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ ٩٢.

تدافع به عن نفسها أمام أفعال الزوج، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا دخلت من باب الهجاء.

«وربما كانت الشاعرة أحسن حظاً من غيرها، ممن لا يجدن التعبير عن أنفسهم بعيداً عن الشعر الهجائى»(١).

ومن الهجاء الأُسَرى أو الشخصى، هجاء المرأة لزوجة الابن، وربما جمعت فى هجائها لها الابن نفسه، إذ تتهمه بالعقوق لها والتآمر عليها، كما جاء فى قول أم ثواب الهزانية السابق(٢).

وتعكس المرأة بشكل تلقائى مصادر ضيقها فى بيتها، إن لم يكن من خلال زوجة الابن أو الابن، فمن خلال رغبتها فى أن تستريح من وجود زوجها، ومن ذلك ما قالته أم صريع أو صريح بنت أوس الكندية لزوجها(٣):

كأن الدار يوم تكون فيها	علينا حفرة ملئت دخانا
فليتك فى سفين بنى عباد	طريداً لانراك ولا ترانا
وليتك غائبا بالهند عنا	وليت لنا صديقا فاقتنانا
ولو أن النذور تكف منه	لقد أهديتها مائة هجانا

ويبدو أن فكرة التقرب إلى الله بالنذور والإهداء إليه، رغبة فى التخلص من هؤلاء الأزواج سيئى المعاشرة، مما يكشف عن ضيق المرأة بزوجها، وأصبحت هذه الفكرة تتردد على ألسنة كثير من هؤلاء الشواعر، كما فى قول امرأة قتادة بن المغرب تهجو زوجها قتادة(٤):

---

(١) الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ ١٠٩.

(٢) سبق ذكر النماذج عند الحديث عن بواعث الهجاء فى شعر المرأة.

(٣) بلاغات النساء صـ ١١٨ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ ٥٨،

(٤) بلاغات النساء صـ ١١٤ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ ١٠٦.

حلفت ولم أكذب وإلا فكل ما ملكت لبيت الله أهديه حافيه
لو أن المنايا أعرضت لاقتحمتها مخافة فيه إن فيه لداهيه
فما صفة الخنزير عند ابن مغرب قتادة إلا ريح مسك وغاليه
فكيف اصطبارى يا قتادة بعدما شمست الذى فى فيك أثأى صماخيه[1]

ومن جملة الهجاء الشخصى هجاء المرأة لشاعر مثلها ومن ذلك ما جاء على لسان عائشة القرطبية وقد كان خطبها أحد الشعراء. فلم تر أنه كفاء لها[2]:

أنا لبوة لكننى لا أرتضى نفسى مناخا طول دهرى من أحد
ولو أننى أختار ذلك لم أجب كلبا ولكم غلقت سمعى عن أسد

والأدب الأندلسى حفل بعدد كبير من الشواعر اللائى برعن فى شعر الهجاء، ومن هؤلاء: نزهون الغرناطية التى هجت الشاعر أبا بكر المخزومى الأعمى، يصفه لسان الدين ابن الخطيب بقوله، أعمى شديد الشر معروفاً بالهجاء، وكانت نزهون تصارع الشاعر بشعر أكثر بذاءة فقالت[3]:

قل للوضيع مقالا يتلى إلى حين يحشر
من المدور أنشئت وال منه[4] أعطر
حيث البداوة أمست فى مشيها تتبختر
لذاك أمسيت صبا بكل شىء مدور

(١) أثأى صماخيه: أى خرق أذنى.
(٢) نفح الطيب ٤/ ٢٩٠ وانظر الأدب الأندلسى صـ ١٣٣ د. مصطفى الشكعة.
(٣) معجم الأدبيات الشواعر صـ ٤٥٩ كلمة لا يحسن ذكرها
(٤) كلمة لا يحسن ذكرها.

خلقت أعمى ولكن تهيم فى كل أعور
جازيت شعر بشعر فقل لعمرى من أشعر
إن كنت فى الخلق أنثى فإنّ شعرى مذكر

ومنهن الشاعرة: مهجة بنت التياني القرطبية. تهجو الأميرة الشاعرة ولادة بنت المستكفى بالله محمد بن الناصر لدين الله الأموى، مستوحية معانى الهجاء من معانى الاسم فتقول[1]:

ولادة قد صرت ولادة من غير بعل فض الخاتم
حكت لنا مريم لكنه نخلة هذى[2] قائم

ومثل هذا الهجاء إن جاز للرجل، فإنه لا يجوز أن يصدر من المرأة حتى ولو كان لامرأة مثلها، لأن المرأة بطبيعتها أرق وأكثر حياء من الرجل، على أن هذه الشاعرة كانت من الخلاعة فى القول والفحش فى الشعر ما جعل لها فى تعبيراتها مذاهب تنال من عفة قائلها وبخاصة ولعلها بذكر عورات الرجال فى شعرها.

ومن ثم لم تتورع عن النيل من ولادة بعد أن وقع بينها وبين ولادة ما حملها على هجوماً مستغلة طبيعة الاسم، فمعنى لفظ ولادة المرأة الكثيرة الإنجاب، ولكن الأميرة ولادة لم تتزوج فى حياتها وماتت بعد الثمانين من عمرها عذراء[3].

وهكذا تعددت حوارات المرأة فاستعر لهيب التجربة فى شعرها على

---

(١) نفح الطيب ٥/٢٩ وانظر الأدب الأندلسى صـ٢١٤.
(٢) كلمة فاضحة لم أستطع إدراجها.
(٣) الأدب الأندلسى صـ ٢١٤.

المستوى الشخصى وشكل اتجاهاً شعرياً بأبعاده المختلفة، التى اتخذت فيها من مواهبها وسيلة للخروج من الأزمة والتعبير عن ضيقها بواقعها.

ولا شك فى أن هذا الاتجاه من شعر الهجاء متأثر بالأهواء الشخصية، بعيداً عن العدل والإنصاف، لأنه لا يرقى إلى مشكلات الحياة العامة إلا فى القليل، فهو أقرب إلى السباب وأدنى أن يتورط فى الفحش فى القول.

ب ـ الاتجاه القبلى أو القومى فى الهجاء عند المرأة

لم تقف سرعة استجابة المرأة لانفعالاتها الداخلية عند حدود المجال الأسرى أو الشخصى فى لغة الهجاء، بل امتدت خارج إطار هذا المجال، وتركت المرأة العربية إسهامات أخرى فى تجربة الهجاء على المستوى القبلى أو القومى، دفاعاً عن قومها أو ضيقاً وبغضاً على عدوهم حيث كان النساء يستشطن غضباً إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية حقناً للدماء، فتصب المرأة جام غضبها على قومها وعشيرتها محذرة ومنذرة، ولذا فهى تشارك الشعراء تلك المهمة الخطيرة فى عالم هجائى متميز، اتخذ من الكلمة وسيلة للدفاع عن النفس، أو حتى الهجوم على الغير، فهذه أخت طرفة لأمه تعير «عبد عمرو» وهو ابن عم طرفة، وكان قد وشى بأخيها إلى الملك عمرو بن هند فقالت فى هجائه(١):

أرى عبد عمرو قد أساط ابن عمه　　وأنضجه فى غلى قدر وما يدرى
فهلا ابن جساس قتلت ومعبدا　　هما تركاك لا تريش ولا تبرى
هما طعنا مولاك فى عطف صلبه　　وأقبلت ما تلوى على محجر تجرى

---

(١) مراثى شواعر العرب صـ ٣٦، ٣٧ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ ٢١٣ : ٢١٧.

وتتسع دائرة الهجاء القومى عند المرأة، فتعير قومها بالقعود عن الثأر وقبول الدية على نحو ما تصور تلك النماذج التى وصلت إلينا من الشعر الجاهلى، نجد صورة ذلك فى قول أم عمرو بنت وقدان فى أخ لها قتل، وقد فكرت عشيرتها فى قبول ديته(١).

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم   فذروا السلام ووحشوا با لأبرق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا   نقب النساء فبئس رهط المرهق
ألهاكم أن تطلبوا بأخيكم   أكل الخزيز ولعق أجرد أمحق

وكانت أم عمرو من النساء المتحمسات فى الجاهلية، وكلامها يغلب عليه الهيجان بين العرب، فهى تخاطب قومها: إن لم يثأروا لأخيها، حق عليهم أن يلقوا السلاح، ويمضوا على وجوههم إلى مكان بعيد بالأبرق، فيتزيوا بزى النساء ويتزينوا بزينتهن.

ومن هجاء المرأة لقومها كى تحرضهم على الأخذ بالثأر لأخيها، ولم تتحرز من تصوير قومها بالنساء العواهر، فلم يكفها أن يكونوا نساء فزادت هذا الوصف إمعاناً فى الحث والتحريض تقول هند بنت حذيفة فى رثاء أخيها حصين(٢):

تطاول ليلى للهموم الحواضر   وشيب رأسى يوم وقعة حاجر

ثم تقول:ـ

فإن أنتم لم تصبحوا القوم غارة   يحدث عنها وارد بعد صادر
وترموا عقيلا بالتى ليس بعدها   بقاء فكونوا كالإماء العواهر

---

(١) الحماسة ٥٤٦/٣ للمرزوقى، وانظر معجم الأدبيات الشواعر صـ ٨٠.
(٢) شاعرات العرب صـ ٤٦ ومراثى شواعر العرب صـ ٤٧.

ويبدو أن وصف القوم بالنساء ونعتهم بالأوصاف المشينة أصبح من لوازم شاعرات العرب للتحريض على الأخذ بالثأر. ومن ذلك قول بنت حكيم بن عمرو العبدية ترثى أباها وتحرض قومها على الأخذ بثأره[1] :

أيرجو ربيع أن يؤوب وقد ثوى حكيم وأمسى شلوه بمطبق
فإن كنتم قوما كراما فاعجلوا له جرأة من بأسلم ذات مصدق
فإن لم تنالوا نيلكم بسيوفكم فكونوا نساء فى الملاء المخلق
وقولوا ربيع ربكم فاسجدوا له فما أنتم إلا كمعزى الحبلق[2]

وكم أشعل هذا التحريض حفيظة الرجال، وأضرم فتيل الحروب بين القبائل العربية، وما حرب البسوس إلا ثمرة هذا التحريض البغيض.

واستطاعت الشاعرة العربية أن تعبر عن حنقها الشديد على قومها إذا تقاعسوا عن الثأر لقتلاهم، أو رضوا بأخذ الدية حقناً للدماء، فتصب جام غضبها على قومها أو عشرتها وعندئذ نراها تشارك الشعراء تلك المهمة الخطيرة فى عالم هجائى متميز اتخذ من الكلمة وسيلة للدفاع عن النفس، أو حتى الهجوم على الغير كما أوضحت ذلك الشواهد السابقة.

«فى إطار الهجاء الجمعى تلتقى الشاعرة مع الشاعر، فقد انطلقت من إطار الأسرة الضيقة إلى عالم أكبر رحابة تسهم فيه مع الرجال فى معاركهم، حين تتحول إلى الحرب الحماسية فى ظلال القبيلة أو الغزوات، وعندئذ تترك بصمات لا يجب أن تهمل فى فن الهجاء»[3].

---

(١) شاعرات العرب صـ ١٠٤ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ ١٢٢،
(٢) معزة الحبلق: غنم صغار لا تكبر.
(٣) الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ ١١٢.

جـ - الاتجاه السياسى فى الهجاء عند المرأة:

يعد هذا الاتجاه معلماً بارزاً فى مجال الهجاء فى شعر المرأة العربية حين تعمد إلى هجاء الولاة، فلئن كانت المرأة فى عصر ما قبل الإسلام توجهت بشعرها إلى قومها أ و عشيرتها هاجية ومحذرة، فإن المرأة فى الإسلام الذى منحها حرية التعبير وحق المشاركة فى اختيار الحاكم؟ ولذا كان من النساء من شارك عليا موقفه ضد معاوية فى يوم «صفين». ومن هؤلاء النسوة «بكارة الهلالية» التى ردد عمرو بن العاص شعرها أمام معاوية بن أبى سفيان وقد تقدم ذكر ما قالته عند الحديث عن دور المرأة فى الشعر.

«فإذا هى تعلن صراحة موقفها من البيت الحاكم دون أن تنصاع لتعاليمه، ولا أن تخضع لرهبته، بل تتمنى أن تكون منيتها وافتها قبل الحكم الأموى، ولذا عدت حكمهم من عجائب الزمن، فهم يعيبون آل البيت، وكأن الشاعرة تعلن رؤيتها السياسية للحاكم الذى اغتصب الحكم، وتسجل ولاءها للعلويين، وقد ضاعت منهم الخلافة»(١).

ومن ذلك موقف سودة بنت عمارة مع معاوية بن أبى سفيان: قال عامر الشعبى: وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية... فاستأذنت عليه فأذن لها، فلما دخلت عليه سلمت، فقال لها: كيف أنت يا ابنة الأشتر؟ قالت بخير: يا أمير المؤمنين فقال لها: أنت القائلة يوم صفين:

شمر لفعل أبيك يا بن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران

وانظر عليا والحسين ورهطه ... واقصد لهند وابنها بهوان

---

(١) المرجع السابق صـ ١٨٤.

إن الإمام أخا النبى محمد علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه قدما بأبيض صارم وسنان(١)

فقالت يا أمير المؤمنين... فدع عنك تذكار ما قد نسى...

«وكأن المرأة الشاعرة وجدت من ضرورات حياتها أن تشارك فى تلك المواقف التى غلبت عليها المسحة السياسية، فخاضت المعارك بشعرها، إلى جانب ما نهضت به شاعرات المغازى من أدوار لسانية بارزة»(٢).

ثم تزداد الصورة الهجائية ندرة فى هذا الاتجاه حين تتوجه بها الشاعرة إلى منطقة الهجاء والشكوى معاً، وبخاصة حين تعمد إلى هجاء الولاة كما ورد عن «الشلّبية الأندلسية» وقد تظلمت من والى بلدها، فكتبت إلى السلطان يعقوب المنصور، رسالة ختمتها بشعر، وألقت الرسالة يوم جمعة على مُصلى المنصور، فلما قضى الصلاة، وتصفح الرسالة بحث شكواها وأنصفها، وقد قالت فى أبيات هذه الرسالة(٣):

قد آن أن تبكى العيون الأبيه ولقد أرى أن الحجارة باكيه
يا قاصد المصر الذى يرجى به إن قدر الرحمن رفع كراهيه
ناد الأمير إذا وقفت ببابه يا راعيا إن الرعية فانيه
أرسلتها هملا ولا مرعى لها وتركتها نهب السباع العاديه
شلب كلا شلب وكانت جنة فأعادها الطاعوت نارا حاميه
عاثوا وما خافوا عقوبة ربهم والله لا تخفى عليه خافيه

(١) جواهر الأدب جـ١ صـ ٤٢٩ لأحمد الهاشمى مؤسسة المعارف بيروت لبنان.
(٢) الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ ٦٦.
(٣) نفح الطيب ٤/٢٩٤.

وهو هجاء سياسى من طراز نادر جداً فى شعر النساء، بل هو نادر فى شعر الشعراء الرجال، فإذا الشاعرة تشكو أمرها وأمر الرعية، وإذا هى تبدو هاجية نظام الحكم حين يترك الرعية هملا نهباً للولاة، فكأنما تضرب الحاكم والوالى معاً فى مقتل بمثل هذا الشعر القوى النادر الصريح(١).

وتكشف هذه الاتجاهات السابقة التى صبت فيها المرأة الشاعرة تجربتها الهجائية، عن عمق هذه التجربة فى نفسها التى تلتقى فيها مع الشاعر، وقد تتفوق عليه فى أحيان أخرى، كما فى هجائها الشخصى الذى يحمل طابع السخرية والفحش والبذاءة والمجون، وفى هجائها القبلى الذى يغلب عليه طابع التهكم، وهجائها السياسى تبدو فيه هاجية نظام الحكم حين يترك الراعى الرعية هملاً ونهباً للولاة.

رابعاً: سمات الهجاء فى شعر المرأة

لعل طبيعة الفروق بين الرجل والمرأة تسهم فى الكشف عن السمات الفنية لشعر الهجاء عند المرأة، فالمرأة أكثر حساسية وتأثراً بالظواهر الطبيعية، ويجذب انتباهها حادث ما أكثر من فكرة.

وعاطفة المرأة جياشة، لكنها منقطعة قصيرة الأنفاس، لأن المرأة ملك غريزتها. أما عاطفة الرجل فهى أعمق وأطول أثراً وأقل ظهوراً، لأن الرجل ملك عقله.

هذا ما تؤكده الدراسات والبحوث العلمية أن تركيب المرأة مختلف عن تركيب الرجل من جميع النواحى التشريحية والعقلية والنفسية كما وضح ذلك القرآن الكريم «وليس الذكر كالأنثى»(٢) وقد جاء كثير من

---

(١) الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ ١١٢ .
(٢) آل عمران من الآية رقم ٣٦.

الباحثين حتى النصارى منهم فى السنوات الأخيرة، فاستطاعوا عن طريق العلم أن يؤكدوا هذه الحقيقة التى قال بها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً، والتى لا سبيل إلى تجاوزها أو إنكارها وفى مقدمتهم الدكتور الكسيسى كارليل صاحب كتاب «الإنسان ذلك المجهول»[1] لقد أثبتت الأبحاث العلمية المتقدمة أن أساس الاختلافات الكبيرة بين الرجل والمرأة يكمن فى الدماغ... يقول الدكتور مارك جورج «إخصائى الأمراض» العقلية والعصبية فى الجامعة الطبية بولاية كارولينا الجنوبية: إن نشاط الأعصاب عند المرأة يتوزع على الدماغ بأكمله فى كل ما تقوم به من أعمال حتى مجرد تحريكها لأصابعها[2].

وتقول الدكتورة مى خليف: «من الطبيعى أن تتميز التجارب النسائية لدى الشاعرات عن نظائرها لدى الشعراء بحكم الطبيعة النوعية للمرأة وأسلوب تعاملها مع الظروف التى تعيشها، الأمر الذى ينعكس بالضرورة على إبداعها الشعرى من خلال ما نراه لديها من طبيعة العاطفة التى تعبر عنها، ثم طبيعة الثقافة التى تعكسها، ثم أسلوب التعبير عن تلك العاطفة من خلال الأدوات الفنية المختلفة التى تقوم عليها القصيدة على أن الحديث عن طبيعة عاطفة المرأة يدعو إلى التوسع فى فهمها، ورصد انعكاساتها فيما تنظمه فى كل موضوعات شعرها. ومن هذه السمات التى تميزت بها تجربة الهجاء فى شعر المرأة.

١ ـ الأسلوب:

يمتاز أسلوب الشعر الذى أودعته المرأة فى تجربتها الهجائية

---

(١) العودة إلى المنابع صـ ١٩٠ أنور الجندى دار الاعتصام.

(٢) المرأة هل هى حقاً أذكى من الرجل مجلة البنات صـ ٤٩ العدد السادس عشر السنة الثانية إصدار الرئاسة العامة لتعليم البنات ـ بالسعودية.

(٣) الشعر النسائى فى أدبنا القديم.

بالبساطة التى لا أثر فيها للتكلف، وقد يحمل فى طياته الإسفاف والهبوط إلى مستوى النكتة السوقية، كما فى قول نزهون الغرناطية فى رجل قبيح أراد خطبتها فقالت له[1]:

عـــذيرى من عـــاشق أنوك ... ســـفـــيـــه الإشـــارة والمنزع

يروم الوصـــال بما قـــد أتى ... يروم به الصـــفع لم يصـــفع

برأس فـــقـــيـــر إلى كـــيـــة ... ووجـــه فـــقـــيـــر إلى برقع

«والهجاء لا يرزق الذيوع إلا إذا كان فى أسلوب لاذع يعتمد على الذكاء والفطنة، فهو لا يؤدى فكرته أداء مباشراً صريحاً، ولكنه يشير إليها فى حذق، ويلمح إليها فى لباقة ويسخر من فريسته مداعباً»[2].

«ومن هذا الأسلوب اللاذع الذى يعتمد على الذكاء والفطنة قدر مشترك بين الشاعر والشاعرة، بل قد تتفوق المرأة الشاعرة على الشاعر فى سخريتها من فريستها، ومن ذلك قول ولادة بنت المستكفى بالله فى هجائها لابن زيدون، بعد ما دب الخلاف بينها وتمت المقاطعة»[3].

ولقـــيت المســـدس وهو نعت ... تفـــارق الحـــيـــاة ولا يفـــارق

فـلوطـى ومـــــأبون وزان ... وديوث وقـــــرنـان وســـــارق

وتقول فيه أيضاً:

إن ابن زيدون على فـــضله ... يعـــشق قـــضـــبـــان الســـراويل

لو أبصـــر...[4] عـلى نـخـلـه ... صـــار من الطيـــر الأبابيل

(١) معجم الأديبات الشواعر صـ ٤٦٠.
(٢) الهجاء والهجاءون صـ ٣٤ د. محمد محمد حسين دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ ١٩٧٠.
(٣) نفح الطيب جـ٤ صـ ٢٠٥ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ ٤٨٨.
(٤) فى الأصل: كلمة قبيحة.

ويعلق الدكتور الشكعة على قول ولادة متعجباً ومستغرباً صدور مثل هذا الهجاء من رجل سوقى فضلاً عن أميرة. فيقول: «فهل هناك هجاء أفحش من هذا؟ بل إن لها فيه وفى غيره هجاء بلغ من الفحش درجة لا نكاد نصدق معها أن هذا الشعر لرجل سوقى فضلاً عن أميرة أنثى[1]».

وخروجاً من دائرة البساطة والسطحية يأتى الأسلوب الحوارى، وصيغ الحوار الشعرى مما يقرب القصيدة من المنهج القصص على طريقة أم ثواب الهمذانية وهى تهجو ابنها وزوجته فتدير بينها وبين زوجة ابنها حواراً أو تجعل ابنها طرفاً ثالثاً فتقول[2]:

قالت له عرسه يوما لتسمعنى ... مهلا فإن لنا فى أمنا أربا

ولو رأتنى فى نار مسعر ... ثم استطاعت لزادت فوقها الحطبا

٢ - الإيجاز:

شعر الهجاء عند المرأة يعتمد على اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة، وجمهوره مقطوعات قصيرة تجرى فيها الشاعرة على سجيتها، دون تدقيق فى معنى أو تنقيح فى اللفظ، أو التماس بحرٍ أو قافية، إنه يعبر عن خاطر التحم بقلبها دون معاناة أو مكابدة وترمى به فى سرعة من غير تفكير فى تنقيح ولا فى تصفية.

«وشخصية الشعر العربى ومزاجه يميلان إلى ذلك كل الميل، فالشاعر يكتفى بالبيت عن القصيدة، وبالعبارة القصيرة عن البيت، وباللفظة إن وفت بالمعنى عن العبارة، وقد أحس المتأخرون بقيمة هذه الخاصية من خصائص الشعر العربى القديم إحساساً دفعهم إلى الغلو فيها

---

(١) الأدب الأندلسى صـ ١٣٧.

(٢) معجم الأديبات الشواعر صـ ٦٠.

حتى جعلوا البيت وحدة الشعر العربى، وأن النفس السامية تميل عموماً إلى الإيجاز وتؤثره[1] وتتجاوز التجربة الهجائية عند المرأة صورة البيت إلى شعر المقطوعة، وهو كثير فى شعر المرأة، ويبدو شديد القرب من صدق التجربة، إذ لا تلجأ المرأة فيه إلا إلى تصوير التجربة فى شكلها الكامل، مهما بدا النفس الشعرى لديها قصيراً، وكشفت بواعث الهجاء عند المرأة أن تجربة الهجاء رد فعل للمواقف التى تتعرض لها الشاعرة، وقد تأخذ شكلاً هجومياً عاماً على خصوم قبيلتها ــ وهى آنذاك ـ ما زالت صادرة عن حقيقة تجربتها دون أن يحكمها منطق الإطالة، أو القصر، فهى ليست أمام منتديات القوم ولا أسواق الشعر التى تفتح مجال التبارى أمام الشعراء، ليكسب كل منهم الجولة من الآخر، ويفوز برضا جمهوره، فهى ليست فى حاجة إلى كل هذا، فإذا ما وقع عليها عدوان لسانى نهضت بالرد فى صورة مقطوعة، وإذا ما خرجت إلى القتال جعلت هجاءها لأعداء قومها.. وهى فى كل هذا تبدو أكثر خضوعاً لطبيعة الموقف وإيقاع الحدث الهجائى، فمن أنى لها أن تتروى، وتقف على القصيدة وصورها وعدد أبياتها، وتعيد النظر فيها على ما كان يصنعه صانعو الشعر من الرجال[2] ومن بين صور المقطوعات الشعرية فى الهجاء عند المرأة ما جاء عن حكاية رجل من أهل الشام كان مع الحجاج يحضر طعام الحجاج وترك امرأته فى حال سوء فكتب إليها بذلك فكتبت إليه[3]:

أيهدى لى القرطاس والخبز حاجتى وأنت على باب الأمــــيــــر بطين

---

(١) تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى صـ ٧٨ نجيب البهبيتى دار الفكر.
(٢) بتصرف الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ ١٥٣.
(٣) الأمالى جـ١ صـ ١٣٦ لأبى على القالى منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت د. ت.

إذا غبت لم تذكر صديقا ولم تقم فــأنت على مــا فى يديك ضنين
فـأنت ككلب السـوء جـوع أهله فـيــهـزل أهل البـيت وهو سـمين

وهى صورة مقذعـة فى الهجاء أملتها طبيعة الموقف وإيقاع الحدث مما جعل المرأة لا تتردد فى الرد على زوجها الذى تركها بلا طعام فى حالة سيئة، وتشبهه بهيئة كلب السوء الذى لا يعنيه إلا نفسه، ولا يشغل بأمر من حوله.

وكم هى غنية التجربة الهجائية عند المرأة فى شعر المقطوعات الذى تمليه طبيعة الموقف، وسرعة التفاعل مع الحدث؟ وكيف تكون تلك الصور التى يبدعها خيال المرأة فى هجائها اللاذع لكل من يعترض طريقها، أو يحاول أن يقترب منها، ومن ذلك قول الشاعرة «نزهون الغرناطية» «السابق فى هجاء الشاعر أبى بكر المخزومى.

وهذا الهجاء كما يقول الدكتور الشكعة: «يذكرنا بهجاء بشار فى ذكر العورات وهجاء ابن سكرة وابن الحجاج فى ذكر القاذورات(١).

وهذا اللون من الهجاء كما يقول بعض الباحثين «.. أما هجاء السباب والإفحاش، فمنزلته بين السِّفْلَة، فلا يميل إليه الشاعر إلا إذا عجز عن إصابة الغمز الذى يكمن فيه الألم من الموضع الصحيح...»(٢).

كما تفننت المرأة فى هجاء قومها ووصفهم بأوصاف تتنافى وكل ما هو من بشأن الرجال، فينال منهم ويحط من أقدارهم، ومن ذلك قول عفيرة بنت عفان أخت الأسود بن جديس تحرض قومها ضد عمليق من

---

(١) الأدب الأندلسى صـ ١٦٣.
(٢) الراعى النميرى شاعر مغمور صـ ٤٨ عبد الحليم محمد قنبس، دار الحكمة للطباعة والنشر دمشق ١٩٨٢م.

طسم، وكان ظالماً وأمر ألا تُزَوج بكر من جديس وتهدى إلى زوجها حتى يفترعها.. فلما دخلت عليه افترعها.. فخرج إلى قومها فى دمائها شاقة درعها من قبل ومن دبر والدم يسيل، وهى فى أقبح منظر فقالت(١):

أيجمل ما يؤتى إلى فتياتكم ... وأنتم رجال فيكم عدد النمل
وتصبح تمشى فى الدماء عفيرة ... عشية زفت فى النساء إلى بعل
ولو أننا كنا رجالا وكنتم ... نساء لكنا لا نقر بذا الفعل
فموتوا كراما أو أميتوا عدوكم ... ودبوا لنار الحرب بالحطب الجزل

ثم تقول:

وإن لم تغضبوا بعد هذه ... فكونوا نساء لا تعاب من الكحل
ودونكم طيب العروس فإنما ... خلقتم لأثواب العروس وللنسل
فبعداً وسحقاً للذى ليس دافعا ... ويختال يمشى بيننا مشية الفحل

فلما سمع أخوها الأسود قولها، وكان سيداً مطاعاً قال لقومه يا معشر جديس إن هؤلاء القوم ليس بأعز منكم فى داركم.. فأطيعونى فيما أمركم، فإنه عز الدهر وذهاب ذل العمر وأقبلوا رأيى.وقد أحمى جديسا ما سمعوا من قولها، فقالوا: نطيعك ولكن القوم أكثر حمى وأقوى، فإنى أصنع للملك طعاماً وأدعوه وأهله إليه.. فأجابه إلى ذلك... حتى إذا أخذوا مجالسهم ومدوا أيديهم إلى الطعام أخذوا سيوفهم من تحت أقدامهم، فشدوا الأسود إلى عمليق فقتله، وكل رجل منهم على جليسة حتى أماتوهم، فلما فرغوا من الأشراف، شدوا على السفلة، فلم يدعوا أحدا منه، فقال الأسود:

(١) شاعرات العرب صـ ٢٩ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ ٤٦٧.

ذوقى ببغيك يا طسم مجللة   فقد أتيت لعمرى أعجب العجب

...... إلخ

وربما كانت قصيدة عفيرة فى هجاء قومها وبعض القصائد الأخرى على خلاف المعهود من شعر الهجاء عند المرأة الذى يغلب عليه طابع المقطعات على حين تكثر المطولات فى شعر الهجاء عند الرجال.

وهذا ما أشار إليه الدكتور الحوفى بقوله: «من سمات الهجاء فى شعر المرأة: غلبة المقطعات، قصائدهن مقطوعات، فليست لإحداهن مطولة، على حين تكثر المطولات فى شعر الرجال»(١).

٣ـ البعد عن الإسراف فى الصناعة الشعرية، لأن الهجاء قائم على التقرير والمباشرة والأداء السريع، بمناى عن الروية والخيال المجنح والتصوير الدقيق، وهذا واضح من خلال النماذج التى تعرضت لها هذه الدراسة، عبر التجربة الهجائية الصادرة عن المرأة، كرد فعل سريع للمواقف العدوانية التى تعرضت لها المرأة على المستويين الشخصى والقومى، فعلى المستوى القومى لا يزال طابع الهجوم ورد الفعل يسيطر على تجربة الهجاء عند المرأة كما فى هجائها لقومها عند قبولهم الدية وقعودهم عن الأخذ بالثائر والانتقام من عدوهم. ومن ذلك قول أم عمران ابن وقدان، وكلامها يغلب عليه الهيجان بين العرب. قيل: إنها حينما قتل بعض رجال قومها قالت تحرضهم على الأخذ بالثأر، وتوبخهم على تغافلهم عنه(٢).

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى صـ ٦٤٠.

(٢) الحماسة شرح المرزوقى ٣/١٥٤٦.

إن أنتـمـوا لم تطلبـوا بأخـيكم فـذروا السـلاح ووحـشـوا بـالأبرق

وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نقب النسـاء فـبـئـس رهط المرهق

ألهـاكم أن تطلبـوا بأخـيكم أكل الخـزير ولعق أجـرد أمـحق(١)

فهم إن لم يثأروا، حق عليهم أن يلقوا السلاح، ويمضوا على وجوههم إلى مكان بعيد بالأبرق، فيتزيوا بزى النساء، ويتعطروا ويتزينوا بزينتهن، وأشغلهم الطعام وملء البطون عن الثأر لأخيها.

ولم تزهد المرأة فى هجائها، عن الصناعة الشعرية، فهناك من النماذج الهجائية عند المرأة ما يحفل بهذه الصناعة الشعرية، ومن ذلك قول امرأة تذم زوجها فتقول(٢):

من عذيرى من بعل سوء يرانى وأراه بأعين البـغـضـاء

تتهـادى منا الضمـائر وحيـا بقلى يسـتكن فى الأحـشـاء

غاض مكنون ما عليه اجتوينا فى قلوب إلى الفـراق ظمـاء

نتنائى حـديث أثر وعين بـائـن أنسـه عـن الأهـواء

فكلانا على أس البـغض مـبـد كـاذب الود من لسـان رياء

رجل لو تخـيـر اللؤم مـا كـان أورائـدا ولـى الـلـواء

ملئ عين من الفـواحش كـا سى الوجه من سوءة سليب حياء

يال قـومى داء عـيـاء فـأنى لى اقـتـدار بحـمل داء عـيـاء

ليت لى حـيـة ببـعلى صمـاء وأحـسـب بالحـيـة الصـمـاء

إن بدت كـان دونهـا لى حـجـاب من حـفـيف الغـراق أومن رقـاء

---

(١) الأبرق: مكان بعيد، المجاسد: جمع مجسد وهو الثوب المشبع صبغة. والنقب: جمع نقبة، وهى إزار المرأة.

(٢) شاعرات العرب صـ ٢٠٥.

أين أين الحمام أين لقد أحرزه منه اليوم واقى القضاء[1]

وفى هذه القصيدة التى تخطت حدود المقطوعة تجد فيها روعة التصوير ودقة التعبير تحت وطأة الشكوى والشعور بالضعف وتتوجه إلى من يأخذ بيدها ويخلصها بقولها: من عذيرى؟ مسترحمة من ينقذها من هذا الزوج السوء، مصورة فى إيحاء دقيق شدة البغض والكراهية التى يضمرها كل واحد منهما للآخر، ومبلغ انقطاع وشائج المودة بينهما التى لا سبيل إلى وصلها وإن بدا شىء من هذه المودة فى حديثهما، فهذا على سبيل الرياء.

وتجمع فى هذه القصيدة بين الشكوى والهجاء فتهجو زوجها بأنه رجل لؤم حامل لواء اللؤم ورائده، وأنه لا يرعى الحرمات، فعيناه ملأى من الاطلاع على الفواحش ووجهه سليب الحياء وأنه داء عياء تستغيث لإنقاذها منه ولا طاقة لها بحمل هذا الداء وتتمنى حية صماء بدلاً من هذا الزوج، لأن الحية الصماء يمكن الوقاية منها، ولكن هذا الزوج لا يمكنها التخلص من أذاه، وتتساءل فى استبطاء نزول الموت بقولها: أين أين الحمام أين؟

والشاعرة وظفت اللغة فى رسم الصور الفنية فى هذه القصيدة باقتران الهجاء بالشكوى مع بداية القصيدة بقولها: من عزيرى من بعل سوء تراه ويراها بأعين بغضاء؟ وتتهادى بنا الضمائر، وحيا بقلى يستكن فى الأحشاء، غاض، مكنون، فزاق وظماء آسى البغض، كاذب الود، ملئ عين من الفواحش، كاسى الوجه من سوءة ــ سليب الحياء. وتعاونت عناصر الصورة فى التأثير، من الحركة والصوت، والسمع والبصر فى رسم هذه اللوحات الفنية، إنها صور ناطقة بكل بلاغة وبيان، وهذه هى وظيفة

---

(١) تناثى القوم قبائهم: تذاكروها. الغراق: أصل نبات أوشئ يتكون فى الأشجار المسمومة، ترياق السموم.

الصورة الفنية فى توضيح الأفكار وجلائها جلاء يصل إلى التجسيم والتشخيص.

وأكثر ما تكون الصور الشعرية فى تجربة الهجاء فى شعر المرأة فى منطقة التشبيه بمستوياته المختلفة، ومن تلك الصور التى تجسد فيها المرأة الهاجية بأسها الشديد من استعطاف قلب زوجها وكسب وده واستمالة هواه حيث يقول:

ما زالت فى استعطاف قلبك بالهوى　　　كالمرتجى مطرا بغير سحاب

وفى هجاء المرأة ضرتها وتشبيها بالغول بقولها:

بدل منـــى أخبث البديل

هوجاء مقاء كشبه الغول

وإلى جانب التشبيه نجد التوظيف الاستعارى للصورة الذى يدور بين تجسيد المجردات أو تشخيص المجسدات كما فى قولها فى هجاء زوجها:

غاض مكنون ما عليه اجتوينا　　　فى قلوب إلى الفراق ظماء

بالإضافة إلى ما نجده فى شعر المرأة الهاجية من كنايات ورموز وإشارات كأن تكنى الشاعرة الهاجية عن هزال زوجها وضعفه بقولها:

قصير قبال النعل يضحى وهمه　　　قريب ويسمى حيث يعشيه نارها

وهذه الصور التى جاءت فى شعر الهجاء عند المرأة، بمثابة كشف فنى عميق عن القدرة الخيالية التى تنطلق فيها المرأة الشاعرة فى لغة مجازية، تتجاوز الحقائق المجردة واللغة التقريرية المباشرة إلى هذه الأعماق التصويرية.

٤ ــ الحوار الشعرى:

من السمات التى تميز بها شعر الهجاء عند المرأة مقدرتها على المحاورة. لقد اتخذت المرأة الحوار الشعرى وسيلة لإظهار براعتها فى

الإبداع والتذوق معاً، حيث إن الشاعرة لا ترد إلا بعد درجة من الفهم الدقيق لما تتلقاه من شعر من يهجونها من شعراء وشاعرات.

والحوار تعبير تلقائى عند ذوق الشاعرة، فيما هى بصدد نظمه وتصويره فى أبياتها.

وقد تكرر صيغ الحوار الشعرى فى عالم المرأة، حتى تمثل ظاهرة كثيرة الشيوع فى إبداعها(1) وفى التجربة الهجائية يتجلى الحوار الشعرى، ويأخذ ضروباً متنوعة من التبارى والإطالة وحتى التحدى بين الشاعرة ومن يتحاور معها، وقد يكون الطرف الثانى زوجها ـ ومن صور هذه الحوارات ما دار بين الشاعرة حميدة بنت النعمان بن بشير وزوجها روح ابن زنباع ـ كانت إذا تزوجت برجل ورأت فيه عيباً تهجوه بالشعر، حتى ضاقت من لسانها العرب ـ وعليه كانت الطامة الكبرى، قال عمر بن شبه(2) نظر إليها يوماً تنظر إلى قومه بنى جذام، وقد اجتمعوا عنده فقالت(3):

بكى الخز من روح وأنكر جلده وعجت عجيجا من جذام المطارف

وقال العبا قد كنت لباسكم وأكسية كردية وقطائف

فقال روح:

إن يبك منا يبك ممن يهيننا وإن يهوكم يهو اللئام المقارف

واجتمعت يوماً معه بمجلس، فصارت تهزأ به وتضحك عليه، فوقعت بينهما مناظرة كان البادئ فيها هو بقوله(4):

---

(1) الشعر النسائى فى أدبنا القديم صـ ٣٥.

(2) الخبر فى الأغانى ٩/-٢٢، وبلاغات النساء صـ٩٥ وفى العقد الفريد ١٠٨/٧.

(3) شاعرات العرب صـ ١٧٤ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ ١٩٩.

(4) بلاغات النساء صـ ٩٥.

أثنى على بما علمت فـــإننى مـثن عليك لبئس حـشو المنطق

فقالت:

أثنى عليك بأن باعك ضـــيق وبأن أصلك من جـــذام ملصق

فقال: أثنى على بما علمت فإننى مـــثن عليك بمثل ريح الجـــورب

فقالت: فثناؤنا شر الثناء عليكم أســوأ وأنتن من ســلاح الثــعلب

فسكت روح عند ذلك فقالت:

وهل أنا إلا مـــهـرية عـــربيـــة سليلة أفـــراس تحللهــــا بـغل

فإن أنتحبت مهراً كريما فالبالحرا وإن يك إقـدافـا فـمـا أنجب البـغل

وقالت فيه أيضاً(١):

سميت روحا وأنت الغم قد علموا لا روح الله عن روح بن زنبـــاع

فقال روح:

لا روح الله عـــمن ليس يمنعنا مـــال رغـيـب وبعل غـيـــر ممناع

كـبـائع جـونة ثجل مـخـاصـرها دبابة شـــشنة الكفين ضـــبــاع(٢)

وهكذا تأخذ اللغة الهجائية بين الشاعرة وزوجها الشاعر بعداً غريباً على التعبير بالمشاهد الجسدية، متخذة من الحوار أداة لهجائها إلى أن يضيق الزوج بها فيدعو الله أن يبتليها بعده ببعل يلطم وجهها ويملأ حجرها قيئاً، فتزوجها بعده الفيض بن محمد بن الحكم، وكان يصيب من

(١) المرجع السابق صـ ٩٦ وانظر معجم الأديبات الشواعر صـ ٢٠٠.
(٢) فى الأغانى: جباع القصيرة وهو الأصوب .

الشراب مسكراً فيلطم وجهها ويقئ فى حجرها، فانصرفت أيضاً إلى هجائه، ولها محاورات لا تقل عن محاوراتها مع روح بن زنباع مثل قولها فى فيض(١):

ألا يا فيض كنت أراك فيضا ... فلا فيضا أصبت ولا فراتا

وقولها فيه(١):

سميت فيضا وما شيء تفيض به ... إلا سلاحك بين الباب والدار
فتلك دعوة روح الخير أعرفها ... سقى الإله صداه الأوطف السارى

وكان روح دعا عليها بذلك حين طلقته وقالت فيه(٢):

وليس فيض فياض العطاء لنا ... لكن فيضا لنا بالقئ فياض
ليث الليوث علينا باسل شرس ... وفى الحروب هيوب الصدر جياض

وتعدد الحوار وصوره فى شعر الهجاء عند المرأة تكشف عن وضوح تلك السمة التى برزت فى التجربة الهجائية فى شعر حميدة بنت النعمان طوال رحلة زواجها، فهى شاعرة وابنة شاعر، شاء حظها ألا توفق فى زواجها، فراحت تهجو زوجها الأول الذى يرد عليها هجاءها، ثم تتناول زوجها الثانى الذى يرد عليها الهجاء وتسعفها اللغة، ويساعدها معجمها الشعرى، فيمدها بصيغ الهجاء المفرطة فى تصوير ضيقها ممن تهجوه، وتستجيب لانفعالاتها الداخلية، وكأننا أمام معركة متميزة فى الحياة

---

(١) الأغانى ٩/٢٢٤ وشاعرات العرب صـ ١٧٥ وانظر معجم للأديبات الشواعر صـ٢٠١.
(٢) لمرجع السابق.
(٣) شاعرات العرب صـ ١٧٥.

الزوجية لدى المرأة حين توظف شعرها بهذه الصورة الخاصة النادرة من منطلق الحوارات الشعرية المتعددة والمتنوعة.

٥ ـ كون التجربة الهجائية وسيلة للتنفيس:

تعد التجربة الهجائية الصادرة عن المرأة الشاعرة وسيلة للتنفيس عن نفسها وإخراج كم العواطف التى تحملها كرهاً أو حقداً ضد خصومها، ممن تجعلهم مادة لهجائها الأمر الذى يرتسم فى صورة الصدق الانفعالى الذى يضفى ذاته على التجربة الهجائية.

ومن بين النماذج التى تكشف عن حالات سخط المرأة على كل ما حولها ما جاء على لسان زوجة أبى العاج الكلبى، هجاها زوجها فى شعر فأجابته(١):

شنئت الشيوخ وأبغضتهم	وذلك من بعض أفعاليه
ترى زوجة الشيخ مغبرة	وتمسى لصحبته قاليه
فلا بارك الله فى عرده(٢)	ولا فى عظام استه الباليه

وتذم امرأة اسمها أميمة زوجها، ومن شدة بغضها له، تدعو ربها أن لا يجمع بينهما يوم القيامة فى مقر واحد، فإن كان هو فى الجنة فهى تطلب أن تكون فى النار(٣).

إنى ندمت على ما كان من عجبى	وأقصر الدهر عنى أى إقصار
فليتنى يومَ قالوا أنت زوجته	أصابنى ذو ينوب سمه ضارى
يارب إن كنت فى الجنان مدخله	فاجعل أميمة رب الناس فى النار

---

(١) معجم الأديبات الشواعر صـ ٢٠٥.

(٢) عرد الناب: خرج واشتد وانتصب.

(٣) شاعرات العرب صـ ١٩٠.

عجباً! إنه لشيء عظيم الضرر يحملها على هذه الأمنية التى لا يطلبها حتى من استوجب النار.

ومن هذه الصور أيضاً: ما جاء عن امرأة يضايقها زوجها، فيضيق صدرها، فتنفس عن نفسها بهذه الأبيات(١):

يا من يلذذ نفسه بعذابى ... ويرى مقاربتى أشد عذاب
مهما يلاقى الصابرون فإنهم ... يؤتون أجرهم بغير حساب
لو كنت من أهل الوفاء وفيت لى ... إن الوفاء حلى أولى الألباب
يارحمتى لى فى يديك ورحمتى ... لى منك ياشينا من الأصحاب
يا ليتنى من قبل إذ ملكك عصمتى ... أمسيت ملكا فى يد الأعراب
هل لى إليك إساءة جازيتها ... إلا لباس حلة الآداب

وهناك العديد من النماذج الشعرية التى وردت عن المرأة الشاعرة تعبر فى هجائها عن شدة غضبها، وقد اتخذت من مواهبها الشعرية، وسيلة للخروج من الأزمة، والتعبير عن ضيقها، فإذا هى تنشر مزيداً من هذا الضيق فى صيغ من النصائح التى تدخل فى باب هجاء الزوج، فإذا هى توجه الإنذار لكل من يقترب من هذا الزوج، وكأنها توصد أمامه أبواب الزواج من أخريات فتقول(٢):

سأنذر بعدى كل بيضاء حرة ... منعمة خود كريم نجارها
قصير قبال النعل يضحى وهمه ... قريب ويمسى حيث يعشه نارها
يرى الطيب عارا أن يمس ثيابه ... أو المسك يوما إن علاه صوارها

---

(١) بلاغات النساء صـ ١٢٠.

(٢) بلاغات النساء صـ ١٠٠: ١٠١.

ولكنه من رطب الخـثـا صنانه إذا أمـرعت بالكف منه ديارها[1]

كلمة أخيرة:

ولقد عنى هذا البحث بتقصى تجربة الهجاء فى شعر المرأة، وتتبع بواعثه واتجاهاته والكشف عن ملامحه، فقد كان أداة مهمة للتعبير وسلاحاً ماضياً فى أتون صراع المرأة مع ما حولها. ولا شك فى أن فن الهجاء الذى جرى على لسان الشاعرة العربية تعبير عما فى نفسها، وهو من الفنون الشعرية التى برزت فيها شاعرية المرأة العربية. وأن شعر المرأة العربية تراث أدبى يحفل بأغراض شعرية عديدة كالغزل والمديح ووصف الطبيعة والرثاء وغيرها، فهو فى حاجة إلى مزيد من الدراسات الجادة التى تكشف عن هذا التراث وتبرزه للقارىء العربى.

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل

على جاد الحق

غزة رمضان ١٤٢٦ هـ

الرابع من أكتوبر ٢٠٠٥ م

---

(١) الصوار: وعاء المسك. خثا: البقر أو الفيل خثيا رمى ما بداخل بطنه، والاسم: الخثى والجمع أخثاء.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

١ ـ ابن الأثير: أُسد الغابة فى معرفة الصحابة، دار إحياء التراث العربى ، لبنان.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، طبع صادر بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٢ ـ ابن بكار الضبى: أخبار الوافدات من النساء على معاوية، تحقيق سكينة الشهابى، مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٣ ـ ابن جعفر (قدامة): نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجى بالقاهرة.

٤ ـ ابن حجر: الإصابة فى تمييز الصحبة، تحقيق طه الزينى، نشر مكتبة الكليات الأزهرية د. ت.

٥ ـ ابن سلام: طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، الخانجى ١٩٧٤م.

٦ ـ ابن طيفور: بلاغات النساء، دار النهضة الحديثة، بيروت ١٩٧٢م.

٧ ـ ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق مفيد قميحة، بيروت ١٩٨٦م.

٨ ـ ابن عساكر: تاريخ ابن عساكر، قسم تراجم النساء، تحقيق سكينة الشهابى، الطبعة الأولى دمشق، ١٩٨٢م .

٩ ـ ابن عمر الواقدى: فتوح الشام، طبعة الكاستليه مصر ١٩٨٢م.
١٠ ـ ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف مصر ١٩٦٦م.
١١ ـ ابن قيم الجوزية: أخبار النساء، منشورات مكتبة الحياة، بيروت د.ت.
١٢ ـ ابن هشام: السيرة النبوية، تعليق طه عبد الرؤوف، دار المنار القاهرة ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.
١٣ ـ أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، بيروت ١٩٦٠م.
١٤ ـ أبو على القالى: الأمالى، تحقيق مفيد قيمحة، بيروت ١٩٨٧م.
١٥ ـ أبو الفرج الأصبهانى: الأغانى، دار الشعب مصر.
١٦ ـ أبو محمد السراج: مصارع العشاق، دار صادر بيروت د.ت.
١٧ ـ السيوطى: المستظرف من أخبار النساء، تحقيق د. صلاح المنجد، دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٦م.
١٨ ـ المرزبانى: أشعار النساء، تحقيق سامى مكى العانى وهلال ناجى، دار الدرسالة للطباعة بغداد ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.
١٩ ـ المقرى التسلمانى: نفح الطبيب، تحقيق د. إحسان عباس، طبعة صادر ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

ثانيا : المراجع

١ ـ الأدب الأندلسى، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين بيروت الطبعة السادس ١٩٨٦م.

٢ ـ الأدب العربى فى الجاهلية وصدر الإسلام، د. إبراهيم عوضين، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

٣ ـ ابن زيدون حياته وأدبه، د. حسن جاد، المطبعة المنيرية ١٣٧٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٤ ـ التفكير النقدى عند العرب، د. عيسى العاكوب، دار الفكر المعاصر دمشق سورية ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٥ ـ تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى، د. نجيب البهبيتى، دار الفكر.

٦ ـ جواهر الأدب، جـ ١ أحمد الهاشمى، مؤسسة المعارف بيروت لبنان.

٧ ـ الدر المنثور فى أخبار ربات الخدور، زينب فواز، مطبعة بولاق ١٩١٢م.

٨ ـ دراسات نقدية فى الأدب العربى، د. عبد الله الجاد، مطبعة دار الحكمة الموصل ١٩٩٠م.

٩ ـ الراعى النميرى، عبد الحليم محمد قنيس، دار الحكمة للطباعة دمشق.

١٠ ـ شاعرات العرب فى الجاهلية والإسلام، بشير يموت، المكتبة الأهلية ١٩٣٤م.

١١ ـ الشاعرات من النساء أعلام وطوائف ـ سليم تنسير دار الكتاب العربى سوريا ١٩٨٨م.

١٢ ـ شعر الخوارج، تحقيق د. إحسان عباس.

١٣ ـ شعراء مصر وبيئاتهم عباس العقاد، كتاب الهلال لعدد ٢٥٢ سنة ١٩٧٣م.

١٤ ـ الشعر النسائى فى أدبنا القديم، د. مى خليف، دار غريب للطباعة بالقاهرة.

١٥ ـ العودة إلى المنابع، أنور الجندى، دار الاعتصام.

١٦ ـ المرأة فى الشعر الجاهلى، د. أحمد الحوفى، نهضة مصر ١٩٧٢م.

١٧ ـ المرأة فى الشعر الجاهلى، د. على الهاشمى، مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٠م.

١٨ ـ المرأة فى جاهليتها وإسلامها، عبد الله عفيفى، مكتبة الثقافة ١٩٣٢م.

١٩ ـ معجم الأديبات الشواعر، محمد الحسينى، دار الثقافة العربية دمشق الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٠ ـ نظرية الشعر فى النقد العربى القديم، د. عبد الفتاح عثمان، مكتبة الشباب.

٢١ ـ الهجاء والهجاءون فى الجاهلية، د. محمد محمد حسين، دار النهضة بيروت.

تم بحمد الله

رقم الإيداع ٦٨١٥

